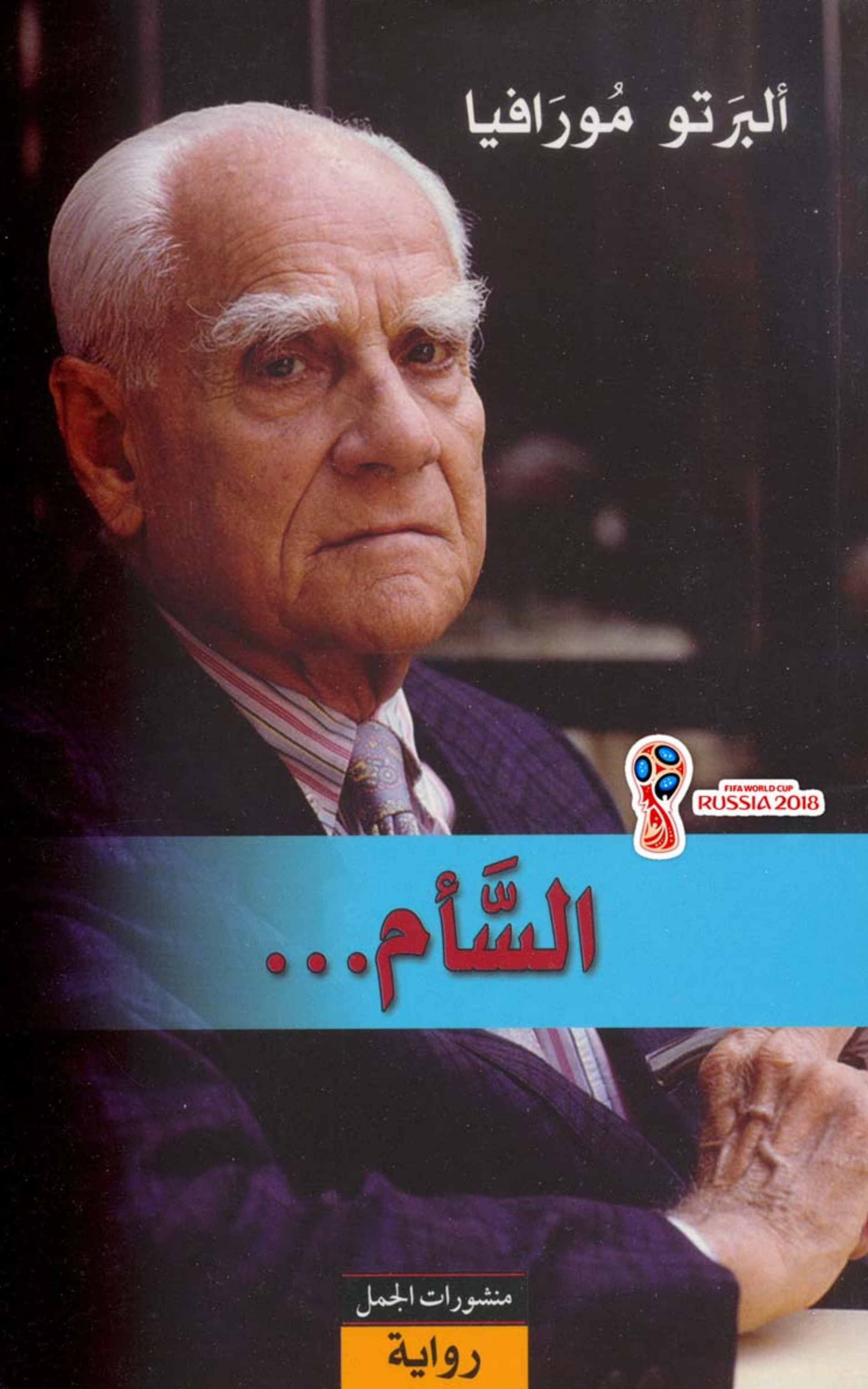

ألبَرتو مُورَافيا

السَّأم...

منشورات الجمل

رواية

ألبَرتو مُورَافيا

السّأم...

رواية

ترجمة

جورج طرابيشي

منشورات الجمل

البرَتو مُورَافيا: السَّأم...

البَرتو مُورَافيا: السّأم...،
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد الطبعة الأولى، ٢٠١٧
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

Alberto Moravia: La Noia, Milano, 1960.
©1960 - 2015 Bomiani / RCS Libri S.P.A. - Milan

©Al-Kamel Verlag 2017
Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تمهيد

أذكر جيّداً كيف انقطعتُ عن الرسم. فذات مساء، بعد أن ظللت ثماني ساعات متتالية في مرسمي، أعمل بين وقت وآخر مدّة خمس دقائق أو عشر، ثمّ أرتمي على أريكتي وأبقى متمدّداً عليها وعيناي محدّدتان في السقف، طوال ساعة أو ساعتين، رأيتني فجأة، كما لو أنّ ذلك يحدث بوحي أصبح أخيراً حقيقياً بعد تلك الجهود الكثيرة اللامجدية - رأيتني أسحق سيكارتي الأخيرة في المنفضة الممتلئة بالأعقاب المطفأة، وفأقوم بقفزة شبيهة بقفزة الهر خارج أريكتي التي كنت أظلّ غارقاً فيها، وأتناول مديةً كنت أستعملها أحياناً لأحكّ بها لوح ألواني، فأمزّق بضربات مكرّرة اللوحة التي كنت أرسمها، ولم تهدأ نفسي وتسرّ إلّا حين أحلتها إلى مِزَق. ثمّ سحبت من إحدى الزوايا لوحة بالمساحة نفسها، ورميت تلك التي مزّقتها، ووضعت الجديدة على المسند. وإذ فعلت ذلك، لاحظت مع هذا بسرعة أنّ كلّ طاقتي (كيف أصفها؟) الخلّاقة، قد استنفدت كلياً في هذه الحركة التهديمية الغاضبة، والتي هي عقلانية، إذا تعمّقناها. وكنت قد عملت في هذه اللوحة طوال الشهرين الماضيين، دون ما هدنة، وفي اندفاع؛ وكان تمزيقها بضربات سكّين يعادل في آخر الأمر أنّني أنجزتها، وربّما بطريقة سلبية إذا نظرنا إلى النتائج الخارجية التي لم أكن في الحقيقة أهتمّ بها كثيراً، ولكن بطريقة إيجابية في ما يخصّ إلهامي.

والواقع أنّ إتلاف لوحتي كان يعني أنّي بلغت خاتمة خطاب طويل كنت أوجّهه لنفسي منذ وقت لا أقدّره. كان هذا يعني أنّي

وضعت أخيراً قدمي على أرض صلبة. وهكذا فإنّ اللوحة الصافية التي كانت الآن على المسند لم تكن مجرّد لوحة ما لم تستعمل بعد، وإنّما كانت هذه اللوحة الخاصّة التي كنت قد وضعتها على المسند في أعقاب عذاب طويل.

وفكرت، وأنا ألتمس العزاء من شعور الكارثة التي كان يأخذ بخناقي، بأنّني ابتداء من هذه اللوحة التي تشبه في الظاهر كثيراً من اللوحات الأخرى، ولكنّها بالنسبة لي محمّلة بالمعاني والنتائج. كنت أستطيع الآن أن أبدأ من جديد، وبحريّة؛ كما لو أنّ هذه الأعوام العشرة من الرسم لم تمرّ، وأنّي ما زالت أملك خمسة وعشرين عاماً، هي السنّ التي غادرت فيها بيت أمي ومضيت لأعيش في مرسمي، في سارع «مارغوتا» لأكرّس نفسي للرسم، على هواي.

على أنّه كان يمكن، من جهة أخرى، بل ربّما كان مرجّحاً أنّ اللوحة العارية التي كانت قائمة الآن على المسند، إنّما كانت هناك لتسجيّل تطوّراً لا يقلّل صميمية وضرورة، بالرغم من أنّه سلبيّ إطلاقاً هو الذي قادني، بصورة تدريجية غير ملحوظة، إلى العجز الكامل. ويبدو أنّ ما يبرهن على أنّ هذا الاحتمال الثاني هو الاحتمال الحقيقي، أنّ السأم كان قد رافق، ببطء ولكن بتوكيد، عملي طوال هذه الأشهر العشرة المنصرمة، إلى أن أوقفه تماماً وأنهاه بعد ظهر ذلك اليوم الذي مزّقت فيه لوحتي: إنّ ذلك يشبه قليلاً المستودع الكسليّ لبعض الينابيع الذي ينتهي إلى سدّ أنبوب، بحيث يوقف تماماً جريان المياه.

وإنّني إذ أبلغ هذا، أفكّر بأنّه ربّما كان من المستحسن أن أقول بعض كلمات عن السأم، هذا الشعور الذي سيتفق لي أن أتحدّث عنه غالباً خلال هذه الصفحات.

فأنا أذكر، بقدر ما تسعفني ذاكرتي في الارتداد عبر السنين، أنّني

تألّمت دائماً من السأم. ولكن يجب أن نتفاهم على معنى هذه الكلمة. فهي تعني، بالنسبة لكثير من الناس، عكس التسلية، والتسلية هي الشرود، والنسيان، ولكن السأم بالنسبة لي، ليس عكس التسلية، بل يمكنني القول إنّه، في بعض مظاهره، يشبه التسلية بما يخلّفه من شرود ونسيان ينتميان طبعاً إلى فئة خاصّة جدًّا. إن السأم في نظري هو حقًّا نوعٌ من النقص أو عدم التلاؤم أو غياب حسّ الواقع. وأعمد هنا إلى تشبيه فأقول: إنّ حسّ الواقع، حين يتملّكني السأم، يحدث لديّ ما يحدثه بالنسبة للنائم غطاء قصير أكثر ممّا ينبغي، في ليلة شتوية: فإذا سحبه على قدميه، أصيب بالبرد في صدره، وإذا رفعه إلى صدره، أصيب بالبرد في قدميه؛ فهو لهذا لا يستطيع أبداً أن ينام قرير العين. أو هذا التشبيه الآخر: إنّ سأمي يشبه انقطاع المجرى الكهربائي في بيت. فكلّ شيء منير واضح، في لحظة من اللحظات، هنا الكراسي، وهناك الأرائك، وهناك الخزائن والمناضد واللوحات والبُسُط والطنافس والنوافذ والأبواب؛ وفي اللحظة التالية، لا يكون ثمّة بعد إلّا ظلام وفراغ. أو هذا التشبيه الثالث: إن بالإمكان تعريف سأمي بأنّه مرضٌ للأشياء هو عبارة عن ذبول أو فقدان للحيوية مفاجئان تقريباً؛ فالأمر كأنّما هو رؤية زهرة تتحوّل في بضع لحظات، من التفتّح إلى الذبول إلى التفتّت.

لقد ذكرت أنّ الإحساس بالسأم يولد فيّ من الشعور بعبثية واقع ناقص، أي عاجز عن إقناعي بوجوده الفعلي. فقد يتفق لي مثلاً أن أنظر إلى قدح في شيء من التنبّه. فما دمت أقول إنّ هذا القدح وعاء من البلور أو من المعدن مصنوع ليحتوي سائلاً ويُرفع إلى الشفتين من غير أن يندفق، أعني ما دمت قادراً على تمثّل هذا القدح في اقتناع، فسيبدو لي أنّ لي معه علاقةً ما، تكفي لتحملني على الاعتقاد بوجوده، ومن ثمّ على الاعتقاد بوجودي أيضاً. ولكن ليتحلّلْ هذا

القدح ويفقد كثافته بالطريقة التي أتصوّرها، أو ليمثُل لعينيّ كشيء غريب ليس لي به أيّة علاقة، وبكلمة واحدة، إذا بدا لي حاجة لا معقولة، فعند ذاك ينبع السأم من هذه اللامعقولية. وهذا السأم، هو في آخر المطاف، عدم التواصل والعجز عن الخروج منه. بيد أنّ هذا السأم لن يجعلني بدوره أتألم إلى هذا الحدّ لو لم أكن أعرف أنّني، على كوني لا علاقة لي بهذا القدح، ربّما كان باستطاعتي أن تكون لي مثل هذه العلاقة، أعني أنّ القدح موجود في جنةٍ ما مجهولة لا تكفّ الحاجات فيها لحظةً واحدة عن أن تكون حاجات. فالسأم إذن، هو بالإضافة إلى عجز الخروج من نفسي، الوعي النظري بأنّي ربّما كنت أستطيع الفرار منها، بفضل معجزة لا أدري ما هي.

وقد قلت إنّي عانيت السأم أبداً؛ وأضيف بأنّي توصّلت، منذ وقت حديث نسبياً، إلى إدراك ما هو السأم في الحقيقة إدراكاً واضحاً بما فيه الكفاية. لقد عانيت السأم في أثناء طفولتي وحداثتي وشبابي الأوّل، من غير أن أحلّل السبب، شأني في ذلك شأن أولئك الذين يشكون الصداع من غير أن يصمموا أبداً على استشارة طبيب.

وحين كنت صبيًّا خاصّة، كان السأم يتكلّف أشكالاً غامضة تماماً بالنسبة لي وللآخرين، أشكالاً كنت غير قادر على شرحها، وكان الآخرون، أمّي مثلاً، يعزونها إلى اضطرابات في الصحة أو إلى أسباب مماثلة؛ وذلك شبيه بعض الشيء بالمزاج السيئ لبعض الأطفال الذي يُعزى إلى نموّ أسنانهم. وفي تلك الأعوام، كان يحدث لي أن أكفّ فجأة عن اللعب وأبقى ساعات كاملة جامداً، كما لو أنّني خدر، وأنا في الواقع مرهق باستياء كان يوحيه لي ما أسمّيه ذبول الأشياء، أي الشعور الغامض بأنّه لم يكن ثمّة بيني وبين الأشياء أيّة علاقة. فإذا دخلت أمي الغرفة في تلك اللحظات، فرأتني أبكم جامداً وممتقعاً من الألم، وسألتني عمّا أشكوه، كنت أجيبها جواباً لا

يتغيّر: «إنّني سَئم»، شارحاً على هذا النحو، بكلمةٍ ذات معنى واضح ومحدود، حالة نفسية واسعة وغامضة.

وإذ ذاك كانت أمي تحمل تأكيدي على محمل الجدّ، فتنحني لتقبّلني، ثمّ تعدني بأنّ تصحبني إلى السينما بعد الظهر، أي أنّها كانت تعرض عليّ تسليةً لم تكن عكس السأم، ولا علاجه، وكنت من ذلك على يقين تام. وفيما كنت أتظاهر بتقبّل هذا الاقتراح في فرح، لم أكن أستطيع الامتناع عن الشعور بهذا الإحساس نفسه من السأم الذي كانت أمي تسعى إلى طرده إذ تضع شفتيها على جبيني، وتحيط كتفيّ بذراعيها، كما تسعى إلى طرده بالسينما التي كان تلوّح بها أمام عيني كالسراب. والواقع أنّه لم يكن لي في تلك اللحظة أيّة علاقة بشفتيها وذراعيها والسينما. ولكن كيف كان لي أن أشرح لأمّي أنّ شعور السأم الذي أعانيه لا يمكن أن يُجفّف بأيّة طريقة؟ لقد سبق أن لاحظت أنّ السأم يثوي بصورة خاصّة في عدم التواصل. وإذ كنت عاجزاً عن التواصل مع أمّي التي كنت مفصولاً عنها كما كنت مفصولاً عن أي شيء آخر، فقد كنت محمولاً على نحو ما أن أقبل سوء التفاهم هذا، وأن أكذب عليها.

وإنّي أتجاوز كوارث السأم خلال حداثتي. وفي تلك الفترة، عُزيت النتائج، الرديئة جدًّا التي حصلت عليها في المدرسة إلى «ضعف» مزعوم، أي إلى قصور وراثي في هذه المادة أو تلك من مواد التعليم؛ وقد قبلت أنا نفسي هذا التفسير لعدم وجود تفسير آخر أصلح منه. أمّا الآن، فأنا على العكس أعرف بصورة يقينية أنّ العلامات السيئة التي كانت تنهال عليّ كالمطر في نهاية كلّ عام دراسي كانت مردودة إلى عامل واحد: السأم. والواقع أنّي كنت أشعر بدقة، في الاستياء العميق المألوف، أنّه لم تكن لي أيّة علاقة بهذا الخليط كلّه من الملوك الأثينيين والأباطرة الرومان وأنهار أميركا

الجنوبية وجبال آسيا وأشعار دانتي وفيرجيل والعمليات الجبرية والصيغ الكيميائية. إنّ هذه الكمية الهائلة من المعلومات لم تكن تعنيني، أوَ أنّها لم تكن إلّا لأقف على عبثيتها الأساسية. غير أنّي لم أكن أزهو، لا في نفسي ولا بالقرب من الآخرين، بهذا الإحساس السلبي المحض، كما ذكرت؛ بل كنت أقول لنفسي إنّه ما كان ينبغي لي أن أستشعره، وكنت أتألم من ذلك.

وأذكر أنّ هذا الألم كان قد بدأ يوحي لي الرغبة في أن أحدّده وأفسّره. ولكنّي كنت صبياً، بكلّ ادعاء الصبية وطموحهم. وكانت نتيجة ذلك مشروع تاريخ عام قائم على السأم، لم أكتب منه إلّا الصفحات الأولى. وكان التاريخ العام القائم على السأم ينطلق من فكرة بسيطة جدًّا: هي أنّ نشاط التاريخ لم يكن قائماً لا على التقدّم، ولا على التطوّر البيولوجي، ولا على العامل الاقتصادي، ولا على أي عامل آخر يورده عادة مؤرخو مختلف المدارس. وإنّما هو قائم على السأم. وقد تحمّست جدًّا لهذا الاكتشاف الرائع، فتناولت الأشياء من جذورها. وإذن، فإنّ السأم كان في البدء. وكان يدعى بابتذال «الفوضى». لقد سئم الرب فخلق الأرض والسماء والماء والحيوان والنبات، ثمّ خلق آدم وحواء؛ وسئم هذان بدورهما في الجنة فأكلا الثمرة المحرّمة. وقد أسأما الرب فطردهما من جنّة عدن؛ وسئم قايين من هابيل فقتله؛ وسئم نوح أكثر ممّا ينبغي فاخترع الخمر؛ وعاد الرب فسئم من الناس فهدم العالم بالطوفان؛ ولكن هذه الكارثة قد أسأمته أيضاً إلى حد أنّه أمر الطقس الجميل فعاد. وهكذا دواليك. ومن السأم كانت تنبثق الإمبراطوريات الكبرى المصرية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية، ثمّ تنهار في السأم، وكان سأم الجاهلية يخلّف المسيحية؛ وسأم الكاثوليكية يخلّف البروتستانتينية، وسأم أوروبا يحمل على اكتشاف أميركا، وكان سأم

الإقطاعية يؤدّي إلى الثورة الفرنسية وسأم الثورة الرأسمالية إلى الثورة الروسية. وهذه الاكتشافات الجميلة كلّها سُجلت على لوح صغير. ثمّ بدأتُ بحماس كبير أكتب التاريخ بشكل جيّد لائق. ولا أظن، كما أذكر، أنّي ذهبت إلى أبعد من الوصف المفصّل للسأم القاسي الذي كان يعانيه آدم وحواء في جنة عدن، والطريقة التي ارتكبا بها الإثم المميت، بسبب هذا السأم بالذات. ثمّ إنّني سئمت أنا من مشروعي فتخليت عنه.

والواقع أنّي عانيت السأم، بين العاشرة والعشرين من عمرين، كما لم أعانِهِ في أيّة فترة من فترات حياتي. لقد ولدت عام ١٩٢٠، وهذا يعني أنّ حداثتي مرّت تحت علامة الفاشي السوداء، أي العهد السياسي الذي جعل من عدم التواصل نظاماً، ليس بين الدكتاتور والجموع فقط، بل بين المواطنين أنفسهم، كما بينهم وبين الدكتاتور. والسأم الذي هو غياب العلاقات بين الأشياء قد ملأ، في عهد الفاشية، حتّى الهواء الذي كنّا نتنفّسه؛ وإلى هذا السأم الاجتماعي يجب أن نضيف سأم الحاجة الجنسية المعتمة التي كانت تحرم عليّ، كما يتفق للمرء في هذه السن، جميع الاتصالات مع هاتيك النساء اللواتي كان المفروض أن يفرّجن عنها، كما كنت أعتقد. ولكن السأم أنقذني من الحرب الأهلية التي اكتسحت بعد ذلك بقليل إيطاليا لمدّة عامين، وبهذه الطريقة بالذات وجدتني تحت السلاح في فرقة متمركزة في روما؛ وما إن أعلنت الهدنة حتى تحلّلت من ثوبي العسكري، وعدت إلى بيتي. ثمّ صدر مرسوم يأمر جميع العسكريين بأن يعودوا إلى صفوفهم تحت طائلة الموت. ونصحتني أمّي، بما كانت تكنّ من احترام للسلطة التي كانت في تلك الفترة تميّز الفاشيين والألمان، أن أعود إلى ارتداء ثوبي العسكري وأن أمثل أمام قيادة المنطقة. كانت تريد سلامتي؛ ولكنّها في الواقع كانت تدفعني إلى النفي، وربّما إلى

الموت، كما كانت الحالة بالنسبة لكثير من رفاق السلاح. إنّه السأم، السأم وحده، أعني استحالة إقامة علاقة ما بيني وبين هذا المرسوم، بيني وبين الثوب العسكري، وبيني وبين الفاشيين، السأم الذي عانيت منه طوال عشرين عاماً هو الذي أنقذني، هذا السأم الذي كان في ذلك الوقت يجعل إمبراطورية «الفاشيو» الكبير والصليب المعقوف في حكم المعدوم تماماً.

وبالرغم من ابتهالات أمّي، التجأت إلى الريف، ونزلت مقصورة صديق، وقضيت هناك كلّ فترة الحرب الأهلية، منشغلاً بالرسم الذي هو طريقه لقضاء الوقت، كأيّة طريقة أخرى. وعندئذ أصبحت رسّاماً، أقصد أنّي أمّلت أن أعقد من جديد، وإلى الأبد، بواسطة التعبير الفنّي، علاقتي مع الواقع. بل قد اقتنعت، في العزاء الأوّل الذي أصبته من حماستي للرسم، بأنّ سأمي لم يكن حتّى ذلك الحين إلّا سأم فنان كان يجهل نفسه. وكنت على خطأ؛ ولكنّي توهّمت فترةً من الزمن أنّي قد وجدت العلاج.

وفي نهاية الحرب عدت إلى أمي التي كانت قد اشترت في تلك الأثناء مقصورة كبيرة على جادة «ابيان». وقد سبق أن ذكرت أنّي كنت أؤمل أن يقضي الرسم نهائياً على السأم؛ ولكنّي لم ألبث طويلاً حتّى لاحظت أنّ ذلك لم يكن صحيحاً. وهكذا عدت أعاني من السأم بالرغم من رسمي. بل لقد استشعرت كثافة دأبي القديم ودوامه، إذ كأن السأم يقطع آلياً رسمي، بأوضح ممّا كنت أشعر به إذ أرسم. وهكذا بدا لي شكل السأم غير متغيّر، وإذ ذاك أخذت أبحث عمّا عساها تكون الدوافع، فانتهيت، وقد عمدت إلى طريقة الحذف والإسقاط، إلى أنّني ربّما كنت أسأم لأنّني كنت غنياً، وأنّني لو كنت فقيراً، لكان سأمي أقل. ولم تكن هذه الفكرة في ذهني على مثل هذا الوضوح الآن، وأنا أسطرها على الورق. ولقد كانت القضية أكثر من

قضية فكرة، إنّها شك ووسواس متملّك بأنّ صلةً لا ريب فيها، على غموضها، لا بدّ أن تكون قائمة بين السأم والمال.

ولست أريد أن أطيل الحديث أكثر من ذلك عن تلك الفترة المزعجة من حياتي بصورة خاصّة. ولمّا كنت أعاني السأم (ولم أكن أرسم إذ أكون سئماً) فقد أخذت أزدري بكلّ قواي مقصورة أمّي وما كنت أتمتع به من ملذات فيها. وكنت أعزو لهذه المقصورة سأمي واستحالة الرسم المترتبة على ذلك، وتمنّيت بحرارة أن أهجر المقصورة ولكن لمّا كانت القضية، كما ذكرت، قضية شك ووسواس، فلم أكن أستطيع أن أقول لأمّي بوضوح الشيء الوحيد الذي كان ينبغي لي أن أقوله لها: وهو أنّي لا أريد أن أعيش معك لأنّك غنية، وإنّ الغنى يسئمني، وأنّ السأم يمنعني من الرسم. بل على العكس، كنت ألتمس بالغريزة ما يجعلني شخصاً لا يطاق، بحيث أوحي على نحوٍ ما بأن أفرض ذهابي من المقصورة.

وإنّي أتمثّل تلك الأيام أيام مزاج سيئ سرمدي، وعداوةٍ عنيدة، ورفض مصرّ وكراهية تكاد تكون مرضية. إنّه لم يسبق لي أن أسأت معاملة أمّي كما أسأتها في تلك الفترة؛ وهكذا كان ينضاف إلى السأم الذي كان يخنقني إشفاقي عليها الذي لم يكن يستطيع أن يفسّر خشونتي. وكنت أعاني على الأخصّ نوعاً من الشلل في كلّ ملكاتي: فقد كان يخيّل إليّ، وأنا أبكم، جامد، منغلق، أنّي كنت مسجوناً، وأنا حيّ في نفسي، كما لو كنت في سجن خانق محكم الإغلاق.

وقد كان مقدّراً لمكوثي في المقصورة ولحالتي النفسية المترتبة عليه أن يمتدّا أطول من ذلك لو لم تحسب أمّي أنّها تكتشف في سأمي شعوراً مماثلاً للشعور الذي هدم علاقاتها بأبي. وهذه مناسبة للحديث عنه أيضاً، ولو بصورة عابرة، لأنّه كان قد سبقني على درب السأم.

أجل، كان أبي متشرّداً منذ وُلد، على ما استطعت أن أدرك من حياته، أعني أنّه كان أحد هؤلاء الرجال الذي يفقدون الكلام شيئاً فشيئاً، ويفقدون القابلية، ويرفضون بالإجمال أن يعيشوا (كما لا يطيق بعض الطيور أن يكون في القفص) ولكنّهم ما إن يجدوا أنفسهم، بالمقابل، على ظهر سفينة، أو في قاطرة من القطار الحديدي، حتّى يستعيدوا كلّ حيويتهم. وكان طويلاً أشقر رياضي الجسم، ذا عينين زرقاوين مثلي؛ ولكنّي لست جميلاً، بالنظر إلى أنّي صلعت في وقت مبكر، وكان لي وجه أقرب إلى أن يكون رمادياً معتماً؛ أمّا هو، فقد كان على العكس جميلاً، إذا صدّقنا تقديرات أمّي التي أرادت أن تتزوّجه بالقوّة، بالرغم من أنّه لم يكفّ عن أن يردّد لها طوال الوقت بأنّه لم يكن يحبّها، وأنّه سيهجرها في أقرب فرصة ممكنة.

وقد رأيته نادراً، بالنظر إلى أنّه كان دائم السفر، وكان شعره الأشقر قد حال، لدى لقائنا الأخير، إلى لون رمادي تقريباً، وأتلف وجهه المراهق تجعّدات دقيقة وعميقة؛ ولكنّه كان ما يزال يرتدي عقدة الرقبة اللامبالية والأثواب ذات المربّعات التي كان يرتديها في شبابه.

كان يروح ويجيء، هارباً من أمّي التي كان يسأم معها، ثمّ يعود إليها، ليتموّن على الأرجح بالمال بغية القيام بفرار جديد، لأنّه لم يكن يملك فلساً واحداً، بالرغم من أنّه نظرياً كان يهتمّ بالاستيراد والتصدير. وأخيراً لم يعد قطّ. فقد هبّت عاصفة في بحر اليابان الداخلي فقلبت سفينة كان على ظهرها مئة راكب غرقوا، وكان أبي بينهم. ماذا تراه كان يفعل في اليابان؟ أكان هناك «للاستيراد والتصدير» أم لدافع آخر: هذا ما لم أعرفه قط. وكان أبي مصاباً، على حدّ تعبير أمّي التي كانت مغرمة بالتعريفات العلمية، «بمرض الحركة». وكانت تعلّق بتفكّر: أنّه كان مديناً لهذا المرض بهوس جمع

الطوابع البريدية، تلك الوثائق الصغيرة الملوثة عن تنوّع العالم، والتي كان قد جمع منها مجموعة جميلة ما تزال أمّي تحتفظ بها، كما كان مديناً له بعلمه في الجغرافيا، المادة الوحيدة التي درسها حقًّا في المدرسة.

وكانت أمّي، على ما فهمت، تعتبر «مرض الحركة» لدى أبي كخاصّة فردية بحت، لا معنى لها في الحقيقة؛ أمّا أنا فلم يكن يسعني، على العكس، إلّا أن أستشعر نوعاً من الشفقة الأخوية إزاء هذا الوجه المؤثّر الذابل، الذي كان يزداد امتقاعاً مع الزمن، والذي كنت أحسب أنّي أتعرّف فيه على بعض ملامح مشتركة معي، في ما يخصّ علاقاته بأمّي على الأقل. ولكّها كانت ملامح خارجية، وكنت أدرك ذلك وأنا أفكر في الأمر. صحيح أنّ أبي كان هو أيضاً قد عانى السأم، ولكن هذه المعاناة لديه كانت قد انحلّت إلى تشرّد سعيد عبر العالم؛ وبعبارة أخرى، كان سأمه السأم المبتذل، كما يفهم عادةً، الذي لا يطلب شيئاً آخر غير أن يفرّج عنه بأحاسيس جديدة نادرة. والواقع أنّ أبي كان قد آمن بالعالم، على الأقل بعالم الجغرافيا، بينما لم أكن أنا أنجح في الإيمان بقدح.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أمّي لم تكن تنظر إلى الأمر عن مثل هذا القرب. وحسبت أنّها ترى في سأمي الضجر السطحي الذي كان قد جعل علاقتها بأبي شاقّة. وقد قالت لي يوماً، بصورة مفاجئة:

- من سوء الحظ أنّك تشبه أباك أكثر مما تشبهني. وأنا أعرف أنّ العلاج الوحيد، حين تعاني ذلك، هو أن أرسلك إلى البعيد. فاذهب إذن إلى حيث يروق لك، وعُدْ إليّ حين يزاولك هذا.

وما لبثت أن أجيب في سلوى بأنّي لم أكن أنوي الذهاب؛ فإنّ السفر لم يكن يهمني على الإطلاق. كلّ ما كنت أبغيه أن أغادر البيت، وأن أقيم وحدي لحسابي الخاص. فاعترضت أمّي بأنّه من غير

المعقول أن أذهب لأعيش وحدي، بينما كان بإمكاني أن أتمتع بمقصورة كبيرة كتلك التي كنّا نسكن فيها، والتي كنت أفعل فيها، بالإضافة إلى ذلك، كلّ ما كنت أريد. ولكنّي كنت قد عزمت على انتهاز الفرصة، فأجبت في عنف بأنّي سأغادر البيت في اليوم التالي، وأنّي لن أبقى فيه ساعة أخرى. وأدركت أمّي آنذاك بأنّ الأمر كان جدًّا، فاكتفت بالترديد، في مرارة مليئة بالتجربة، بأنّها تجد حتّى في جوابي لهجة أبي: فلأفعل إذن ما بدا لي، ولأذهب فأسكن حيث أشاء.

تبقى قضية المال. لقد كنّا أغنياء، كما سبق أن ذكرت، وكنت قد تصرّفت حتّى ذلك الحين برصيد غير محدود، إذا صحّ التعبير؛ وكنت أغرف من حساب أمّي في المصرف كلّما كنت بحاجة إلى ذلك. وتنبّأت أمّي بأنّها ستعيد معي التجربة التي قامت بها مع أبي الذي كانت تعطيه دائماً من المال ما يكفي لذهابه، ولكن ما لا يكفي أبداً لبقائه بعيداً عنها، فأبلغتني في خشونة أنّها بعد الآن ستدفع لي كذا في الشهر. فأجبت بأنّني لم أكن أطلب أكثر من ذلك؛ وحين أبلغتني، في شيء من الندم الحانق، المبلغ الذي كانت تنوي أن تدفعه لي، سارعت إلى القول بأنّي أكتفي بنصفه. وكانت أمّي تتوقّع مناقشة من طراز تلك التي كانت تعقدها في السابق مع أبي الذي لم يكن يملك قط مالاً كافياً، فإذا بها تدهش لزهدي غير المتوقّع، وإذا بها تصرخ، كأنّما على غير إرادة منها:

- ولكنّك لن تستطيع يا دينو أن تعيش بمثل هذا المبلغ الضئيل.

فأجبت بأنّ الأمر كان يعنيني، وحتّى لا أتظاهر بمظهر التقشّف، أضفت بأنّي كنت أؤمّل أن أتوصّل بسرعة إلى كسب معيشتي من الرسم. وخيّل إليّ أنّ أمّي كانت تنظر إليّ غير مصدّقة: وكنت أعرف أنّها لم تكن تؤمن باستعداداتي الفنيّة. وبعد بضعة أيام، وجدت مرسماً في شارع «مارغوتا» فأقمت فيه مع كلّ حوائجي.

وبالطبع لم يحمل تغيير المنزل أي تغيير في حالتي النفسية. وأنا أقصد إلى القول إنّي بعد أن زال شعور التخفّف الذي يلي كلّ تغيير، عدت إلى الشعور بالسأم، بين الفينة والفنية، كما في السابق. وقد قلت «بالطبع» لأنّه كان لا بدّ لي من أن أتنبّأ بأنّ سأمي ما كان ليستطيع أن يزول لمجرّد انتقال من بيت إلى بيت: فقد كنت، على كلّ حالٍ غنياً، لا لأنّي كنت أسكن شارع «آبيا»، ولكن لأنّه كانت تحت تصرّفي مبلغ من المال. ولم يكن يغيّر من الأمر شيئاً أنّي لم أكن أريد أن أستخدم هذا المال؛ فهناك أغنياء بخلاء لا ينفقون إلّا قسماً ضئيلاً من عائداتهم ويعيشون في تقتير؛ ولكن ليس ثمّة من يعتبرهم، لهذا السبب، فقراء. وهكذا جاء يحلّ محلّ فكرتي الأولى أو وسواسي الأوّل بأنّ سأمي وعقمي الفني المترتب عليه كانا مردودين إلى أنّي كنت أسكن مع أمّي، فكرةٌ أو وسواس آخر أشد خطراً: إنّ المرء لا يستطيع أن يزهد في غناه الخاص؛ فأن يكون غنيًّا يشبه أن يكون له عينان زرقاوان أو أنف أقنى؛ لقد كان تميّز دقيق يشدّ الغني إلى المال ويعطي اللون للمال إلى حد التصميم بعدم استعماله. وبالإجمال، لم أكن فقيراً سبق أن كان غنياً، وإنّما كنت غنياً يتظاهر أمام نفسه وأمام الآخرين بأنّه فقير.

وقد برهنت على صحة ذلك بالطريقة التالية: «ماذا يفعل فقير حقيقي حين لا يملك المال؟ إنّه يموت جوعاً. وما عساني أفعل في مثل هذا الوضع؟ إنّني أذهب لأطلب النجدة من أمّي، وحتّى لو لم أكن أطلب منها شيئاً، فإنّ ذلك لن يكفي لاعتباري فقيراً؛ بل سوف أعتبر، على العكس، مجنوناً».

ولكنّي سرعان ما فكّرت: «ليست حالتي بالحالة العجيبة». إنّها حالة عامّة، ما دام صحيحاً أنّي كنت أقبل أن تنفق أمّي عليّ، بالرغم من أنّها تحدّد هذا الإنفاق بالحد الضروري. وهكذا كنت أجد نفسي،

لدى المقارنة بالفقراء الحقيقيين، في الوضع الممتاز والمزيف الذي يجد فيه نفسه مقامرٌ غنيّ بإزاء مقامر فقير: يستطيع الأوّل أن يخسر إلى ما لا نهاية، أمّا الثاني فلا. ولكن الأوّل يستطيع خاصّة أن «يقامر»، أي أن يتسلّى، في حين أنّ الثاني لا يستطيع إلّا أن يلتمس الربح.

ومن الصعب التعبير عمّا كنت أحسّه وأنا أفكّر في هذه الأمور. إنّه إحساس من سحر بائس، على نحو ما، لم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً ضده، لأنّي لم أكن أستطيع أن أعرف متى وكيف حدث السحر الذي كان يفتّنني. كنت أحياناً أفكّر في عبارة الإنجيل: «إنّه لأسهل أن يدخل جمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غنيّ ملكوت السموات». وأتساءل: ماذا يعني «أن يكون المرء غنياً»؟ أيكون غنياً لأنّ تحت تصرّفه كثير من المال؟ أو لأنّه ولد في أسرة غنية؟ أو لأنّه عاش ولا يزال يعيش في مجتمع يرفع المال فوق جميع الخيرات الأخرى؟ أو لأنّه، يؤمن بالغنى إذ يتمنّى أن يصبح غنياً أو يتحسّر على أنّه كان غنياً؟ أو لأنّه، كما هي حالتي، لا يريد أن يكون غنياً؟

وبمقدار ما كنت أفكّر، كان يخيّل إليّ من الصعب أن أوضّح لنفسي شعور التميز وسبق التهيئة الذي كان يوحيه لي الغنى. إنّ هذا الشعور بالطبع ما كان ليوجد لو كنت قد نجحت في التحرّر من تملّك فكرة أنّ السأم كان يصدر عن الغنى وأنّ العقم الفني يصدر عن السأم. ولكن جميع أفكارنا، حتّى وأكثرها عقلانية، تولد من معطى غامض للعاطفة. وأن يتحرّر المرء من العواطف هو أشق من أن يتحرّر من الأفكار: فإنّ هذه تروح وتجيء، بينما العواطف تبقى.

ستعترضون عليّ الآن بأنّي لم أكن، في نهاية المطاف، إلّا رساماً فاشلاً، وهو يعي إفلاسه، وربّما كانت هذه حالة شاذة. هذا كلّ ما في الأمر. إنّ ذلك صحيح، ولكن إلى حد ما. لقد أخفقت بالتأكيد، لا لأنّي لم أكن أحسن رسم لوحات تروق الآخرين، ولكن لأنّي كنت

أشعر بأنّ لوحاتي لم تكن تتيح لي أن أعبّر عن رأيي. أقصد أنّها لم تكن تعطيني الوهم بأنّه كانت لي بالأشياء علاقة، وبالإجمال، لم تكن تحول بيني وبين أن أسأم. فالواقع أنّي لم آخذ نفسي بالرسم إلّا لأفلت من السأم. فإذا ظللت على سأمي، فما جدوى أن أرسم؟

إذا لم تخني الذاكرة، تركت مقصورة أمّي في شهر آذار ١٩٤٧؛ وبعد عشرة أعوام بقليل، كنت أمزّق بضربات سكين، كما سبق أن رويت، لوحتي الأخيرة، وأصمّم على أن أنقطع عن الرسم. وسرعان ما عاد السأم الذي كانت ممارسة الرسم حتّى ذلك الحين قد صرفته قليلاً، عاد يرهقني من جديد في عنفٍ غني معهود. وقد سبق أن لاحظت أنّ السأم هو في حقيقته انعدام العلاقات مع الأشياء؛ وفي تلك الأيام خيّل إليّ أنّه لم يكن لي علاقة حتّى مع نفسي. وهذه أمورٌ صعبة التفسير وسأكتفي لإيضاحها باستعمال استعارة: فخلال الأيام التي تبعت قراري لهجر الرسم، كنت في نظر نفسي شيئاً شبيهاً بشخص لا يُحتمل لأسباب مختلفة، يجده مسافرٌ في حافلته عند بدء رحلة طويلة. والحافلة هي من تلك الحافلات المصنوعة على الطراز القديم، من غير اتصال مع الحافلات الأخرى؛ وكان المفروض في القطار ألا يتوقف قبل نهاية الرحلة؛ وعلى هذا، فإنّ المسافر مضطرٌ إلى البقاء مع رفيقه الكريه حتّى آخر المطاف. والواقع أنّ السأم كان في هذه السنوات الأخيرة قد نحت حياتي حتّى أعماقها، ولو كان ذلك تحت مظاهر مهنتي كرسّام، ولم يدع لي شيئاً قائماً، حتّى أحسست فور هجري للرسم، أنّي كنت قد تحوّلت من غير أنْ ألاحظ، إلى نوع من الحطام المشوّه، إلى كائن مقطّع الأوصال. وكان المظهر الرئيسي للسأم، كما أشرت، هو العجز العملي عن أن أظلّ تجاه نفسي التي هي من جهة أخرى الشخص الوحيد في العالم الذي لم أكن أستطيع بحالٍ من الأحوال أن أتحلّل منه.

وإذن، فقد كان نفاد صبر عجيب يملك عليّ حياتي في تلك الفترة. لم يكن ثمّة شيء ما أفعله يروق لي أو يبدو لي جديراً بأن يُنجز؛ ومن جهة أخرى لم يكن بوسعي أن أتصوّر شيئاً يمكن أن يروق لي أو يمكن أن يشغلني بشكل دائم. وكلّ حجة باطلة كنت أعطيها لنفسي كانت صالحة لكي أخرج من مرسمي، لكي لا أبقى فيه: شراء سكاير لم تكن لي بها أدنى حاجة، شرب فنجان قهوة لم تكن لي أيّة رغبة فيه، ابتياع جريدة لم تكن قط لتهمّني، زيارة معرض للرسم لم يكن يدفعني إليه أي فضول، وهلمّ جرًّا. ومن جهة أخرى، كنت أحسّ بأنّ هذه الانشغالات لم تكن إلّا تحريفات أو تزويرات نافدة الصبر للسأم، حتّى إنّني لم أكن غالباً أمضي إلى أعماق الأشياء التي كنت أباشرها، وبدلاً من أن أشتري جريدة أو أحتسي فنجان قهوة أو أزور معرضاً، كنت أعود بعد بضع خطوات إلى المرسم الذي كنت قد غادرته منذ دقائق في كثير من العجلة. ولكن ما إن أستقرّ في المرسم، حتّى يكون السأم بانتظاري هناك طبعاً. ويعود كلّ شيء من جديد.

وقد كانت عندي مكتبة صغيرة؛ وكنت أتناول كتاباً، وأنا قارئ كبير منذ بدأت أقرأ، ولكنّي سرعان ما أترك قراءتي: روايات، دراسات، شعر، مسرح، كلّ أدب العالم، لم تكن صفحة من هذا كلّه تبلغ أن تلفت انتباهي. وأنّى لها ذلك؟ إنّ الكلمات هي رموز الأشياء، وفي فترات سأمي، لم يكن لي بالأشياء علاقات. وإذن، فقد كنت أدع كتابي يسقط، أو أنّني كنت، في حركة غضب، أقذف به إلى ركن وألجأ إلى الموسيقى. وكنت أملك «فونوغرافاً» ممتازاً، هو هدية من أمّي، مع زهاء مئة أسطوانة. ولكن منذا الذي استطاع يوماً أن يقول إنّ الموسيقى تؤثّر بأي شكل، وتجتذب إليها الأذن، قسراً إذا صحّ التعبير، حتّى بالنسبة لأشد الناس شروداً؟ إن من قال هذا، قال شيئاً غير صحيح. فالواقع أنّ أذنيّ لم تكونا ترفضان فقط أن تصغيا، بل أن

تسمعا أيضاً. ثمّ إنّ هذه الفكرة، إذ أعمد إلى اختيار أسطوانة، كانت تشلّني: ما هي الموسيقى التي يمكن سماعها في لحظات السأم؟ وكنت آنذاك أغلق الفونوغراف وأرتمي على الأريكة وآخذ في التفكير بما يمكنني أن أفعل.

وما كان يثير دهشتي خاصّة هو أنّني فيما أرغب بحرارة أن أفعل شيئاً ما، لم أكن أستطيع قط أن أفعل شيئاً. إنّ كل ما كنت أودّ أن أباشره كان يمثل أمامي ملتصقاً بنقيضه الذي لم أكن أريد أن أفعله في الوقت نفسه - كان يمثُل ملتصقاً به كأنّهما أخوان سياميان. وإذن، فقد كنت أحسّ أنّي لم أكن أريد أن أرى أحداً، ولكنّي كذلك لا أريد أن أبقى وحدي؛ لم أكن أريد أن أبقى في البيت، ولكنّي لا أريد كذلك أن أخرج؛ لم أكن أريد أن أسافر ولكنّي في الوقت نفسه لا أريد أن أستمر في العيش في روما: لم أكن أريد أن أرسم بعد، ولكنّي لا أريد كذلك أن أبقى بدون رسم؛ لم أكن أريد أن أبقى مستيقظاً، ولكنّي لم أكن أريد أن أنام؛ لم أكن أريد أن أعمل الحب، ولكنّي لا أقبل أن لا أعمله وهكذا... كنت أعاني النفور والاشمئزاز والاستفظاع.

وكنت بين فترة وفترة، بين حالات سأمي الجنونية، أتساءل عمّا إذا لم أكن أتمنى أن أموت؛ وكان هذا سؤالاً معقولاً ما دامت الحياة تسوءني إلى هذا الحد. ولكنّي كنت ألاحظ إذ ذاك في ذهول أنّي لم أكن أريد أن أموت، على الرغم من أنّ الحياة لا تروق لي. وهكذا فإنّ هذه الاحتمالات المتلاصقة التي كانت تمرّ في رأسي، كرقصة باليه مشؤومة، لم تكن لتتوقّف تجاه الاختيار الأقصى بين الحياة والموت. وكان يتفق لي أن أفكّر في الواقع بأنّي كنت أقلّ رغبةً بالموت منّي بالاستمرار في الحياة على ذلك النحو.

الفصل الأوّل

بعد أن أقمت في مرسم شارع «مارغوتا» نجحت في التغلب على النفور اللامعقول والموسوس الذي كانت توحيه لي مقصورة جادة «آبيا»، وفي إقامة علاقات منتظمة مع أمّي بما فيه الكفاية. فقد كنت أذهب لأتناول الغداء عندها مرّةً في الأسبوع، لأنّ تلك كانت فترة النهار التي كنت واثقاً أن أجدها فيها وحدها، وكنت أظل ساعة أو ساعتين وأنا أستمع إلى حديث المعتاد، الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب، حول الأمرين اللذين كانا يهمّانها: علم النبات، أي الزهور والنباتات التي كانت تزرعها في حديقتها، وشؤونها التي كانت تكرس لها نفسها منذ سن الرشد إذا أمكن القول.

والحق أنّ أمّي كانت تودّ لو أجيء لرؤيتها أكثر من ذلك، وفي أوقات أخرى. مثلاً حين كانت تستقبل أصدقاءها أو أفراد مجتمعها، ولكن بعد دعوتين رفضتهما بحزم، بدت قانعةً بندرة زياراتي. وبالطبع اختفت هذه القناعة سريعاً في المناسبة الأولى، وكان من عادتها أن تكلمني متحدّثة عن نفسها بلهجة الغائب، وكانت هذه دلالة على شعور حي لم تكن تستطيع إخفاءه، فتقول لي مثلاً:

– ستدرك فيما بعد أنّ أمّك ليست سيدة عادية تُزار بدافع من مجاملة أو لياقة، وأن بيتك الحقيقي هو هنا لا في شارع مارغوتا.

وذات يوم، وكان قد مضى وقت قصير على انقطاعي عن الرسم، قصدت بيت أمّي لأتناول الغداء المعتاد. والحق أنّه كان غداءً خاصًا بعض الشيء، فالواقع أنّ ذلك اليوم كان عيد ميلادي، وقد ذكّرتني به

أمّي صباح ذلك اليوم بالتلفون وهي تعبّر لي عن أمنياتها بطريقتها الاحتفالية الإدارية:

- لقد بلغت اليوم الخامسة والثلاثين، وأنا أتمنى لك أصدق أمنيات السعادة والنجاح.

وفي الوقت نفسه أبلغتني أنّ «مفاجأة» كانت تنتظرني.

وحوالي الظهر، صعدت إلى سيارتي القديمة المتهدمة، واجتزت المدينة يغمرني شعور الاستياء والنفور المألوف الذي كان يبدو وكأنّه يعم ويكبر ما اقتربت من هدفي. وانتهى بي الأمر، وقلبي يختنق بضيق ثقيل، إلى بلوغ جادة آبيا بين أشجار السر والصنوبر والخرائب الأثرية القرميدية وهي تتابع على حافتي الطريق المعشبة. وكان الممر يصعد قليلاً حتّى المقصورة التي كانت تُرى في نهايته؛ وفيما كنت أنظر إلى شجرات السرو الصغيرة المجعّدة، وإلى المقصورة الواطئة الحمراء القابعة تحت سماء مليئة بالغيوم الرمادية الشبيهة بحزم من القطن المندوف المتّسخ، أحسست في روحي بالاشمئزاز البرم الذي كان يرهقني كلّما كنت أزور أمّي، اشمئزاز من يهمّ باقتراف عمل مخالف للطبيعة، كما لو أنّي كنت إذ أصعد الممر أعود فأدخل إلى البطن الذي حملني.

وكنت أجهد لإزالة شعور النفور هذا بإطلاق زمور سيارتي في جنون لأعلن عن مقدمي. وبعد أن استدرت نصف استدارة على الحصى، أوقفت سيارتي أمام البيت وقفزت إلى الأرض. وما لبث الطابق الأسفل أن فُتح وبرزت على عتبته فرّاشة.

ولم يكن قد سبق لي أن رأيتها قبل ذلك اليوم. وكانت أمي تصرّ على أن تكون للمقصورة خادمة لا تكاد تفي لمنزل من خمس غرف، وكانت من أجل ذلك مضطرة إلى تغيير الخادمة غالباً. وكانت تلك الفتاة طويلة ذات كشحين عريضين وصدر صلب واسع، وشعر قصير

بصورة غريبة وسيئ القص، فهو يشبه شعر المساجين أو الناقهين، وكان على وجهها الممتقع المرقّش تعبيرُ مداورة ربّما كانت تعكسه نظارتها المؤطرة بإطار أسود يخفي عينيها. ولاحظت خصوصاً فمها الشبيه بزهرة مسحوقة. أو وردة غرنوقية دقيقة. وسألتها أين أمّي، وبدورها سألتني بصوت رقيق جدًّا:

- أنت السنيور دينو؟

- نعم.

- إنّ السنيورة في الحديقة، من جهة المدافئ.

فسرت في هذا الاتجاه وأنا ألقي نظرة اندهاش إلى سيارة كانت بالقرب من سيارتي. سيارة «سبور» واطئة وصلبة، بلا سقف، ذات لون معدني أزرق. وإذن، فإنّ أمّي قد دعت أحداً للغداء. وفيما أنا أقلّب في ذهني هذا الاتفاق السيئ، استدرت حول المقصورة، على طول الرصيف القرميدي، في ظل الحور والسنديان الأخضر، وخرجت من الجهة المقابلة. وهناك تنبسط حديقة واسعة على الطراز الإيطالي مزينة بمصاطب في شكل مثلثات ومربعات ودوائر، بأشجار مقصوصة كروياً أو هرمياً أو على شكل خبز السكر، مع ممرات عديدة، كبيرة وصغيرة، يغطّيها الحصى ويحفّها البقس. وكان ممر مستقيم عريض تحميه خيمة حديدية مطلية بالأبيض وتنبسط حولها أغصان الكرمة، يقطع الحديقة إلى قسمين، ويمتد من المقصورة حتّى داخل الأملاك حيث كان يُرى زجاج عدّة مدافئ للنباتات ذات الزهور، مستندة إلى جدار الحاجز. وفي منتصف الطريق، بين المقصورة والمدافئ، لمحت أمّي تمشي وحدها تحت الظلّة وهي توليني ظهرها، وعدلت لحظة عن مناداتها ورحت أنظر إليها.

كانت تمشي، ببطء شديد، كما يفعل المرء حين ينظر حوله في التذاذ ويطيل تأمّله أطول مدّة ممكنة. وكانت أمّي ترتدي نوعاً من

«التايور» الأزرق الفاتح، كانت سترته ضيقة جدًّا لدى الخاصرتين وعريضة جدًّا لدى الكتفين، وكانت تنورته ضيقة جدًّا على شكل مشدّ. وكانت تلبس دائماً هذا النوع من الثياب المحكمة التي كانت تجعل شخصها القصير الخَرِع أكثر هزالاً وضيقاً، وتجعله صلباً كالدمية. وكان لها رأس ضخم فوق عنق طويلة عصبية، وشعر مجعّد ذو شقرة لا التماع لها. ولكنّه أبداً مموّج ومثنّى. وكان بوسعي أن أرى على عنقها، من بعيد، لآلئ عقدها، من فرط ضخامتها. كانت أمّي تحبّ أن تتزيّن بمجوهرات فاقعة: خواتم ثقيلة مفرطة الكثافة بالنسبة لأصابعها الهزيلة، وأساور كبيرة مزيّنة بتمائم وجواهر كانت تبدو في كلّ لحظة وكأنّها ستنزلق من معصميها المعظمين ودبابيس مُرصّعة مفرطة الغنى بالنسبة لصدرها الضيّق وحلق مفرط الضخامة بالنسبة لأذنيها القبيحتين الغضروفيتين. بل لقد لاحظت مرّة أخرى، في مزيج من الألفة والانزعاج، بأنّ الحذاء الذي كان في قديمها والمحفظة التي كان تشدّها تحت ذراعها يبدوان أكبر ممّا ينبغي. ثمّ عزمت أخيراً على مناداتا: «ماما!».

وبحذر متميّز توّقفت فجأة، كما لو أنّ أحداً وضع يده على كتفها، ثمّ أدارت قامتها ببساطة من غير أن تحرّك ساقيها. ورأيت إذ ذاك وجهها المروّس ذا الخدّين المجوّفين، والفم المنكمش، والأنف الطويل الدقيق، والعينين الزرقاوين المزججتين اللتين كانتا تنظران إليّ نظرة مواربة.

وابتسمت، واستدارت تماماً، ثمّ أقبلت للقائي، منخفضة الرأس محدّدة العينين في الأرض، وقالت لي في عبارة تأدّب:

- مرحباً ومئة يوم آخر كهذا!

وبالرغم من أنّ نيتها كانت نية ودّ وشغف، فإنّه لم يسعني إلّا أن

ألاحظ أنّ جرس صوتها كان هو نفسه، جافًا وثاقباً كأنّه صراخ طير الزاغ. وكرّرت حين وصلت إلى قربي:

- مئة يوم كهذا! هيّا قبّلني!

فانحنيت إذ ذاك ورميت قبلة سريعة على خدها. وتوجّهنا جنباً إلى جنب نحو آخر الممر. وقالت لي أمّي وهي تشير إلى العريشة التي تغطّي الظلّة:

- أتدري ما الذي كنت أتأمّله؟ عناقيد عنبي، انظر...

ورفعت عيني فرأيت أنّ العناقيد كانت تبدو شبه متآكلة وفارغة. وقالت أمّي بتلك اللهجة الغريبة الحميمة، الرقيقة والعلمية في وقت واحد، تلك اللهجة التي تتخذها وهي تتحدّث عن زهورها ونباتها:

- الحراذين... هذه الحيوانات القذرة تتسلق على أعمدة الظلّة وتأكل العنب. إنّها تفسد هذه الظلّة، لأنّ هذه العناقيد السود تترك أثراً جميلاً جدًّا مع الأوراق والأغصان الخضر؛ ولكن إذا تآكلت العناقيد ذهب الأثر.

وقلت ما لا أدريه حول سقف رسمه «زوكاري» في قصر روماني يمثّل ظلّة مذهبة مع عناقيد سود وأوراق خضر، وتابعت أمّي:

- حدث منذ أيام أن دخلت دجاجة تخصّ الفلاحين المجاورين إلى الحديقة، لا أدري كيف. وكان حرذون على الظلّة يمصّ طبعاً عنبي. واتفق أنّ فقد التوازن وسقط. تصوّر أنّه لم يبلغ الأرض: فلقد التقطته الدجاجة بمنقارها والتهمته. التهمته كلياً...

فقلت:

- يجب إذن أن تربيّ دجاجاً فيأكل الحراذين... وبطبيعة الأشياء، حين تُؤكل الحراذين، لا تستطيع أن تأكل العنب.

- رحماك! إنّ الدجاج إلى جانب كونه يأكل الحراذين، يتلف كلّ شيء حيث يذهب. فأنا أفضّل أن أحتفظ بالحراذين.

وأتممنا زيارة الحديقة، عابرين الممر تحت الظلّة حتّى جدار الحاجز، ثمّ سائرين بمحاذاة المدافئ. وكانت أمّي تارة تنحني لتأخذ في قبضة يدها بين إصبعين، برعم زهرة تفتّح في الليل، وتارة تظلّ مسحورة - وهذه هي الكلمة الملائمة - أمام وعاء من الطين تخرج منه نبتةٌ كثيفة شبيهة بأفعى خضراء مشعرة، فتتدلى حتّى الأرض وهي توهم بأنّها تكاد أن تفحّ وتنفث سمّها؛ وطوراً كانت تقدّم لي بلهجة تعليمية خشنة، كمية من المعلومات النباتية، مستمدة من قراءة دقيقة لكتب علم زراعة البساتين، وذلك من أحاديثها الطويلة مع البستانيين، شديدي الصبر لارتفاع المبلغ الذي يتقاضيانه، واللذين كانت تجشمهما صحبتها طوال الوقت الذي كانا يعملان فيه في الحديقة.

وكما قلت سابقاً، فإنّ حبّ الزهور والنبات كان الشيء الشعري الوحيد في الوجود، في رأي أمّي. صحيح أنّها كانت تحبني، على طريقتها، وأنّها كانت تولي إدارة ملكنا وتنميته حماسة وإخلاصاً لا يصدّقان. ولكنّ شخصيتها إزائي وإزاء الأعمال، كانت تفرض نفسها بسلطة نفعية وحذر، من غير وساوس. وعلى العكس من ذلك، كانت تحبّ الزهور والأشجار حبًّا موضوعياً، في استسلام كلّي، وبلا أفكار مسبقة. وعلى مألوف عادتي، جاءتني الفكرة بأنّي كنت أشابه أبي في هذه النقطة على الأقل: إنّنا لم نكن نريد أن نسكن مع أمّي. وسألتها فجأة:

- بالمناسبة، هل يمكنني أن أعرف لماذا كان أبي يذهب دائماً بعيداً عنك؟

ورأيتها تقطّب أنفها كالعادة حين تحدّثني عن أبي وتقول:

- بمناسبة أيّ شيء؟

- ليس لذلك أهمية، بل أجيبي على سؤالي.

فأجابت بعد لحظة، في رصانة باردة:

- لم يكن أبوك يسعى إلى الانفصال عنّي، كلّ ما هنالك أنّه كان يحبّ السفر. ولكن انظر إلى هذه الورود، أليست جميلة؟

فقلت بلهجة قاطعة:

- أودّ أن تكلميني عن أبي. فإذا كان صحيحاً أنه لم يكن يسعى إلى تركك، فلماذا لم تكوني تسافرين معه؟

- قبل كلّ شيء، كان ينبغي أن يظلّ أحدٌ في روما ليهتم بشؤوننا.

- تقصدين بشؤونك...

- بشؤون الأسرة. ثمّ إنّي لم أكن أحبُّ طريقته في السفر. إنّي أحب أن أسافر بطريقة مريحة، وأن أقصد الأماكن التي فيها فنادق جيّدة وأشخاص أعرفهم. مثلاً باريس، لندن، فيينا، أما هو، فلو ذهبت معه لقادني على العكس لا أدري إلى أين، الأفغانستان مثلاً أو بوليفيا... إنّني لا أستطيع أن أحتمل الإزعاجات، ولا أطيق البلدان الأجنبية الغريبة.

وألححت:

- ولكن لماذا كان بالإجمال يفرّ من البيت، أو كما تقولين، لماذا كان يسافر؟ لماذا لم يكن يبقى معك؟

- لأنّه لم يكن يحبّ أن يبقى في بيته.

- ماذا لم يكن يحبّ أن يبقى في بيته؟ أكان يسأم؟

- لم أهتمّ قط بمعرفة ذلك. كلّ ما كنت أعرفه أنّه كان يصبح حزيناً، ولا يقول شيئاً، ولا يخرج أبداً. وفي النهاية، كنت أنا التي أعطيه مالاً وأقول له: خذ، واذهب، فمن الأفضل أن تذهب.

- ألا تعتقدين أنّه لو كان يحبّك لبقي؟

فأجابت في هدوء، بصوتها المستاء الذي كان يبدو ملتذاً بقول الحقيقة:

- بكلّ تأكيد، ولكنّه لم يكن يحبّني.

- ولماذا إذن تزوّجك؟

- أنا التي أردت أن أتزوجه. أمّا هو فقد كان يفضّل أن يستغني عن ذلك...

- كان فقيراً، أليس كذلك؟ وأنت، غنية؟

- نعم. نعم. لم يكن معه شيء تقريباً. كانت من أسرة طيبة، ولكن هذا كلّ شيء.

- ألا تظنّين أنّه كان ربّما يريد أن يتزوّج زواج مصلحة؟

- أوه! كلا. إنّ أباك لم يكن رجل مصلحة. وقد كان في هذا مثلك. صحيح أنّه كان دائماً بحاجة إلى المال، ولكنّه لم يكن يعطي المال أهمية.

- أتعلمين لماذا أطرح عليك جميع هذه الأسئلة عن أبي؟

- الحق أنّي لا أفهم السبب...

- لأنّه خطر لي أنّي أشبهه، من زاوية واحدة على الأقل. فأنا أيضاً أهرب باستمرار بعيداً عنك...

فرأيتها تنحني ثمّ تقص بمقص صغير لم ألاحظه أوّل الأمر، وردةً حمراء في عناية، ثمّ انتصبت وسألتني:

- كيف حال عملك؟

ولدى هذا السؤال شعرت فجأة بحنجرتي تنقبض، وينتشر حولي شعور أسى رمادي مثلج وصادراً عنّي في تموّجات متتالية تزداد اتساعاً، كما يحدث في الطبيعة حين تقف سحابة بين الشمس والأرض. وأجبت بصوت مختنق، بالرغم منّي:

- لقد انقطعت عن الرسم...

- ماذا تعني؟

- لقد عزمت على أن أكفّ عن الرسم.

ولم يكن سبق لأمّي أن أكنّت أيّ ودّ لرسمي، لأنّها قبل كلّ

شيء، لم تكن لتفهم منه شيئاً، من غير أن تريد مع ذلك أن تقرّ الأمر أو تسمع من يتحدّث عنه؛ ثمّ إنّها كانت تعتقد، على غير خطأ، أنّ الرسم هو الذي أبعدني عنها. ولكن كان لا بدّ من أن أقدّر، مرّة أخرى، قدرتها على مراقبة نفسها. وقد كانت امرأة أخرى، في مكانها، جديرة على الأقل بإظهار بعض الرضى. أمّا هي، فقد تلقت النبأ، على العكس، في عدم اكتراث.

وسألت بعد لحظة بلهجة فضول خالص، لا مبالٍ ومحايد:

- ولماذا تراك قد عزمت على ترك الرسم؟

وكنّا قد بلغنا المقصورة، وكانت رائحة طبخ، طبخ ممتاز، تطفو في الجوّ. وكنت أشعر في الوقت نفسه بأنّ يأسي كان يتفاقم، بدلاً من أن يخفّ؛ ومع ذلك، فلم أكن أني أردّد في غضب: «... سيزول هذا... إنّه يزول» وإذ ذاك عاودت ذهني ذكرى: لقد تمثلتني طفلاً في الخامسة من عمري، وركبتي دامية، وأنا أصعد باكياً في يأس حديقة أخرى، أعدو لملاقاة أمّي وأرتمي في اندفاع بين ذراعيها؛ وتذكّرت أمّي منحنيةً عليّ تقول بصوتها القبيح:

- كفى، لا تبكِ، وأرني ركبتك، لا تبك، ألا تدري أنّ من يبلغ سن الرجولة لا يبكي؟

ونظرت إلى أمي، وللمرّة الأولى منذ وقت طويل، خيّل إليّ أنّي كنت أستشعر نحوها بعض الحبّ. وقلت مجيباً على سؤالها:

- هكذا...

وكان ذلك أوجز جواب يمكنني أن أقدّمه، لأنّي كنت خجلاً من يأسي ولم أكن أريد أن تلاحظ أمّي ذلك.

ولكنّي ما لبثت أن أدركت أنّه كان من العبث أن أقول «هكذا...» لأنّ شعور الأسى لم يزاولني بسبب ذلك؛ وقد قفّ شعري وانتابني تنمّلٌ في جلدة رأسي؛ وكان العالم كلّه حولي يبدو ذابلاً حائل

الألوان. ثمّ أقبلت نسمة خفيفة تحمل إلى منخريّ رائحة الطبخ الطيبة تلك، فشعرت بما يشبه الرغبة بأن أرتمي بين ذراعي أمّي وأنا أبكي كما حدث إذ كنت في الخامسة، يراودني الأمل نفسه بأن تعزّيني من ركبتي المجروحة. وقلت فجأة، بطريقة غير متوقعة إطلاقاً:

- بالمناسبة، لقد نسيت أن أخبرك أنّي سأترك ذلك المرسم الذي لست بعد بحاجة إليه، وأنّي سأعود لأسكن معك.

وصمتّ لحظة، مندهشاً لهذه الكلمات التي لم يكن في نيتي أن أفوه بها والتي انبثقت لا أدري من أيّة نقطة منّي. ثمّ أدركت أنّني لن أستطيع الآن أن أتراجع، فأضفت في جهد:

- شرط أن تكوني راغبةً بعدُ فيّ.

وبالرغم من الدهشة التي أغرقتني فيها عبارتي ذاتها، لم أستطع إلّا أن أقدّر للمرّة الثانية قدرة أمّي على مداراة عواطفها، هذه القدرة التي كانت تسمّيها، بلغتها الصالونية، «الشكل». لقد نطقت أمامها بالشيء الذي كانت تنتظره منذ سنوات، الشيء الوحيد الذي ربّما كان يستطيع أن يسرّها حقًّا. ومع ذلك، فإنّه لم يبد شيء على وجهها الجاف، وعينيها الزجاجيتين.

وقالت ببطء، في صوت مستاء جدًّا، يشبه اللهجة التي تُستعمل في صالون لتبادل تهنئة غير ذات أهمية على الإطلاق:

- طبعاً، ما زلت راغبةً فيك! فإنّك في هذا البيت ستُستقبل دائماً بذراعين مفتوحتين... متى تأتي؟

- هذا المساء أو غداً صباحاً.

- غداً صباحاً سيكون أفضل، فبذلك يُتاح لي الوقت أن أعمل على تهيئة غرفتك.

- إذن غداً صباحاً.

وبعد هذه الكلمات، كففنا لحظة عن تبادل أيّة كلمة. وكنت

أتساءل عمّا حدث لي، وعمّا إذا لم يكن قَدَري بعد الآن أن أظل في البيت مع أمي، وأنّ أقبل السأم، وأن أشرف على إدارة ثروتنا وأكون غنيًا. وكانت أمّي، من جهتها، تبدو الآن وقد تجاوزت مرحلة الدهشة والسرور بالنصر الذي لم يكن مؤملاً، وأخذت تُعدّ نفسها (كما يستنتج من التعبير المتأمل في وجهها القاسي الجامد) لتنظيم هذا النصر، أي لوضع خططٍ لمستقبلي ومستقبلها. وأخيراً قالت ملاحظةً بلهجة غير اعتيادية:

- لا أدري إن كنت قد فعلتَ ذلك عن قصد. وعلى أيّ حال، فإنّ الأمر ذو فأل حسن. إنّ اليوم هو عيد ميلادك وهو في الوقت نفسه اليوم الذي صمّمت فيه على العودة إلى البيت. ولقد قلت لك هذا الصباح إنّي أعددت لك مفاجأة. فهي إذن ستكون صالحة للمناسبتين معاً.

فسألتها بلا اهتمام: - أيّة مفاجأة؟

- تعال معي، فأريك إيّاها.

فقلت بخبث: - إنّنا على أي حال نحتفل اليوم بإحدى هاتين المناسبتين: عودتي إلى البيت. إنّه العيد الحقيقي اليوم.

هل لاحظت أمّي سخريتي؟ أم لم تلاحظها؟ الواضح أنّها لم تقل شيئاً. وكانت تتقدّمني وهي تدور حول المقصورة لتصل أمام المدخل. ورأيتها تتقدّم بتصميم من سيارة السبور الجميلة التي كانت بالقرب من سيارتي، ثمّ تقف وإحدى يديها على الغطاء، في وضع مشابه لوضع الشبان الذين يُصوّرون في إعلانات مصانع السيارات، وتقول:

- لقد سبق أن قلت لي يوماً إنّك تودّ لو تملك سيارة سريعة جدًا. وقد فكّرت أوّلاً أن أشتري سيارة سبق حقيقية، ولكن هذا شيء خطر، ولذلك عدلت عنها إلى هذه السيارة القابل غطاؤها للطيّ. وقد

قال لي الوكيل إنّها آخر طراز، وقد خرج منذ بضعة أشهر فقط: وهي تسير بسرعة مئتي كيلومتر في الساعة.

واقتربت ببطء، متسائلاً عمّا عساه يكون ثمن السيارة التي كانت أمّي تريد إهدائي إياها. ثلاثة ملايين لير أم أربعة؟ كانت السيارة أجنبية الصنع ذات هيكل مترف: وكنت أعرف أنّ هذا النوع يكلّف غالياً جدًّا. وكانت أمّي قد بدأت تتكلم عن السيارة باللهجة العلمية المهتمة نفسها التي كانت تتخذها لتتكلم في شيء من الحنان، عن زهور بستانها. وقالت لي وهي تشير إلى اللوحة التي كانت الأزرار المنكّلة تلمع عليها كما تلمع الجواهر فوق لوحة جواهر سوداء:

- إنّ هذا هو ما يروق لي خصوصاً. وقد كنت على استعداد لشرائها من أجل هذا وحده. ثمّ إنّ هذه السيارة تعجبني لأنّ لها صلابة زوج جميل من الأحذية المتينة المصنوعة باليد، خصيصاً للرحلات التي تقضى سيراً على الأقدام. صلابة تبعث على الاطمئنان. فهل تريد أن تجربها؟ إنّ أمامنا وقتاً كافياً لنقوم بدورة صغيرة قبل الغداء، لبضع دقائق فقط، لأنّ لدينا صنفاً من الطعام لا يستطيع أن ينتظر، وتحرص الطباخة على أن تقدره، فقد فعلته خصيصاً لك.

فتمتمت وأنا أنظر نظرة حالمة إلى السيارة:

- كما تشائين...

- نعم، جرّبها، لا سيما أنّ عليّ أن أؤكّد للوكيل شرائي لها.

فلم أقل شيئاً، وفتحت باب السيارة وصعدت. وصعدت أمّي فجلست إلى جانبي، وبينما كنت أدير المحرك وأخفض رافعة النقل، أخبرتني بلهجتها الحميمة الآمرة:

- إنّها قابلة الغطاء للطيّ. وقد أكد لي الوكيل أنّ راكبها لا يشعر في الشتاء بأي نسمة ريح. ثمّ إنّ فيها تدفئة. وفي الصيف تستطيع أن تنزل الغطاء، والجري في الهواء الطلق ألذ.

- أجل، إنّه ألذ.

- هل تحبّ هذا اللون؟ لقد بدا لي جميلًا جدًّا حتّى إنّي لم أرد أن أرى لوناً آخر. وقد قال الوكيل إنّ تعدين الدهان اللمّاع طريقة شديدة الكلفة، ولكنّها توحي بشعور الأناقة.

فقلت بشرود:

- أجل، هذا أجمل جدًّا.

- وحين يفسد دهانها تستطيع أن تجدّده.

وهدرت السيارة هديراً قوياً، كما تهدر محركات سيارات السباق، فاستدرت بها ثمّ دلفت بسرعة إلى جادة الخروج. كانت سيارة قوية وعذبة في الوقت نفسه، كما أتيح لي أن ألاحظ إذ أحسست بها تقفز تحت قدمي لدى أدنى ضغط على آلة السرعة. واجتزنا الحاجز، ولم أستطع أن أمتنع عن تذكّر شعوري الأخير إذ خُيّل إليّ، وأنا متجه إلى المقصورة، أنّي عائدٌ لأدخل مرّة ثانية إلى البطن الذي حملني...

وما كدت أجتاز الحاجز حتّى استدرت إلى اليمين وعدت أصعد جادة آبيا في اتجاه «القصور». وكان نهار السموم هذا الباهت قد كثّف فوق جبل كافو نوعاً من حلقة سوداء ممحوّة قلقةً. ومصنوعةً من سحب تنذر بالعاصفة؛ وعلى طول جادة آبيا، كان السرو والشربين والخرائب والسياجات والحقول وكلّ شيء يبدو كثيفاً بسبب الغبار وقيظ الصيف. وظلّت أمّي تثني على السيارة بطريقة لاشخصية وصالونية، كما لو أنّها كانت تكتشف شيئاً فشيئاً حسناتها.

وصعدت في جادة آبيا من غير أن أقول كلمة حتّى بلغت المفترق، فسلكت طريق الشمال، ومضيت بأقصى سرعتي حتّى «جادة آبيا الجديدة»، واستدرت حول التلغراف الب سلكت الطريق باتجاه معاكس. وسألتني أمّي إذ عدنا من جديد إلى جادة آبيا:

- ما رأيك فيها؟

- إنّها تبدو لي سيارة ممتازة من جميع النواحي. والواقع أنّي كنت أعرفها.

- ولكنّه طراز جديد، لم يكد يمضي على خروجه شهر.

- أقصد أنّي كنت أعرف سيارات من هذا الطراز.

ثمّ بلغنا الحاجز، وممرّ الشربين الذي ينتهي بالمقصورة. وقمت بنصف استدارة، وأوقفت السيارة، ثمّ شددت على فرملة اليد، وبعد أن بقيت جامداً ساكناً لحظة، التفتّ فجأة إلى أمّي وأنا أقول:

- شكراً.

- لقد اشتريتها خصوصاً لأنّها راقت لي كثيراً. ولو لم أشترها لك لاشتريتها لي.

وخيّل إليّ مع ذلك أنّها كانت ما تزال تنتظر شيئاً، إذا لاحظنا على الأقل ملامحها ذات التعبير المستاء والمتطلّب. وردّدت:

- إنّها حقًّا تعجبني كثيراً. فشكراً.

وانحنيت فلامست بشفتي خدّها الملطّخ النحيل، الجاف والخشن. وقالت، وربّما لتخفي السرور الذي خلّفته حركتي الودية:

- لقد أوصاني الوكيل بأن تقرأ، قبل أن تستعملها، الإرشادات التي تخصّ القيادة والعناية بها في هذا الكراس (وفتحت صندوقاً صغيراً في اللوحة وأومأت إلى كتيب أصفر) فالواقع إنّها آلات دقيقة وأنّ إفسادها لا يحتاج إلى شيء قليل.

- سأقرأه.

- تستطيع بهذه السيارة أن تقوم برحلات سياحة كبيرة. فحين يأتي الخريف مثلاً، اذهب إلى إسبانيا أو فرنسا.

- سوف أذهب في الربيع. أمّا في الخريف، فيستحيل عليّ ذلك.

- أجل، طبعاً في الربيع. إنّ للسيارة حامل أمتعة ممتازاً، تدخل فيه ثلاث حقائب بسهولة.

وكانت أمّي تبدو الآن راضية جدًّا، إلى حدّ أنّ قليلاً من «شكلها» قد تطامن، وأنّه كان بوسع المرء أن يرى بتمييز أنّها كانت مسرورة؟ وعبرنا الساحة فأرتني أمّي إلى اليسار ممراً طويلاً ضيقاً تكتنفه أشجار غارٍ طويلة، وكان يُلمح في جوفه بناء صغير أحمر بطابق واحد، وقالت:

مرسمك. لقد بقي كما هو. ولم يُمسّ فيه شيء. إذا شئت، فباستطاعتك أن تذهب غداً بالذات لترسم فيه.

- ولكنّي قلت لك إنّ قرّرت ألا أرسم بعد.

فلم تجب؛ وربّما كانت لم تُرِني مرسمي إلّا لتحملني على الترديد بأنّي قد عدلت حقًّا عن الرسم. وكنّا آنذاك قد وصلنا باب البيت. وتقدمتني أمّي في المدخل وقالت في صوت آمر:

- اذهب فاغسل يديك، سيكون الطعام جاهزاً بعد لحظة.

وفتحت باباً صغيراً كنت أعلم أنّه كان يفضي إلى ممر ينتهي بالمطبخ. ودفعت باباً آخر لأذهب إلى الحمام. وبين الجدران الأربعة الزرقاء، نظرت بآلية إلى المرآة التي كانت تعلو المغسلة، بينما كنت أغسل يدي بالصابون تحت صنبور ماء فاتر. وفي تلك اللحظة بالذات، شُقّ الباب خلفي ورأيت في المرآة بين فتحة الباب والعارض، رأس الفرّاشة ذا الشعر القصير المبعثر التي كانت قد استقبلتني لدى وصولي منذ حين.

وسألت من غير أن ألتفت، وأنا أنظر إليها في المرآة:

- ما اسمك؟

- ريتا.

لم يسبق لي أن رأيتك قط.

- أنا هنا منذ أسبوع.

وانحنيت ودلكت وجهي بالصابون في قوّة، بالرغم من أنّي لم تكن بي حاجة إلى ذلك قط، ولكن كان لديّ شعور بأنّي قذر من فرط الأفكار التي كانت تضيق عليّ الخناق. وبينما كنت أغسل وجهي، سمعت صوت ريتا العذب:

- لقد وضعت المنشفة هنا.

فهززت رأسي وأنا أقصد أن أبلغها بأنّي سمعت. وحين رفعت عيني لاحظت أنّ الفتاة قد ذهبت. وخرجت من غرفة الحمّام، واجتزت الممر متجهاً نحو غرفة الاستقبال، أو بالأحرى نحو غرف الاستقبال الأربع أو الخمس التي كانت تحتل الطابق الأوّل من المقصورة.

وكانت حجر الاستقبال والجلوس هذه تتواصل في ما بينها بواسطة فتحات عريضة ذات عقود أو أبواب بلا مصاريع بحيث لم تكن تشكّل إلّا قاعة كبيرة واسعة؛ وكانت مؤثثة بطريقة لا شخصية تماماً، على طراز تلك اللاشخصية الكثيفة المضجرة التي يتميز بها الأثاث الذي يُختار فحسب لارتفاع قيمته. والواقع أنّه كان يمكن للمرء أن يتأكد من أنّه يجد هناك حاجة واحدة لا يكون ثمنها أرفع ثمن في حاجات الفئة التي تنتمي إليها. ولم يكن لأمّي لا تذوق الجمال، ولا ثقافته، ولا فضوله، ولا الكلف به. وكان المقياس الوحيد لاختيارها، بالنسبة لأي شيء تشتريه، هو الثمن الذي كان، بمقدار ما يرتفع، يبعث على الافتراض بأنّ الحاجة المعروضة للبيع كانت تملك هذه المزايا من الجمال والدقة والابتكار التي ما كانت لولا ذلك جديرة بأن تميزها. بالطبع لم تكن أمي تلقي مالها من النافذة؛ بل هي على العكس كانت حكيمة جدًّا، وكنت قد سمعتها أكثر من مرّة تصيح في حانوت: «أوه كلا! إنّه أغلى ممّا ينبغي. فلا

تحدّثني عنه بعدا!» ولكنّني كنت أعلم أنّ مثل هذه الصيحة كانت ترتدّ بالأحرى إلى إمكاناتها المادية الخاصّة، لا إلى قيمة الحاجة الحقيقية التي لم تكن تفهم شيئاً فيها، والتي كانت تظلّ، بالرغم من امتناعها على ثروتها، مرغوباً فيها لارتفاع ثمنها بالذات.

وكانت نتيجة هذا المقياس الاختياري، كما سبق أن ذكرت، تجميعاً لأثاث لا شخصية له ولا صميمية، وإن كان صلباً وبارزاً لأنّ أمّي كانت، خارج القيمة المالية، تعلّق كبير أهمية على المتانة والحجم، وهما خصيصتان كانت قادرة على أن تحكم عليهما وتقيّمهما. وهكذا فإنّ الأرائك العميقة، والكراسي الضخمة، والمصابيح الهائلة، والطاولات الكثيفة، والبسط الثقيلة، والزينات العظيمة، كانت كلّها في صالوناتها تلك توحي بفكرة بذخ مادي وجنس ممتاز. وكانت انعكاسات البلاط الملمّع تلمع في الظلّ هنا وهناك، وكذلك ظاهر الأخشاب المنفوضة الغبار والنحاسيات والفضيات المجلوّة: لقد كانت النظافة خصيصة أخرى من خصائص البيت.

وأخيراً لمحت كالعادة، هنا وهناك كميةً من الأصص الكبيرة الملأى بباقات زهور جنائزية بعض الشيء، كانت أمّي صباح كلّ يوم تلتقطها كما أعلم من المدافئ النباتية. وقد لاحظت أنّي كنت أنظر إلى هذه الأشياء جميعاً بعين تختلف عن العادة، عين أقل شروداً وتحرّراً، كما لو كان القصد أن أدرك تأثيرها عليّ، الآن وقد صمّمت على العودة لأسكن مع أمّي. واكتشفت أنّي كنت أحسّ شعوراً من الانشراح الذي يبعث على الاشمئزاز، كما لو كنت تجاه إغراء قديم انتصر الآن، ولكنّه ما زال منفّرًا. واتجهت إلى المرآة القديمة، المؤطّرة بإطار كثيف، التي كانت تعلو خزانة في جوف الصالون، فنظرت إلى نفسي فيها، وأحسست فجأة بحاجة إلى أن أشتم نفسي

بصوتٍ عالٍ، من غير أن أعرف إن كان ذلك عن كره أو عن فرح: «أبله!» وفي اللحظة نفسها تقريباً سمعت حفيف ثوب.

والتفتُ فرأيت ريتا الفرّاشة واقفة على بعض خطى قرب بار متنقل على عجلات، تنظر إليّ نظرة مستفهمة عبر نظارتها السميكة المؤطرة بالأسود. وتساءلت عمّا إذا كانت قد رأتني بينما كنت أشتم نفسي، ونظرت إلى وجهها الممتقع المداور فلم أرَ عليه أيّ تعبير. وقالت بعد لحظة صمت:

- إنّ السنيورة ستهبط عمّا قليل. وقد قالت لي بأن أقدّم لك شراباً في انتظارها. فأي نوع ترغبه؟

ومرّة أخرى تساءلت عمّا إذا كان صوتها ينمّ عن السخرية التي لم يكن وجهها يكشف عنها. ولكن لا، كان صوتاً رصيناً، أو على الأقل، رصيناً بنفاق. وقلت إنّي أريد كأس ويسكي؛ فتناولت زجاجة الويسكي في كثير من الدقة، وصبّت منها قليلاً في قدح، أضافت إليه قطعة ثلج مكعّبة وماء، ومدّته لي وهي تسأل:

- هل تريد شيئاً آخر؟

فأجبتها بأنّي لم أكن أريد شيئاً، ورأيتها تبتعد بلا ضجة بحذائها ذي النعل اللبدي. ومضيت أجلس في إحدى تلك الأرائك الواسعة، ومعي قدح الويسكي. وأشعلت سيكارة وأخذت أفكّر.

لماذا تُراني قد شتمت نفسي، على ذلك النحو، أمام المرآة؟ وفكّرت بأنّ خطر هذا النوع من تمثيليات الابن الأعجوبة الذي كنت أمثّله مع نفسي، كان بالطبع أن أستسلم لإغراءات مفاجئة، مدنّسة ومثيرة للفضيحة، في حين لم أكن أتوقع ذلك إطلاقاً. وبعبارة أخرى، كنت ابناً مبذّراً من نوع خاص يشعر، إذ يتلقّى عناق أبيه الشيخ، بما يغريه لأن يركله في مؤخرته، ويذهب بعد أن يكون قد التهم طعامه

الفاخر، فيقيئه في ركن من الحديقة. ولم يُتح لي أن أعمّق هذا التأمّل الهامّ، إذ إنّ أمّي قد دخلت فجأة:

- هل أعطتك ريتا ما تشربه؟

- نعم، شكراً... ولكن من هي ريتا هذه؟

- الفرّاشة الجديدة، لقد حصلت على معلومات ممتازة عنها؛ وقد كانت تخدم لدى أميركيين غادروا البلد. والواقع أنّها كانت مربّية، ولكن لما لم يكن هنا أولاد، فقد قلت لها: اسمعي يا ابنتي، إنّني مضطرة إلى تحويل مهنتك لفرّاشة. وأنت حرّة بأن تقبلي أو لا. وقد قبلت بالطبع؛ وأعتقد أنّ البطالة التي تنتشر في هذه الأيام...

واستمرّت أمّي تتحدّث عن ريتا، حتّى بعد أن دخلت إلى غرفة الطعام حيث كانت ريتا نفسها واقفة قرب «البوفيه»، وفي يدها قفازات من خيوط، وعلى شعرها قبعة دانتيل، وحول قامتها وزرة بيضاوية صغيرة، وقد كان بودّي أن أقول لأمّي: «حذار، فأنت تتحدّثين عن ريتا، وهي هنا» ثمّ نظرت إلى الوجه المداور ذي النظارة، فتأكدت فجأة أنّها قد رأتني بينما كنت منحنياً عند المرآة أصف نفسي بأنّي أبله. وخيّل إليّ أنّ هذه الفكرة لم تكن في حقيقتها لتسوءني، كما لو أنّه كان قد انعقد بين ريتا وبيني، ابتداء من تلك اللحظة، نوع من الضلوع في ذنب. وجلست وقالت أمّي وهي تجلس بدورها:

- ريتا، إنّ السنيور دينو هو ابني، وابتداء من صباح الغد، سيأتي فيسكن هنا. لا تنسي: إذا طلبوا على التلفون شخصاً اسمه دينو، فدينو هذا هو ابني.

وكنّا الآن جالسين وجهاً لوجه حول طاولة صغيرة مستديرة، في غرفة طعام متوسطة الأبعاد، ولكنّها شديدة ارتفاع السقف، وأيدينا على خوان الدانتيل الفلورنسي، أمام صحون من البورسلين الألماني، ولوازم من الفضة الإنكليزية وكؤوس من البلور الفرنسي. وخلف

كرسي أمّي، كانت تلتمع نقوش وأغطية ذهبية للوح هولندي؛ وخلف ظهري كنت أعلم أنّه كان يقوم «بوفيه فينيسي». وكان الباب - النافذة المطلّ على الحديقة، مفتوحاً على سعته، ولكن الستائر مسدلة، لأنّ أمّي لم تكن تريد على حد قولها، أن يتمكن بستانيٌّ ما من عدّ لقماتها بينما هي تأكل. وتناولت أمّي إبريقاً من البلور والفضة فصبّت لي بنفسها الخمر، ثمّ قالت لريتا إنّه كان بإمكانها أن تقدّم لنا الطعام. فأخذت الفرّاشة من على البوفيه إناء من البورسلين موضوعاً على صينية واقتربت من أمّي التي قالت لها بجفاء:

- قدّمي أوّلاً للسنيور دينو.

- لماذا؟ أنت أولاً...

- لا، إنّني...

- ريتا، اخدمي السنيورة أوّلاً.

فقالت أمّي:

- ولكنّي لا أكاد آكل شيئاً.

وبطرف شوكتها تناولت شيئاً يسيراً فوضعته في صحنها. واقتربت ريتا منّي، فأدركت آنذاك ما كانت رائحة الطبخ تلك اللذيذة التي كانت تطفو في هواء البستان: معجون المعكرونة. وقالت أمّي:

- كنت أعرف إنّك تحبّ هذا، فطلبت صنعه خصيصاً لك.

- حسناً... حسناً...

ووضعت قطعة ضخمة في صحني. وأنا في العادة قليل الأكل، ولا سيما إذا كان الطعام على هذه الشاكلة. ولم يسعني إلّا أن أفكّر بأنّي كنت بذلك أتابع تمثيلية الابن الأعجوبة. وانفجرت فجأة بالضحك، فسألتني أمّي بحذر:

- لماذا تضحك؟

فأجبت: - تذكّرت أنّي قرأت في مكان ما تحريفاً ساخراً لقصة الابن الأعجوبة الموجودة في الإنجيل، كما تعلمين.

وما هو؟

- في القصة الأصلية أنّ الابن الأعجوبة يعود إلى البيت فيستقبله الأب بألوان مختلفة من التكريم ويقتل من أجله العجل السمين، أمّا في التحريف، فإنّ العجل على العكس يفرّ مذعوراً، فور عودة الابن الأعجوبة، وهو يعرف تماماً ما يخبئه له القدر. ويستنظرونه، ويَدَعهم العجل ينتظرونه طويلاً، ثمّ يعزم على العودة. فيستخفّ الفرح الشديد بالأب، ويريد أن يحتفل بعودة العجل السمين، فيقتل الابن الأعجوبة ويقدّمه له طعاماً...

وكنت أعلم أنّ أمّي لم تكن تؤمن بشيء، ما عدا المال. على أنّها كانت تؤمن، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، بما كانت تدعوه «الشكل» الذي كان يفرض، ممّا يفرضه، أن يكون المرء ممارساً، وبالتالي أن يحترم أمور الدين. ولهذا كشفت عن سحنة خشبية وقالت بصوتها المزعج:

- أنت تعلم أنّي لا أحبّ أن تهزأ بالأشياء المقدسة.

إنّني لا أهزأ بها، على العكس. فما الذي تعنيه عودتي، في الحقيقة، إذا لم تكن تعني تضحية الابن الأعجوبة، الذي هو أنا، لحساب العجل السمين الذي هو كلّ هذا؟

وهنا قمت بحركة دائرية مشيراً إلى جميع أثاث الغرفة الثري.

- إنّني لا أفهمك.

لم تكن أمّي تفتقر، على طريقتها، إلى حسّ للنكتة يثير الفضول، حسّ مظلم بعض الشيء وآلي؛ ولهذا أضافت من غير أن تبتسم:

- على كلّ حال، أعتقد أنّ بعد هذه المعكرونة عجلاً سميناً أو لا، لست أدري.

ولم أقل شيئاً، وأخذت ألتهم حصتي في مزيج من الفرح والندم، لأنّي كنت جائعاً حقًّا، وكان المعجون لذيذاً، وكنت في الوقت نفسه غاضباً لأن أجده لذيذاً. ثمّ رأيت أمّي، إذ رفعت نحوها عينيّ، وهي تنظر إليّ في إنكار:

- يجب أن تمضغ أكثر من ذلك. إنّ الهضم الأوّل يتمّ في الفم.

- هذا يثير الاشمئزاز تماماً. فمن قاله لك؟

جميع الأطباء يقولون ذلك.

وكانت عيناها الزرقاوان، الزجاجيتان الخاليتان تماماً من التعبير، تحضنانني بطريقة غير قابلة للتعرّف، فوق يديها المتشابكتين، المحمّلتين بالخواتم، اللتين كانت تسند إليها ذقنها.

وأفرغت صحني على عجل، فقالت أمّي بصوتها البارد، الفاقد الانسجام:

- اخدمي السنيور دينو مرّة أخرى.

فتناولت ريتا الإناء، وكانت حتّى ذلك الحين مستندة إلى اللوح، خلف أمّي، وقدّمته لي. وأخذتُ الملعقة بيد واحدة، تاركاً الأخرى حيث كانت، على طرف الطاولة. وإذ ذاك شعرت بيد ريتا التي كانت تسند بها الصينية تضغط على يدي ضغطاً خفيفاً، بطريقة يمكن أن تكون مقصودة. والحق أنّي لم أتوقف لدى هذا الاحتمال، فعدت إلى الأكل. وأخيراً سألت بلهجة شاردة:

- وأنت، ماذا تفعلين عادة؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد تماماً ما قلت: ماذا تفعلين عادة؟

- أوه! أنت تعرف، الحياة نفسها دائماً...

- نعم، ولكن خلال هذه السنوات كلّها التي عشتها خارج البيت لم أسألك قط ما كنت تفعلين، أمّا الآن وقد قرّرت أن أعود إلى

البيت، فإنّ الفضول يأخذني لمعرفة ذلك. من يدري، فمن الممكن أن يكون كلّ شيء قد تغيّر.

- إنّني لا أحبّ التغيير في شيء. ويروق لي أن أفكّر بأنّي أعيش اليوم كما كنت أعيش منذ عشر سنوات، وكما سأعيش بعد عشر سنوات.

- لست أعرف كيف تعيشين؛ لنرَ إذن: في أيّة ساعة تستيقظين صباحاً؟

- في الساعة الثامنة.

- باكراً إلى هذا الحد؟ ولكنّي كثيراً ما تلفنت في الساعة التاسعة، فكان الجواب يأتيني: السنيورة نائمة.

- نعم، يتفق لي أحياناً أن أنام أكثر من العادة إذ أكون قد نمت في ساعة متأخرة، بالليلة السابقة.

- وبعد أن تستيقظي، ماذا تفعلين؟ تتناولين الفطور؟

- طبعاً.

- في غرفتك أم في غرفة الطعام؟

- في غرفتي.

- في السرير، أم على طاولة صغيرة؟

- على طاولة صغيرة.

- وماذا تأكلين في فطور الصباح؟

- شاي، وخبز محمّص كالعادة، وعصير برتقال.

- وبعد ذلك، ماذا تصنعين؟

- آخذ حمّامي.

وكانت أمّي تجيب على أسئلتي بلهجة غاضبة بعض الشيء، وفي الوقت نفسه رصينة ومدهوشة، كما لو أنّي كنت أشك أنّ باستطاعتها أن تأكل أو تغتسل.

- حمّام أم دوش؟

- حمّام.

- أتغتسلين بنفسك، أم تستعينين بالفرّاشة؟

- الفرّاشة تراقب حرارة الماء، وتضع فيه الأملاح، وإذ يصبح الحمام جاهزاً تساعدني في الاغتسال في الأمكنة التي لا تبلغها يدي.

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك أخرج من الماء، فأتنشّف وأرتدي ثيابي.

- وهل تساعدك الفرّاشة أيضاً في ارتداء ثيابك؟

- تساعدني في لبس الجوربين. أمّا الثياب، فلا. إنّي أؤثر أن أرتدي ثيابي بنفسي.

- وهل تتحدّثين مع الفرّاشة بينما تأخذين حمّامك وترتدين ثيابك؟

فأخذت أمّي فجأة تضحك، بالرغم عنها تقريباً، في نوع من الحنق العصبي:

- ولكن أتعلم أنّك غريب بأسئلتك؟ إنّ بوسعي ألا أريد الردّ عليك. فإنّ حياتي الحميمة أمرٌ لا يعني سواي.

- أنا لم أسألك عمّا تفكرين به، بل عمّا تفعلين. فحاولي أن تفهميني. إنني عائدٌ إلى البيت بعد غياب عشرة أعوام تقريباً. فمن العدل أن أريد الانسجام معه من جديد. وإذن، فهل تتحدّثين مع الفرّاشة؟

- طبعاً أتحدّث معها؛ إنّها ليست آلة، بل هي مخلوق بشري.

- متى تلبسين مجوهراتك، قبل أن ترتدي ثيابك أم بعد ذلك.

- بعد أن أنتهي.

- وبأي ترتيب؟ أقصد أيّها تلبسينها أوّلاً، وأيّها بعد ذلك؟

- هل تعلم بمَ تجعلني أفكّر؟ بشرطة الكتب الصفراء، حين

يتوجب عليهم أن يكتشفوا جريمة...

- الواقع أنّ عليّ أن أكتشف شيئاً.

- وما هو؟

- لا أدري، شيء ما... إذن، بأي ترتيب تلبسين مجوهراتك؟

- أوّلاً خواتمي وأساوري، وبعد ذلك عقدي، ثم أقراطي. هل أنت راضٍ؟

- وبعد أن تلبسي ثيابك، ماذا تفعلين؟

- أهبط وأذهب فأعطي أوامري للطبّاخة، لذلك النهار.

- تقصدين أنّك تكتبين قائمة الطعام للغداء والعشاء؟

- بكلّ تأكيد.

- وبعد ذلك؟

- أذهب إلى الحديقة، فأقطف الزهور وأعود بها إلى البيت وأرتب باقاتي في الأصص. أو أتنزه وأتحدّث مع البستانين. إنّي بالإجمال أهتمّ بالحديقة.

- وبعد الحديقة؟ ماذا تفعلين؟

فرأيتها تنظر إليّ لحظة ثمّ أجابتني في أبّهة تقريباً:

- أقصد مكتبي وأهتمّ بشؤوني.

- كلّ يوم؟

- نعم: كلّ يوم... هناك دائماً ما يُفعل.

- وماذا تفعلين؟

- أكتب، أو أستقبل الناس.

- تعنين أنّ محامين ووكلاء خزانة الدولة وسماسرة البورصة ورجال ثقاة وأمثالهم يأتون لمقابلتك؟

وفجأة أخذت تضحك من جديد، ولكن هذه المرّة بطريقة مسحورة وشبه شهوانية، وفي هذا دلالة أنّي لمست نقطة حسّاسة:

- لعلّك تظنّ أنّ ما أفعله هو عمل تافه جدًّا؟ صحيح إنّه ليس الرسم، ولكنّه مع ذلك عملٌ مرهق يجعلني مشغولة طوال قبل الظهر، وأحياناً بعد الظهر.

- ولكن لا بدّ من الاهتمام بهذه الشؤون، أليس كذلك؟

- أصاب بعض الأيام بألم ثابت، هنا، في رقبتي.

- إنّ عليك أن تراعي صحتك أكثر من ذلك...

فتأملتني أمّي لحظة، وربّما في حنان، ثمّ قالت بصوتها القبيح الناعق:

- إنّني أفعل ذلك من أجلك، حتّى يُحفظ مالك وينمو.

- مالي؟ لا، بل هي ثروتك.

- حين أموت، ستكون لك.

- إنّك ما تزالين صبية، ولا شك في أنّي سأموت قبلك - سأماً - وعلى أي حال، كنّا نقول: ثروتنا. وبالمناسبة كيف حال ثروتنا؟ كيف حالها؟ كيف حالها؟

- ولكنّك، لو تعلم، غريب حقًّا! إنّها بخير، بفضل جهودي، ولا شك في أنّي لو لم أكن هنا، لما كان لنا بعد في هذه الساعة لير واحد.

- نحن إذن أغنياء جدًّا، أليس كذلك؟

وعلى هذا السؤال لم تجب أمّي، واكتفت بأن تنظر إليّ بوجه خشي وعينين زجاجيتين. ثمّ قالت:

- ريتا، ماذا تفعلين هنا، وأنت مزروعة كالوتد؟ لماذا لا تذهبين لترى إذا كان الصنف الثاني قد جهز؟

ورأيت ريتا تنتفض كما لو أنّها كانت تخرج من حلم. وخرجت وسرعان ما استطردت أمّي؟

- أرجوك، لقد قلت لك دائماً إنّ هذه الأمور لا يُتحدّث بها أمام الخدم...

لِمَ لا؟ كنت أفهم ذلك لو أنّي تكلّمت عن بذاءات. أمّا عن المصالح؟ أتكون المصالح شيئاً بذيئاً؟

ونفضت أمّي رأسها، وعيناها خافضتان، كما لو أنّها تنحّي حجّتي جانباً، من غير أن تناقشها. ثمّ قالت:

- إنّهم فقراء، ولا يحسن بالمرء أن يبسط ثرواته أمام من هم فقراء.

- ولكنّك لا تريدين أبداً أن أتحدّث عن ثروتنا، حتّى حين نكون وحدنا. إنّ لك سحنة غريبة، فكأنّني أُثير دهشتك بصورة فاضحة، كما لو أنّني أحدّثك عن شؤون جنسية، لا عن المال.

ومن جديد نفضت رأسها:

- لا، أحبّ أن أتحدّث عنه في الوقت المناسب، بل ونظراً إلى أنّك عائدٌ لتسكن هنا، فيجب أن نتحدّث عن ذلك. فبعد الغداء نقصد مكتبي فأعطيك جميع المعلومات التي ترغب فيها.

وفي تلك اللحظة عادت ريتا حاملة صينية طويلة بيضاوية صفّت عليها، بين أكوام صغيرة من خضار الموسم المختلفة، عدّة شرائح من لحم العجل الذي أعلنته أمّي. وقلت بخفّة، مدفوعاً بشيطان أنكد لا أدري كيف طلع لي:

- ولكنّك لم تجيبي بعد على سؤالي: هل نحن أثرياء جدّاً، أم لا؟

ولم تكتف هذه المرّة بإجابتي بالصمت؟ بل شعرتُ فجأة بقدمها، تحت الطاولة، تبحث عن قدمي، ثمّ تسحقها بقوّة. وقالت لريتا:

- قدّمي للسنيور دينو. أمّا أنا، فلا آخذ لحماً...

وأوحت لي قدم أمّي تلك فوق قدمي بشعور إرهاق حقيقي. لقد

كانت إذن تضغط على قدمي كما يفعل المحبّون في ما بينهم: ولكنّنا لم نكن إلّا أمّا وابناً، والرابطة التي كانت تشدّ أحدنا إلى الآخر لم تكن الحب، وإنّما المال. ومن جهة أخرى، ما كنت أستطيع أن أرفض هذه الرابطة، لأنّ رفضها يعني رفض صلة الدم التي كانت تتوقف عليها. وهكذا لم يكن ثمّة ما يُفعل: فسواء شئت أم لم أشأ، كنت غنياً؛ ورفض ذلك يعادل قبوله.

على أنّ إرهاقي قد اتخذ وجهة غير منتظرة. فقد كانت ريتا تقدّم لي طبق العجل، حانيةً نحوي صدرها المزدهر ووجهها المداور المليء بلطخات النمش ذا الفم الممتقع الغرنوقي اللون؛ وإذ ذاك قلبت يدي التي كانت مرتاحة على الطاولة، وفي ظلّ الطبق، قبضت على معصمها، وصعدت بيدي نحو ذراعها. وانتهت من أخذ شرائح اللحم باليد الأخرى، ثمّ وضعت الشوكة من جديد على الطبق، وألححت مرّة أخرى، في برودة:

- وإذن، هل نحن أغنياء أم لا؟

وللمرّة الثانية شعرت بقدم أمّي تصدم قدمي، وقلت:

- لحظة، يا ريتا.

فعادت ريتا وادعة تقدّم لي الطبق مرّة أخرى. ومن جديد أخذت الشوكة بيد واحدة وجمعت في الطبق بعض اللحم والخضار. وفي هذه الأثناء، صعدت بيدي الأخرى التي كنت تركتها متدلية من كرسي، على ساق ريتا حتّى الخاصرة. وتحت يدي شعرت عبر التنورة الواسعة بعضلات ساقها ترتعش كعضلات حصان يلامسه معلّمه. ومع ذلك، فلم يشفّ وجهها عن شيء، سوى أنّه أصبح مرائياً بصراحة، لا بغموض، وابتعدت أخيراً، وحسبتني ألمح خلف نظارتها نظرة تفاهم خفية، فلم أتمالك من التفكير بأنّي، حتّى قبل أن أعود إلى بيت أمّي، كنت أجدني في موقف أسوأ من الذي كنت فيه منذ عشر سنوات. ففي

ذلك العهد، ما كنت لأفكّر قط بأن أضع يدي على فرّاشة، أيًّا كانت الأسباب التي تبرّر لي فعل ذلك. على أنّ أمّي كفّت عن صدم قدمي في اللحظة نفسها التي تركت فيها خاصرة ريتا، كا لو أنّها كانت تعمل معي في تواقت غريب. وقلت مستعيداً الحديث المقطوع:

- أنت بالإجمال تعملين كلّ يوم حتّى الواحدة وأكثر.

- كلّ يوم ما عدا الأحد.

- ويوم الأحد، ماذا تفعلين؟

- اذهب إلى القداس.

- في أيّة كنيسة؟

- سان سيباستيانو.

- ماذا تفعلين في الكنيسة؟

- ما يفعله الآخرون: أصغي إلى القداس.

- وتعترفين أحياناً؟

- بكلّ تأكيد أعترف، وهذا طبيعي. وأتناول أيضاً.

- وبعد أن تعترفي، يبرئك الكاهن؟

فقالت أمّي في شيء من الغنج

- ليست عندي أبداً آثام خطيرة أعترف بها... تصوّر أنّ دون لويجي يقول لي أحياناً: إنّك يا سنيورة تنتهين حيث يبدأ الآخرون. فأيّ إثم تريد أن يرتكبه بعد من كان في سنّي؟ .

ونظرت إليّ كما لو أنّها ستقول: «لقد تخلّيت منذ وقت طويل عن الشيء الذي يمكنه أن يجعلني أرتكب الآثام».

وصمتُ لحظة، ثمّ استطردت:

- لنعد إلى نهارك: إنّك في أيام العطلة تشتغلين في الصباح. ولكن بعد ذلك، ماذا تفعلين؟

- أتناول الغداء.

- وحدك؟

- أجل، في الصباح وحدي دائماً، وأحياناً، ولكن نادراً، أستبقي محاميّ للغداء، وهذا يحدث فقط حين لا نكون قد أنهينا عملنا، ويتوجب علينا أن نستأنف بعد الظهر.

- أي محامٍ؟ دوسانتيس؟

- نعم، إنّه لا يزال محاميّ.

- وبعد الغداء؟

- بعد الغداء، أقوم بنزهة في الحديقة.

- وبعد ذلك؟

- أذهب للراحة.

- تقصدين للنوم؟

- لا، إنّي لا أنام، بل أنزع حذائي وأتمدّد على سرير وأنا في ثيابي. غير أنّي لا أنام، وإنّما أترك أفكاري تشرد.

- وبمَ تفكرين:

فأخذت تضحك من جديد بطريقة عصبية وهاربة، كفتاة تُغرى بأن تتكلم عن حبّها:

- إنّ هذا يتوقّف... أتعرف بمَ أفكر في هذه الأيام؟

- لا، بمَ تفكرين؟

- أفكّر في بيت صغير على محطة فلامينيا معروض للبيع. وهي صفقة ممتازة، ولو كان المقصود الأرض فقط. ولكنّي لسوء الحظ لا أستطيع الآن أن أفعل ذلك، غير أنّ هذا لا يمنعني من التفكير به وأحياناً أخرى أفكّر في بعض الاشياء التي أستطيع على العكس أن أحصل عليها، مثلاً هذا (وبسطت يدها وأرتني خاتماً مزداناً بزمردة كبيرة تحيط بها لآلئ) لقد فكرت فيه طويلاً جدًّا، حاسبةً الحسنات والسيئات، وأخيراً صممت واشتريته.

- وبعد أن تكوني قد ارتحت، ماذا تفعلين؟
- ولكن لماذا بالله عليك هذا التحقيق؟
- لقد سبق أن قلت لك السبب: لأنسجم من جديد مع البيت.
فقالت على مضض:
- أقوم بأشياء كثيرة، بزيارات مثلاً.
- ومن تزورين؟
- أوه! هذا يتوقف: هناك دائماً حفلات استقبال، وكوكتيلات، ثمّ إن لي صديقات.
- وهل هن كثيرات؟
- لقد احتفظت تقريباً بجميع الصديقات اللواتي كنت أعرفهن وأنا في المدرسة الداخلية (وأضافت أمّي بلهجة متفكّرة) وفي ما بعد، لا أدري لماذا لم أعقد صداقة مع أي إنسان.
- وماذا تفعلين مع صديقاتك؟
- ماذا تريدنا أن نفعل؟ ما تفعله النساء إذ يجتمعن، نثرثر ونتناول شاياً أو قدح مارتيني أو نلعب.
- بمَّ تلعبين؟
- كم أنت مضجر! نلعب البريدج أو الكاناستا أو حتّى البوكر، وأحياناً في المساء، أنظّم هنا دورات بريدج أو كاناستا.
- آه! نعم، أذكر، دورات إحسان، أليس كذلك؟
- كانت الأخيرة لصالح عميان الحرب.
- عميان الحرب... إنّنا جميعاً، بصورة ما، عميان حرب، أليس كذلك؟
- إنّني الآن بصراحة، لا أفهمك. ولكن إذا كانت القضية قضية مزاح، فيبدو لي أنّه مزاح ثقيل.
- ما يهمّ... وهل تقصدين الخياطات؟

- ما دمت لا أتنزّه عارية، فلا بدّ لي من أن أقصدهن. بل لقد أحسنت صنعاً إذ ذكّرتني ذلك، لأنّي كنت سأنساه، فغداً يقام معرض أزياء في دار «فانتي».

- آه! دار فانتي! إنّها هي دائماً! أتراها لن تموت أبداً!

- المسكينة! لماذا تريد أن تميتها؟ إنّها ليست فقط لم تمت، بل تتذكرك حين كنت صغيراً وكنت تصحبني إلى بيتها. وهي تسألني دائماً عمّا تفعله، وكيف حالك، وترجو أن تتزوّج وأن ترسل لها زوجتك.

- وفي المساء ماذا تفعلين؟

- أتعشى غالباً مع أحد. وأحياناً يجتمع حول مائدتي ستة أشخاص أو ثمانية، وآخرون يأتون بعد العشاء. أو أنّني أقصد المسرح أو السينما مع أصدقاء هم دائماً أنفسهم. ولكنّي غالباً أشاهد التلفزيون.

- آه، لقد اشتريت جهاز تلفزيون؟ لم أكن أعرف ذلك.

- عجباً، ألم أقل لك؟ نعم، لقد ركبته فوق، في صالون صغير. وتقصد البيت أسرة من الجيران فننظر معاً إلى البرامج. أو أنّني أشاهده وحدي: وأنا أحبّ التلفزيون وأفضّله على السينما: فليست بنا حاجة للخروج من البيت، وبوسعنا أن نشاهده ونحن في أريكة مريحة ونفعل شيئاً آخر معه. تصوّر أنّي قد عدت إلى شغل الصوف، بعد أن انقضت سنوات على تركي إيّاه. وأنا الآن أخيط صدارة صغيرة.

- وبعد التلفزيون، ماذا تصنعين؟

- أذهب للنوم. ماذا تريدني أن أصنع؟

- آه، تستطيعين أن تقرأي، مثلاً.

- نعم، أقرأ التماساً للنوم، وأنا الآن أقرأ رواية جذابة.

- من هو مؤلفها؟

- نسيت المؤلف، إنّها رواية أميركية، حول حياة مدينة صغيرة في الريف.

- وما هو عنوانها؟

فرأيت على وجهها تعبيراً حائراً، فسارعت أضيف:

- لقد نسيت أنّك لم تكوني طوال حياتك تتذكرين لا اسم المؤلف ولا عنوان الكتاب الذي تقرأين. أليس هذا صحيحاً؟

ونطقت بهذه العبارة في لهجة ودية تقريباً، وعلى أي حال، فقد بدت مسرورة أن أتذكّر شيئاً يخصّها. وضحكت ضحكة متواضعة:

ليس هذا صحيحاً. ولكن كيف يمكننا أن نتذكّر جميع هذه الأسماء؟

ثمّ إنّ ما يهمّني خصوصاً هو أن أمضي الوقت. فهذا المؤلف أو ذاك، سيّان عندي.

- صحيح! أما زلت تأخذين البابونج قبل أن تنامي؟

- كيف تراك تتذكّر ذلك؟ نعم، ما زلت آخذه.

- إنّهم يأتونك به إلى غرفتك، ويضعونه على طاولة السرير؟

وفجأة صمتُّ في إحساس من الشبع والزهوق. وفكّرت أنّه كان بوسعي أن أستمرّ في سؤال أمّي طوال ساعات من غير أن أتقدّم شبراً واحداً: إنّها هي وحياتها كانتا قد بلغتا ذلك الغياب الكامل من المعنى الذي كان يعادل، في آخر المطاف، نوعاً من السرّ البليد والمغلق في الوقت نفسه. ثمّ سألتني أمّي:

- لقد انتهى إذن، هذا الاستجواب؟ أمّ أنّك تريد أيضاً أن تعرف ما هي الأحلام التي تراودني في نومي؟

- لقد اكتفيت.

وساد صمت. ثمّ قالت أمّي بصورة غير متوقعة:

- إنّ أمّك امرأة تعيش وحدها، وليس لها سواك، وهي سعيدة بأنّ تعود فتعيش معها.

وفهمت أنّها كانت متأثّرة إذ كانت تتحدّث عن نفسها بلهجة الغائب. وأردت أن أقول لها، بدوري، شيئاً وديًّا، ولكنني لم أجد شيئاً. ولحسن الحظ، قدّمت لي ريتا في تلك اللحظة طبقاً يحتوي حلوى متقنة الصنع تظاهرت بالإعجاب بها:

- ما أجملها من حلوى!

- كانت هذه حلواك المفضلة.

وأخذت قطعة، ولاحظت أنّ ريتا كانت واقفة بعيدة بعض الشيء عن المائدة. ولم أفهم جيداً إذا كانت تفعل ذلك كرهاً، أم بدافع غنج خاصٍ يتظاهر بالكره. ونظرت إليّ أمّي التي لم تمسّ الحلوى، وظلّت تحدّق فيّ طوال الوقت وأنا ألتهم قطعتي. وأخيراً، أومأت بحركة لريتا لم أفهم مغزاها. وخرجت الفرّاشة ثمّ ما لبثت أن ظهرت وهي تحمل زجاجة شمبانيا في دلو.

- والآن، لنشرب قدح شمبانيا في صحتك.

ورأيت ريتا تخرج الزجاجة من الدلو وتنزع الورقة الفضية ثمّ تُطلق السدادة الكبيرة من غير صوت تقريباً ولا زبد، كلّ ذلك بحركات تنمّ عن إلفة طويلة. وصبّت الشمبانيا في قدحينا، ثمّ خرجت بسرعة، كما لو أنّها لم تكن تريد أن تعكّر بحضورها الطقس الاحتفالي.

وهكذا وجدتني وقدح شمبانيا في يدي واقفاً تجاه أمّي التي كانت هي أيضاً واقفة تمدّ لي قدحها. وقلت، من غير أن أفقه ما أقول:

- مئة يوم آخر كهذا!

فأخذت أمّي تضحك:

- ولكن عليّ أنا أن أقول لك ذلك. إنّك تنسى أنّه عيدك، لا عيدي.

فلم أستطع إلّا أن أجيب:

- إنّ العيد الحقيقي هو عيدك. إنّي أكفّ عن الرسم وأعود لأسكن معك، وإذن: فمئة يوم آخر كهذا اليوم.

ثمّ حملت قدحي أدقّ به قدح أمّي التي تظاهرت هذه المرّة بأنّها لم تسمع. وبعد أن شربت، قالت وهي تضع القدح على المائدة:

- إنّه ليس مثلجاً بما فيه الكفاية.

- تظنّين؟ أما أنا فأجده لذيذاً.

- نعم، ولكنّه لم يبقَ وقتاً كافياً في الثلج.

وتناولت قدحها وأفرغته كلّه ثمّ ضغطت زراً موضوعاً على المائدة. ظهرت ريتا من جديد. فأبدت لها أمّي الملاحظة نفسها حول الشمبانيا الذي لم يثلج بما فيه الكفاية، من غير أن تلقي، ولا أن تنتظر في الظاهر جواباً. وأضافت أخيراً بأنّنا سنأخذ القهوة في المكتب. وانتهى الغداء.

وخرجنا من غرفة الطعام لنقصد المكتب، وهو حجرة غير كبيرة تحتل ركناً برمته من الطابق الأرضي. ولم أكن أقصد هذا المكتب برضى. بل كنت أتحاشى دخوله، لأنّي كنت أفكّر غالباً بأنّه كان شبيهاً بمعبد دين لم يكن ديني بالتأكيد. والواقع أنّ أمّي إنّما كانت تجلس في هذا المكتب على أريكة جلدية عميقة ذات مسامير مذهبة، أمام طاولة كبيرة غريبة من سنديان منقوش تصطفّ عليها بعض كتب وعدّة إضبارات وسجلات، تجلس هناك لتكرّس نفسها، وحدها أو بصحبة رجالها الثقات، لطقوس إدارة أعمالها، وهي طقوس مؤثّرة بالنسبة لها. وفي ذلك اليوم أيضاً تبعتها على مضض: وإذ دخلنا المكتب لم أمتنع عن سؤالها:

- لماذا تأتي إلى هنا، أليس بوسعنا أن نذهب إلى الصالون؟

فلم يبد على أمّي أنها سمعتني. ورأيتها تجلس وراء الطاولة وهي تشير إليّ أن أجلس قبالتها في الأريكة المخصصة عادة لمحدّثيها في أثناء مشاورات الأعمال. وفتّشت في محفظتها، فأخرجت منها مفتاحاً وابتعدت قليلاً عن الطاولة وفتحت درجاً فتناولت منه دفتراً أسود، طويلاً وضيّقاً، أثار انتباهي بمظهره، مظهر حاجة كنسية، إنّه على أيّ حال يذكّر بالدين على نحو ما. ولكنّي سرعان ما تذكّرت أنّ هذا الدفتر هو الذي كان يحوي قائمة أملاكنا. وأقفلت أمّي الدرج من جديد، ووضعت الدفتر أمامها على الطاولة، ونظرت إليّ لحظة بعينيها اللتين بدتا زجاجيتين أكثر من أي وقت آخر، ثمّ قالت أمّي لي:

- لقد سألتني عمّا إذا كنّا أغنياء، ففضّلت ألّا أجيب على سؤالك بسبب حضور الفرّاشة. ولكنّي مسرورة مع ذلك أنّك قد طرحت عليّ هذا السؤال. فأقدّم لك الآن جميع المعلومات التي تريدها (وأضافت آنذاك بلهجة رصينة) لا سيّما وأنّ أمنيتي الكبيرة هي أن تساعدني في تصريف الأعمال، وأن تكسب بعض التجربة العملية وتحلّ محلي في أمور كثيرة. وما دمت قد انقطعت عن الرسم، فإنّ أمامك سعة من الوقت للقيام بها.

وهذه الكلمات الأخيرة جعلتني أرتعش، فبأي هدوء وبأي رضى نطقت أمّي بهذه العبارة: «ما دمت قد انقطعت عن الرسم» من غير أن تدرك أنّ ذلك كان يعادل بالنسبة لي أن أسمعني أقول «ما دمت لا تعيش بعد». وسألت في جهد، من غير تنكيد هذه المرّة:

- وإذن، هل نحن أغنياء أم لا؟

وصمّت لحظة وهي تنظر إليّ بأبّهة غريبة. ثمّ انحنت نحوي وقالت بصوت منخفض:

- لسنا فقط أغنياء يا دينو، بل نحن أغنياء جدًّا. أنت اليوم، بفضل أمّك، رجل غنّي جدًّا.

- أغنياء جدًّا: ماذا يعني ذلك؟

- الغنيّ جدًّا يعني شيئاً أكثر من غنيّ فقط.

- ولكنّه يعني أقل من غنيّ إلى أبعد حدّ؟

- نعم، أقل من غنيّ إلى أبعد حدّ.

كانت أمّي تجيبني الآن ببعض السرور. وكانت قد لبست زوج نظارات راهبة، لا إطار له، ذا يدين من ذهب، وكان تقلّب صفحات دفترها الأسود:

- والحق أنّه ليس أفضل من الأرقام لتستطيع أن تفهم، إذن، إذن، أين هو... آه! هوذا، لتستطيع أن تفهم ماذا يعني أن يكون المرء غنياً جدًّا.

وفهمت أنّها ستقدّم لي جميع العناصر التي وعدتني بها، فشعرت فجأة باشمئزاز لا يمكن حبسه، وصحت بحيوية:

- لا، أرجوك، لا أريد إطلاقاً أن أعرف ماذا يعني أن يكون المرء غنياً جدًّا. فأنا أصدّقك كلّ التصديق.

فرفعت أمّي عينيها عن دفترها، ونزعت نظارتيها وتأمّلتني:

- ولكن يجب أن تعرف، لا لشيء إلّا لتساعدني، كما قلت لك، في تصريف شؤون ثروتنا.

وكنت أوشك أن أصيح بها «ولكنّي لا أريد مساعدتك في تصريف شؤون ثروتنا» وإذا بريتا لحسن الحظ، تظهر حاملة صينية القهوة. وبدت أمّي، إذ رأت ريتا، تدخل في ذاتها من جديد، كراهب يرى كافراً يقترب منه. فإذا بها تغلق الدفتر بحركة خشنة وتقول:

- قدّمي القهوة، يا ريتا.

وبينما كانت ريتا واقفة بقربي تصبّ القهوة في الفناجين الصغيرة،

تساءلت كيف يمكنني أن أفلت من هذا الشيء الذي لا يُطاق: شرح معنى هذه الكلمات: أن يكون المرء غنياً جدًّا. وكانت ريتا بقربي مرّة أخرى، وكانت ساقها تلامس ركبتي، من غير أن أفهم إذا كانت تفعل ذلك عن قصد أم لا. وبصورة غريزية تقريباً، قمت بحركة مفاجئة من ذراعي. فانقلب الفنجان على الصحن واندلقت القهوة على بنطلوني الفاتح الذي أحسسته حاراً ورطباً على بشرتي. وصحت متظاهراً بالتبرم:

- يا للمصيبة! بنطلوني!

وقالت أمّي موبّخة، من غير أن تكون قد رأت أو فهمت شيئاً:

- ولكن كيف لا تتنبّهين بعد، يا ريتا؟

فسارعت أقول:

- ليس هو ذنب ريتا، وإنّما هو ذنبي. غير أنّ بنطلوني الآن قد تلطّخ.

قالت ريتا:

- لا بأس إنّ القهوة لم يوضع لها سكّر بعد. سآتي بقليل من الماء لمسح اللطخة.

فلم يرق هذا الحلّ لأمّي التي سارعت إلى الاحتجاج بصوتها المزعج، وبلهجة آمرة:

- على الإطلاق. إنّ اللطخات لا تُمسح على الشخص نفسه. إنّ السنيور دينو سينزع بنطلونه، فتنظفينه وتكوينه بعد ذلك.

ونظرتُ إلى ريتا التي كانت واقفة بالقرب من الطاولة، وعلى وجهها تعبير صبرٍ ذليل؛ وسألت في رصانة:

- هل ينزع السنيور دينو بنطلونه على الفور، أمّ عليّ أن أنتظر؟

فقالت أمّي:

- إنّ القهوة تلطّخ، فالأفضل أن تنزعه على الفور، يا دينو.

- ولكنّي لا أستطيع أن أنزعه هنا، في الصالون.

ورأيت ريتا تصرف رأسها، وربّما لتخفي بسمة. وقالت لي أمّي:

- اصعد إلى غرفتك، فانزع بنطلونك وأعطه لريتا. ثمّ ضع الروبديشامبر الذي هو في الخزانة. وفي هذه الأثناء سأهيّئ بعض الأوراق التي أريد إطلاعك عليها.

وخرجنا أنا وريتا، وهي تتقدّمني وتكاد تركض، قائلة:

- إنّني أسبقك لأنّ هذه الغرفة كانت مغلقة دائماً، فسوف أفتح النوافذ على الأقل.

وكنت أتبعها وأنا أفكّر في بعض الدهشة بأنّ كلّ شيء كان يجري وفق قواعد ليست مكتوبة ولكنّها لا تخطئ إزاء جميع المواقف المشابهة المتعلقة بالخدم: الأم التي تقدّم لابنها حجة الابتعاد مع الفرّاشة؛ وتتظاهر هذه وذاك بأنّهما يحملان الحجة المتاحة على محمل الجدّ فيتجهان معاً إلى السرير الذي سيقعان عليه معاً! وتكون الخادمة في وقت واحد مهتاجةً وطموحاً، بينما يكون الابن مهتاجاً هو أيضاً ولكنّه يشعر بالذل بصفته سيّد البيت.

وكنت مستغرقاً في هذه الأفكار حين وصلت إلى الطابق الثاني واتجهت إلى غرفتي التي كانت ريتا قد سبقتني إليها. وقد رأيتها تنحني على النافذة لتفتح مصاريعها على سعتها، وإذ كانت تلتفت وقد احمرّ وجهها قليلاً بالجهد والركض والاضطراب، قلت لها بجفاء:

- انتظري لحظة في الممر، وسأناديك.

وما إن خرجت حتّى اتجهت ببطء إلى النافذة، وظللت لحظة واقفاً، وكتفاي بلصق المصراع، أتأمّل، كما لو أنّي في حلم، الحديقة الإيطالية الطراز التي كانت تنبسط تحتي. وأنا لست ميالاً إلى اجترار الماضي؛ ولكنّي كنت في ذلك اليوم قد قرّرت أن أعود فأعيش مع أمّي، بعد عشرة أعوام من الغياب؛ ولهذا لم أتمالك من أن أقارن

حالتي الذهنية الراهنة بحالتي لعشر سنوات خلت. وإذ كنت أتفحّص أوّلاً أثاث الغرفة، «الأمبير» الجميل، ثمّ الرسم الهندسي للحديقة الإيطالية الطراز، فأجد أنّ كلّ شيء قد ظلّ على حاله، لاحظت أنّي أحسّ بنوع من العزاء الكثيب إذ فكّرت بأنّي أنا أيضاً، في حقيقة الأمر، لم أتغيّر. أجل، لم أتغيّر؛ وهأنذا الآن عائدٌ لأعيش مع أمّي وأستعيد عادات يرجع عهدها إلى عشرة أعوام: بل ربّما عدت شيئاً فشيئاً إلى الرسم، هناك، في المرسم القائم في نهاية الحديقة والذي لم يتغيّر هو كذلك. ومن يدري حقًّا إذا لم تكن عودتي الآن إلى مقصورة أمّي لن تلهمني في شارع مارغوتا، فترة محدودة، وهمَ الرسم، كما ساعدت إقامتي في شارع مارغوتا، فترة من الزمن، على ردّ الثقة إليّ بعملي؟

إنّ الحياة لم تكن في الحقيقة إلّا هذا التغيّر الدائم للوضع، كما يحدث للمرء وهو في سرير غير مريب، فلا يستطيع أن ينام طويلاً على الجانب نفسه. ولكن حين وقعت عيناي على السرير، رأيت أنّه كان خالياً من الشرشف والغطاء، وأنّ فراشه كان مطوياً كما في الغرف غير المسكونة، وأدركت فجأة أنّ ثبات الأشياء هذا وثباتي أنا لم يكونا على تلك الدرجة من الإيجابية التي فكّرت فهيا ذات لحظة. صحيح أنّ شيئاً لم يكن قد تغيّر، ولكنّي سوف أجد نفسي من جديد تجاه هذا اليأس الثابت هو أيضاً، الذي دفعني، في الماضي، إلى الفرار من البيت. إنّ شيئاً لم يكن قد تغيّر، ولكن بما أنّ الزمن لا يمضي عبثاً، فإنّ كلّ شيء قد ساء قليلاً فيما ظلّ جامداً بمادته. وهكذا، بينما كانت أمّي تنتظرني في صالون الطابق الأرض لتشرح لي، والأوراق في يدها، ما يعني أن يكون المرء غنياً، كانت ريتا تنتظر خارج الباب أن أطلب منها أن تدخل وأن أقفز عليها؛ صحيحٌ أنّهما شيئان متباعدان ظاهراً في ما بينهما كلّ التباعد، ولكنّهما في

الحقيقة مرتبطان في ما بينهما بآلية تركيبة خفيّة ودقيقة، ولم أكن أجهل هذه الآلية، فقد كنت دائماً أحسّ بوجودها؛ ولكنّي لم أرها في مثل الوضوح الذي أراها فيه الآن، كما يستطيع أحدنا أن يرى، في واجهات شركات الطيران، نموذج محرّك طائرة بكل دواليبه العديدة المعقّدة. إنّها آلية اليأس التي سوف تنقلني، إذا عدت أعيش بقرب أمّي، من المال إلى العجز، ومن العجز إلى السأم، ومن السأم إلى ريتا أو إلى ذلّ آخر من الطراز نفسه. فالأفضل إذن أن أعود إلى مرسمي، شارع مارغوتا. حيث يعبّر اليأس عن نفسه، على الأقل، باللوحة البيضاء التي لن أرسمها أبداً.

وسمعت في تلك اللحظة خربشةً على الباب، خفيةً ولكنّها صميمة نافذة الصبر، وقبل أن أتمكن من إدراك ما كنت أفعله، كنت قد فككت أزرار نطاقي وتركت بنطلوني يسقط، ورميت الفراش تحت السرير، وتمدّدت بطولي على السرير. ثمّ ناديت ريتا أن بوسعها أن تدخل.

وسرعان ما دخلت، وبنظرت سريعة تأكّدت من أنّي كنت متمدداً على السرير، واستدارت لتغلق الباب. وظللت جامداً، إلّا في ذلك الموضع من جسمي الذي كانت الشهوة تدفق فيه دمي المهتاج، ونظرت إلى بطني، محدّد العينين، وذقني على صدري، كجثة متمدّدة في تابوتها تبدو وكأنّها تنظر إلى جسمها نفسه المعدّ لأن يُحمل إلى المقبرة. وفي تلك الأثناء، كانت ريتا قد اقتربت من السرير وبدت وهي واقفة تتأمّلني عبر نظارتيها المرائيتين، كما يتأمّل المرء شيئاً لم يره قط وهو جديرٌ بأن يُفحص. ومددت إذ ذاك يدي فالتقطت يداً لها كانت قد تركتها متدلية بجانبها وجذبتها إليّ بالطريقة التي يُجذب فيها زمام دابّةٍ هي أكثر خجلاً منها جموحاً، وشعرت بكلّ شخصها يأتي مع هذه اليد التي كنت أوجّهها نحو وسط جسمي. وحين تأكّدت من

أنّها قد انغلقت، تركتها. وأصبحت ريتا الآن جامدة، منحنية قليلاً إلى الأمام، وذراعها متمدّدة عليّ، وتحت دائرتي نظارتيها السوداوين احمرارٌ مشتعل. ثمّ قالت بصورة غريبة، بصوت بطيء ملاطف:

- يا للفظاعة!

فلبثت مدهوشاً لذلك، إذ كانت تلك هي الكلمة نفسها التي كنت سأقولها لو كنت أريد أن أعبّر عن مزيج الاشمئزاز والاهتياج الذي كنت أشعر به في تلك اللحظة.

وأطلقت تنهدة عميقة وسألتها أخيراً، بصوت منخفض، من غير أن أنظر إليها:

- لماذا جئت إلى هنا؟

فهزّت كتفيها ولم تجب، وكانت تبدو عاجزة عن الكلام.

- لكي تزيلي تلك اللطخة؟ إذن، اذهبي فأزيليها، ماذا تنتظرين؟

ورأيتها ترتعد كما لو أنّي قد صفعتها ملء وجهها، ثمّ تفتح أصابعها الواحد تلو الآخر في تردّد، ثمّ اختفت عن ناظري.

ولا بدّ أنّها قد خرجت من الغرفة، لأنّي بعد لحظة سمعت صوت الباب يُفتح ثمّ يُغلق. وما إن تأكدّت من ذهابها، حتّى قفزت خارج السرير وفتحت الخزانة، وكما رجوت، فإنّي وجدت إلى جانب الروبديشامبر الذي كان عليّ أن أرتديه، بناء على نصيحة أمّي، الثوبَ الوحيد الذي لم أحمله معي حين ذهبت أسكن المرسم: ثوب السموكنغ. وكان معلقاً في غطائه المصنوع من «السيلفون». وأخذت البنطلون فلبسته. وكان يناسبني بما فيه الكفاية، ولكن ربّما كان عريضاً بعض الشيء، لأنّني منذ عشر سنوات كنت أسمن منّي الآن، بالنظر إلى أنّ مطبخ أمّي كان أغنى وأكثر غذاء من المطاعم المتواضعة التي كنت أتردّد عليها.

ونظرت إلى نفسي في المرآة: فإذا أنا، بسترتي القنّبية الكستنائية

فوق هذا البنطلون الأسود، أشبه خادماً عاطلاً عن العمل. وشققت الباب بهدوء، فرأيت أنّ ليس ثمّة أحد، وهبطت السلم على عجل، ثمّ تحاشيت الصالونات، وأنا في الممر، واجتزت المدخل وخرجت إلى ساحة البيت.

وكانت السيارتان، القديمة والجديدة، مصطفّتين جنباً إلى جنب أمام المقصورة. وكانت السماء الغائمة والأشجار والبيت تنعكس صورها في غموض عبر حديد السيارة الجديدة الملتمع، أمّا السيارة القديمة، فقد كانت على العكس كثيفة، ولم أتمالك نفسي من التفكير بأنّها كانت من تلك الكثافة التي كان سأمي المألوف يغطي بها العالم حولي.

وانتزعت صفحة من دفتري الصغير، وكتبت عليها:

«شكراً، ولكنّي أفضّل الاحتفاظ بسيارتي القديمة».

ثمّ أدخلتها تحت ذراع الممسحة، هناك حيث يضع رجال شرطة السير عادة أوراق المخالفة.

وأخيراً، صعدت إلى سيارتي، فأدرت محرّكها ومضيت.

الفصل الثاني

في البناية نفسها التي أسكنها بشارع مارغوتا، كان يسكن رسّام كبير السنّ يُدعى باليستياري، على بُعد ثلاثة أبواب من بابي، في ممر الطابق الأرضي.

وكنت ألتقي به كثيراً، وقد تبادلت معه بضع كلمات، ولكنّي لم أكن أعاشره. لقد كان باليستياري كجميع الرجال المهووسين بالنساء، ذا برودة كبيرة وشبه مهينة إزاء الذين كانوا من جنسه، مهما كانت أحوالهم وأعمارهم، ولا شكّ في أنّه كان يرى فيهم منافسين ممكنين.

وكان باليستياري رجلاً قصيراً ذا كتفين عريضتين وقدمين كبيرتين وهما عيبان لم يكن يهتمّ قط بإخفائهما، بل كان يبالغ في إظهارهما بأن يرتدي سترات رياضية هائلة ذات مربّعات كبيرة، وأحذية قديمة الطراز، لامعة ومروّسة. وكان وجه باليستياري يشبه كثيراً قناع كرنفال أو أبطال هجاء بومبيي: شعر فضي أبيض، سحنة ذات حمرة فاقعة، حاجبان أسودان كالفحم، أنف ناتئ، فم كبير، وذقن مروّسة. وكان تعبير هذا الوجه ناعساً، على ما ينمّ عنه من قلق. وقد سمعت عن باليستياري من بعض الرسامين الشيوخ الذين كانوا يعرفونه بأنّه كان زير نساء، وأنّه إنّما أخذ في شبابه يرسم ليجتذب إلى مرسمه النساء بحجة الرسم. وقد بقيت له فيما بعد عادة الرسم الذي كان يعني خصوصاً في نظره نساء عاريات.

وكان باليستياري يعيش على هواه، ولا يكسب حياته من عمله، ولا يقيم معارض قط، وكان يرسم، على نحوٍ ما، لأجله وحده. وكان

أصدقاؤه يدّعون أنّه كان من شدّة تعلّقه بلوحاته بحيث إنّه إذا صمّم يوماً، وهذا نادر جدًّا، على أن يهدي إحداها، كان يرسم منها نسخة يعطيها بدلاً من الأصلية. أمّا بشأن قيمة اللوحات، فقد كانوا مجمعين على التصريح بأنّه من الرسم الرديء جدًّا. وقد أخذني الفضول مرّة أو مرّتين، فحاولت، وأنا أعبر الباحة، أن ألقي نظرة على أعمال باليستياري عبر زجاج النافذة، فلمحت بضع لوحات كبيرة ذات أرضية مظلمة كانت تُرى عليها صور نساء عاريات هائلات ذات أشكال متطرفة وأوضاع قليلة الطبعيّة.

وكان مرسم باليستياري يتلقّى باستمرار زيارة نساء عديدات. وكان بوسعي أن أراهن، عبر فتحه الباب الزجاجي، يعبرن الباحة ويختفين وراء الباب الذي يؤدّي إلى ممر الطابق الأرضي. وكنت أعلم أنّهن كنّ يذهبن إلى بيت باليستياري، إذ كان يسكن في المرسمين الآخرين رسّامان كانا يعيشان مع عائلتيهما ولا يستعملان، من جهة أخرى، النماذج النسوية لانصرافهما إلى الرسم التجريدي.

وكانت نساء باليستياري هؤلاء يشهدن بذوق متنوّع جدًّا صبيات وناضجات، سيدات ونساء من الشعب، هزيلات وسمينات، قصيرات وطويلات، فكان من الواضح أنّ باليستياري، كجميع أمثال دون جوان الذين يعوزهم الذوق المرهف، لم يكن يختار بدقة، وإنّما كان جامع مغامرات يهتم بالكم أكثر من اهتمامه بالكيف.

وقد كان نادراً جدًّا أن يعقد باليستياري علاقة مستمرة مع امرأة واحدة، وحين تكون له واحدة، لم يكن ليقطع من أجلها مغامراته الأخرى الأقل أهمية. وخلال السنوات الأولى التي سكنت فيها شارع مارغوتا، أثار شخص باليستياري وحياته فضولي إلى حد أنّي تجسّست عليه قليلاً. بل لقد بلغت من ذلك أن نظمت إحصائية النساء اللواتي يقصدنه: حتّى خمس نساء مختلفات في الشهر، يعني امرأة جديدة كلّ

ستة أيام، بمعدل زيارتين كلّ يوم. وكان باليستياري في الخامسة والخمسين حين رأيته للمرّة الأولى؛ وفي الوقت الذي جرت فيه الأحداث التي أرويها، كان قد بلغ الخامسة والستين؛ ومع ذلك، فلم ألاحظ خلال هذه السنوات العشر أيّ تغيّر في عاداته: فقد كان ما يزال يرى عدد النساء نفسه، كما لو أنّ الزمن لم يكن، بالنسبة له، يجري.

بلى، لقد حدث تغيّر، ولكنّه لم يكن نقصاً في الزيارات النسوية، كما يمكن أن يتوقع المرء، وإنّما كان زيادة. والواقع أنّ عشق باليستياري الذي كنت أشبّهه غالباً ببركان ذي نشاط هادئ ولكنّه مستمر، قد عرف في حوالي الثالثة والستين من عمره، مرحلة اشتداد وتفاقم. فإنّ النساء اللواتي كنّ يتهادين في الباحة ويذهبن ليطرقن باب الرسام الشيخ بدَوْنَ لي أكثر عدداً؛ ثمّ إنّني لاحظت أنّ القضية أصبحت دائماً بعد الآن قضية فتيات صبيات جدًّا: لقد كان باليستياري، شأنه في ذلك شأن جميع الفاسدين، يميل مع السن إلى المراهقات. وقد تحدّثت بصدد عشقه عن مرحلة تفاقم، وربّما كان من الأصح التحدّث عن هوسٍ، لا واعٍ على الأرجح، بنموذج واحد من المرأة باستثناء جميع النماذج الأخرى. وبالإجمال كان باليستياري، على غير إدراك منه، يكف في تلك الفترة عن أن يكون دون جوان الجامع الذي كأنّه حتّى ذلك الحين، وللمرّة الأولى يكرّس نفسه أو يريد أن يكرّس نفسه لامرأة واحدة. وتلك الفتيات العديدات المتقاربات جميعاً، لم يكنّ غير رسوم موجزة تتفاوت في النجاح لنموذج يتميز رويداً رويداً بصورة خفية؛ كن تخطيطاً لوجه مثالي سوف يتجسّد ذات يوم.

وفي الواقع انقطع دفعة واحدة ذلك الفيض من المراهقات الذي كان يتدفق على مرسم باليستياري ليترك المجال لزائرة واحدة لا شك في أنّهن هيّأن ظهورها، وكانت تختصرهن جميعاً.

وقد أتيح لي أن أراقبها في شيء من التنبّه لسبب وجيه هو أنّي لاحظت بسرعة أنّها هي نفسها كانت تراقبني. فقد كانت بثوبها الذي يجعلها أشبه براقصة صغيرة والذي كان يتبع الموضة الشائعة، مع قميص صغير منتفخ وتنورة واسعة وقصيرة كانت تبدو مستندة إلى تنورة داخلية من الشعر - كانت بذلك كلّه تشبه زهرة مقلوبة ذات تويج منعطف مهتز، تتنزّه وهي تسير على مدفاتها. وكان لها وجه مستدير لفتاة صغيرة، ولكن لفتاة صغيرة قد كبرت بأسرع ممّا ينبغي ولُقّنت التجارب النسائية أبكر ممّا ينبغي...

كانت ممتقعة الوجه، وتحت وجنيتها ظلٌّ خفيف يُبرز خدّيها شاحبين، وكان حول وجهها شعر كستنائي كثيف متجعد. وكان فمها الصغير ذو الشكل والتعبير الطفوليين يحمل على التفكير ببرعم وردة ظهر مبكراً على غصن، من غير أن يتفتح: ولكن كان يطبع زاويتيه ثنيتان رقيقتان جذبتا انتباهي بصورة خاصّة بسبب شعور الجفاف الكثيف الذي كان ينبعث منهما. وأخيراً كان أجمل ما لديها عيناها الكبيرتان المعتمتان بشكلهما الطفولي أيضاً، تحت جبين محدب بعض الشيء، وكانت لهما نظرة لا براءة فيها تشعر ببعد لا يمكن تحديده، وبالفرار والتردّد. وبعكس نساء باليستياري الأخريات اللواتي كن يمضين باستقامة، خافضات الرأس، نحو مرسم الرسام العجوز، كانت هذه تجتاز الباحة في بطء يبدو مدروساً، كما لو أنّها كانت تدع لحركة خاصرتيها الكسلى أن تقودها. ولم يكن يبدو أنّها تقصد باليستياري على مضض، بل تبحث في الوقت نفسه، فيما هي ذاهبة إليه، عن الشيء آخر لا تعرف هي نفسها أن تحدّده. وإذن، فقد كانت دائماً تقريباً ترفع عينيها إلى مرسمي، فيما هي تعبر الباحة، فإذا رأتني خلف الزجاج، كما يحدث ذلك غالباً، إذ كنت أنصب مسندي بالقرب من النافذة، فإنّها كانت دائماً ترفق نظرتها بابتسامة. ولمدّة من

الزمن؛ لم أدر كيف أفسّر تلك البسمة التي كانت خفيفة إلى حدّ أنّه كان بالإمكان الشك في ألا تكون مقصودة. ولكن بعد أن اتفق لي مراراً، فيما بعد، أن التقيت بها في الممر، اقتنعت بأنّ هذه البسمة كانت لي حقًّا، وإنّها كانت تضفي عليها معنى واضحاً جدًّا.

وكانت تلك الدعوة الصامتة تبعث فيّ شعوراً غامضاً من النفور سأجهد في تعليله. فأنّا قبل كلّ شيء لست ميّالاً للمغامرات. ولا سيّما حين تكون المغامرة، كما كانت الحال هنا، موحاة ومفروضة تقريباً من امرأة. بل أذهب إلى القول إنّ إلحاح تلك البسمة كان يوحي لي رغبةً منكّدة بألا أستجيب لها وأتظاهر بأنّي لم ألاحظها. ثمّ إنّ الفتاة، في الدرجة الثانية، لم تكن تروق لي؛ إنّني لم أحبّ قط إلّا النساء الناضجات، وهذه التي لم تكن على ما يبدو لي تتجاوز السابعة عشرة، كانت تظهر بمظهر ذات الخمسة عشرة، بسبب جسمها الدقيق ووجهها الطفولي. وكان ثمّة أخيراً عامل ثالث، أوفر قيمة وإن كان أقل وضوحاً وتفسيراً، هو شعور الغثيان الذي كان يرهقني كلّما كنت أتمثلني وأنا أقترب منها، وأحدثها، وأنتهي إلى نتيجة لا مفر منها: هي القيام بفعل الحب معها. وشعور الغثيان هذا لم يوحيه لي نفور مباشر أو جسدي: صحيح إنّ الفتاة لم تكن تروق لي، ولكنّها لم تكن تثير اشمئزازي قط؛ كان حسبي أن أتخيّل التجربة التي سأمضي إليها حين أقبل دعوتها. وكنت أفكّر بأنّه شعور الغثيان الخائف نفسه الذي يُحسّه جميع الذين يجدون أنفسهم على عتبة واقعٍ مجهول وغامض، أو ربّما، بكلّ بساطة، على عتبة الواقع لا أكثر، الواقع الذي ألفوا منذ وقت طويل ألا يجابهوه. أقول إنّه شعور اشمئزاز ممزوج بخوف مبهم، وهو شعور كان يدهشني، لأنّ هذه الفتاة الطفولية التافهة إلى أبعد حدّ لم تكن تبدو وهي تبرّره في أيّة حال.

لكن ليس يسيراً، حين يسأم الإنسان، أن يفكّر تفكيراً مستمراً في

شيء ما. ولقد كان السأم بالنسبة لي شبيهاً بنوع من الضباب كان تفكيري فيه يتيه باستمرار، ولا يلمح إلّا في تقطّع بعض تفاصيل الواقع؛ كما يحدث إذ يجد المرء نفسه في ضباب كثيف فيلمح تارةً زاوية بيت، وتارة أخرى وجه مار، أو حاجة أخرى، ولكن للحظة فقط، ثمّ تختفي في اللحظة التالية.

وعبر ضباب سأمي، كنت قد لمحت الفتاة وباليستياري، ولكن من غير أن أوليهما أدنى اهتمامي، وعلى كلّ حال من غير أن أفكّر بهما قط. وهكذا كان يحدث أن أنسى طوال أسابيع وجود هذين الكائنين اللذين كانا مع ذلك يعيشان ويتحابّان على بُعد خطوات منّي. وكنت بين فترة وأخرى أتذكرهما في نوعٍ من الذهول فأفكّر آنذاك «عجباً! إنّهما هنا دائماً، وهما ماضيان في حبّهما». وكنت أنسى باليستياري إلى درجة أنّي، في الصباح الذي أعقب فراري من بيت أمّي، وبعد عودتي إلى المرسم إثر أخذ فنجان قهوة في مقهى قريب، لاحظت في شارع مارغوتا، أمام باب البيت الخارجي، مركبة جنائزية، سوداء ومذهّبة، مزدانة عند أركانها الأربعة بالملائكة المألوفة المذهّبين، ومشدوداً إليها الأحصنة المألوفة السوداء بين المحملين، ولكنّي لم أفكّر أنّ من الممكن أن تكون بانتظار شخص أعرفه. واستدرت حول المركبة التي كانت تسدّ الطريق، وتقدّمت في الممرّ؛ ولكن لمّا كنت كعادتي أسير خافض الرأس، فقد أوشكت أن أصدم بجبيني طرف التابوت الأسفل الذي كان أربعة رجال يحملونه في تلك اللحظة على أكتافهم متجهين به صوب المركبة.

وقمت بقفزة مفاجئة إلى الخلف، بينما كان القبّارون الأربعة يرمونني بنظرة دهشة واستنكار؛ ثمّ مرّ التابوت بإزاء أنفي يتبعه شخصان فقط: شاب ذو وجه قاسٍ مجدور، يرتدي ثوباً قماشياً أزرق، وامرأة كانت تعطيه ذراعها ولم يكن يُرى منها شيء، لأنّها

كانت مسربلة بغلالات سوداء من الرأس حتّى القدمين. وذكّرني الشاب بباليستياري، ربّما لأنّه كان هو أيضاً ذا وجه أحمر بعض الشيء وحاجبين شديدي السواد؛ وفي الوقت نفسه سمعت بوّابة البناية تعلّق بصوت منخفض حول طابع الفجاءة التي تحمله بعض حوادث الموت، ثمّ سمعتها تنطق باسم الرسّام العجوز.

وعلى هذا النحو علمت أنّ باليستياري قد مات، مساء الأمس على الأرجح، وأنّ هذه الجنازة كانت جنازته، وأنّ المرأة المرتدية ثوب الحداد كانت زوجته التي كان قد انفصل عنها منذ سنوات عديدة، وأنّ الشاب ذا الثوب الأزرق كان الابن الذي رُزقه منها.

وكما سبق أن ذكرت، كان السأم قد استغرقني منذ أيام، حتّى إنّني لم أنس فقط وجودي باليستياري، بل أيضاً وجود الفتاة التي كانت مع ذلك توقظ اهتمامي. ومن أجل هذا لاحظت من غير ما دهشة أنّي كنت قد قضيت اليومين الأخيرين في مرسمي، جاهلاً أنّ باليستياري، على بُعد ثلاثة أبواب منّي، كان يعاني المرض وينازع، وأنّه قد سُهر بجانبه، ثمّ وضع في التابوت وأخذ. ومن يدري، فربّما كان هناك من حدّثني عن مرض باليستياري، ولكنّي لم أسمعه، بالرغم من إصغائي له، لشدّة ما كنت غارقاً في سأمي؛ كما كان يحدث لي أحياناً بعد أن كون قد قرأت عناوين الصحف بعناية، فاكتشفت بعد لحظة أنّي لم أكن أعرف قط ما كان منشوراً فيها. وكان لا بدّ من التابوت، أو على الأصح اصطدام جبيني اصطداماً مؤلماً بالتابوت، ليعود إلى ذهني وجود الرسام، في اللحظة التي كنت أعلم فيها موته.

والواقع أنّ موت باليستياري لم يكن بالسهولة التي يمكن أن يبدو فيها لأوّل وهلة. ففي اليوم نفسه، استطعت أن أدرك نهاية الرسام العجوز، من خلال إشارات البوابة التي كانت تحمل طابع الدهشة

الفاضحة، ومن خلال تعليقات أصرح صدرت عن فريق من الأصدقاء التقيت بهم في مقهى.

وكان يبدو أن باليستياري قد مات في لحظة خاصّة جدًّا، أي بينما كان يقوم بفعل الحب مع الفتاة التي بسمت لي تلك المرّات الكثيرة. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ ذلك الحب لم يكن حبًّا طبيعياً (إذا فهمنا بالطبيعي العمل الذي يؤدّي إلى الإنجاب) وإنّما كان تشويهاً، وتفرّداً غرامياً؛ إلى حدّ أنّ باليستياري قد قُتل، إذا صحّ التعبير، لا بالحب، بل بالطريقة التي مارسه بها. ولم تشأ البوّابة أن تُفصح، مكتفية بالإشارة إلى الحادث في لهجة غضب وغيظ؛ أمّا رفاقي في المقهى فقد أطالوا في شرح التفاصيل، كما لو أنّهم كانوا حاضرين في المرسم في لحظة الموت؛ ولكنّي تأكّدت آخر الأمر من أنّها مجرد افتراضات.

والواقع أنّ باليستياري قد أحسّ بأنّه على غير ما يُرام، ومات تحت عيني الفتاة المذعورتين: هذا كلّ ما كان يمكن معرفته معرفة أكيدة. أمّا كون الفتاة عشيقته، وأنّه قد وُجد هو نصف عار تحت سريره، وأنّ الفتاة قد هرعت تنادي البوابة وهي ترتدي الروبديشامبر، ولا شيء تحته، كلّ ذلك يؤكد، على ما يظهر، ما قيل عن موت مفاجئ حصل في لحظة الشهوة. ولكن الذين لم يكونوا يريدون تصديق هذا النوع من الموت، كانوا يلاحظون أنّ الفتاة إذا كانت ترتدي الروبديشامبر فلأنّها كانت تعمل كنموذج، وأنّها كانت واقفة في الوضع الذي تُرسم به؛ وأمّا باليستياري فقد كان من عادته في الصيف، أن يرسم وهو يرتدي تبّان البحر. ومن جهة أخرى، وتأييداً للشائعات المتعلقة بالموت بسبب الحب، كان يُذكر تأكيد الطبيب الذي أسرع إلى سرير المحتضر: «لو أنّ هذا الرجل قد أدرك بأنّ هناك بعض الأمور التي لا تفعل في تلك السنّ، لكان ما يزال حيًّا». بينما

كان آخرون يذهبون إلى أنّ الطبيب قد اكتفى على العكس، بعد أن فحص باليستياري، بأن يقول للفتاة: «يا سنيورة، لقد قتلتِه» ولكنّه ما لبث أن أضاف: «أو أنّك على الأصح قد ساعدته على أن يقتل نفسه». غير أنّ أحداً لم يكن يعرف من هو هذا الطبيب وأين كان موجوداً؛ ربّما كان طبيب الحراسة لإحدى صيدليات الحي الكثيرة؛ فإنّني أنا لم أهتمّ بالبحث عنه.

في ذلك اليوم نفسه، بعد أن تناولت غدائي في مطعم صغير من مطاعم شارع مارغوتا، عدت إلى مرسمي فوجدت فيه رزمة مع كلمة من أمّي. وفي الكلمة، كانت أمّي تقدّم لي درساً في فن معرفة الحياة:

«في المرّة القادمة، بدل أن تهرب، مُرّ على الأقل لتودّعني».

وفي الرزمة كانت سترة السمو كنغ والبنطلون الفاتح الذي كانت ريتا الفارعة قد نظّفته وكوته. ورميت بهذا كلّه أرضاً، وتمدّدت على الأريكة وأشعلت سيكارة. وكنت أعاني كالعادة شعوراً فظيعاً بالسأم، وكان يبدو لي غريباً ألا يلاحظ الآخرون أنّي كنت سئماً، أعني ألا يدركوا أنّهم هم والعالم كلّه، لم يكونوا بالنسبة لي موجودين في الواقع، وأن يتمكنوا على العكس، شأنهم في ذلك شأن أمّي، من أن يتصرفوا معي كما أنّي لم أكن لأسأم. وفيما أنا أدخّن، جعلت أفكّر في وضعي الذي كان طبعاً يسوء يوماً بعد يوم. وتساءلت أخيراً عمّا بقي لي أن أفعله، الآ، وقد تخليت عن الرسم، ولم أملك الشجاعة على أن أقبل مال أمّي.

وكنت أدرك أنّ ليس ثمّة بعد إلّا مجال صغير للعمل في اتجاه فعلٍ جدير بأن يؤدّي إلى تغيّر جذري حقيقي؛ ولكن كان بوسعي أن أعمل ما يعمله كثير من الأشخاص حين يجدون أنفسهم في وضع غير محتمل: فإنّهم يقبلونه ويعتادونه. وفكّرت بأنّي، في الحقيقة، شبيه بخَلف أسرة نبيلة. ولكنّها منحلّة، يصرّ على أن يعيش عيشة أجداده

الباذخة نفسها. فهو حين يقبل الوضع الذي كان يبدو له غير محتمل، بينما هو في الحقيقة وضع طبيعي لمجموعة كبيرة من الناس، فإنّه يكفّ عن العذاب ويلاحظ أنّ كلّ ما كان يبدو له غير محتمل، على مستوى ما، ليس بعدُ كذلك على الإطلاق، إذا نُظر إليه من مستوى أكثر انخفاضاً. والواقع أنّ ما كان يجعلني أتألم لم يكن السأم بقدر ما كان التفكير بأنّه كان بوسعي أو كان عليّ ألا أسأم. أقصد إلى القول إنّي كنت أنتمي، أنا أيضاً، إلى أسرة نبيلة جدًّا وعريقة جدًّا لم يحدث لها في الماضي أن سئمت قط، لأنّها كانت دائماً في علاقات مباشرة ومحسوسة مع الواقع. وكان عليّ أن أنسى أسرتي وأن أقبل نهائياً الوضع الذي كنت أجدني فيه. ولكن هل يستطيع المرء أن يعيش في السأم، أي أن يعيش بلا أيّة علاقة مع الواقع، من غير أن يتألم من ذلك؟ هنا كانت تكمن المشكلة كلّها.

وأخذني النعاس بين جميع هذه الأفكار فنمت نوماً ثقيلاً، وبي إحساسٌ بأنّي أغرق، ولست أنام. وحلمت حلماً واضحاً: فقد كان يخيّل إليّ أنّي كنت واقفاً أمام مسندي، ولوحة ألواني في يد، والريشة في اليد الأخرى. وكان موضوعاً على المسند القماشة العادية البيضاء، وإلى جانب المسند، كانت تقف امرأة نموذج (وهو حدث غريب إذ إنّي منذ بضعة أعوام كففت عن ممارسة الرسم التصويري) إنّها امرأة شابة ذو وجه عاقل، وعلى عينيها نظارتان وهي تذكّرني كثيراً بريتا. وبصورة جنائزية، كان يرتسم على بياض جسدها المسطّح المفتقر إلى حجم، لطختا ثدييها التوأمين اللتان تشبهان درهمين كبيرين مظلمين، ومثلّث العانة الأسود. والمفهوم أنّي أرسم صورة هذا النموذج؛ والواقع أنّ يدي، المسلّحة بالريشة، تتحرّك طبعاً بحركات الرسّام على صفحة القماشة غير المرئية. وظللت أرسم في عناية ووثوق، وكانت اللوحة تبشّر بأنّها ناجحة، ولم يكن النموذج ليتحرّك أو ينبس،

حتّى يظنّ أنّه ميت لولا اللمعان خلف العينين والبسمة التي ربّما كانت هازئة والتي تقطّب الشفتين. وأخيراً، وبعد جلسة طويلة جدًّا، أنتهت الصورة فابتعدت قليلاً لأتأملها مليًّا. مفاجأة: إنّ اللوحة فارغة، بيضاء، لم تُمسّ، ولا يبدو عليها أيّة امرأة عارية مرسومة أو مصوّرة؛ لا شك في أنّي عملت كي لا أعمل شيئاً. وذُعرت فتناولت أنبوباً من أنابيب الألوان، فسحقت منه معجوناً على لوحي، وغمست فيه ريشتي، وانكببت من جديد على اللوحة. لا شيء فقد ظلّت القماشة بيضاء؛ وفي هذه الأثناء، ابتسمت الفتاة أمام جهودي التي تذهب عبثاً بسمة كانت تزداد سخرية، فيما ظلّت تحتفظ بتعبيرها المرائي والعاقل الذي كانت نظارتاها المؤطرتان تضفيانه عليها. وحطّت يدٌ عليّ: إنّه باليستياري بلحمه ودمه، وعلى وجهه المحمر بسمة أبوية؛ وقد أخذ من يدي لوح الألوان والريشة، ثمّ انزرع أمام المسند موالياً إياي ظهره. وكان باليستياري يلبس تباناً لا أكمام له ويذكّرني في هذا بيكاسو الذي أجد له فجأة بعض الشبه. وها هو باليستياري يرسم الآن، وأنا أنظر إلى رقبته التي يغطّيها شعره الكثيف الفضّي؛ وأفكّر بأنّ باليستياري يرسم بينما لا أستطيع أنا، بعكسه، أن أرسم. وانتهت لوحة باليستياري، ومضى باليستياري، وظللت أمام عمله. ولست أدري إذا كانت اللوحة جميلة أم بشعة، ولكنّها على كلّ حال مرسومة، وليست بيضاء فارغة كما كانت حين توقفت عن الرسم، بل ملأى بالخطوط والألوان. وفجأة هزّني غضب مجنون، فتناولت المدية التي أستعملها عادة لحكّ لوحي، وضربت القماشة بعنف ونظام، من فوق إلى تحت، بحيث مزقتها على طول ارتفاعها. فظاعة؟ إنّي لم أضرب اللوحة، وإنّما ضربت جسم النموذج الذي يقطر الآن دماً من جروح عديدة ضيّقة وعمودية، ابتداء من الصدر وانتهاء بالساقين. إنّ الدم يسيل من الجروح، أحمر غزيراً، وتتشكّل مجارٍ

ثانوية وتلتقي، حتّى أصبح جسم الفتاة، التي ظلّت مع ذلك تبتسم، مغطّى كلّه بشبكة من الدم، بينما أنا مستمر في الطعن، في عنف ونظام، إلى أن استيقظت في صرخة ضيق شديدة.

كان النهار غائماً، وكان المرسم غارقاً في نور منخفض، رمادي وحزين. ووثبت خارج أريكتي، وكما لو أنّي أعرف ما سأفعله، هرعت إلى الباب ففتحته وخرجت إلى الرواق؛ وكان خالياً، وأبوابه الأربعة مقفلة. ولكنّي إذ نظرت في تنبّه لاحظت أنّ باب باليستياري كان مشقوقاً. ومن غير أن أفكّر، توجّهت إلى هذا الباب، وأنا ماضٍ في العمل بطريقة شبه آلية، فوجدته بالواقع مفتوحاً، ودفعته ودخلت.

ولم يكن قد سبق لي أن دخلت مرسم الرسام العجوز، ولهذا وسعني أن أتوهّم أنّ الفضول وحده كان الذي يدفعني إلى زيارته.

وكانت الستائر مسدلة، والمرسم في نصف ظلام، وكان مصباح أحمر قاتم على قدم من خشب مذهّب ومنقوش، أقرب إلى أن يكون حاجة كنسيّة، مضاءً فوق طاولة يغطّيها نسيج أرجواني موشّى بالزهور. وعلى نور هذا المصباح الدامي استطعت أن أدرك أنّ مرسم باليستياري كان مختلفاً عن مرسمي. فقد كان أوّلاً أكبر، مع سلّم يفضي إلى ممر خشبي ينفتح عليه بابان. وبالإضافة إلى ذلك، فبينما كان لمرسمي مظهر مرسمٍ حقيقي مؤثّث باختصار وقائم في الفوضى، فإنّ مرسم باليستياري، كما لاحظت بسرعة في شعور غامض من الاشمئزاز، كان على العكس مؤثّثاً بطريقة قديمة كصالون بورجوازي يرجع عهده إلى أربعين أو خمسين سنة؛ وما كان لأحد أن يفكّر بأنّ رسّاماً قد سكن فيه لو لم تكن الجدران مغطّاة بصوره العارية الضخمة المعلقة إحداها بجانب الأخرى، من الأرض حتّى السقف، ولو لم يكن ثمّة مسند هائل قد أقيم في النور بالقرب من الباب الزجاجي، وعليه لوحة غير ناجزة.

وما لفت انتباهي خاصّة طابع الأثاث المعتم، وهو أثاث معظمه قديم أو منسوخ عن القديم، من طراز «رونيانس»، وتحت اللوحات كانت الجدران مغطّاة بنسيج مزركش أحمر؛ وكان ملقى على الأرض طنافس فارسية صغيرة ذات رسوم معتمة ومتلاصقة، مبعثرة في كلّ مكان.

وأغلقت الباب خلفي، واستعرضت بعيني القاعة، وشممت بملء أنفي الرائحة الخاصّة، الجنائزية والمنزلية، التي كانت تطفو في الهواء. واقتربت بهدوء من المسند. لا بدّ أنّ اللوحة غير الناجزة هي الصورة التي كان باليستياري يرسمها لعشيقته الفتية قبل أن يموت بقليل. وأعترف أنّي قد استخفّني الفضول في تلك اللحظة لأرى كيف كانت مصنوعة. ولكنّي حين أصبحت قرب اللوحة استشعرت إحساساً بعدم التصديق والخيبة. والواقع أنّ باليستياري كان قد خطّ عليها بقلم الفحم صورة كان يبدو لي صعباً أن أقرّ بها من صورة الفتاة ذات الجسم الدقيق والوجه الطفولي التي بسمت لي من قبل مراراً. كانت صورة من تلك الصور العارية المألوفة المرسومة، بالإضافة إلى ذلك، في وضع مبسّر، أي جاثية على ساقيها المطويتين، ولكن اليدين متشبكتان وراء الرقبة، بحيث إنّ المقصود إبراز النهدين والخاصرتين، هذين الجزئين اللذين كان باليستياري يؤثرهما على سواهما من جسم المرأة، كما يبدو. وقد دهشت خصوصاً من اتساع الخاصرتين وثقل الثديين. وهذا ما لا أذكر أنّي لاحظته لدى النموذج. بل على العكس، لقد كانت أجدر بأن تملك قامة مشدودة وكتفين هزيلتين وذراعين دقيقتين. ولم يكن باليستياري قد اهتم بتصوير الوجه، وهذا إسقاط له مغزاه، وهكذا استحال عليّ على الأقل أن أكتشف هويّة صاحبة الصورة.

ونظرت طويلاً إلى اللوحة، وأنا أفكّر بأنّ باليستياري كان حقًّا رساماً رديئاً جدًّا، حتّى ولو نظرنا إليه من زاوية الطبيعيين التقليدية

القديمة التي كان يدّعي أنّه ينتمي إليها. ثمّ انصرفت إلى المرسم وأخذت أتفحّص اللوحات المعلّقة بالجدار. ولم يكن ثمّة إلّا صور عارية كما أسلفت، صور نساء عاريات، معظمهن في أوضاع غير طبيعية أو مبسّرة؛ وأوّل فكرة خطرت ببالي هي أنّ باليستياري، على كونه رساماً رديئاً، كان مع ذلك رساماً شديد العناية، بل وافر الدقة، إلى درجة الشكلية. وكان واضحاً أنّه لم يكن يعتمد على إلهامه ويعمل على شاكلة المعلمين الأوائل، بطريقة طبقات الألوان المتعاقبة، عائداً من غير انقطاع إلى بعض التفاصيل، إلى أن أصبح متأكداً تماماً من أنّه قد استنفد كلّ إمكانياتها وكانت النتيجة للأسف هذه النزعة الطبيعية الفوتوغرافية الخاصّة المستمدّة من اللوحات التي تُرى معروضةً في ما يسمّى بمعارض الفن الأوفر تجارة. ولكن كان واضحاً، من جهة أخرى، أنّ جميع هذه اللوحات كانت متقنة، ولو بهذا الإتقان في القبح الذي تتميّز به الخلاعة. وبعبارة أخرى، كان عالم باليستياري عالماً محسوساً ومنسجماً، بلا تصدّع ولا عدوى، ولم يكن مهماً أن يشعر بشعور الهوس. وفي هذا العالم، كان باليستياري قد وجد نفسه، على هواه، حتّى موته، من غير أن يشكّ فيه أو يحاول أن يخرج منه. وربّما كان باليستياري نوعاً من المجانين، ولكن جنونه كان يثوي في أن يتوهّم أنّه كان ذا علاقةٍ بالواقع، أي أنّه كان عاقلاً، كما تشهد بذلك لوحاته، بينما كنت أنا مضطراً إلى القول بأنّي ربّما كنت عاقلاً تكمن عقلانيته في الاعتقاد العميق بأنّ مثل هذه الصلة كانت مستحيلة، أي كنت عاقلاً يعتقد نفسه مجنوناً.

كنت قد طفت بالجدران، وأنا غارق في هذه الأفكار، أنظر إلى اللوحات واحدة بعد الأخرى، من غير أن أجد لوحة أستطيع أن أتعرّف فيها إلى ملامح الفتاة ذات الوجه الطفولي. وقلت لنفسي بأنّ الأمور لا بدّ أن تكون كما يلي:

إنّ باليستياري لم يسبق له قط أن رسم صورة عشيقته الصغيرة، بل هو قد اكتفى بأن يحبّها، بخلاف ما قد يفترضه أحد؛ بالنظر إلى سنّه المتقدمة.

وكنت على وشك أن أنصرف، حين رفعت عيني إذ سمعت حركة صادرة من فوق. وفي تلك اللحظة بالذات، كان نموذج باليستياري يخرج من أحد الأبواب المؤدية إلى الممر، ويبدأ في هبوط السلّم، على غير عجل، جاهلاً وجودي بالطبع، خافض العينين، يدٌ على الدربزين، والأخرى مرفوعة إلى الصدر لتشدّ رزمة كبيرة.

وحين بلغتُ أسفل السلّم، رفعت أخيراً عينيها وبدت مذعورة لرؤيتي واقفاً أمامها، قرب الطاولة التي كانت في وسط المرسم. ولكن ذلك لم يدم إلّا لحظة: فسرعان ما امتلأ وجهها المستدير بسكون هادئ كما لو أنّ هذا اللقاء لم يكن بالنسبة لها مفاجأة، بل كما لو أنّها قد استعّدت له منذ وقت طويل. وقلت في ارتباك:

- أنا أسكن المرسم المجاور؛ ولعلّك قد رأيتني أحياناً؛ وقد دخلت لألقي نظرة على اللوحات...

فأجابتني وهي تريني رزمتها:

- وأنا قد جئت آخذ حوائجي، قبل أن يؤجّر المرسم. كنت نموذجه، وكان قد أعطاني المفتاح، وبهذه الطريقة دخلت.

ولاحظت أنّها لم تكن لها أيّة لهجة يمكن أن تتيح معرفة مسقط رأسها والطبقة الاجتماعية التي كانت تنتسب إليها. صوت محايد لا لون له، موجز، شديد الاقتصاد حتّى إنّه يشعر بالزهد والتمنّع. ولم أدر ماذا أضيف، فسألتها كيفما اتفق:

- هل كنت تزورين كثيراً باليستياري؟

- نعم، كلّ يوم تقريباً.

- ولكن متى مات؟

- مساء أول من أمس.

- وهل كنت حاضرة حين مات؟

فرأيتها تنظر إليّ لحظة بعينيها الكبيرتين المعتمتين اللتين كانتا تبدوان وهما تعكسان الأشياء بدلاً من أن ترياها.

- لقد أحسّ بالانزعاج بينما كنت مائلة أمامه للرسم.

- وكان يرسم صورتك؟

- نعم.

فلم أتمالك نفسي من الصياح بدهشة:

- ولكن أين هي اللوحة التي تمثّلك؟

فأشارت إلى المسند:

- تلك هي.

والتفتّ. فنظرت إلى اللوحة، خلسة، ثمّ إليها طويلاً. كانت قامتها في الظل الذي كان يبدو وهو يمتصّ ثنياتها واستداراتها، تتجلّى على غاية الدقة والطفولة، بتلك التنورة العريضة التي تتّسع فوق ساقيها الدقيقتين، وذلك الصدر الصغير، وهذا الوجه الذي تأكله العينان الكبيرتان المعتمتان. وسألت غير مصدّق.

- ولكن هل أنت حقًّا من مَثَل أمامه من أجل هذا الرسم؟

فبدت بدورها مندهشة من ذهولي:

- نعم، لماذا؟ ألا تحبّ الطريقة التي رسمني بها؟

- لا أدري إن كانت تروق لي أم لا. ولكن ما هو أكيد، أنّها لا تشبهك.

- إنّه لم يرسم الرأس، لأنّ هذا كان آخر ما يرسم دائماً. كيف عرفت أنّها لا تشبهني؟

- أقصد أنّ الجسم الذي رسمه باليستياري لا يبدو جسمك.

- أتظن؟ إنّه مع ذلك جسمي.

وكنت أحسّ بتفاهة وزيف هذه المناقشة التي تدّعي الفنّ حول رسم كهذا، وفوق ذلك في موضوع تشابه. ولكن، على الرغم ممّا استشعرته من خجل، ومن تواطؤ صامت كان عليّ أن أرفضه، فإنّي لم أتمالك إلّا أن أجيب بحيوية:

- ليس هذا ممكناً، وأنا لا أستطيع أن أصدّقه.

فردّت قائلة:

- أتظن؟ أنّني مع ذلك مصنوعةٌ هكذا.

ووضعت رزمتها على الطاولة، واتجهت إلى المسند، فتأمّلت اللوحة لحظة، ثمّ أضافت وهي تلتف نحوي:

- ربّما كان هناك بعض المبالغة، ولكنّي هكذا في حقيقة أمري.

ولست أدري لماذا تذكّرت، وأنا أراها واقفة بالقرب من اللوحة، حلم بعد الظهر. وسألت بشرود:

- ألم يرسم باليستياري إلّا هذه الصورة عنك، أم أنّه رسم صورتك على لوحة أخرى؟

- أوه! لقد رسمني مرّات كثيرة.

ورفعت عينيها نحو الجدران، بدأت تعدّ، وهي تشير إليها بالتتالي:

- هذه أنا، وهذه أيضاً، وتلك فوق، وتلك الأخرى.

وأضافت بمثابة خاتمة:

- إنّه لم يكن يشبع من رسمي. وكان يجعلني أمثُل أمامه ساعات طويلة.

ولا أدري أي رغبة أخذتني بأن أقول شراً عن باليستياري، وربّما لأنتزع من هذه الفتاة لهجةً ما تتميّز بمزيد من الطابع الشخصي وتكون أقلّ لامبالاة.

وقلت في قسوة:

- مشقة كبيرة من أجل نتيجة هزيلة كهذه؟

- لماذا؟

- لأنّ باليستياري كان رساماً رديئاً جدًّا، بل لم يكن رساماً على الإطلاق.

فلم يبد عليها أيّ ردّ فعل، واكتفت بالقول:

- إنّني لا أفقه شيئاً في الرسم.

وألححت:

- الواقع أنّ باليستياري لم يكن إلّا رجلاً يحبّ النساء كثيراً.

فوافقت في اقتناع:

- آه! إذا كان الأمر يتعلق بذلك، فهو صحيح.

وفي الوقت نفسه، كانت قد تناولت رزمتها وهي تنظر إليّ نظرة استفهام، كما لو أنّها تقول:

- إنّني ذاهبة، فلماذا لا تتدبّر أمرك لتستبقيني؟

واقترحتُ بعذوبة مفاجئة في صوتي دهشت لها شخصياً لأنّي لم أردها ولم أفكّر فيها:

- هل تريدين أن تأتي لحظة إلى مرسمي؟

فرأيتها تشرق بأمل سريع وساذج:

- أتريد أن أمثل أمامك للرسم؟

فظللت مرتبكاً. ولم يكن قد خطر لي أن أكذب عليها، ولكن ها هي تعرض حجة كاذبة كانت تذلّني مذلّة مزدوجة، لأنّها كانت نفاقاً، ولأنّ هذا كان آخر ما يمكن أن ألجأ إليه: نفاق الرسام وهو يدعو الفتاة الجميلة إلى مرسمه بحجّة أن يرسم صورتها، وهذه بالاختصار حجّة كان باليستياري هو الجدير بالتذرّع بها.

وسألتها بلهجة لا تخلو من استياء:

- تُرى، هل دعاك باليستياري في المرّة الأولى إلى مرسمه، بحجة أن يرسم لك صورة؟

فأجابت في رصانة:

- كلا. كنت أقصده لآخذ دروساً في الرسم. ثمّ أراد أن يرسم صورتي، ولكن فيما بعد...

وهكذا، فإنّ حجة الصورة لم تكن بالنسبة إليها تصنّعاً، بل كانت شيئاً جديًّا. وهي بالفعل قد أضافت:

- ليس لديّ الآن ما أفعله. فإذا شئت، كان باستطاعتي أن أمثل أمامك للرسم حتّى ساعة العشاء.

وأتساءل عمّا إذا كان قد وجب عليّ أن أوضح لها أنّي كنت رساماً قد كفّ عن الرسم؛ وأنّني، من جهة أخرى، حين كنت أرسم، فإنّي لم يسبق لي أن رسمت قط لوحات تصويرية. ولكن فكّرت بأنّه سيتوجّب عليّ في تلك الحالة أن ألتمس حجة أخرى لأجتذبها إلى مرسمي، لأنّه كان يخيّل إليّ أنّي كنت بحاجة إلى ذريعة، فكان الأفضل أن أقبل حجة الصورة. وإذن، فقد قلت بخفّة وإبهام:

- طيّب... لنذهب إلى مرسمي.

وأخبرتني وقد هدأت وقرّت، وهي تأخذ رزمتها عن الطاولة:

- في مثل هذه الساعة كنت دائماً أمثل أمام باليستياري للرسم. كان يرسم كلّ يوم من الرابعة حتّى السابعة.

- وفي الصباح أيضاً، من العاشرة حتّى الواحدة.

وفي تلك الأثناء كنّا نتّجه نحو الباب، وكنت أفكّر بأنّها كانت ترى للمرّة الأخيرة هذا المرسم الذي قضت فيه شطراً من حياتها، وكنت أتوقّع، ربّما بدافع الشفقة على الرسام العجوز الذي كان قد أحبّها، أن تقول شيئاً أو على الأقل أن تلتفت لتلقي نظرة أخيرة. ولكنّها اكتفت بأن سألتني، وهي تلقي نظرة على الجدران:

- الآن وقد مات، ماذا يمكن أن يُعمل باللوحات؟

فأجبتها بالقسوة نفسها:

- من الممكن أن يسعوا لبيعها. ثمّ حين يرون أنّ ليس ثمّة من يرغب فيها، يلقونها في قبوٍ ما.

- في قبو؟

- نعم، تخلّصاً منها.

- كانت له امرأة انفصل عنها. فاللوحات ستعود إليها، هي.

- من باب أولى أن ترميها.

فلم تقل شيئاً، ظلّت على عدم اكتراثها وكتمانها. وكانت تتقدّمني في الممر، وإذ رأيتها من ظهرها، وتلك الرزمة الضخمة في ذراعيها، وهي تمشي تلك المشية التي كانت تبدو لا إرادية ومقتسرة، بينما كانت في الواقع شديدة التصميم، كانت تمنح الشعور بأنها إنّما تغيّر المنزل بكلّ بساطة. أجل، إنّها تنتقل من مرسم باليستياري إلى مرسمي: هذا كلّ ما في الأمر.

ولحقت بها ففتحت لها بابي وأنا أقول:

- إنّه كما ترين مرسم يختلف كثيراً عن مرسم باليستياري.

فلم تجب. كما لو أنّها لم تجد أي فرق بين مرسمي ورسم عشيقها العجوز. واتجهت بتصميم نحو الطاولة، فوضعت عليها رزمتها ثمّ انفتلت إليّ وهي تسألني:

- أين غرفة الحمام؟

- هناك، ذلك الباب.

ورأيتها تتّجه نحو غرفة الحمام ثمّ تدخلها. وقصدت الأريكة، فسوّيت الوسائد التي كنت قد رقدت عليها بعد الظهر؛ ثمّ التقطت أعقاب السكاير التي رميتها أرضاً بعد أن دخّنتها. وفيما كنت أنشغل بهذه الأعمال، كنت أفكّر بالفتاة، متسائلاً عمّا إذا كانت تروق لي،

وإذا كانت لديّ الرغبة في أن أفعل ما كانت تنتظره منّي، فأشعر أنّي لم تكن لي أيّة رغبة بها. وقلت لنفسي أخيراً إنّني سأسألها عن باليستياري وعن علاقتها به، تلك العلاقة التي كانت تثير فضولي، ثمّ أصرفها.

وكنت هادئاً جدًّا ومستغرقاً في إحساسي بهدوئي حتّى إنّي نسيت حجة الرسم التي كانت الفتاة قد قدّمتها لي والتي قبلتها بشرود.

ولهذا أخذتني دهشة تامّة حين فُتح باب غرفة الحمام وبدت الفتاة على عتبته. وكانت عارية، عارية تماماً؛ وكانت تشد بكلتا يديها منشفةً على صدرها وتمشي على رؤوس أصابعها. وإذ رأيتها لم أتمالك من التفكير بأنّ باليستياري لم يكن مبالغاً إذ أظهرها بتلك الأشكال المتفتّحة التي أيقظت عدم تصديقي. فالواقع أنّه كان لها صدرٌ رائعٌ، ممتلئ، صلب وأسمر، ولم يكن مع ذلك منسجماً ونصفها الأعلى الذي لم يكن يبدو أنّه يؤلّف جزءاً منه، وإنّما كان على العكس نصفاً أعلى هزيلاً لفتاة مراهقة. وكذلك القامة، كانت قامة طفلة لفرط دقتها ولينها؛ ولكن ميزة البلوغ والنضج كانت تعود فتبدو في خاصرتيها كما لاحظت في صدرها. وكانت تمشي ونهداها مشرئبّان، وبطنها منقبض، وعيناها محدّدتان تقريباً بالمسند القائم إزاء الباب الزجاجي. وحين أصبحت أمام اللوحة، سألتني من غير أن تلتفت، بصوتها اللامعبّر، الجاف، الموجز:

- أين إذن ينبغي أن أقف؟

وتساءلت عمّا إذا كان لديها، في تلك اللحظة، رياءٌ ما، ولكنّي سرعان ما أقررت بأنّها كانت خالية من ذلك. فلقد اتخذت دورها كنموذج بصورة جدية، حتّى ولو كانت ربّما تشكّ بأنّه لم يكن إلّا ذريعة لنوع آخر من العلاقات. ولكنّي قلت لنفسي بأنّه لا بدّ أن يكون

في ذهنها نوعٌ من العجز عن ربط شيء بشيء، وهذا ما كان يتيح لها أن تكون صادقة. وقلت بهدوء:

- لا تقفي في أيّ مكان.

فالتفت مندهشة:

- لماذا؟

فأوضحت:

- إنّني آسف، لقد قبلت حجة الرسم هذه بشيء من الخفّة. فالواقع أنّي قد انقطعت منذ حين عن الرسم. وحين كنت أرسم، كنت أفعل ذلك من غير نموذج أو أي شيء آخر. إنّني آسف.

فقالت بلهجة محايدة، من غير أن تبدو منزعجة:

- ولكنّك قلت لي إنّك كنت راغباً في أن أجيء فأمثل للرسم.

- صحيح، ولكن اعتبري كما لو أنّي لم أقل شيئاً.

وبهدوء، وبهيئة من لا يعلّق أهمية على الأمور، أخذت المنشفة التي كانت تشدّها على صدرها، فألقتها على كتفيها، ثمّ أدارتها على جسدها. وبعد ذلك اقتربت من الأريكة بهيئة حييّة حذرة، كما لو أنّي كنت قد دعوتها للجلوس، بينما لم أقل في الواقع شيئاً؛ ثمّ جلست على طرف الأريكة الآخر، بعيدة عنّي.

وحدثت لحظة صمت، ثمّ بدت على شفتيها الطفوليتين تلك البسمة التي كانت توجّهها لي عادة حين كانت تلتقي بي في الرواق. وقلت مرتبكاً:

- إنّك الآن ستظنّين بي السوء.

فنفضت رأسها علامة النفي، من غير أن تقول كلمة. وكانت تتأمّلني بنظرتها اللامعبرة، كما لو أنّ عينيها كانتا مرآتين معتمتين تعكسان الواقع من غير أن تفهماه، بل ربّما من غير أن ترياه. وكنت أشعر بارتباكي ينمو.

وكان واضحاً أنّها لم تكن تريد أن تذهب، وأنّها كانت تنتظر منّي القسم الثاني من البرنامج، إذا صحّ التعبير. وفيما أنا أبحث عن موضوع للحديث يمكن أن يكون مشتركاً بيننا، عاودتني طبعاً ذكرى باليستياري، فسألتها:

- منذ متى تعرفين باليستياري؟

- منذ عامين.

- ولكن ما هو عمرك؟

- سبعة عشر عاماً.

- حدّثيني كيف تعرّفت على باليستياري.

- لماذا؟

- هكذا...

وفكّرت لحظة ثمّ أضفت بصدق:

- إنّ ذلك يهمّني.

فقالت في هدوء:

- عرفت باليستياري منذ عامين. في بيت إحدى صديقاتي.

- ومن هي هذه الصديقة؟

- فتاة صبية تدعى اليزا.

- وما هو عمرها؟

- أكبر منّي بسنتين.

- وماذا كان يفعل باليستياري لدى اليزا؟

- كان يعطيها دروس رسم، مثلي أنا.

- وما شكلها، اليزا هذه؟

فأبت باقتضاب:

- إنّها شقراء.

فحسبتني أتذكّر إحدى هاتيك الفتيات العديدات اللواتي رأيتهن يتهادين في الباحة. وسألت:

- شقراء ذات عينين زرقاوين، وعنق طويلة، ووجه بيضاوي، وشفتين ممتلئتين، شديدتي الالتصاق؟

- نعم، إنّها هي. هل تعرفها؟

- لا، ولكنّي رأيتها تأتي أحياناً إلى مرسم باليستياري، قبل أن تبدأي أنت بالمجيء. وهل كانت اليزا تأخذ دروس الرسم في بيتها أم في المرسم؟

- في بيتها وفي المرسم أيضاً، كان ذلك يتوقف على الأيام.

- لم تقولي لي ما حدث يوم التقيت بباليستياري في بيت اليزا؟

- لم يحدث شيء.

- حسناً، لم يحدث شيء. ولكن باليستياري قد أعطاك في نهاية الأمر، دروساً في الرسم، أنت أيضاً. فكيف تمّ ذلك؟

في هذه المرّة نظرت إليّ من غير أن تجيب. وألححت:

- هل سمعتني؟

وصمّمت أخيراً على أن تخرج من صمتها فسألت:

- ولكن لماذا تريد أن تعرف هذا كلّه؟

- لنفرض أنّك تثيرين اهتمامي...

قلت ذلك مع الشعور لا بأنّي أكذب وإنّما بأنّي أقول كذبة كان تصبح، في اللحظة التي أنطق بها فيها، حقيقة.

ونظرت هي في الهواء كطالبة تهم بإلقاء درسها أمام معلّم متطلّب، ثمّ قالت: «عدت فرأيت باليستياري في بيت اليزا لأنّنا كنّا صديقتين، وكنت غالباً ما أقصدها. وذات يوم طلبت إليه أن يعطيني أنا دروساً في الرسم، ولكنّه أجابني بأنّه لم يكن يستطيع».

وكنت قد فكّرت دائماً بأنّ باليستياري كان يجري وراء جميع

النساء اللواتي يتفق له أن يلتقيهن، ولكن ها هو بالعكس يرفض الحجة التي قدمتها له الفتاة. وسألتها:

- لماذا رفض باليستياري، في رأيك؟

- لا أدري. لم تكن له رغبة في ذلك.

- أربّما كان يحبّ اليزا؟

- لا أظنّ.

- لماذا إذن لم تكن له الرغبة؟

فأجابت بلهجة حاسمة:

- لقد فكّرت أوّلاً بأنّ اليزا هي التي نصحته بالرفض، ثمّ لاحظت أنّها لم تكن تعرف شيئاً. إنّه لم يكن يريد، هذا كلّ ما في الأمر. وقلت في نفسي إنّه ربّما كان يزعجه أن أذهب إلى مرسمه، فعرضت عليه أن يعطيني دروساً في بيتي، ولكنّه رفض مرّة أخرى. إنّه بالإجمال لم يكن يريد.

- ولكن أنت، لماذا كنت تحرصين إلى هذا الحدث على أن يعطيك باليستياري دروساً؟

وتردّدت ثمّ رأيت وجهها الشاحب يحمرّ بشكل غير متساوٍ، كما بلطخات خفيفة ومتتالية وقالت:

- كنت قد وقعت في حبّه، أو بالأحرى كنت أظنّني كذلك.

- وهو، لماذا لم يكن يعيرك انتباهه؟

- لا أدري.

وتردّدت من جديد، ثمّ بدت وكأنّها قد نجحت في قهر آخر آثار تكتّمها، فاستجابت لطريقة في الكلام أقل احتراساً وإن كانت ما تزال دقيقة ومدروسة:

- أظنّ أنّي لم أكن أروق له. هذا كلّ ما في الأمر. وقد مرّ شهران أو ثلاثة على هذا المنوال. كان يتحاشاني بصراحة، وكنت أنا

أعاني من ذلك. وفي تلك الفترة، كنت حقًّا مغرمة به. وأخيراً لجأت إلى حيلة.

- حيلة؟

- نعم، فقد كان المفروض ذات يوم أن تذهب اليزا إلى مرسمه، فدعوتها لتناول الغداء وقلت لها إنّه كان قد تلفن ليرجوها ألّا تقصده لأنّه كان مشغولاً؛ ثمّ ذهبت أنا بدلاً منها...

- وكيف تلقّى باليستياري حيلتك؟

- لقد أراد أوّلاً أن يطردني. ثمّ أصبح أكثر لطفاً.

- في ذلك اليوم، قمتما بفعل الحب، أليس كذلك؟

فاحمرّت مجدّداً بالطريقة نفسها، شيئاً فشيئاً وبشكل غير متساوٍ، وأومأت برأسها إيجاباً، من غير أن تتكلم.

- واليزا؟

- لم تعرف اليزا قط أنّني ذهبت بدلاً منها. ولكن بعد ذلك بقليل، انفصلت هي وباليستياري.

- ألا تزالين صديقةً لاليزا؟

- لا. إنّ إحدانا لا ترى الأخرى بعد.

وتبع ذلك صمت. وكنت أدرك أنّي كنت أخضعها لاستجواب بوليسي كانت تستجيب له في الواقع عن طيب خاطر؛ وتساءلت عمّا كنت أريد حقًّا أن أعرف. وكان واضحاً أنّ ما كان يهمّني ليس هو الأحداث بقدر ما هو شيءٌ ما وراء الأحداث، يشكّل أساسها وتبريرها. ولكن ما كان هذا الشيء؟

وسألت فجأة:

- لماذا وقعت في حب باليستياري؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد: لماذا باليستياري بالذات، العجوز الذي كان يمكن أن يكون أباً لأبيك؟

- ليس هناك سببٌ لكي يقع المرء في حب أحد. إنّه يحبّ، وهذا يكفي.

- إنّ لكلّ شيء دوافع، دائماً.

كانت تنظر إليّ وتبدو، وهذا أمر غريب، وقد اقتربت منّي على الأريكة التي كنّا جالسين عليها. أم تراه لم يكن إلّا وهماً في النظر مردّه ذلك الاستجواب الذي كان يزيدها تحديداً ومعرفة؟ وقالت أخيراً، من طرف شفتيها، وهي تنحني قليلاً إلى أمام ناظرةً إليّ بإحداد:

- كنت أشعر نحو بجاذبية كبيرة.

- أيّ نوع من الجاذبية؟

فلم تقل شيئاً واكتفت بأن تنظر إليّ وألححت:

- بمَ تجيبين؟

- أستطيع أن أقول لك السبب، لقد كان باليستياري يشبه أبي قليلاً، وحين كنت أصغر من ذلك سناً كنتُ مأخوذةً بهوسٍ حقيقيٍ لأبي.

- هوس؟

- نعم. كنت أحلم به ليلاً.

- لقد كنت تحبّين باليستياري لأنّه بالإجمال كان يشبه أباك قليلاً؟

- نعم، من أجل هذا أيضاً.

صمت جديد. ثمّ استطردت:

- لماذا لم يكن باليستياري، في البدء، يريد أن يعرف شيئاً عنك؟

- لقد قلت لك السبب: إنّني لم أكن أروق له.

- إنّ القول بأنّك لم تكوني تروقين له يوضّح شيئاً. أيكون سبب عدم اهتمام باليستياري بك هو أنّك كنت صغيرة أكثر ممّا ينبغي؟

- لا ، ليس هذا هو السبب.

- أم لأنّه كان يشعر نحوك بمثل ما كنت تشعرين نحوه، أي أنّه كان يعتبرك قليلاً كأنّك ابنته؟

- لا أظن. لو كان هذا، لقاله لي.

وصمتّ لحظة، وأنا أفكّر بعمق، وكنت أدرك الآن أنّي كنت أسأل الفتاة عن باليستياري لأعرف شيئاً عن نفسي. فالواقع أنّي أنا أيضاً كنت حتّى ذلك الحين قد رفضت، وكانت هي أيضاً تبدو واقعةً في حبّي.

- أوّلاً تفكرين أنّ باليستياري كان يخشى أن يتعرّف عليك؟

- يخشى؟ لماذا؟

- يخشى لأنّه كان يتنبأ بما قد حدث فيما بعد: أي أنّه قد أصبح مغرماً بك. إنّ الحب يخيف أحياناً.

فأجابت بطريقة عرّافيّة:

- أمّا أنا، فإنّه لا يخيفني.

وألححت:

- إنّك لم تجيبي على سؤالي: هل كان باليستياري يتحاشاك لأنّه كان خائفاً؟

- لا ، لم يكن خائفاً. بل أنا أتذكّر الآن في هذا الصدد، أنّه قال لي يوماً: لو لم تلجئي إلى تلك الحيلة لما اهتممت بك قط، فإنّك لم تكوني تروقين لي.

وصمتت لحظة ثمّ أضافت:

- هذا كلّ شيء. ولا أعرف شيئاً أكثر.

وفهمت أنّي لن أصل إلى شيء إذا مضيت في هذا السبيل، وغيّرت فجأة:

- ولكن فيما بعد، كان مغرماً بك، أليس كذلك؟

- بلى.

- كثيراً؟

- نعم، كثيراً.

- لماذا؟

فرأيتها تنحني إلى أمام وتنظر إليّ. وكانت قد أصبحت إلى جانبي، ولم يكن ذلك بعدُ وهم نظر، فإنّ ركبتيها كانتا تمسّان ركبتيّ. وأجابت:

- لا أدري.

- ولكن، ألم يكن يحدّثك قط عن حبّه؟

- بلى، كان يحدّثني عنه.

- وماذا كان يقول؟

فبدت وهي تفكّر، وفي الوقت نفسه تترنّح إلى جانبي، كما لو أنّها كانت ستقع عليّ. وربّما كان عليّ أن أقول إنّها كانت تبدو، بسبب شكل البوق الذي كانت المنشفة الملتفة تشكّله حولها، إناءً مملوءاً كان يميل شيئاً فشيئاً نحوي، كما ليعطيني إمكانية النزوح منه. وأجابت أخيراً:

- لا أذكر بعد ما كان يقوله. وإنّما أذكر ما كان يفعله.

- وماذا كان يفعل؟

- كان مثلاً يبكي.

- كان يبكي؟

- نعم، كان فجأة يأخذ رأسه بين يديه وينخرط في البكاء.

وتمثّلت باليسيتاري كما كنت قد رأيته دائماً: صحيح أنّه عجوز،

ولكنّه صلب، ذو كتفين عريضتين، وساقين ثابتتين ووجه أحمر من فرط الحيوية تحت شعر أبيض؛ ولم أتمالك من أن أحسّني حائراً:

- لماذا كان يبكي؟

- لا أدري.

- ألم يكن يقول لك لماذا كان يبكي؟

- لا، كان يقول فقط إنّه كان يبكي بسببي.

- ألعلّه كان غيوراً؟

- لا لم يكن غيوراً.

- ولكن، هل كنت تعطينه أسباباً كانت تجعله غيوراً؟

فنظرت إليّ لحظة في صمت، كما لو أنّها لم تكن قد فهمت، ثمّ أجابت بإيجاز:

- لا.

- كان يبكي هكذا، من غير أن يتكلم؟

- لا، بل كان يقول دائماً شيئاً ما.

- ترين إذن إنّه كان يتكلم... وماذا كان يقول؟

- آه! كان لديه إذن دافع للبكاء؛ كان يودّ لو يستغني عنك، ولم يكن يستطيع.

فصحّحت حرصاً على الدقة:

- لا، كان يقول ببساطة إنّه لم يكن يستطيع الاستغناء عنّي. ولم يقل قط إنّه كان يودّ لو يستغني عنّي؛ بل على العكس، لقد أردت مرّة أن أتركه فحاول أن يقتل نفسه.

ودهشت لانعدام التنوّع انعداماً كاملاً في لهجة كلماتها، سواء أقالت شيئاً مختلفاً، أم أعلمتني أنّ باليستياري كان قد حاول أن يقتل نفسه بسببها. وسألتها:

- حاول أن يقتل نفسه؟ بأيّة طريقة؟

- بتلك الأقراص التي تؤخذ لمقاومة الأرق. لا أذكر بعد كيف يسمّونها.

- وهل سقط مريضاً؟

- سقط مريضاً لمدّة يومين، ثمّ زال عنه ذلك.

- وهل كان باليستياري يعاني الأرق؟

- نعم، كان يتناول أقراصاً منوّمة ضد الأرق. وكانت تنقضي عليه بعض ليالٍ لا ينام فيها إلّا ساعة أو ساعتين.

- لماذا؟

- لماذا لم يكن ينام؟ لا أدري.

- بسببك؟

- كان يقول إنّ كلّ ما كان يحدث له كان بسببي.

- أولم يكن يقول شيئاً آخر، ألم يكن يوضّح لماذا كنت سبب كلّ شيء؟

- بلى، أذكر الآن، وأنا أفكّر في الأمر، أنّه كان يقول إنّي كنت مخدّرَهُ.

- شيء مشترك، ما رأيك فيه؟

- ماذا يعني شيء مشترك؟

- شيء قليل الطرافة، يستطيع الجميع أن يقولوه.

وعاد الصمت. ثمّ استطردت:

- ولكن كيف كنتِ مخدّراً لباليستياري؟

وفي هدوء، سألتني بدورها:

- ولكن بالإجمال، لماذا تطرح عليّ جميع هذه الأسئلة؟

فأجبت في صراحة:

- لأنّ في قصّتك كلّها مع باليستياري شيئاً يحيّرني.

- وما هو؟

- لا أدري. ومن أجل هذا أطرح عليك أسئلة. لأعرف لماذا أطرحها.

فلم تبتسم ونظرت إليّ من جديد في اهتمام، ولو بطريقة لا معبّرة، وهي منحنية نحوي إلى درجة أنّ رائحة جسمها الحارّة البسيطة كانت تبدو وهي تتصاعد إلى أنفي. وأوضحتْ أخيراً:

- أتصوّر أنّي كنت مخدّراً لباليستياري لأنّ حاجته إليّ كانت تشتد شيئاً فشيئاً. وكان هو نفسه يقول ذلك: إنّ الكمية التي كانت تكفيني من قبل، لا تكفيني الآن.

- وبأيّ معنى كان دائماً بحاجة إليك؟

- بجميع المعاني.

- بمعنى أنّكما كنتما تقومان بفعل الحب؟

فنظرت إليّ من غير أن تقول كلمة. وكررتُ سؤالي. فبدت إذ ذاك وهي تعزم، وأجابت في صراحة:

- نعم، بهذا المعنى.

- وكنتما تقومان به غالباً؟

- في البدء، مرّة أو مرّتين في الأسبوع، وبعد ذلك كلّ يومين، ثمّ كلّ يوم، ثمّ مرّتين في اليوم. وأخيراً كففت عن العدّ.

- لماذا؟

- كان مستعداً لعمله بلا انقطاع (وبدت الآن أقلّ حرجاً) كان يجعلني أمثل أمامه للرسم، ثمّ يتوقّف عن الرسم ويريد أن يقوم بفعل الحب، وهكذا طوال النهار.

- أما كان يرتوي إذن قط؟

- كان يرهق نفسه. بل لقد شعر أحياناً بالضيق. ولكنّه ما كان ليكتفي قط.

- وكان هذا كلّه يروق لكِ، أنت؟

فتردّدت ثمّ لاحظت:

- إنّه لا يسوء امرأة قط أن يُظهر لها رجلٌ أنّها يحبّها.

- ولكن، هل كان يحبّك حقًّا؟ ألم يكن بالأحرى محتاجاً إليك بدافع العادة، أو المجون، كما يكون المرء بحاجة، مثلاً، إلى المخدّر؟

فأجابت في ما يشبه الحرارة:

- كلا، بل كان يحبّني حقًّا.

- كيف كان يُظهر لك حبّه، مثلاً؟

- هل يمكن التحدّث بذلك؟ إنّ هذه أمور تُحَسّ...

- ولا شيء آخر؟

- إذا أردت مثلاً، فإنّه كان يريد أن يتزوجني.

- ولكنّه كان قد تزوّج، أليس كذلك؟

- بلى، ولكنّه كان يقول إنّه سوف يتدبّر أمره ليحصل على الطلاق.

- وهل كنت مستعدة للقبول؟

- كلا.

- ولماذا لم تكوني مستعدة للقبول؟

- لا أدري، ولكن لم يكن يناسبني أن أتزوّجه.

- لقد كنت إذن لا تحبّينه؟

- إنّني لم أحبّه قط.

وتوقّفت كما لو أنّ وسواساً قد أخذها، ثمّ أضافت:

- أو على الأصح، بلى، لعلّني أحببته في الفترة الأولى التي تعرّفت عليه فيها.

وساد صمت طويل، وقد أصبحت الآن ملتصقة بي. وكانت تشعرني بأنّها ستفقد توازنها، ممّا جعلني أتمثّلها من جديد كوعاء،

كإناء جميل ذي عروتين، ممشوق ريّان، ينضح بالشهوة، ويهمّ بأن ينسكب عليّ ويغمرني.

وقلت أخيراً:

- لقد جشّمتك استجواباً نظامياً، فلا بدّ أنّك قد تعبت قليلاً.

فأسرعت تجيب:

- أوه! كلا، إنّك لم تتعبني قط، بل...

- بل ماذا؟

- بل إنّ ذلك قد سرّني.

وأضافت بعد لحظة:

- لقد جعلني ذلك أفكّر في أشياء كثيرة لا أفكّر بها قط.

- إنّك لا تفكرين قط بباليستياري؟

- كلا.

- حتّى ولا اليوم، بعد أن أخذوه؟

- كلا، بل أنا اليوم أقلّ تفكيراً به من الأيام الأخرى.

- ولماذا أقل من الأيام الأخرى؟

فنظرت إليّ من غير أن تجيب. وكرّرت:

- لماذا أقلّ من الأيام الأخرى؟

فأجابت أخيراً في بساطة:

- لأنّني اليوم لم أفعل إلّا أن أفكّر فيك. لقد تبعت الموكب فترة، من بعيد، ثمّ لم أستطع أن أقاوم وهرعت إلى المرسم. لقد خشيت أن يكونوا قد غيّروا القفل.

- وإذن؟

- إذن، ما كان يبقى لي حجّة لكي أراك.

وتظاهرتُ بأنّي لا أعلّق أهمية على هذا التصريح، وسألتها:

- ومع ذلك، فإنّ باليستياري كان شيئاً ما، بالنسبة لك؟

- نعم، بالتأكيد.

ففكّرت لحظة:

- لا أدري. كان شيئاً ما بالتأكيد، ولكن بما أنّي لم أفكّر بذلك قط، فلا أدري ماذا كان.

- فكّري الآن في هذا.

- لا أستطيع أن أفكّر فيه. إنّ المرء لا يفكّر إرادياً بأحد أو بشيء ما: فإمّا أن يحدث لك أن تفكّر فيه، وإمّا إلّا تفكّر فيه.

- في هذه اللحظة، بمَ عساك تفكّرين طبيعياً، كما تقولين؟

- فيك.

فصمتّ لحظة، وأشعلت سيكارة وصرّحت بهدوء:

- حسناً، اطمئني، فقد انتهيت من استجوابك، أصل الآن إلى عمق القضية: إذن، بينما لم يكن باليستياري يمثّل بالنسبة إليك شيئاً كثيراً، وحتّى لم يكن يمثّل شيئاً البتة، أنت بالنسبة إليه تمثّلين شيئاً واقعياً جدًّا، محسوساً جدًّا. شيئاً لم يكن يستطيع الاستغناء عنه على حدّ تعبيره بالذات، شيئاً يشبه مخدراً، على حد تعبيره أيضاً. الأمر كذلك أم لا؟

- نعم.

- وبعبارة أخرى، إنّك لم تكوني فقط، بالنسبة لباليستياري شيئاً واقعياً جدًّا، بل في الحقيقة الشيء الوحيد الذي يُعوّل عليه. وبالفعل، فأنت حين قلت له إنّك تريدين هجره، حاول أن ينتحر. وإذا حاول ذلك، فلأنّك إذ تتركينه تنزعين منه كلّ ما كان بالنسبة إليه واقعياً.

كانت تنظر إليّ بهيئة ودّ وأدب، ولكنّها لم تكن تبدو مقتنعة قط؛ تماماً كما ينظر صبيّ إلى أمّه التي تقدّم له عظةً قبل أن تعطيه الحلوى، وينتظر في صبر أن تنتهي العظة، التي لا أهمية لها في نظره، والتي لا يفهمها، ليستطيع أن يستولي على الحلوى. وقالت مع ذلك:

- نعم، صحيح، أذكر الآن، وأنا أفكّر في الأمر، أنّه كان يردّد غالباً بأنّي كنت كلّ شيء بالنسبة له.

- أترين؟ إنّ باليستياري على كونه عائشاً ورساماً رديئاً، كان من وجهة نظر ما شخصاً جديراً بالحسد.

- لماذا؟

- لأنّه كان يستطيع أن يقول لشخص: أنت كلّ شيء بالنسبة لي.

وصمتت من جديد، كأنّها غير واثقة من معنى كلماتي، وقليلة الرغبة في استقصائه. كانت الحلوى هي التي تهمّها، لا العظة.

واستطردت:

- والآن، كفانا حديثاً عن باليستياري، ولنتكلم عنّا نحن الاثنين.

وبطريقتها المتحفظة، بصورة غير ملحوظة تقريباً، بدت مغتبطة، وندّت عن وجهها حركة خفيفة، كما لتظهر استعجالاً وتنبّهاً، وندّ عن جسمها اندفاع خفيف على الأريكة، كما لتزداد قرباً منّي. وقلت:

- هذه ثلاثة أشهر أو أربعة ونحن نلتقي في الرواق أو في الباحة، وكلّما التقينا نظرت إليّ وبسمت بسمة لا أتردّد بأن أصفها بأنّها ذات مغزى. أليس كذلك؟ إذا لم يكن هذا صحيحاً، فلا تتردّدي في أن تعطيني تكذيباً، وسوف يعني هذا أنّ انطباعي كان خاطئاً.

فلم تقل شيئاً، ومضت تنظر إليّ كما لو أنّها كانت تنتظر نهاية كلماتي، وكما لو أنّ معناها لم يكن ليهمّها. واستطردت:

- إنّك لا تحبّين، وأنا أستنتج من ذلك أنّي لست على خطأ. وإذن، فإنّ ما تريدينه منّي يبدو لي واضحاً بما فيه الكفاية. اعذريني، فأنا أعلم أنّي خشن: منذ أربعة أشهر أو خمسة، تجهدين لإفهامي أنّك مستعدة لكي تعملي معي ما كنت تعملينه مع باليستياري. هذا على الأقل ما فهمته. مرّة أخرى، إذا كنت على خطأ فصارحيني.

صمت آخر؛ وكان وجهها يعبّر الآن عن نوع من الرضى الحييّ أن تكون قد فُهمت هذا الفهم الجيّد. وتابعت:

- كان باليستياري يقول لك إنّك كنت كلّ شيء بالنسبة له. وكلمة كلّ شيء هذه كانت تعني، على ما يبدو، كلّ شيء حقًّا. ومن سوء الحظ أنّني أجد نفسي في الحالة المناقضة: لقد كنت بالنسبة لباليستياري كلّ شيء، أمّا بالنسبة لي، فأنتِ لا شيء.

وتوقفت لحظة وأنا أنظر إليها، ولم أتمالك نفسي من الإعجاب بعدم تأثّرها. وقالت بتواضع، وهي تخفض عينيها:

- إنّنا نعرف بعضنا منذ نصف ساعة فقط.

فسارعت أوضّح:

- إنّني لا أريد ان يُساء فهمي. فالواقع أنّ من المستحيل أن تكوني كلّ شيء، أو حتّى شيئاً ما بالنسبة لي، بالمعنى الذي يُعطى عادة لهذه العبارة. بالفعل، إنّنا نعرف بعضنا منذ نصف ساعة فقط، كما نبّهتني إلى ذلك. ولكن لا، إنّ القضية تتعلق بشيء آخر تماماً. فحاولي، من فضلك، أن تتبعيني، حتّى ولو كانت هذه الشروح لا تهمّك. وإذن: لقد طلبت منك أن تأتي إلى هنا بحجّة أنّي أريد أن أصوّرك، أليس كذلك؟

- نعم.

- إنّ هذه ليست إلّا حجة، أي كذبة. فبصرف النظر عن أنّي منذ أعوام قد كففت عن رسم الوجوه البشرية والأشياء التي تدل على هويّة، كذبت عليك لأنّي لست رساماً، أو بالأصح، لست بعدُ رساماً منذ حين من الزمن. ولئن لم أكن بعد رساماً، فلأنّه ليس لديّ ما أرسمه، أقصد إلى القول إنّه ليس لي من علاقة بشيء من الواقع.

فأجابت بعناد:

- ولكن لا أهمية لأن ترسم صورتي أو لا ترسمها.

فلم أستطع إلّا أن أضحك، وقلت:

- إنّني أفهم ألا تجدي أيّة علاقة بين كوني قد انقطعت عن الرسم وبين الشيء الذي يبدو أنّك تهتمّين به اهتماماً كبيراً. وهناك مع ذلك علاقة. فتفضّلي بالاستماع: لقد قلت إنّك لم تكوني شيئاً بالنسبة لي، ولكنّي أكرّر أنّ عليك ألا تنسبي إلى هذه العبارة أي معنى عاطفي. وبكلمة أخرى: إنّك تعرضين نفسك عليّ، كما تُعرض أيّة حاجة أخرى. لنأخذ مثلاً؛ ذلك القدح الموجود على الطاولة هناك، ليس له عينان جميلتان كعينيك، ولا هذا الصدر الرائع، ولا هاتان الخاصرتان المستديرتان، فإذا كنت أقبل عرضه فإنّه لن يقبّلني ولن يضمّني، ومع ذلك فهو ليس أقل ولا أكثر عرضاً لنفسه منك. أقول إنّه يعرض نفسه بلا حشمة، ولا تحفّظ، ولا خبث، ولا حسابات، شأنه في ذلك شأنك تماماً. وعليّ أن أرفضه كما أرفضك، لأنّ هذا القدح ليس شيئاً بالنسبة لي، مثلك تماماً. لقد أعطيت القدح كمثال، ولكن كان بوسعي أن أتكلّم عن أيّة حاجة أخرى، حتّى ولو كانت الحواس لا تدركها.

- ولكن لماذا ليس هو شيئاً؟

قالت ذلك بصوت منخفض وحييّ، كما لو أنّ المعنيّ كان القدح، أكثر ممّا كانت هي نفسها. وأجبت باختصار:

- إنّ شرح ذلك سيمضي بي بعيداً بعض الشيء، ويكون من جهة أخرى غير مجدٍ. لنقل إنّ هذا القدح ليس شيئاً بالنسبة لي لأنّه ليس لي علاقة به، من أي نوع.

فاعترضت، متحدّثة هذه المرّة لصالحها الخاص:

- ولكن هذه العلاقات، إنّما هي تُخلق، ألا تعتقد ذلك؟ إنّه يحدث باستمرار أن نخلق علاقات مع أشخاص لم يكن لنا بهم حتّى سابق معرفة.

فسألتُ:

- أترين هذه اللوحة، على المسند؟

- نعم.

- إنّها لوحة لم تستخدم، أقصد أنّي لم أرسم عليها شيئاً. ولكنّها في الحقيقة اللوحة الوحيدة التي أستطيع أن أوقّعها: انظري! إنّني أنهض وأتّجه إلى المسند فآخذ قلماً وأوقّع إمضائي على زاوية من اللوحة.

وكانت قد تبعتني بنظرها بينما كنت متجهاً إلى المسند، وتبعتني حين عدت إلى قربها، ولكن من غير أن تقول كلمة. واستطردت وأنا أجلس من جديد:

- وهكذا فإنّ العلاقة الوحيدة التي يمكن أن تكون بيني وبين امرأة ليست شيئاً، وهي هذه العلاقة بالذات التي كانت حتّى الآن بيني وبينك، أو التي لم تكن على الأصح. لنتفاهم جيّداً؛ إنّني لست عاجزاً؛ ولكن الأمر، عملياً، هو كما لو أنّي كنت عاجزاً، وعلى كلّ حال يجب عليك أن تقرّي أنّي عاجز.

وكنت قد تحدّثت بلهجة قاطعة لأجعلها تفهم أنّه لم يبق ثمّة ما يُقال. ولكنّي إذ رأيتها ما تزال جالسة، صامتة وجامدة، كأنّها ما تزال تنتظر شيئاً، أضفت وأنا حانق بعض الشيء:

- إذا لم أكن أشعر بشيء نحوك، أي إذا لم يكن بيني وبينك من علاقة، فكيف يمكنني أن أقوم بعمل الحب؟ إنّه سيكون عملاً آلياً، خارجياً، غير مجدٍ على الإطلاق، ومسئماً إلى أبعد الحدود. وإذن...

وتركت عبارتي معلّقة، ونظرت إليها نظرة ذات مغزى، كما لو كنت أقول لها: «وإذن فلم يبق لك إلّا أن تنصرفي». وبدت هذه المرّة وقد فهمت، وببطء وأسف تقريباً، بتردّد واستياء، بل بما يشبه أملاً أخيراً في أن أستبقيها بأن آخذها بين ذراعي، تظاهرت بأنّها تنهض

عن الأريكة، فيما ظلّت جالسة، أي رفعت بهدوء خاصرتيها بينما احتفظت بساقيها مطويتين ونصفها الأعلى مستقيماً. ولكنّي لم آخذها بين ذراعي، وانتهى الأمر بها إلى الوقوف أمامي.

وقالت في مذلّة:

- اعذرني. ولكن مع ذلك إذا احتجت إليّ كنموذج، فبوسعك أن تتلفن لي. سأكتب لك رقم تلفوني.

ورأيتها تذهب إلى الطاولة، وهي محتفظة بالمنشفة على صدرها، وتكتب شيئاً ما بيدها الأخرى، على قصاصة ورق.

- إنّني لم أقل لك اسمي بعد. إنّني أدعى سيسيليا رينالدي. وقد كتبته لك هنا، مع اسم الشارع ورقم التلفون.

واستوت ثمّ توجّهت على رؤوس أصابعها إلى غرفة الحمّام. وكانت بتلك المنشفة التي تترك كتفيها وذراعيها عارية، ولكن تقمّط خاصرتيها وتتدلّى خلفها كذيل سابغ - كانت كأنّها بثوب المساء.

واختفت وهي تغلق الباب خلفها، وفي هذه الحركة، انزلقت المنشفة؛ ولمدّة لحظة، رأيت مرّة أخرى في فتحة الباب، هذا الجسم الذي كان باليستياري قد رسمه والذي لم يكن من المستطاع تصوّره تحت ثيابه.

ومن الغريب أنّي، ما إن اختفت، حتّى عدت أفكّر في باليستياري. وتذكّرت كيف أنّ الرسام العجوز قد صدّها وتحاشاها طوال شهور، في نوع من الخوف أو من الشعور المسبق شبه الحيواني بما كانت مرصودة لأنّ تكوّنه بالنسبة إليه؛ وتساءلت عمّا كان سيحدث لو أنّه، بدلاً من أن يستجيب لها يوم جاءته مكان اليزا، استمرّ في مقاومتها. لو حدث ذلك لكان باليستياري، على الأرجح، ما يزال الآن حياً، إذ كان ممّا لا شك فيه أنّ السبب غير المباشر لموته حبّه لهذه الفتاة. ولكن لماذا تراه لم يصدّها ما دام قد شعر، منذ البدء، أنّ

عليه أن يفعل ذلك، وبعبارة أخرى، ما الذي حدا باليستياري إلى قبول مصير كان، على ما يبدو، شاعراً به ولو شعوراً غامضاً؟ وبالإجمال، هل يستطيع المرء أن يتملّص من قدره؟ وإذا كان الجواب نفياً، فما جدوى أن نعرف ماذا نفعل؟ هل من الممكن ألا يكون ثمّة أي فرق بين قدر يقبله المرء في حالة اللاوعي، وبين قدرٍ آخر يحياه في وعي متبصّر؟

والآن، إذ أفكّر بانتحار باليستياري الأوّل، ذلك الانتحار الذي سبّبه عزم سيسيليا على أن تتركه، يخيّل إليّ أنّ الرسام العجوز، إذ دفع علاقته مع سيسيليا إلى غايتها، إنّما كان يرتكب بكامل وعيه انتحاراً آخر، قد نجح هذه المرّة. وهكذا، فإنّه يكون، على نحوٍ ما قد جرّب انتحاره الأوّل، لأنّه بدا له، في لحظة ما، أن سيسيليا إذ تتركه لن تمكنه من ارتكاب الانتحار الثاني.

وفيما أنا أفكر بهذه الأمور، دُهشت لتفكيري بها؛ أو على الأصح لكوني مدفوعاً إلى التفكير بها لا بفعل فضول عديم الفائدة، بل بفعل إحساس من الجاذبية المسحورة، كما لو أنّ قصة باليستياري كانت تعنيني، وأنّ مصير الرسّام العجوز كان مرتبطاً بمصيري. وكنت أدرك أنّ الأمر لو لم يكن، لما طرحت على سيسيليا تلك الأسئلة الكثيرة. ربّما كنت سأقوم معها بفعل الحب، مرّةً بين الفينة والفينة، ولكن ما كنت لأستجوبها. وأنا، على العكس، لم أقم بفعل الحب، وإنّما أخضعتها لاستجواب طويل، بفضول لا يرتوي، وقد ظلّ بالفعل على عطش. وكما قلت لها، لقد استجوبتها خصوصاً لأعرف لماذا كنت أستجوبها؛ وكان ذلك يبدو تمثيلاً، ولكنّه لم يكن كذلك. فإنّني مع هذا الشكل عرفت أشياء كثيرة، ولكنّني كنت أحسبني قد فهمت، على غير رضى منّي، أنّ أكثر ما كان يهمّني قد فاتتني معرفته.

وكنت من فرط استغراقي بهذه الأفكار أنّي لم ألاحظ أن سيسيليا

قد خرجت من غرفة الحمام واقتربت من الأريكة. وارتعدتُ لصوتها الذي كان يقول لي:

- إنّني إذن أودّعك.

فنهضت بمشقة وشددت على يدها وأنا أتمتم بآلية:

- إلى اللقاء.

وأضافت من أطراف شفتيها:

- لا تزعج نفسك لترافقني.

وللمرّة الأخيرة شعرت بوطأة تينك العينين الكبيرتين المعتمتين اللتين كانتا تتأملانني وهما جامدتان.

ورأيتها تتناول رزمتها من على الطاولة وتتجه إلى الباب في تمهّل لم يكن يبدو مقصوداً، كما لو أنّها كانت تشعر بأنّ رابطة قوية وثابتة كانت تشدّها إليّ، وأنّها يشقّ عليها أن تنقل خطواتها في اتجاه معاكس. وقد لفت انتباهي خاصّة ذلك التموّج الخفيف في تنوّرتها الواسعة القصيرة والترجّح البديع المنتقل إلى النصف الأعلى من القامة الذي كان يعلوه التنورة كما يعلو فارسٌ فرسه. كان المرء يحسّ في هاتين الحركتين، حركة التنّورة الدائرية وحركة النصف الأعلى الوثابة، نداء غنج غير واع، ولعلّه من أجل هذا بالذات أقدر وأشدّ امتناعاً على المقاومة.

وتبعتها بنظري حتّى فتحت الباب واختفت.

وإذ ذاك أشعلت سيكارة، واقتربت من النافذة.

كانت الباحة خالية، غارقة في ذلك النور الشاحب المنخفض الذي تتميّز به أيام ريح السموم، وساعة المغيب. وكنت أرى قبالتي الأبواب الزجاجية الأخرى التي كان اثنان منها فقط مضاءين، وأرى أدغال الأقنثة ذات الخضرة المسودّة تكتنف المصاطب، وأرى الأرض البلاطية ذات البياض الطبشوري الكثيف. وكالعادة، كانت

قطط عديدة منتشرة على هذا البلاط في نظام عجيب لم يكن مردوداً إلى المصادفة: فقد كان بعضها جاثياً، طاوياً أرجله تحت الأجسام، وكان البعض الآخر جالساً، وذنبه ملتفٌ حول أقدامه، بينما كانت قطط أخرى تتهادى ببطء، وفي حذر، خافضة أنوفها إلى الأرض، رافعة أذنابها، قطط منقطة بالأبيض والأسود، وقطط رمادية، وقطط بيض كلّها أو سود كلّها، وقطط متنمّرة وقطط حمر. وكنت أنظر إلى هذه القطط في تنبّه، وكانت تلك طريقة كسائر الطرائق لقتل الوقت.

ثمّ ظهرت سيسيليا، ورزمتها الضخمة تحت ذراعها. وكانت تمشي على مهل، خافضة الرأس بين القط التي لم تكن تنزعج لقربها منها. وإذ وصلت إلى ما تحت بابي الزجاجي، رأيتها ترفع عينيها، ولكن من غير أن تبتسم هذه المرّة.

ورفعت يدي لأنزع السيكارة من فمي، ولكنّي، على العكس، أومأت لها إيماءة واضحة أن تعود أدراجها، وأنا أدلّها على الباب الذي كان يفضي إلى الرواق.

فوافقت بعينيها، ومن غير أن تبدّل خطوتها المتمهّلة المجرورة، ومن غير أن تسرع، كمن نسي شيئاً ولكنّه واثق من أنّه سيجده، عادت إلى الوراء.

وأسدلت ستار النافذة، وذهبت أجلس على الأريكة.

الفصل الثالث

منذ ذلك اليوم، أخذت سيسيليا تزورني مرّة في الأسبوع، أوّل الأمر، ثمّ مرّة كلّ يومين؛ وبعد شهر، جعلت تزورني كلّ يوم تقريباً.

وكان زيارات سيسيليا تتمّ دائماً في الساعة نفسها، وتستمرّ دائماً المدّة نفسها، وتجري دائماً بالطريقة نفسها. ولقد كانت سيسيليا تعلن عن مقدمها بقرعة جرس واحدة، قصيرة جدًّا حتّى كان يخيّل إليّ غالباً أنّي لم أسمعها؛ ولكنّ هذا التشكّك بالذات هو الذي كان يجعلني أدرك أنّها هي القادمة. وكنت أذهب فأفتح الباب، فتلقي سيسيليا ذراعيها حول عنقي، ونتبادل قبلة. وأودّ بهذا الصدد أن أقول إنّ سيسليا لم تكن تحسن التقبيل، بالرغم من خبرتها في العلاقات الجنسية. ربما كانت القبلة احتكاكاً رمزياً، إذا صحّ التعبير، تكون اللذة فيه نفسية أكثر منها شهوانية، وسوف نرى أن سيسيليا كانت ضعيفة في شؤون النفس. أو ربّما كانت سيسيليا، بكلّ بساطة، لا تعرف أن تقبلني، أقصد إلى القول إنّ علاقاتنا لم تكن من العلاقات التي يُعبّر عنها بالقبل. وما هو مؤكد أن شفتي سيسيليا كانتا جامدتين، باردتين، مائعتين، كشفتي صبيّ يعود من الركض، والريح في وجهه، فيقبّل أباه في عجلة.

ومن جهة أخرى، كانت طبيعة سيسيليا المزدوجة التي هي طفلة وامرأة في وقت واحد، تتكشّف في هذه القبلة. والواقع أنّها بينما كانت تعطيني، بلا اندفاع ولا استسلام، فمها الذي لم يكن يعرف أن ينفتح لفمي ولا أن يدخل فيه، كنت أحسّ في الوقت نفسه جسمها

يهفو إلى جسمي، بشكل قوسٍ محدّب، ويوجّه لي ببطنه ضربة قاسيةً وجافّة كانت تبدو معبّرة عن الميزة المتطلبة لحبّها الغامض. وكانت هذه القبلة الأولى تدوم وقتاً قصيراً، لأنّي لم أكن أشعر فيها بأيّة لذة، وكنت سريعاً ما أقطعها. وكانت سيسيليا تنفصل آنذاك عنّي، وتضع محفظتها وقفازيها على الطاولة، ثمّ تتجه إلى النافذة فتشدّ حبال الستائر، وأخيراً تخلع ثيابها، بالطريقة نفسها دائماً، وفي المكان نفسه، أي بين الأريكة وكرسي كانت تضع عليه ثيابها وهي تنزعها قطعة قطعة.

وكنت قد عرفت سيسيليا في تموز، حين كانت ترتدي اللباس الصيفي الذي وصفته: القميص الصغير المنفخ، والتنورة الواسعة القصيرة الشبيهة بتنانير الراقصات المحترفات؛ وفيما بعد، في الخريف، إذ بدأت الحرارة تخفّ، ارتدت كنزة طويلة من الصوف الأخضر، وتنّورة سوداء، ضيّقة جدًّا، كانت تبلغ ركبتيها. وإذن، فإنّ سيسيليا كانت تنزع، باديء ذي بدء، هذه الكنزة عن طريق رأسها، فتظل لحظة مرفوعة الذراعين، ورأسها مختفٍ ومغطّى، ثمّ كانت ترميها مقلوبة على الكرسي. وها هي الآن في تنورتها، عارية حتّى وسطها، لأنّها لم تكن ترتدي شيئاً تحت الكنزة، كأنّها لا تتأثّر باحتكاك الصوف الخشن على بشرتها. وكانت تقول، من غير غرور تقريباً، كما لو أنّها كانت تقرّر واقعاً غير قابل للنقاش، إنّ صدرها كان يتماسك من تلقاء نفسه، من غير رافعة: ولكنّي اعتقدت دائماً أنّه كان من جانبها حساب تغنّج يودّ أن يظهر، أو بالأصحّ أن ينفجر، مع نهديها الرائعين، فيما هي تنزع كنزتها تماماً، والحق أنّ ظهور نهديها لم يكن ليهدم انطباع عدم النضج الذي كان ينبثق منهما. فهما بامتلائهما وازدهارهما لم يكونا يبدوان وهما ينتميان إلى الجسم الواهي الذي كانا ينتصبان عليه. وهذا الانطباع كان أشدّ قوّة حين

كانت سيسيليا تستدير؛ ولم أكن أرى ساعتئذ إلّا صلب مراهقة، رقيقاً أبيض بارز العظام؛ وهكذا كان الصدر الذي يُلمح بين الذراعين والجانبين، تحت الإبط، يبدو منفصلاً، مصنوعاً من لحمٍ أشد حرارة وأكثر سمرة، وأوفر نضجاً من بقية الجسم.

وكانت سيسيليا، بعد أن تنزع كنزتها، تستدير قليلاً إلى جانب، وتشدّ قامتها بيديها فتحلّ نطاقها وتزلق السحاب. وكانت التنورة تسقط فتركلها بقدميها ركلتين صغيرتين تشبهان الحركة النافدة الصبر التي نزعت بها كنزتها من رأسها، ثمّ تلتقطها وتضعها على الكرسي. وكانت تصبح إذ ذاك عارية تماماً، أو أنّها على الأصح تكون ما تزال مرتدية ما يمكن أن أسمّيه جهازها الأكثر صميمية: النطاق الذي يحمل روافع الجوربين على خاصرتيها، وغلالة «السليب» الشفّافة على بطنها، وجوربيها على ساقيها. والواقع أنّ هذا الجهاز كان يبدو الآن في فوضى وعدم انسجام، كما لو أنّ سيسيليا قد نزعت منه كلّ مهمّته حين خلعت ثيابها: فقد كانت غلالة «السليب» تبدو مدعوكة مجعّدة، وكانت رافعتان من روافع الجوربين الأربع مفصولتين ومتدليتين من جانب؛ أمّا الجوربان، فأحدهما كان مرفوعاً، بينما كان الآخر ساقطاً في ثنياتٍ تحت الركبة. كانت تلك فوضى نسائية ومعركية تتناقض بطريقة تثير الفضول مع براءة الوجه الطفولية اللامعبرة. إنّ سيسيليا كانت تبدو حقًّا مزدوجة، أي امرأة وصبية في وقت واحد، ليس فقط في جسمها، بل في تعبيرها وحركاتها أيضاً.

وهذه الثنائية كانت تجد تعبيرها خصوصاً في المفارقة بين الجزء الأولى من جسمها والجزء الأسفل. إنّ هناك اختلافات في الوزن تبدو للنظر، حتّى قبل أن تُراز باليدين. فإنّ حاجة رصاصية مثلاً تبدو بلا شك في عيون من يراقبها أثقل من حاجة أخرى ذات أبعاد مماثلة ولكنّها مصنوعة من مادّة أخفّ. وهكذا، فإنّ جسم سيسيليا، حين

يهبط ابتداء من النطاق، يبدو مزوّداً بصلابة الأشياء المصنوعة من مادّة كثيفة جدًّا وثقيلة جدًّا. فلكم كان قوياً مثلاً رباط الساقين بالأربية، بالنسبة لرباط الذراعين بالإبطين، وأي فرق بين هزال النصف الأعلى من الجسم وتقوّر الكليتين الصلْب وسخاء الحقاء العضيل، وكتلة الفخذين الكثيفة! كانت سيسيليا، المراهقة إذا صعدت قامتها، والمرأة إذا هبطت، تذكر قليلاً بمشهد أولئك المسوخ الذين يزينون الصور الجدارية القديمة: مسوخ ذوو نصفٍ أعلى غير بالغ، ملتصقٍ في شكل غريب ببطنٍ عريض وساقين صلبتين.

وكذلك كانت الطريقة التي تلجأ إليها سيسيليا في عمل الحب تعكس المفارقة بين هاتين الطبيعتين: الطفولية والنسائية. ولقد فكّرت طويلاً في تصرّفها، فانتهيت إلى أنّ سيسيليا لم يكن لديها عاطفة... وربّما لم يكن لديها شهوانية، بل كانت لها قابليةٌ جنسية لم تكن هي نفسها تعيها كلّ الوعي، فيما كانت تتلقّى لزومها تلقياً سلبياً. لقد كانت، وهي بين ذراعيّ، تتخذ وضع الطفل الذي يفتح فمه بوداعة للملعقة التي تمدّها إليه أمّه، مع فرق أنّ الفم كان لديها الفرج، وأنّ عشيقها هو الذي كان يعطيها اللقمة، وكانت الرخاصة الشاعرية الطفولية لوجهها الشاحب المستدير في تعارض دائم مع الصلابة والتطلب والشراهة التي كانت تظهرها وهي تثيرني وتثير نفسها بغية إبلاغي غاية النشوة واستمتاعها بها، هي أيضاً، حتّى آخر تشنّج. وكانت حركات بطنها التي كان تغزو وتزداد، بمقدار ما تكتسب الضمّة إيقاعاً وقوّة، تتميّز بقدرة وانتظام يتميّز بهما نظام آلي حُلّ قيده، ولا يتعلق بي ولا بها أن نوقفه. وتلك الحركات المسترخية الكسلى، والتي تكاد تُحسّ في البدء، تبدو وقد غدت في آخر الأمر وكأنّها حركات مضغط يرتفع وينخفض في قوّة آلية لا تكلّ. ومع ذلك، فإنّ وجهها في هذه الأثناء، كان يرقد جامداً هادئاً مسترخياً،

بلا فضول ولا حماسة، أكثر طفولة من أي وقت آخر بجفونه الكبيرة المسدلة وفمه الصغير المفترّ، وكان احمرارٌ خفيف على قمة الخدين يشير وحده إلى أنّ سيسيليا لم تكن نائمة، بل كانت حاضرة ومستيقظة، تتابع أحاسيسها الخاصّة.

وهذا النوع من انقسام روح سبسيليا خلال الحب، كان يُلاحظ خصوصاً في اللحظات التي تنتفض فيها فجأة، ومن غير دافع ظاهري، فتخرج من سلبيتها النهمة والآلية، لتبادلني ملامساتي. إنّ الحب الذي ندعوه مولّداً، هو دائماً طاهر؛ وعلى العكس فإنّ الأساليب الغرامية التي يتبادل بها العشّاق الإثارة، ليست أبداً طاهرة. وبالمقابل، فإنّ الطريقة التي كانت سيسيليا تنشُط بها على جسمي كانت طاهرة تماماً، بسبب أنّها آلية ولا واعية بطريقة غريبة. وفجأة، في إبّان ضمّة من الضمّات، كانت سيسيليا تجلس على قِعْدتها وتنحني لتطبق بفمها على جسمي، كما لو أنّها تريد أن تقضم. ولكن هذه الاندفاعة المفاجئة كان فيها شيء من الروبصة، كما لو أنّ سيسيليا كانت تغرق في حلم، أي في وضع لا واعٍ على الإطلاق. وبعد أن تروي سيسيليا غليلها، أو على الأصح بعد أن تستنفد بدقة كلّ إمكانيات الملامسة، ترتمي من جديد بين ذراعي، مغمضة العينين، مفترّة الفم، وإذ ذاك يعاودني الشعور مرّة أخرى بأنّي أرى امرأة نائمة تقوم في الحلم بحركات خالية من المعنى، ثمّ، من غير أن تستيقظ، تتابع نومها.

وبعد النشوة التي كانت تهزّ جسم سيلسيليا عدّة مرّات، كما لو أنّها في أزمة صَرْعٍ صغيرة، من غير أن يتأثّر بذلك جمود وجهها المخدّر، كانت تتمدّد منهكة، وإحدى ذراعيها مطوية تحت رأسها، والأخرى متروكة على الأريكة، ووجهها مائلٌ على كتفها، والساقان منفرجتان كما كانتا منذ اعتناقنا. وبعد لحظة من خروجي منها، كانت

تبتسم لي، ولعل تلك هي أجمل لحظات حبّنا. على أنّ هذه البسمة البالغة العذوبة التي كانت تنعكس فيها وتنطفئ رقة الشهوة المشبعة، لم تكن تناقض مع الغموض الطفولي الذي أشرت إليه؛ كانت سيسيليا فيما هي تبتسم لي، لا تنظر إليّ بل لا تبدو أنّها تراني. وهكذا كانت تعترف لنفسها بالجميل لنفسها أكثر ممّا تبتسم لي؛ كما لو أنّها كانت تعترف لنفسها بالجميل بأنّها تمتّعت أكثر ممّا تعترف لي بالجميل بأني متّعتها. على أنّ هذه البسمة، بالرغم من توحدها ولا شخصيتها، كانت المرحلة القصوى لضمّتنا، أي للتواصل ولشبه الامتزاج بين جسدينا. وبعد ذلك على الفور، كنّا شخصين على الأريكة، أحدنا مفصول عن الآخر، وكان يجب بدء الحديث.

وكنت في تلك الهنيهة ألاحظ أنّ اللامبالاة تحل محل الشهية الغرامية التي كانت تستخدمني لتروي نفسها، وإن كان يبدو أنّها لا تعنيني مباشرة. وحين أقول اللامبالاة، لا أريد أن أشير إلى موقف برودة أو تجرّد. كلا، إنّ لا مبالاة سيسيليا بإزائي، بعد الحب مباشرة، كانت ببساطة غياباً تامًّا للعلاقات. شبيهاً جدًّا بالغياب الذي كنت أعاني منه كثيراً وأسمّيه سأماً، غير أنّ سيسيليا بعكسي، كانت لا تعانيه إطلاقاً، بل لم يكن يبدو أنّها تعيه قط. وبالإجمال كانت كما لو أنّها وُلدت بهذا التجرّد إزاء الأشياء التي كانت تبدو لي، أنا، التغيّر اللامحتمل لحالة أولى مختلفة تماماً؛ كما لو أنّ ما كان في نظري مرضاً، كان في نظرها شيئاً طبيعياً وسليماً.

ومع ذلك، كان لا بدّ من أن نتكلم، كما ذكرت؛ ولكن لما كانت سيسيليا لا تقود الحديث قط، وإنّما تكتفي بالإجابة على أسئلتي، فقد كنت أسألها عن نفسها وعن حياتها. وهكذا عرفت أنّها كانت فتاة وحيدة، وأنّها كانت تسكن مع ذويها شقة في «براني» وأنّ أباها كان تاجراً. وأنّها رُبّيت لدى الراهبات، وكانت لها بعض

صديقات، وأنّها لم تكن مخطوبة، وأشياء أخرى من هذا القبيل. وربّما ظنّ المرء، إذا سمع هذه التفصيلات مرويّةً بهذا مشكل، أنّها معلومات موجزة تشبه تلك التي يمكن إعطاؤها عن أيّة فتاة في مثل سن سيسيليا وظروفها؛ ولكنّها كانت المعلومات الوحيدة التي تمكّنت من الحصول عليها، وقد تمّ ذلك بعد جهد شديد. ولم يكن يبدو عليها بالتأكيد أنّها كانت تريد أن تخفي عنّي شيئاً: وجلّ ما هناك أنّها كانت تبدو وهي تجهل معظم الأشياء التي كنت أسألها عنها، أو هي عاجزة عن وصفها وتحديدها في تفصيلاتها.

كان يبدو أنّها لم تتوقف قطّ لتنظر في ما حولها، لتراقب نفسها وعالمها، حتّى إنّي كنت، وأنا أطرح عليها هذه الأسئلة، أضعها في وضع من يُسأل عن أشياء وأشخاص لم يلفتوا قط انتباهه. إنّ هناك لعبة تتلخص في إطلاع أحدٍ ما، لمدّة دقيقة، على صورة من الصور، ثمّ في سؤاله أن يسمّي جميع الأشياء الماثلة في تلك الصورة. وفي هذه اللعبة التي تضع ملكة المراقبة موضع الاختبار، كان يمكن لسيسيليا أن تحصل على أردأ علامة، لأنّها كانت تبدو وكأنّها لم تَرَ شيئاً ولم تراقب شيئاً، حتّى ولو عاشت لا دقيقة واحدة بل أعواماً برمّتها أمام صورة حياتها نفسها. ومن جهة أخرى، فإنّ معلوماتها لم تكن قط موجزة، بل كانت أيضاً غير دقيقة، كما لو أنّ مثل هذه الوقائع: حالة الفتاة الوحيدة، الأهل، الأب التاجر، التربية لدى الراهبات، الصديقات لم تكن في نظرها يقينية مئة بالمئة؛ كشأننا حين لا نكون واثقين بما لم يوقظ قط فضولنا، فيما يكون بمتناول يدنا، ويكون سهل المراقبة. حتّى ولو كان يتفق لها أن تعطي جواباً صحيحاً، فإن لغتها الباردة المجرّدة الخالية من الفروق والدقائق، والتي كانت تبدو ثمرة شرود لا يقهر، كانت تتركني كذلك في الشك.

ولمّا لم تكن أسرة سيسيليا ووسطها يهمانني أكثر ممّا ينغبي، فقد

كنت في آخر المطاف أرتدّ بالضرورة إلى باليستياري الذي كنت أحسّ بطريقة غامضة أنّه مرتبط بي، كما سبق أن ذكرت، وبعلاقتي مع سيسيليا. ولكن حتّى وهي تتحدّث عن باليستياري كانت الفجوات في حديثها تظل هي هي. بيد أنّ ذلك لم يكن يثنيني أو يثبط همتي، بل على العكس، فإنّ تكتّمها حول الرسام العجوز كان يوحي لي برغبة متحمّسة في معرفة المزيد عنه. والواقع أنّي كنت أشعر، وأنا أسألها عن ماضيها وعن باليستياري، بأنّي أسألها، عن مستقبلها وعني، وقد أدركت ذلك سريعاً.

في هذه الأثناء كان شهران قد مضيا على اليوم الأوّل الذي دخلت فيه سيسيليا للمرّة الأولى إلى مرسمي، وقد بدأت أدهش بأن يكون باليستياري قد استطاع أن يغذّي تجاهها مثل تلك العاطفة العنيفة؛ وبالإجمال أن تكون سيسيليا قد استطاعت أن تمثّل معه دور المرأة المقدورة، إذ منحنا هاتين الكلمتين كلّ معنى الرصد المسبق الذي ينبغي أن تأخذاه، ولا تأخذانه عادة. لقد شقّ عليّ أن أصدّق ذلك، لأنّ سيسيليا، بصرف النظر عن كفاءاتها الغرامية الملحوظة التي كانت مع ذلك تشارك فيها كثيراً من الفتيات بمثل سنّها، كانت تبدو لي تافهة إلى أبعد حد، وبالتالي، غير جديرة بإبعاث عاطفة مهووسة في مثل عاطفة باليستياري التهديمية. وقد ذكرت أنّ ما كان يكشف عن شخصيتها التي لا أمية لها والتي لم تكن تجد أي حجة للاهتمام بأي شيء، إنّما هو حديثها الموجز الخالي من أي مفارقة أو تمييز.

وقد فكّرت طويلاً في الميزة الروحية التي كانت تتخلّل هذا الحديث، فانتهيت إلى التقرير بأنّه ينمّ عن بساطة كبيرة. لا أقصد البساطة المعروفة التي لها دائماً معنى النقاء والطهارة، بل البساطة الكدرة اللغزية لذلك النوع من البتر البسيكولوجي الذي هو التكتّم، حتّى ولو كان لا واعياً ولا إرادياً.

لقد كانت سيسيليا توحي دائماً بالشعور بأنّها غير قادرة على أن تقول الحقيقة، أكثر ممّا توحي بأنّها تكذب؛ وليس مردّ ذلك أنّها كانت كاذبة، وإنّما مردّه أنّ قول الحقيقة معناه انعقاد علاقة مع شيء ما، بينما كانت تبدو هي ولا علاقة لها مع شيء. حتّى إنّ سيسيليا حين كانت تكذب حقًّا (وسنرى أنّها كانت قادرة على ذلك كلّ القدرة) فقد كانت تشعر بأنّها إنّما كانت تقول شيئاً حقيقياً، ولو بطريقة سلبية، بسبب هذا الجزء اليسير من المشاركة، أي من الحقيقة، التي يحتملها كلّ كذب.

فكيف فعل باليستياري، يا ترى، ليقع في غرامها إلى هذا الحدّ الجنوني؟ أو ماذا حدث بينهما لتصبح شخصية سيسيليا التافهة، وربّما بسبب تفاهتها بالذات، عاملاً للعاطفة المهووسة؟ أنا أعرف أنّ المرء لا يسعه أن يصدر حكماً على غراميات الآخرين؛ ولكنّي كنت، في آخر المطاف، قد حللت محل باليستياري في حياة سيسيليا؛ وهذا يعني أنّي تناولت بدوري المخدر الذي كان الرسام العجوز يتحدّث عنه بصدد سيسيليا. ولم أكن أتمالك من أن أدهش بلا انقطاع، في شعور من الحذر المزمن، كما يحدث عند إعلان خطرٍ بطيء الظهور، أدهش من أنّ المخدّر نفسه لم يكن يؤثّر عليّ أي تأثير.

ولهذا كنت أسأل سيسيليا طويلاً، وبطريقة التلمّس، إذا صحّ التعبير، من غير أن أعرف على الضبط ما كنت أود أن أعلمه منها. وهذا نموذج من تلك المحادثات:

- أخبريني: ألم يكن باليستياري يقول لك قط لماذا كان يحبّك؟
- أوه! هذا السؤال الخالد أيضاً! دائماً باليستياري.
- اعذريني، ولكن يجب أن أعرف تماماً...
- ماذا؟

- لا أدري ماذا، يخصكما، أنت وباليستياري. إذن قولي لي: هل شرح لك يوماً لماذا كان يحبّك؟

- لا. كلّ ما هناك أنّه كان يحبّني.

- إنّني لم أحسن الإفصاح عن فكرتي. صحيح أنّ الحب لا يحتاج إلى دافع. فإنّ المرء يحبّ، وهذا يكفي؛ أمّا صفة الحب، فتحتاج إلى دافع. إنّ الإنسان يحبّ بلا سبب، ولكن إذا كان يحبّ في حزن أو في فرح، في هدوء أو في قلق، في غيرة أو في ثقة، فإنّ هناك في الحقيقة سبباً معيناً. إنّ باليستياري كان يحبّك كالأهوس إذا صحّ التعبير. وأنت نفسك التي أفهمتني ذلك. لقد كنت بالنسبة له فسقاً، مخدّراً، شيئاً لم يعد الاستغناء عنه ممكناً، على حد تعبيره نفسه. إذن، لماذا كان ذلك الهوس؟

- لا أدري.

- أنت لست امرأة تستطيع أن توحي هوساً من هذا الطراز، هذا ما يخيّل إليّ على الأقل.

- وهذا ما يخيّل إليّ أنا أيضاً.

قالتها بلا ظلّ من غضب أو سخرية، بل بكلّ تواضع وإخلاص.

- إذا كان عليّ أن أقول لك ما أفكّر به، الآن وقد عرفتك معرفةً أفضل، فإنّي لا أنجح في أن أفهم حقًّا باليستياري وعاطفته المهووسة. إنّني مندهش، إذا لم أقل خائب. إنّ ما قلته لي عن علاقاتك بباليستياري يجعلني أتصوّر أنّك كنت امرأة مريعة، من هاتيك اللواتي يستطعن أن يهدمن رجلاً. ولكنّك تبدين لي، على العكس، فتاة طبيعية جدًّا. وأنا على ثقة من أنّك جديرة بأن تكوني زوجة ممتازة.

- أتظنّ؟

- نعم، أنت توحين بهذا.

- وهذا هو رأيي، في الحقيقة.

- إذن إلامَ تعزين العاطفة، أو بالأصح هذا النوع من العاطفة المهووسة التي كانت باليستياري يكنّها لك؟

- لا أدري.

- حاولي أن تفكّري في الأمر لحظة.

- الحقيقة أنّي لا أدري. يجب أن نفكّر بأنّه كان مصنوعاً على هذا الشكل.

- يعني؟

- لم يكن يستطيع أن يحبّ إلّا بذلك الشكل.

- ليس هذا صحيحاً. فلقد رأيت باليستياري طوال أعوام يغيّر النساء باستمرار. ولم تصبح الأمور كما أصبحت إلّا معك.

صمت طويل، ثمّ قالت بإخلاص ونيّة حسنة:

- إطرح عليّ سؤالاً دقيقاً فأجيبك.

- ماذا تقصدين بسؤال دقيق؟

- سؤال يمسّ أمراً مادياً. إنّك تطرح عليّ دائماً أسئلة عن العواطف، عمّا يفكّر به الأشخاص أو لا يفكّرون به، فلا أدري بمَ ينبغي أن أجيبك.

- شيء مادي؟ حسناً، قولي لي: هل كان باليستياري في رأيك يعلم أنّ علاقاتكما كانت تضرّ بصحته؟

- نعم، كان يعرف ذلك.

- وما كان رأيه فيه؟

- كان يقول: لا بدّ من أن أفقد حياتي ذات مرّة. فكنت أقول له إنّ عليه أن يتنبّه، ولكنّه كان يجيبني أنّ الأمر كان بالنسبة إليه بلا أهمية.

- بلا أهمية؟

- نعم.

ثمّ أضافت بلهجة مبهمة كما لو أنّها تتذكّر في جهد:

- بل إنّي أذكر، وأنا الآن أفكّر في ذلك، أنّه قال ذات يوم ونحن نقوم بفعل الحب: استمرّي، استمرّي، استمرّي، أريد أن تستمرّي من غير أن تهتمّي بي، حتّى ولو اعترضت، حتّى ولو انزعجت، وأن تميتيني، تميتيني حقيقة.

- وأنت؟

- في تلك الأثناء، لم أعلّق أهمية على كلامه. فإنّ ما كان يقوله كثير ولكنّك تذكّرني به الآن.

- وهكذا، تظنّين أنّه كان يحبّك لأنّك تميتينه، أي أنّك كنت له الوسيلة التي كان يستعملها ليقتل نفسه؟

- لا أدري. فأنا لم أفكّر في ذلك مطلقاً.

وهكذا كنت أقترب رويداً رويداً من الحقيقة، أو على الأقل، كنت أشعر أنّي أقترب منها. ومع ذلك، فقد كنت أظلّ غير راض. فإنّ فكرة أنّ سيسيليا كانت فتاة كسائر الفتيات وأنّ باليستياري قد وجد فيها أموراً لم تكن فيها، وأنّه مات بسببها، إنّ هذه الفكرة الساذجة كانت تعزيني بما فيه الكفاية؛ وقد كانت تشرح، إلى جانب أشياء كثيرة، لماذا لم أكن أحسّ، خلافاً لباليستياري، إلّا انجذاباً مادياً بسيطاً نحو سيسيليا. غير أنّ هذا الشرح لم يكن ليرضيني كلّ الرضى، من غير أن أعرف السبب، كما لو أنّه إذ يشرح كلّ شيء، لم يكن ليشرح شيئاً، وهو على أي حال كان يترك بلا حل قضية سيسيليا؛ أي قضية التناقض بين بساطتها الفعلية، وافتقارها الكامل للأهمية، وبين العاطفة المهووسة التي عرفت أن توحيها.

وإلى جانب هذا، كنت قد بدأت ألاحظ أنّي كنت أسأم مع سيسيليا، وكان هذا يعني العودة إلى موقف التجرّد الذي كنت فيه، غريباً عن كلّ شيء قبيل التعرّف عليها. والقول بأنّي كنت أسأم مع

سيسيليا يمكن أن يحمل على التفكير بأنّها لم تكن لتسلّيني، وأنّها كانت بكلمة واحدة مضجرة. ولكن القضية لم تكن، كما ذكرت في مكان آخر، قضية السأم بالمعنى الذي يُنسب عادة إلى هذه الكلمة. فالواقع إنّ سيسيليا لم تكن هي المضجرة، وإنّما أنا الذي كنت أسأم في ما أنا أعترف في أعماق نفسي أنّه كان بإمكاني إلّا أسأم، لو استطعت بمعجزة ما أن أجعل علاقتي بها أكثر واقعية، بينما كانت هذه العلاقة على العكس تزداد كلّ يوم ضعفاً وتصبح وهمية أكثر فأكثر.

وكنت ألاحظ تغيّر هذه العلاقة لا سيّما وأنا أفكّر بالطريقة المختلفة التي واجهت بها أوّل الأمر الحب الجسدي الذي أصبحت أعتبره الحب الوحيد الممكن بين سيسيليا وبيني. ففي البدء كان هو إذن شيئاً طبيعياً جدًّا بما ظهر لي من أنّ الطبيعة كانت تتجاوز نفسها فيه وتصبح إنسانية، بل أكثر من إنسانية. أمّا الآن فيلفت نظري افتقاره إلى الطبيعة، وخصيصته كعمل مخالف للطبيعة على نحوٍ ما، أي أنّه اصطناعي ولا معقول. إنّ السير والجلوس والتمدّد والصعود والهبوط، جميع هذه الألوان من العمل الجسدي كانت تبدو لي ذات ضرورة. فهي إذن طبيعية؛ أمّا الاقتران فقد كان يبدو لي على العكس قسراً شاذًا لم يُصنع الجسم الإنساني من أجله ولا يستطيع أن يعتاده من غير جهد وتعب. وكنت أفكّر بأنّ كلّ شيء يمكن أن يُعمل بيسر، في انسجام ولذّة، كلّ شيء ما عدا الاقتران. إنّ بنية الجهازين التناسليين بالذات، جهاز المرأة صعب المنال، وجهاز الرجل العاجز، كالذراع أو كالساق، عن التوجّه نحو غايته بطريقة ذاتية، والمحتاج على العكس إلى مساعدة الجسم كلّه، إنّ بنية هذين الجهازين كانت تبدو لي وهي تدل على لامعقولية الفعل الجنسي. ولم يكن بين الشعور بلا معقولية العلاقة الجسدية والشعور بلا معقولية سيسيليا غير خطوة واحدة.

وهكذا، فإنّ السأم كان كالعادة يهدم أوّلاً علاقتي بالأشياء، ثمّ الأشياء نفسها، إذ يجعلها لا واقعية وغير مفهومة. والشيء الجديد هذه المرّة، هو أنّ السأم لم يكن مقصوراً على أن يوحي لي بالبرودة أو اللامبالاة، تجاه سيسيليا التي أصبحت شيئاً لا معقولاً، ربّما بسبب العادة الجنسية التي مارستها والتي لم أكن حريصاً على قطعها، في الوقت الحاضر على الأقل، وإنّما كان السأم يتجاوز هذه العواطف، أو بالأصحّ هذا النقص في العواطف، ليتحوّل إلى قسوة وفظاظة.

وسيسيليا لم تكن قدحاً، بل كانت شخصاً، أو بالأحرى، بالرغم من أنّها كفّت في لحظات سأمي عن أي توجد كأي شيء آخر، فإنّي كنت أعرف مع ذلك بذهني أنّها كان شخصاً. وكما أنّ القدح كان يوحي لي أحياناً برغبة عنيفة في أن أتناوله وألقيه إلى الأرض وأحيله إلى شظايا لأحصل بتحطيمه على تأكيد لوجوده الفعلي، بعد أن يكون سأمي قد أظهره لي لا معقولاً ولا مفهوماً، فكذلك كانت الرغبة، من باب أولى، تأخذني حين أسأم مع سيسيليا بأنّ أعذبها وأجعلها تتألم، إن لم يكن بالمستطاع أن أحطّمها. والواقع أنّه كان يبدو لي، إذ أعذبها وأجعلها تتألم، إن لم يكن بالمستطاع أن أحطّمها. والواقع أنّه كان يبدو لي، إذ أعذبها وأجعلها تتألم، أنّني سأصل إلى عقد العلاقات التي قطعها سأمي، من جديد؛ وسواء لديّ أن أبلغ ذلك بالقسوة أم بالحب.

وأنا أذكر جيّداً كيف تبدّت هذه القسوة للمرّة الأولى. فبعد ظهر أحد الأيام كانت سيسيليا بعد أن نزعت ثيابها تقترب من الأريكة التي كنت أنتظرها عليها، متمدّداً وخالعاً ثيابي أنا أيضاً، وعيناي مسمرّتان عليها. وكان سيسيليا تسير على رؤوس أصابعها، ونهداها إلى الأمام، ونصفها الأعلى وخاصرتاها منكمشتان قليلاً، تحمل على وجهها

شعوراً خائفاً وغير واثق، هو شعور من يستعدّ لعملٍ معروف قام به مرّات عديدة، ولكنّه مع ذلك يظلّ شعوراً جديداً كلّ مرّة. وكنت أراها تتقدّم فأفكر بأنّي لست فقط لم أكن أشتهيها (بالرغم من أنّي عالمٌ تماماً أنّه كان باستطاعتي، ولو بطريقة آلية، أن أبلغ درجة الإثارة الكافية لامتلاكها) بل لم أكن أنجح في أن أشعر بها كشيء له علاقةٌ ما بي.

وبينما كنت أقلّب هذه الأفكار، وكانت هي قد بلغت الأريكة واستندت بركبتها إليها لكي تصعد، لاحظت فجأة أنّ ستائر النافذة كانت ما تزال مفتوحة. وكان نور نهار السموم الباهت يزعجني؛ ثمّ إنّه كان في الجانب الآخر من الساحة نوافذ يمكن أن يُنظر منها إلى المرسم. فقلت آلياً:

- أرجوك، اذهب فأسدلي الستائر.

فقالت: - آه! الستائر...

وبدت طائعة كعادتها، فأولتني ظهرها، وقصدت إلى النافذة وهي تمشي على أطراف أصابعها. وفيما كنت أنظر إليها تعبر المرسم بتلك البنية الغريبة لجسمها نصف المراهق ونصف البالغ، جاءني فجأةً، للمرّة الأولى منذ تعرّفي إليها، إغراء قسوة. كان إغراءً يرتدّ بي إلى الوراء في الزمن، إلى سنوات حداثتي، إلى الظرف الوحيد في حياتي الذي كنت فيه قاسياً حقًّا. كنت في تلك الأعوام أملك قطة إسبانية كبيرة، رمادية وسوداء، كنت شديد التعلّق بها، ولكن كان يحدث لي غالباً أنّ أسأم معها، خصوصاً بعد أن أكون قد استنفدت بعض اللعب وتجارب الذكاء النادرة التي كانت القطة الصغيرة قادرة عليها. وقد أوحى لي السأم يوماً شعور قسوة، وهذا بدوره أوحى لي باللعبة التالية: وضعت في صحن بعض السمك الصغير النيء كنت أعرف أنّ القطة شديدة الرغبة به، ووضعت الصحن في ركن من الغرفة. ثمّ

ذهبت أحمل القطة، وبعد أن جعلتها تشمّ السمك، أخذتها إلى الركن المقابل وأطلقتها. وسرعان ما اندفعت القطة في اتجاه الصحن، وفي جسمها كلّه، من طرف الذنب إلى طرف الأنف، تعبير فرح وشراهة؛ ولكن ما كادت تبلغ منتصف طريقها حتّى هرعت أقبض فجأة على عنقها وأعيدها إلى نقطة انطلاقها. وكرّرت هذه اللعبة، إذا كنت أستطيع أن أسمّيها كذلك، عدّة مرّات متتالية، وكانت القطة تلاحظ أكثر فأكثر في كلّ مرّة أنّها كانت ضحية سوء طالع خفيّ، وكانت تغيّر مسلكها تبعاً لذلك. ففي قفزاتها الأولى بدت عنيفة شرهة واثقة من نفسها؛ ولكنّها كانت بعد ذلك أشد حذراً، آملة أن تفلت من رقابتي، بل ربّما أن تكون غير مرئية وهي تزحف تقريباً على الأرض وتحرّك أرجلها في احتراس. وأخيراً كانت المسكينة تكتفي برسم حركة خفيفة إلى الأمام في اتجاه الصحن؛ وكانت تلك محاولة خبيثة وماكرة في وقت واحد بأن تخضع من غير جهد بالغ لاستمرار إرادتي القاسية. ثمّ تغيّر فجأة كلّ شيء: فقد تكلّمت القطة. أقصد أنّها أدارت إليّ رأسها ونظرت في عينيّ، وأرسلت مواة طويلة معبرة، وفي الوقت نفسه مؤثرة وعاقلة، تبدو وكأنّها تقول: «لماذا تفعل ذلك؟ لماذا تفعل ذلك؟» وقد استطاعت هذه المواة الساذجة والبليغة أن تجعلني على الفور أشعر بالخجل من نفسي. وأحسب أنّني أتذكر أنّ الأمر بلغ عندي أنّي أوشكت أن أحمرّ خجلاً. وأخذتُ القطة بين ذراعي، وحملتها بنفسي بالقرب من الصحن، وتركتها تأكل سمكها الصغير قريرة العين.

وإذ رأيت سيسيليا تتجه بوداعة، على رؤوس أصابعها، إلى النافذة، خطر لي أن أعيد معها اللعبة التي قمت بها مع القطة. كانت هي أيضاً قد اقتربت من الأريكة لتروي غليلها، وهي أيضاً قد عبّرت، كالقطة في تلك اللحظة، وبكل كيانها، من الرأس حتّى القدمين، عن

تلك الرغبة الطبيعية والمشروعة إلى أبعد الحدود. وإذن، فقد كنت على وشك أن ألعب معها كما لعبت مع القطة؛ ولكنّي هذه المرّة كنت أدري بكامل وعيي الدافع الحقيقي للعبة، وهو رغبتي في أن أعقد مجدّداً، بواسطة القسوة، علاقتي مع الأشياء، تلك العلاقة التي كان السأم قد قطعها.

وفي هذه الأثناء، كان سيسيليا قد ذهبت إلى النافذة فأسدلت الستائر وعادت نحو الأريكة. وكانت قد ظهرت على وجهها الذي تبدّى عليه لحظة تعبير الخادمة التي تنفّذ أمر سيدها، هيئة الاستعداد الطقسي للحب، واستدارت حول المسند، وهي ما تزال تسير على رؤوس أصابعها، وعبرت المرسم حتّى بلغت الأريكة وهمّت بأن تصعد عليها، ولكنّي أوقفتها وأنا أقول:

- اعذريني، أنّني لا أحتمل أن أقوم بفعل الحب أمام باب مفتوح. فأرجوك أن تذهبي فتغلقي باب غرفة الحمّام.

فتمتمت:

- كم أنت صعب!

غير أنّها مضت من جديد وادعةً عبر المرسم. ورأيتها تبتعد في الظلام شبحاً رائعاً، بشعرها الكثيف المجعّد الأسمر، وظهرها الدقيق المعظّم، وحدبتي فخذيها الشاحبتين. وأغلقت الباب بعناية وعادت على أعقابها شبحيةً في الظلام الذي كان يجعل عينيها أشدّ اتساعاً وأكثر ظلماً، ويجعل نهديها أثقل وأشدّ سمرة، ويجعل منخفض بطنها أعمق وأشدّ سواداً، ولم أوقفها هذه المرّة حين وضعت ركبتها على الأريكة، ولكن في اللحظة التي كانت تتمدّد فيها إلى جانبي، وهي تلهث بعض الشيء، قلت لها:

- اعذريني مرّة أخرى. ولكن ألا تستطيعين أن تصنعي معروفاً فترفعي سماعة التلفون؟ لقد دقّ أمس في أجمل لحظة. صحيح أنّي لم

أذهب لأجيب، ولكن ذلك الجرس مع ذلك قد حطّم أعصابي!

ورأيتها تنظر إليّ لحظة، ثمّ قالت بصوت منخفض:

- للمرّة الثالثة...

ومن غير أن تشكو تقريباً، نهضت فذهبت ترفع سماعة التلفون على الطاولة، في وسط الغرفة، باقيةً لحظة في وضع جانبي، بعكس وجهة النور. وانتظرت حتّى عادت إلى قربي، فصحت في سذاجة مصطنعة:

- ما أشدّ شرودي! اصنعي معروفاً آخر معي، يا حبيبتي سيسيليا، اذهبي فأتيني بعلبة السكاير من على النافذة... فأنت تعلمين أنّي، بعد الحب، أحبّ أن أدخّن، أرجوك...

فلم تقل شيئاً ورمتني بنظرة طويلة مندهشة، ولكنّها أطاعت للمرّة الرابعة: فاتجهت إلى النافذة. وتناولت السكاير وعادت بقربي، وهي ما تزال مستعدة لأنّ تهب نفسها.

وقالت لي بنفاد صبر فرح وهي تقذفني بالعلبة:

- هذه هي سكايرك...

وفي الوقت نفسه همّت بالارتماء عليّ، فأوقفتها على الطائر:

- وعلبة الثقاب؟

- أوه! وبعد؟

ثمّ نزهة جديدة عبر المرسم، على رؤوس الأصابع دائماً، ولكنّها إذ عادت بدا التعبير المألوف على سحنتها مكدّراً بعض التكدير بطيف من شك وغمّ. وقذفت علبة الثقاب على رأسي، كما قذفت علبة السكاير، ولن بدل أن تصعد على الأريكة توقفت على بعدٍ يسير وهي تسألني:

- قلّ لي على الفور، ما دمت واقفة، إذا كنت بحاجة بعدُ إلى شيء. فكذبت:

- أودّ لو تذهبي إلى المطبخ فتغلقي مفتاح الغاز، فعندي شعورٌ أنّي تركته مفتوحاً.

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك؟ آه... نعم! هناك شيء آخر أريد أن أطلبه منك: اذهبي إلى المدخل وانزعي جرس الباب: فربّما جاء أحدٌ فأزعجنا.

وكنت أنتظر أن تطيع، ولكنّي رأيتها على العكس تجلس بعزم على كرسي، وهي تأخذ إحدى ساقيها بذراعيها، وهكذا كانت تنظر إليّ بصمت وهي متكوّمة في وضع حزين متردّد. وسألتها مندهشاً:

- ما بالك؟ لماذا لا تذهبين للقيام بالأشياء التي أطلبها منك؟

فلم تجب على الفور. وأخيراً، سألتني في تحفّظ:

- هذان الشيئان، أم هناك أيضاً غيرهما؟

- هذان الشيئان فقط.

فانتفضت بما بدا لي تنهّدة خفيفة، وعبرتْ المرسم مرةً أخرى لتذهب أوّلاً إلى المطبخ ثمّ إلى المدخل. وحين عادت، لاحظت أنّ وجهها كان ما يزال يحتفظ بتعبير الانتظار والرغبة، تساءلت عمّا إذا كنت سأراها بعدُ هكذا إذا ما أطلتُ لعبتي القاسية. كان ذلك هو الحب، الحب الوحيد الذي كانت جديرة به، وكنت على وشك أن أقتله. ولكنّها إذ كانت متمدّدة إلى جانبي، لم أتماسك من أن أقول لها:

- آسف، فيجب أن تنهضي مرّة أخرى. إنّني بحاجة إلى منفضة. فأنا لا أحبّ أن ألقي بالرماد أرضاً.

وفي هذه المرّة، قامت بعكس ما قامت به القطة في تلك السنوات البعيدة من حداثتي. لقد تكلمت بإنسانية، وبتعقّل، وأكاد أقول بمسيحية: فإنّ الألم الذي جشّمتها إياه كان قد رفعها حتّى الإنسانية. أمّا سيسيليا فإنّها تجاه القسوة نفسها قد أتت حركة خضوع

حيوانية خرساء ومؤثرة في وقت واحد. فبدلاً من أن تنهض كما طلب منها تكوّنت والتصقت بي، مخفيةً وجهها بين كتفي وأذني، معتنقةً إياي بذراعيها وساقيها، كما لو أنّها كانت تبتهل إليّ في صمت، على طريقة الحيوانات التي لا تستطيع أن تتكلم، بأن أكفّ عن تعذيبها، مهما كان دافعي ومهما كانت المتعة التي أصيبها منه. وهذا الاعتناق الذليل، الحزين والمبتهل، الذي كان حيوانياً بصورة غريزية، بقدر ما كانت موأة القطة إنسانية منذ سنوات خلت، أحدث لديّ التأثير نفسه. فلقد خجلت فجأة من فظاظتي التي كانت تلتمس في عذاب الآخرين دليلاً على الواقع؛ ومن غير أن أمضي في تجاربي اللامعقولة، بادلتها ضمّتها. وعلى الفور أحسست بجسمها الذي كان يبدو وهو لا ينتظر إلا هذه الإشارة حتّى يلتحم بجسمي بصورة مختلفة، ليست هي بعد صورةً مبتهلة، وإنّما شرهة، موجّهةً إليّ بعانتها ضربة قاسية نافذة الصبر كما لتبلغني أنّها كانت على استعداد. وفكّرت في تسلية، لا في سأم، بأنّ الوليمة سوف تبدأ.

ولكن بقي لي من هذا اليوم اشمئزاز القسوة، هذه العلاقة ذات المغزى لنقصٍ في علاقاتي مع سيسيليا، وفي الوقت نفسه، الخوف من أن أسقط بالمستقبل في قسوات أشدّ، أكثر امتناعاً على الإصلاح وأوفر إثارة للخجل. وهذه القسوة لم تكن إلّا ضربة تجربة، وكنت أدرك أنّني إذ أطيل في علاقاتي مع سيسيليا السأمَ ونتائجه، فقد أستطيع حقًّا أن أنزلق إلى السادية، فإلى هذا فعلاً كانت تدفعني الحاجة إلى إقامة علاقة ما معها. وأن يكون اعتناق سيسيليا المؤثّر الحيواني قد أوقف قسوتي، إنّ ذلك لا ينبغي أن يدع لديّ أوهاماً. والواقع أنّي كنت قد عدلت عن تعذيبها، لا لأنّي أشفقت عليها وخجلت من نفسي، بل لأنّها بذلك الاعتناق كانت قد اعترفت بأنّها

كانت تتألّم، وهذا بالذات ما أرادت أن أحملها على الاعتراف به لأخنق سأمي بمنظر عذابها.

ولكن كان بوسعي وأنا أتبع هذا الطريق، وأنا أقسّي حساسيتي أكثر فأكثر أن أبلغ السادية كما قلت، أي أبلغ نقطة تحويل سأمي إلى آلية فاسدة، فقد كان السأم يوحي لي خوفاً، لا اشمئزازاً، لأنّه كان له شيء ما واضحٌ وجوهري. أمّا السادية، فقد كانت على العكس تثير نفوري بنفاقها (فالسادي يزعم دائماً أنّه يريد أن يعاقب ضحيته، بينما هو في الحقيقة يلتمس المتعة عبر العذاب الذي يسبّبه بحجة العقاب). ثمّ إنّ السادية، بما تجلب لي من إثارة، تبدو لعيني قذرة بمقدار ما كانت طاهرة، أو ما كانت تدعي الطهارة، إلى اللحظة التي تزيح بها كلّ نفاق، لتستسلم كلّ الاستسلام في العلاقة الغرامية، كاشفة بذلك عن أنّها لم تكن شيئاً آخر غير المحذّر.

ومن حسن الحظ أنّي لست قاسياً؛ وهذا الفصل الأوّل من القسوة كان كذلك الفصل الأخير. وعلى العكس، فكّرت بأنّ عليّ، قبل أن يفوت الأوان أن افترق عن سيسيليا. وكنت آسفاً على أنّي بلغت إلى ذلك الحدّ، لا من أجلي بالذات، لأنّي كنت أتصوّر أنّي لا أحبّها، وإنّما من أجلها هي وقد كنت أتصوّرها مغرمة، ولو كان ذلك على طريقتها الصامتة اللامعبرة.

لماذا تراني كنت على ذلك القدر من الوثوق بأنّي لم أكن أحبّها، وأنّها كانت تحبّني؟ إنّ هذا صعب على التفسير. فكوني كنت أستطيع أن أتصرّف بسيسيليا أي بجسدها، حين كنت أريد ذلك، وكلّما كنت أريد ذلك، وبجميع الطرق التي كنت أريد بها ذلك، فيما هو يعطيني وهم تملّكها إلى أبعد الحدود، ووهم انعقاد علاقة معها كافية إلى حدّ يجعل استمرارها بعد الآن مجدياً، إنّ ذلك كان قد أقنعني بأنّي لم أكن أحبّها.

وبالمشابهة، كنت مقتنعاً بأنّ سيسيليا كانت تحبّني، لأنّي كنت أجدها دائماً ملاطفة باشّة، متنازلة، وادعة. وبدافع من غرور رجاليّ مشترك جدًّا، كنت أعزو هذا اللطف إلى الحب، بينما كان عليّ على الأقل أن أشكّ بنوع ذلك الحب الذي يكاد يكون آلياً. وإذن فقد كنت أفكّر أنّي بينما كنت أستشعر عزاءً من انفصالي عنها، كان لا بدّ لسيسيليا على العكس أن تتألم من ذلك، ومن أجل هذا كنت أؤجل هذا الفراق يوماً فيوماً، راغباً في أن أجد حجة لأجعله، إذا أمكن، أقل إيلاماً وإهانة.

الفصل الرابع

عزمت على أن أترك سيسيليا في اليوم نفسه الذي حدث فيه ذلك الفصل القاسي الذي رويته. وكنت قد اتخذت هذا القرار فجأة بعد أن ذهبت سيسيليا؛ ثمّ تركت أسبوعين يمضيان، كما ذكرت، لأجد حجة لائقة لافتراقنا، ومع ذلك، فلم أعانِ من السأم كما عانيت في تلك الفترة، وكان هذا السأم يبدو وهو يتجسّد، بعينيّ، في شخص عشيقتي الصغيرة.

وأذكر أنّي حين كنت أسمع الجرس يُقرع بطريقتها المألوفة، الموجزة والمتكتمّة، كنت أرسل زفرة من نفاد صبر غير محتمل، ثمّ كان كلّ ما يحدث بعد دخول سيسيليا إلى المرسم يبدو لي غارقاً في جمود بليد ومعتم لم يكن يستطيع أن يهزّه لا عملية نزع الثياب المألوفة، ولا القُبل ولا الملامسات ولا المهيجات الغرامية الأخرى التي لم تكن سيسيليا ضنية بها قط، حتّى ولا التشنّج الصرعي لذروة الانتشاء النهائية، كخاتمة لهذا النوع من الطقس الرتيب الذي كان يشكل حبّنا. والواقع أنّ سيسيليا، سواء أكانت عارية أم مرتدية ثيابها، في الضمّة أو متمدّدة إلى جانبي بعد الحب، في الظلام أم في وضح النهار، كانت تبدو لعيني وهي تفقد كلّ يوم صلابتها كشخص، بل حتّى كحاجة ذات ماهية. ولمّا لم أكن راغباً بعد في اللجوء إلى القسوة التي كان بإمكانها بلا شك أن تكسب علاقتنا، ولو ظاهرياً، واقعاً عابراً، فقد كنت أرى اقتراب يوم أتصرّف فيه مع سيسيليا كما أتصرّف مع أيّة حاجة يكفّ المرء عن الاحتياج إليها، أعني أنّني

سأتركها، من غير أن أقدّم لها، ولا لي أنا نفسي، حجة مقبولة. وعلى هذا، فقد كان عليّ أن أجد حجّة قبل أن يفوت الأوان.

ذات صباح مضيت أزور أمّي التي لم أكن قد رأيتها منذ يوم فراري. فاستقللت سيارتي القديمة المتفسّخة في اتجاه جادة «آبيا». وكانت هناك تلك الطريق الجاهلية والمسيحية التي كانت آنذاك «على الموضة» بين الأغنياء، بجدرانها الطافحة بالخضرة، وحواجزها، ومقاصيرها المختبئة بين الأشجار، وكنت أرى من جديد صفوف السرو الطويلة وأشجار الصنوبر المتوحدة، وحوافي الطريق المعشبة والخرائب القرميدية الحمراء المزدانة بقطع من المرمر الأبيض، ثمّ رأيت أخيراً بين ركيزتين الجادّة المنحدرة بحصاها المجروف جيّداً والساحة التي تحيط بها أشجار الغار والسنديان الأخضر، والمقصورة الواطئة الحمراء.

وهذه المرّة لم تكن ريتا الفرّاشة ذات السحنة المرائية المزودة بالنظارتين الكبيرتين هي التي أقبلت تفتح لي، وإنّما كان رئيس خدم مربوعاً وأصلع ذا وجه قندلفتي سمين، يرتدي سترة عمل مخططة، وبعد أن دعاني بـ «سيدي المركيز» أخبرني أنّ «السيدة المركيزة» كانت في مكتبها. وقد انتفضت لسماع هذا اللقب النبيل الجديد عليّ تماماً، وقصدت المكتب على التو.

وكانت أمّي جالسة إلى طاولتها، مستغرقةً في تفحّص دفتر، والنظارات على أنفها، وبزّ سكاير طويل بين أسنانها. وبعد القبلة المألوفة على خدّها الهزيل الجافّ، قلت لها.

- ولكن ما معنى لقب المركيز هذا الذي أطلقه عليّ رئيس خدمك؟ ثمّ من أين قد نبع؟ وأين ذهبت ريتا؟

فرفعت أمّي نظارتيها وحدّقت فيّ لحظة بعينيها الزرقاوين المزججتين، من غير أن تتكلم. ثمّ قالت لي بصوتها المزعج:

- لقد طردت ريتا، فقد كانت امرأة سيئة السيرة.

- ما الذي كانت تعمله؟

فقالت أمّي:

- جميع الرجال، بلا استثناء، في البيت وخارجه، في قطر دائرة يمتد عدّة كيلومترات، إنّها جنيّة رجال!

- عجباً! من كان يظن هذا، فقد كانت تبدو شديدة الرصانة.

فصمتت أمّي من جديد، كما لو أنّها أرادت أن يعود إلى نفسي السكون الضروري لتلقّي النبأ الذي ستعطيني إيّاه:

- وأمّا بشأن اللقب، فقد جاءني منذ حين اختصاصي في علم النسب فشرح لي أنّ أسرتنا كانت من أسر النبلاء، وأنّنا مركيزات. ويبدو أنّ أسرة أبيك قد تركت هذا اللقب يسقط في القرن الماضي، لسبب غير معروف. والآن، سأقوم بالتحقيقات اللازمة، وعمّا قريب يصبح لنا الحق في حمل اللقب، وقد بدا لي أنّه ليس جرماً أن نستعمله، ما دام حقًّا مكتسباً لنا.

فلم أقل شيئاً: فقد كنت أعرف سنوبيسم أمّي، وقد انقطعت منذ وقت طويل عن الشعور بالدهشة إزاءه، واستطردتْ بعد لحظة، بلهجة عتاب:

- لا أدري إن كنت تلاحظ أنّه منذ... لنقل منذ اختفائك في يوم عيد ميلادك، هذه هي المرّة الأولى التي تعود فيها لترى أمّك.

فقلت بصوت نادم بما فيه الكفاية:

- أنتِ على حق. ولكنّي كنت مشغولاً جدًّا.

فسألت:

- هل عدت للرسم؟

فأجبت:

- لا تخافي شيئاً، وإنّما كنت مشغولاً بشؤون أخرى.

- أنا لا أخاف شيئاً... بل إنّي شخصياً أفضّل أن تكون قد عدت إلى رسمك.

- لماذا؟

- لأنّك بهذه الطريقة يقلّ تفكيرك بالنساء.

قالت أمّي ذلك بصورة غير متوقعة ومستاءة إلى أبعد حدّ. ثمّ نظرت إليّ موجهة وأضافت:

- ماذا تظن إذن؟ أتعتقد أنّ ذلك غير واضح؟

- ماذا تقصدين؟

فلم تجب أمّي جواباً مباشراً، بل قالت:

- هل تعلم أنّ نضارتك قد زالت تماماً؟

كنت أعرف ذلك. فمنذ شهرين وأنا أسرف في العلاقة الجنسية، بل إنّي لم أفعل شيئاً آخر، وكان هذا يعني أنّي قد خبلت. وأجبت:

- هذا ممكن، غير أنّي مع ذلك أجدني في صحة ممتازة.

- إنّ عليك في رأيي أن ترتاح، أن تبقى في الهواء الطلق، وتقوم بالرياضة، وتتنشق الهواء الجيّد. لماذا لا تذهب إلى الريف شهراً أو شهرين؟

- إنّ الذهاب إلى الريف يتطلّب مالاً، وليس معي مال.

وكانت أمّي، كلّما حدّثتها عن فقري، الذي هو مع ذلك إراديّ في حقيقته وخياليّ، تغضب وتغتاظ، كما لو أنّ ذلك بدافع غير مفهوم ولا أخلاقي بالإجمال. وكان ردّ فعلها مماثلاً هذه المرّة أيضاً:

- ولكن هذا يا دينو شيء ينبغي لك ألّا تقوله!

- لماذا؟ إنّنا في الخامس عشر من الشهر، وأظنّ أنّ ما بقي معي لا يتجاوز أربعين ألف لير ممّا تعطيني إيّاه.

- ولكن إذا لم يكن معك مالٌ يا دينو، فذلك لأنّك لا تريد أن

يكون معك مال. أنت غنيّ، غنيّ جدًّا يا دينو، فمن العبث أن تتظاهر بالفقر. إنّك غنيّ، ومهما فعلت فستظلّ غنيًّا.

وهذا تماماً ما كنت أفكّر به. فقلت وأنا أقطّع كلماتي:

- إذا شئت أن آتي لرؤيتك، فكفّي عن تذكيري بأنّي غنيّ، هل تفهمين؟

- ولكن لماذا؟ إنّها الحقيقة!

- نعم، ولكنّها حقيقة تخفضني.

- ولماذا تخفضك؟ فكّر بعدد الأشخاص الذين سيكونون سعداء إذا كانوا في وضعك. فلماذا يخفضك يا بنيّ أمرٌ يجعل الآخرين سعداء؟

كانت لهجة أمّي آسفة حقًّا: ولم أتماسك من الشعور بإحساسٍ مفاجئ من التعب الخانق. وقلت:

- إنّ هناك أشخاصاً شديدي الحساسية تجاه الفريز، فإذا أكلوا منه امتلأ جسمهم بالبقع الحمر. وأنا شديد الحساسية تجاه المال، وأحمرّ خجلاً لفكرة أن أحصل عليه.

وسادت لحظة صمت. ثمّ استأنفت أمّي بلهجة راضية:

- حسناً، أنت فقير. ولكنّك فقيرٌ له أمٌّ غنيّة، هل تقرّ ذلك على الأقل؟

- وبعدُ؟

- وبعد، فإنّ أمّك ستعيرك مالاً لتذهب إلى الريف: مثلاً إلى «كورتينا دامبيزو».

وكنت على وشك أن أطلق ولولة الغضب الذي كانت توحيه لي عادة نصائح أمّي الاصطلاحية والشديدة التوقّع؛ قضاء الشتاء في كورتينا دامبيزو، والصيف في الليدو والربيع في الريفييرا؛ وحين فكّرت فجأة بأنّها كانت، على غير إرادة منها، تقدّم لي الحجة التي

كنت أبحث عنها لأنفصل نهائياً عن سيسيليا، أوشكت أن أطلب المبلغ الضروري لإقامة فترة من الزمن في كورتينا؛ فبهذا المال سأشتري هدية لسيسيليا وأبلغها في الوقت نفسه أنّ عليّ أن أصحب أمّي إلى الريف. وسوف تخفّف الهدية من وقع الفراق الذي سأقدّمه على أنّه موقت؛ وفيما بعد، أكتب لسيسيليا رسالة وداع.

وقلت بلهجة طاعة:

- أوافق على كورتينا. أعطيني المال إذن.

وبالطبع، لم تكن أمي تتوقع أن أوافق بمثل هذه السهولة. فترصّدتني حائرة، ثمّ سألت:

- متى تريد أن تسافر؟

- على الفور. إنّنا اليوم في الخامس عشر؛ فليكن السفر في الثامن عشر.

- ولكن يجب أن نحجز غرفة في الفندق.

- سأبرق في هذا.

- وكم من الوقت ستمكث؟

- خمسة عشر أو عشرين يوماً.

وكانت أمّي تبدو الآن وهي نادمة على عرضها؛ أو خيّل إليّ أنّها نادمة على كونها قد قدّمت هذا العرض من غير أن تضمن أيّ مقابل: فقد كانت عادة المساومة عندها قويّة جدًّا حتّى إنّها لم تكن لتختفي حتّى في علاقاتها معي. وقالت بلهجة متردّدة، مليئة بالمضض:

- لا شكّ أنّي سأعطيك المال الذي أنت بحاجة إليه، فقد وعدتك به ولن أسحب وعدي.

- حسناً... أعطيني إيّاه.

- ما أعجلك! ثمّ كم أنت تحتاج؟

- أحسبي عشرين ألف لير في اليوم. فأعطيني مئتي ألف لير.

- عشرون ألف ليرة يومياً؟

- هل أنا غنيّ أم لست غنياً، وفقاً لما تقولين؟ إنّني لن أقصد فندقاً من الدرجة الأولى. وعشرون ألف لير كافية لإقامة متواضعة.

- إنّني لا أملكها هنا.

قالت أمّي ذلك وقد عزمت أخيراً على أن ترفض طلبي رفضاً مقنّعاً وأضافت:

- أنا هنا لا أحتفظ بمال قط.

فقلت وأنا أنهض:

- حسناً، لنذهب إذن إلى غرفتك.

- وليس في غرفتي كذلك مال. فقد وجب عليّ أن أدفع مبلغاً هذا الصباح بالذات.

- نظّمي لي إذن «شكاً». ولا ريب أنّ دفتر شكاتك هنا؟

ولدى هذا الاقتراح المعقول جدًّا، رأيتها تغيّر فكرتها بصورة غريبة:

- لا، أفضّل في آخر المطاف أن أعطيك نقداً، لأنّ دفتر شيكاتي قد انتهى منذ الأمس. لنصعد.

ونهضت فتبعتها خارج المكتب، وأنا أتساءل عن سبب هذا التغيّر المفاجئ في أشكال الدفع. ولم أنتظر طويلاً لأفهم السبب. فإذا كنّا على الدرج، قالت لي أمّي التي كانت تتقدّمني، من غير أن تلتفت:

- بالمناسبة، سأعطيك دفعة مئة ألف لير. وستأخذ الباقي غداً. إنّني لا أستطيع أن أعطيك أكثر من ذلك، فهذا كلّ ما معي.

وهكذا فإنّ أمّي قد غيّرت فكرتها لأنّها لم تكن تستطيع أن تعطيني شكاً بالمبلغ كلّه، بينما كان باستطاعتها أن تعطيني أقل من ذلك نقداً، وهي تدّعي أنّها لا تملك أكثر من ذلك. فلماذا هذا البخل المفاجئ؟ وفكّرت أنّ السبب المرجّح هو أنّها لم تكن تريد أن تفقد الرقابة التي

كانت تمارسها عليّ، وأن تحصل في الوقت نفسه على شيء ما مقابل المال.

ولم أقل شيئاً، بل تبعتها على الدرج، ثمّ إلى غرفتها. وكانت حجرة كبيرة باذخة، ذات طراز عصري، بألوان رمادية وبيضاء، ومع طنافس وسجاجيد كثيرة تشعر شعوراً خائفاً بعض الشيء أنّ ليس في أرض الغرفة ولا على جدرانها بوصة واحدة لا يغطّيها النسيج. وفي الظل الذي كان يجعل طيفينا الاثنين المنعكسين في المرايا متواطئين بصورة خفيّة مذنبة، اتجهت أمّي إلى باب غرفة الحمام، في جوف الغرفة، وفتحته. وظللت جامداً حيث كنت، وقالت لي أمّي:

- لماذا أنت باقٍ هناك؟ تعال، فليس لديّ أسرارٌ أخفيها عنك؟

فقلت:

- ليس لديك أسرار لأنّك تعلمين أنّني غير راغب في مالك. ولكنّي لو كنت راغباً فيه، لكانت لديك أسرار، وأسرار كثيرة!

فأجابت:

- أيّة حماقات! أنت ابني، أليس كذلك؟

وتقدّمتني فدخلت غرفة الحمام. وكانت غرفة واسعة جدًّا، بتلك الأبعاد المزدهية واللامجدية التي تختصّ بها، في بيوت الأغنياء، الأماكن المرصودة للعناية الجسمية. فبين المغطس والمغسلة أربعة أمتار من مربّعات المرمر، وبين المغسلة ومقعد المستراح مساحة من الجدار مغطّاة بالخزف. ورأيت أمّي تقترب من الجدار، وتمسك بأحد المعاليق التي تُعلّق بها المناشف، فتديره إلى اليسار، ثمّ إلى اليمين ثمّ تشدّه إليها. وانفتحت أربعة مربّعات من الخزف الأبيض كأنّها النافذة، كاشفة عن مساحة رمادية لامعة لخزنة حديدية. وقالت أمّي في ملاطفة طيّبة بعض الشيء:

- هيّا، هيّا، حاول أن تفتحها بنفسك، مع السرّ.

وكانت أمّي قد كشفت لي سر الخزنة، فحفظته على مضض تقريباً، وربّما لأنّه كانت لي فقط ذاكرة جيّدة، ولكنّي كنت أكره أن أستعمله، وخصوصاً تحت نظرها، كما يكره المرء أن يشارك في طقوس دين لا يؤمن به. فقلت:

- ولكن لماذا؟ افتحيها أنت، فليست هي من شأني.

فقالت أمّي بما يشبه المرح.

- أردت أن أعرف إن كنت ما تزال تذكره.

وبسرعة، أدارت بيدها العصبية البيضاء المحمّلة بالخواتم الثقيلة بضعة أزرار على اللوحة وفتحت. ولمحتُ في جوف العلبة الصغيرة بعض لفائف الأسهم الصناعية وعدّة ظروف بيضاء وصفراء.

وانتقلت أمّي فجأة من المرح إلى الريبة. ورمتني بنظرة حذرة. فخفضت نظري مرتبكاً، وإذ رفعته ثانية، كانت أمّي قد أخرجت من الخزنة ظرفاً أبيض منتفخاً جدًّا، وكانت بسبيل أن تعيد المربّعات إلى مكانها، ثمّ اتجهت إلى غرفتها وقالت لي:

- سأعطيك اليوم خمسين ألف لير. فقد تذكّرت أنّي بحاجة إلى الخمسين الأخرى لأدفعها إلى حانوتي.

وهكذا خفّضت مرّة أخرى المبلغ الذي كنت طلبته منها. وكنت قد حسبت أن أقدّم لسيسيليا هدية قيمتها مئتا ألف لير، وتساهلت لأقبل مئة ألف، أمّا الخمسون ألفاً فكان تبدو لي أتفه من أن تخفّف من حدّة فراقنا.

واحتججت بحزم:

- إنّني بحاجة إلى مئة ألف لير اليوم بالذات. وسوف تدفعين لحانوتيّك في مرّة قادمة.

- لا، لا أستطيع.

واتّجهت أمّي إلى خزانة قديمة عالية فأولتني ظهرها وفتحتها،

ورأيت ظرفاً فيها، فقلت من غير أن أتحوّل عن وسط الغرفة:

- لا شكّ أنّ في هذا المغلق أكثر من خمسين ألف لير، بل ربّما أكثر من ثلاثمئة ألف. لا بدّ أنّ لديك هنا نصف مليون على الأقل، فلماذا هذه الحكايات كلّها؟

فأجابت بسرعة، من غير أن تلتفت:

- كلا، ليس في هذا الظرف إلّا مئة ألف لير.

- أريني.

وفجأة، وبحركة غير متوقعة، التفتت وهي تخفي المال بكتفيها، وأرتني وجهاً منفعلاً تقريباً، بجفائه المعهود:

- دينو، لماذا لا تريد أن تأتي فتعيش من جديد مع أمّك؟ لو كنتَ هنا، لحصلت على المال كلّه الذي ترغب فيه.

ذلك إذن كلّه هو المقابل الذي كانت أمّي تطلبه منّي، ولا أهمية لأن تقدّم لي عرضها بشكل رجاء مؤثّر، بدلاً من أن تضعني أمام تخيير جافّ؛ كما لو كان الأمر مع مدين مفلس. وسألتها بدوري:

- ما دخل هذا بهذه القصة؟

- لم يسعني إلّا أن ألاحظ أنّك بعد شهرين لم أرك فيهما، لم تأت للقائي إلّا لتطلب منّي مالاً.

- لقد ذكرت لك أنّي كنت مشغولاً.

- لو كنت تسكن هنا، لاستطعت أن تفعل كلّ شيء. إنّني لن أتدخّل في حياتك أي تدخّل.

- حسناً، أعطيني هذا المال، ولا نتحدّث في الموضع بعد ذلك أبداً.

- تستطيع أن تذهب وتجيء، وتعود متأخراً في الليل، وتستقبل من تشاء، وترى جميع النساء اللواتي تريد...

- ولكنّني لست بحاجة لأنّ أرى أحداً.

- لقد فررتَ ذلك اليوم، لأنّك شعرت بلا شك أنّني سوف أمنعك من أن تكون لك علاقات مع ريتا، أليس كذلك؟ إنّك على خطأ: إنّني لن أمنعك من شيء، شريطة أن تحافظ على الشكل.

ودهشت هذه المرّة تماماً. هكذا إذن: لقد لاحظت أمّي شيئاً بيني وبين ريتا؛ ولكنّها صمتت، آملة أن تنعقد بيني وبين هذه الفتاة علاقة تعزّز أواصري بالمقصورة، وبالتالي بها أيضاً. ومتى لاحظت ذلك؟ في أثناء الطعام؟ بعده؟ وشعرت فجأة بشعور استياء من ذنب عائلي، كما لو أنّي عدت صبياً وأنّ أمّي كانت على حق بأن تملأني بالخجل؛ ولكنّي نجحت في التغلب عليه وأنا أفكّر بأنّ انجذابي إلى ريتا، كان مصدره في آخر المطاف انطباع اليأس الذي كانت كلّ زيارة لأمّي توقظه فيّ. وأجبت وأنا أنظر إليها مواجهة في عينيها، بلهجة غاضبة:

- كلا، إنّني لم أفرّ بسبب ريتا، وإنّما بسببك.

- بسببي؟ وإذا قلت لك إنّي تظاهرت بأنّي لم أر أنّك كنت تداعبها في أثناء الطعام؟

وجُننتُ غضباً لهذه العبارة واللهجة التي قيلت بها، فقلت:

- تماماً! إنّما بسببك أنت وضعت يديّ عليها!

- ولماذا؟ ما شأني بذلك؟ إنّه الآن ذنبي أن تهاجم الخادمات؟

- لقد وضعت يديّ عليها، لأنّك كنت تضعين قدميك على قدميّ.

- قدميّ؟

- لتوصيتي بألّا أتحدّث في شؤون المال أمام الخدم.

وكنت قد اقتربت منها وأنا أحدّثها في وجهها:

- ثمّ اعلمي جيّداً، ومرّة أخيرة، أنّ جميع الحماقات التي ارتكبتها في حياتي، إنّما ارتكبتها بسببك.

- بسببي؟

فهدرتُ فجأة وأنا فريسة غضب هائل:

- لقد قضيت جميع سنوات حداثتي وأنا أحلم مفضلاً أن أكون سارقاً، قاتلاً، مجرماً، على أن أكون ما كنت تريدين أن أكونه. واحمدي الله أنّني بفضل الظروف لم أصبحه. كلّ ذلك لأنّي كنت أسكن معك، في هذا البيت.

وبدا صوتي، هذه المرّة، يرعب أمّي التي كانت في العادة تتقبّله بشجاعة، إذا كانت القضية قضية كلام. ولقد رأيتها تنفض رأسها يميناً وشمالاً، بحركة مفزعة، ثمّ تمتمت:

- حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فكفّ عن المجيء إليّ. لا تأت بعد إلى هذا البيت.

فهدأت لحظتها وقلت:

- لا، بل سوف آتي، ولكن لا تطلبي منّي أن أحبّه.

- ولكن أي شيء كريه تجده في هذا البيت؟ أليس بيتاً هو كالبيوت الأخرى؟

- على العكس، بل هو أجمل وأوفر بذخاً وراحة من كثير من البيوت.

- وإذن؟

ورأيت أنّها قد تعزّت قليلاً من أنّي كففت عن مهاجمتها مباشرة. وأجبت بسؤال:

- إنّ أبي لم يكن هو أيضاً يريد أن يبقى في هذا البيت، فلماذا؟

- كان أبوك يحبّ السفر.

- أليس الأصح أن يُقال إنّه كان يسافر لأنّه لم يكن يحبّ البقاء هنا؟

- كان أبوك أباك، وأنت هو أنت.

ولم تكن هي المرّة الأولى التي تحدث فيها مناقشات من هذا النوع بين أمّي وبيني. كان بوسعي أن أهدر وأجرحها، ولكنّي كنت

دائماً أقف مواجهاً الحقيقة: لقد كان هذا البيت يثير اشمئزازي لأنّه كان بيت شخص غني. ومن جهة أخرى، كانت أمّي، على ما يخيّل إليّ، تدفعني لكشف تلك الحقيقة، بأن تثيرني وتتحدّاني، ولكنّها في الواقع لم تكن ترغب في أن أكتشفها، وكانت تأتي دائماً لحظةٌ تتراجع فيها وتغيّر الحديث. وكان هذا ما حدث هذه المرّة أيضاً.

فقد كنت أهمّ بالجواب عليها، حين أضافت في بعض العصبية:

- قلْ بالأحرى إنّك تريد أن تعيش لحسابك، لتكون أكثر حرية. وأنّك واهم، فليكن. خذ، هذه آلافك المئة من الليرات.

ومدّت لي المبلغ، ولكن بحركة نصف مكبوحة، وحين مددت يدي، سحبت يدها، فكأنّها لاحظت أنّني لم أكن أعطيها شيئاً بالمقابل. وأضافت:

- بالمناسبة، ابقَ هنا للغداء.

- لا أستطيع.

- لقد دعوت بعض الأشخاص للغداء، وبينهم الوزير تربولّو وزوجته. إنّه رجل قريب إلى القلب، وذكي، ونشيط.

- وزير؟ أيّة فظاعة! هيّا! أعطيني هذا المال.

وأعطتني المال هذه المرّة، ولكن بحركة غاضبة، وفي الوقت نفسه بخيلة، كما لو أنّها أرادت في اللحظة التي أعطتني إيّاه فيها أن تستردّه.

- إذن، تعال غداً لتناول الغداء. سنكون وحيدين، أنا وأنت، وهكذا أعطيك باقي المبلغ. بالنظر طبعاً إلى أنّك ذاهب إلى كورتينا.

- لماذا؟ هل تشكّين في ذلك؟

- إنّ المرء لا يستطيع معك أن يطمئن...

وكانت أمّي تبدو الآن راضية بما فيه الكفاية. وقد أدركت ذلك من الطريقة التي كانت تتقدمني فيها عالية الرأس، واضعة يدها على

الدربزين النحاسي. وفكّرت بأنّها ربّما كانت راضية لأنّها نجحت مرّة أخرى في تجنّب الشرح الكبير بيني وبينها، هذا الشرح الذي يخشاه كلّ غنيّ لأنّه لا يستطيع بعد ذلك أن يستمتع بغناه. وكان سرورها بالغاً حتّى إنّها نسيت رفضي الحديث، فعرضت عليّ حين وصلنا إلى المدخل:

- لماذا لا تبقى على الأقل حتّى وصول الوزير؟ سوف تأخذ معه المقبّلات ثمّ تذهب، إنّه رجل ذو نفوذ، ويمكن أن يكون نافعاً يوماً.

فقلت في زفرة:

- لن يكون لي نافعاً مع الأسف، ثمّ ينبغي لي حقًّا أن أذهب.

ولم تلحّ أمّي، وفتحت باب الخروج، وخطت خطوة على العتبة، ويداها تحت إبطيها وهي ترتعش في الهواء الخريفي الرطب، وقالت وهي ترقب السماء التي تغطّيها الغيوم:

- إذا ظلّت السماء تمطر بهذه الصورة، فوداعاً يا أزهاري!

وانحنيت فوضعت القبلة المألوفة الجافة على خدّها الذي لا يقل جفافاً، وقلت:

- إلى اللقاء يا ماما.

ثمّ هرعت مسرعاً إلى سيارتي، لأنّي رأيت آنذاك في آخر الجادة سيارة صاعدة نحو المقصورة، وكنت أريد بأي ثمن أن أتحاشى اللقاء بمدعوي أمّي. وكنت أمام مقودي حين كانت السيارة الأخرى تبلغ الساحة وتقف فيها. وكانت أمّي واقفة على العتبة في وضع من يتهيّأ لاستقبال ضيوف معتبرين. وأدرت المحرك ومضيت في اللحظة المناسبة لأرى السائق المزدان بالشرائط يهبط، ثمّ يرفع قبعته وينحني وهو يفتح الباب، ولكن لم يتح لي الوقت لأرى من هو صاحب القدم المنتعلة حذاء رجالياً أسود والتي كانت خارجة من السيارة تلتمس الأرض.

وكانت الساعة حوالي الواحدة، وعدت أصعد بسرعة كلّ طريق «آبيا»، فبلغت ساحة «إسبانيا» قبيل موعد إغلاق الحوانيت. وكنت أعرف إلى أين ينبغي أن أتجه لأشتري هدية الوداع لسيسيليا، فدخلت حانوناً للمحفظات والمظلات، في شارع كوندوتي، وكان الحانوت غاصًا بالشاريات الأنيقات اللواتي ابتعدن قليلاً لدى ظهوري، وعلى وجوههن بعض دهشة. وبينما كنت أختار على عجلة محفظة من جلد التمساح، نظرت إلى وجهي في مرآة ففهمت سبب دهشة الشاريات.

كنت أشبه المشردين، بل كنت أشبه متشرداً يثير القلق: رأس أصلع يحيط به شعر أشقر مجعّد وطويل. وظلّ لحية حمراء على الخدّين وثوبٌ من نسيج مسرّد ذو لونٍ انتراسيت يكشف عن قميص لا ربطة عنق له، وبنطلون أخضر اللون، مشوّه يكاد يكون مهترئاً. وكنت إلى ذلك طويلاً، بل ربّما طويلاً جدًّا بالنسبة لسقف الحانوت المنخفض جدًّا، ذا جبين مكوّر كان يبدو وكأنّه حافة خوذة مُسدلةٍ على عينين زرقاوين محتقنتين بالدم، وأنفٍ قصير، وفم ناتئ: وبالإجمال نوع من القرود الكبيرة. وإذ كنت أنظر إلى نفسي، أدركت في الوقت نفسه أي دليل على الحنان قد أعطتني أمّي إذ دعتني، وأنا لابس هذه الثياب، إلى تناول الغداء بصحبة وزير ومدعوين آخرين... ولكنّي كنت أفكر بعد ذلك أنّ أمّي، بما لديها من حساية إزاء ما كانت تدعوه بـ «الشكل»، لا بد أنّها قد فكّرت بعد كلّ حساب أنّي كنت في ثياب رسّام، أي كنت مرتدياً نوعاً من اللباس يدلّ على المكان الذي كنت أحتلّه، من غير ما يُنقص الشرف، في مجتمع كمجتمعها كان يعترف بحق ارتداء نسيج الفنّان كما يعترف بحق ارتداء سترة الوزير المخطّطة.

وكنت غارقاً في هذه الأفكار، حين انتفضت لصوت البائعة التي كانت تمدّ لي المحفظة. فدفعت وتناولت الرزمة وخرجت.

وكانت الساعة الواحدة. وكان الموعد عند الساعة الخامسة. وغريبٌ أن أقول إنّني بينما لم أكن في الأيام الأخرى ألاحظ أنّني كنت أنتظر سيسيليا، لأنّني كنت أعرف أنّ علاقتنا كانت مستمرّة، فإنّ الانتظار الآن، وقد قرّرت أن أقطع علاقاتي بها، كان يثقل عليّ. وإذن، فقد قمت، في أبطأ ما يمكن، بكلّ ما كنت أستطيع أن أفعله قبل الساعة الخامسة آملاً على هذا النحو أن أرى الوقت ينقضي بلا إحساس ولا ألم.

وتناولت الغداء في مطعم من مطاعم الحيّ وأنا أتظاهر بتذوّق ألوان الطعام، وأغرق في التأمّل بين كلّ لقمتين: ثمّ قصدت حانةً فشربت فنجان قهوة، ثمّ لبثت أتسمّع إلى بعض أغاني «الجوك بوكس»، وتناولت فنجان قهوة آخر في حانة أخرى، ثمّ تسلّقت مقعداً مرتفعاً وقرأت الجريدة من أوّلها إلى آخرها، وتوقّفت على الرصيف زهاء عشرين دقيقة وأنا أتحدّث مع رسّام شاب كنت أجهل اسمه، وأنا أتظاهر بالاهتمام بخطابه الطويل ضد الأسعار والمعارض. ولكنّي لم أكد أقضي بجميع هذه الوسائل أكثر من ساعتين من أصل الساعات الأربع التي كانت تفصلني عن الموعد. وأخيراً، عدت إلى المرسم، وقلبي منقبض.

وقد وجدت هناك النور الرقيق يتسرّب عبر الستار الأبيض، ذلك النور الواضح الدقيق الذي كنت أعرفه جيّداً، النور نفسه الذي كان يبدو فيه السأم، أي انعدام العلاقات بين الأشياء وبيني، يتّخذ مظهراً عادياً إلى أبعد الحدود، ولكنّه ليس أقل إقلاقاً مع ذلك، بل ربّما كان من أجل هذا بالذات أكثر إقلاقاً من أي وقت مضى.

والواقع أنّني ما كدت أدخل وأجلس على الأريكة، قبالة اللوحة الفارغة التي كانت تتشكّل لطخة بيضاء على المسند، حتّى فكرت: أنا هنا، و«هي» هناك. و«هي» إنّما كانت الأشياء المحيطة بي: اللوحة

على المسند، والطاولة المركزية المستديرة، و«البارفان» الذي كان يُخفي السرير، في الزاوية اليسرى، والوجاق المصنوع من الطين بمدخنته الداخلة في السقف، والكرسي المحمّلة بالدفاتر، والرفوف الملأى بالكتب. وكنت أردّد: أجل، لقد كانت هناك، وكنت أنا هنا، ولم يكن بينها وبيني شيء، لم يكن شيء على الإطلاق، كما أنّه ربّما ليس ثمّة شيء في الفضاء النجمي، بين النجوم التي تفصل بينها مليارات من السنوات الضوئية.

وكنت أردّد: «أنا هنا، وهي هناك» ثمّ كنت أتذكّر سيسيليا، كيف كانت مساء الأمس، متمدّدة على الأريكة، ووجهها ذو العنينين المغمضتين مقلوبٌ على الوسادة، وبطنها منبسط إلى أمام، واهبةً نفسها بأبسط طريقةٍ وأصرحها، أي كحاجةٍ محرومة من كلّ إرادة إلّا إرادة أن تكون مملوكة، وكنت أذكر أيضاً أنّني فكرت، وأنا ذاهب إليها، كما أفكر اليوم: «إنّها هنا، وأنا هناك» وكنت قلت في نفسي إنّه لم يكن بينها وبيني شيء، وإنّه كان عليّ أن أعبُر وأملأ إجمالاً هذا العدم بواسطة جسمي الذي سوف يرتمي عليها. وإذ تذكّرت الجهد الشبيه بما يتطلّبه تحطيم حاجز، الجهد الذي قمت به لأضمّها وآخذها، أدركت فجأة أنّ قراري بتركها لم يكن في الواقع إلّا توكيداً رسمياً، إذا صحّ التعبير، لوضع سابق الوجود. أجل، كنت سأترك سيسيليا في اليوم نفسه؛ ولكنّي كنت عملياً قد تركتها منذ وقت طويل، إذا كانت قد انعقدت بيني وبينها علاقة ما.

ولفرط التفكير، كان النعاس قد استولى عليّ؛ ونهضت من كرسيّ لأذهب فأستلقي على الأريكة. وقد نمت على الفور تقريباً، وبقوّة كبيرة حتّى إنّي وأنا نائم أخذني شعور بأنّي أسقط، منقبض اليدين والأسنان، منطوياً على نفسي، في فراغ لا نهاية له، وبمقدار ما كان سقوطي مستمراً، كان وزن جسمي يزداد.

واستيقظت وفي فمي مذاق حديد، كما لو أنّي شددت بين أسناني على قضيب معدني. وكان المرسم غارقاً في الظلام تقريباً؛ وفي الظلّ الرمادي اسودّت الأشياء تقريباً؛ وقفزت خارج الأريكة ورحت أضيء النور. وإذ ذاك رأيت من النافذة أنّ الليل قد هبط. ونظرت إلى المنبّه على الطاولة: كانت الساعة قد تجاوزت السادسة؛ ولا بدّ أن سيسيليا قد وصلت في الساعة الخامسة.

ولم أحتج إلى جهد تصوّر كبير لأدرك أنّ هذا التأخر لم يكن مردوداً للمصادفة، وأنّه على أي حال كان من الأرجح أن لا تأتي سيسيليا بعدُ، ذلك اليوم. ولكنّه لم يكن حادثاً طبيعياً يمكن أن يُقبل في صفاء نفس. فبدافع من أحد تناقضاتها العديدة، فيما هي تبدو غير جديرة بالعواطف التي توحي بألّا تعذّب أولئك الذي يحبّونك، كانت سيسيليا شديدة الدقة في مواعيدها، كما لو أنّها كانت تحبني حقًّا؛ وحين كانت تضطر، لسببٍ من الأسباب، أن تصل متأخرة، كانت تتدبّر الأمر دائماً لتبلغني ذلك في الوقت المناسب. وإذن، فإنّ التأخّر الراهن كان غير طبيعي، ولا يمكن أن يفسّر إلّا بطريقة واحدة، أي بحادث أهم من موعدنا، بل من الأهمية بحيث لم يقتصر على منعها من المجيء فقط، بل على منعها أيضاً من إعلامي بأنّها لن تأتي.

ومع ذلك، فإنّ الفكرة الأولى التي خطرت ببالي كانت التالية:

«حسناً، ألستَ مسروراً؟ كنت تريد أن تتخلّص منها، وها هي لا تأتي. هذا أفضل، أليس كذلك؟».

لكن ذلك كان تفكيراً ساخراً؛ لأنّني لاحظت بذهول أنّ تأخّر سيسيليا لم يكن فقط يثير استيائي، بل كان كذلك يثير اضطرابي إلى أبعد حد.

وعدت أجلس على الأريكة، وأخذت أفكّر. لماذا كان تأخّر سيسيليا يثير اضطرابي؟ وفهمت أنّه إذا كانت سيسيليا حتّى الآن لم

تكن شيئاً بالنسبة لي، فإنّ هذا التأخّر كان يجعلها تصبح شيئاً ما. ومن جهة أخرى، فإنّ هذا الشيء في الوقت الذي كان يتخذ فيه صلابته، كان يفلت منّي بطريقة مؤلمة، لأنّ سيسيليا لم تجيء على كلّ حال. وهكذا كانت سيسيليا تبدو لي غائبة حين كانت تجد نفسها في المرسم وتلتصق بي؛ أمّا الآن وهي ليست هنا، وأنا أعرف أنّها لن تأتي، فإنّي كنت أشعر بها، في مرارة وغموض، حاضرة.

وجهدت لأضع في أفكاري مزيداً من الوضوح، ولكنّي شعرت بأنّ ذلك كان شاقًّا عليّ، لأنّي كنت أتألم. إنّ سيسيليا إذن لم تجيء فهي إذن لم تهتمّ حتّى بأن تبرّر غيابها. إنّها إذن لم تكن تحبني بعد، أو على الأقل لم تكن تحبني بما فيه الكفاية، وإلّا لكانت دقيقة في الموعد، أو لأخبرتني أنّها لن تأتي، أي أنّها كانت تحبني قليلاً جدًّا. وعند ذلك، تذكّرت فجأة في دهشة أنّ سيسيليا، طوال هذين الشهرين اللذين استغرقتها علاقتنا، لم تقل لي قط إنّها كانت تحبني، وإنّني لم أسألها قط ذلك. صحيح أنّ كونها قد وهبت نفسها لي، وأظهرت أنّها كانت تصيب معي المتعة، كان يعادل بلا شك تصريحاً بالحب، ولكن كان من المكن أيضاً، كما لاحظت بسرعة، ألا يعني ذلك شيئاً على الإطلاق.

ثمّ إنّ الأهمية الضئيلة التي كانت سيسيليا تنسبها لهبة جسدها، كانت تبدو وكأنّها تدلّل على أنّ هذه الهبة لم تكن تعني شيئاً في نظرها. إنّ هذه الأمور يُحسّ بها. كانت سيسيليا قد أعطتني جسدها بمثل اللامبالاة البدائية الساذجة التي يدلّل عنها المتوحش وهو يقدّم للرحّالة النهم تعويذة الأحجار الكريمة التي يحملها في عنقه. وكان يبدو بالإجمال أنّها لم يكن لها عشاق جعلوها تدرك كم يمكن أن يكون جسد امرأة مرغوباً فيه. صحيح أنّ باليستياري كان قد عبدها، وأنّ هذه العبادة سبّبت موته، ولكن سيسيليا كانت ما تزال تبدو

مندهشة من ذلك، كما لو كان هذا شيئاً لا يبرره في نظرها مبرر.

وأحسست فجأة بمثل العضة في قلبي، وارتعشت برعدة شملت جسمي كلّه، لأنّي انتهيت إلى التفكير بما يلي: «إنّ بوسعي أن أجترّ ما أشاء، ولكن الواقع أنّها لم تجيء، وكانت هذه الفكرة قد أعطتني إحساساً يكاد يكون جسمياً بغية كلّ محاكمة عقلية إزاء واقع الغياب».

ونظرت إلى ساعتي فرأيت أنّ أكثر من نصف ساعة كان قد انقضى عليّ منذ يقظتي: إنّ سيسيليا لن تأتي بالتأكيد. ولم تكن لي رغبةٌ بعد بأن أبرهن لنفسي أنّ غيابها كان يجعلني لامبالياً.

وقلت لنفسي إنّها ربّما كانت تشكو شيئاً، وهو الدافع الوحيد الذي يمكن أن يفسّر سلوكها من غير أن يقودني إلى اتهامها. ونهضت لأقصد التلفون. ولكنّي تذكّرت، وبي إحساس من يحقّق اكتشافاً، أنّي لم يسبق لي أن تلفنت لسيسيليا، حتّى ولا مرّة واحدة. كانت هي التي تتلفن لي كلّ يوم؛ وأنا لم أكن أتلفن لها قط لعدم شعوري بالحاجة إلى ذلك. وقد بدا لي هذا النقص في الفضول من جانبي أمراً ذا مغزى. إنّني لم أهتم قط بأنّ أتلفن لسيسيليا، كما أنّي لم أسع قط إلى إقامة أيّة علاقة حقيقة معها. وهكذا فإن صلتنا لم تكن شيئاً قط؛ كان السأم قد تآكلها بسهولة، وكنت قد عزمت بدوري على قطع علاقتي بها.

وإذ تشكل الرقم المطلوب، رنّ جرس تلفون سيسيليا وقتاً طويلاً في صمت سرّي: ولكنّي فكرت بأنّ هذا الصمت لم يكن سريًا إلّا لأنّ سيسيليا التي كانت في داخله، كحيوان منزوٍ في حجرة، كانت قد أصبحت سرية بالنسبة لي ابتداء من اللحظة التي لم أرها قادمة فيها. غير أنّ هذا الصمت، على سريته، لم يكن سلبياً تماماً. فبطريقة لا تخلو من تبرم وحيرة، كما يحدث للمقامر الذي يداعبه وهم الربح بعد أن يكون قد خسر كثيراً، كنت أؤمل أن يُصدي صوت سيسيليا في جهاز التلفون، في آخر المطاف.

ولكن حدث، بدلاً من ذلك، أمرٌ غريب: فقد صمت الجرس، ونزع أحدٌ ما السماعة، ولكن لم يتكلم أحد، أو بالأحرى خيّل إليّ أنّي أسمع في الجانب الآخر على الخط ما يشبه نفساً مضغوطاً ونوعاً من الهمس. وناديت: «آلو! آلو!» فسمعت صوت السماعة وهي توضع ومن جديد. وعدت أطلب الرقم من جديد، في سورة من الغضب، ومن جديد أجابني الصمت، ثمّ ذلك التنفس الخفيّ، وأخيراً صوت السماعة وهي تعاد إلى مكانها من الجهاز. وفي المرّة الثالثة، رنّ الجرس طويلاً، ولكن أحداً لم يُجب.

وتركت التلفون وعدت أجلس على الأريكة. وظللت فترة طويلة مذعوراً، وأنا لا أفكّر بشيء. والأمر الوحيد الذي كان واضحاً لديّ هو أنّني في اليوم الذي كنت صممت فيه على أن أصارح سيسيليا بنهاية علاقتنا، أخلفتُ (ولا أدري سبب ذلك) موعداً للمرّة الأولى، محقّقة بذلك فعلياً، ولو بطريقة ظاهرية، الانفصال الذي خطر لي أن أعرضه عليها. كنت إذن أستشعر إحساس استياء من كان يهبط في الظلام سلّماً صعباً فيتهيّأ لاجتياز درجة، فإذا هو يلتقي على العكس أرضاً منبسطة، وإذا هو يفقد توازنه، بسبب أنّ الدرجة التي كان يمكن أن تُفقده هذا التوازن، لم تكن بالذات موجودة.

ونهضت مهموماً، واتجهت آلياً إلى الباب، ففتحته ونظرت إلى الرواق، كما لو أنّني كنت آمل أن أرى سيسيليا وهي تنعطف عند زاويته. ونظرت أيضاً إلى الجهة المعاكسة: وتوقف نظري، وهو يتابع الجدار، عند الباب الأخير الذي كان باب مرسم باليستياري. ولم أتماسك من التفكير بأنّ باليستياري لا بدّ أن يكون قد ظهر مرّات عديدة على العتبة ليرى إذا كانت سيسيليا، وقد تأخّرت عن موعدها، قد برزت في نهاية الرواق. وكنت أعرف أنّ المرسم لم يكن قد أجّر بعد؛ بل لقد كان يُقال إنّ الأرملة كانت تنوي أن تأتي فتسكنه هي

شخصياً. وقد حدث أنّ سيسيليا كانت قد تركت مفتاح مرسم الرسّام العجوز على طاولتي في يوم لقائنا الأوّل. ومنذ ذلك الحين لم تطلبه قط، فرميته في جوف درج، وأنا أشعر شعوراً مبهماً أنّي ربّما احتجت إليه ذات يوم.

وشعرت فجأة بالرغبة في أن أذهب فأرى مرّة أخرى المكان الذي تعذّب فيه باليستياري بهذا الشك نفسه الذي كنت أعاني منه في تلك اللحظة.

وتناولت المفتاح، وتركت بابي مشقوقاً لتتمكن سيسيليا، في حالة قدومها، من الدخول، وقصدت مرسم باليستياري. وبعد أن أضأت الشمع الزائف في الثريا الوسطى، بدا لي المرسم أشدّ عتمة من أي وقت آخر، بأثاثه المقلّد للأثاث القديم وتطريزاته الحمراء. واقتربت من الطاولة وأنا أسير على الطنفسة السميكة وأشمّ في نفور رائحة الهواء المحبوس والمغبّر الآس. وكانت طاولةً ضخمة من طراز «رونيسانس» كان وجهها اللامع مغطّى بغبار شهري هجر؛ وكان جهازٌ تلفوني موضوعاً عليها، وإلى جانبه الدليل وورقة القسيمة الخضراء، ممّا يدل على أنّ الأجرة كانت مدفوعة. وقلت في نفسي إنّ الأرملة كانت تنوي حقًّا أن تأتي فتسكن المرسم، ما دامت مستمرة في دفع أجرة التلفون؛ ثمّ وقع نظري على دفتر عناوين صغير مجلّد، بغلاف مرمري؛ فتناولته وتصفّحته. وجعلني خط باليستياري الضخم الكثيف أفكّر، ولا أدري السبب، بكتفيه العريضتين أكثر ممّا ينبغي وقدميه الكبيرتين أكثر ممّا ينبغي. ولاحظت العدد الكبير للأسماء النسوية من غير اسم العائلة، وهي مسجّلة على كلّ صفحة: باولا، ماريا، ميللي، ايناس، دانييلا، لورا، صوفيا، جيوفانا إلخ -... إلخ... وإذ كنت أعرف عادات الرسام العجوز، فإنّني لم أشك في أنّها كانت أسماء الفتيات اللطيفات اللواتي كنّ، في الماضي، قبل غرامه الكبير

بسيسيليا، يزرنه غالباً. وقلّبت الأوراق أيضاً، لأنظر في صفحة الحرف «س». فوجدت اسم سيسيليا يتبعه رقم التلفون نفسه الذي سبق منذ قليل أن ناديته عبثاً. وظللت لحظة وعيناي مثبتتان على ذلك الاسم وهذا الرقم، وأنا أفكر بالأحاسيس المختلفة التي لا بدّ أن يكون باليستياري قد شعر بها يوم كتبهما، ثمّ حين يذهب لينظر إليهما قبل أن يتلفن لسيسيليا، على ممر الأيام. ولا شك في أنّ باليستياري لم يكن في آخر الأمر، يلجأ إلى هذا الدفتر، لأنّه كان يحفظ الرقم ظهراً عن قلب: ولكن كان لا بدّ مع ذلك من أن ينظر بين الفينة والفينة إلى صفحة حرف «س» ليوقظ ذكرى هذه المرّة الأولى، هذه المرّة المشؤومة التي كتب فيها هذا الاسم وذلك الرقم.

وفجأة، أخذ التلفون على الطاولة يرنّ، فترددت، ثمّ رفعت السماعة. وكان يغمرني شعور غريب، الشعور بأنّي لم أكن أنا، وإنّما كنتُ باليستياري... وإنّني موشك أن أسمع في التلفون صوت سيسيليا. وقد تأكد هذا الشعور بطريقة غير منتظرة: والواقع أنّي سمعت الصوت المعروف يسأل:

- أهذا أنت، يا مورو؟

والحق أنّ باليستياري كان يُدعى مورو. وأحسست قلبي ينهار، وقد أخذه شعورٌ من الضيق المغني. وهكذا فقد كانت حقًّا سيسيليا، وهي لم تكن تتلفن لي أنا بالذات، وإنّما باليستياري، أي لرجل كان ميتاً، وكانت تعرف أنّه كان ميتاً.

وهذا كلّه لم يدم إلّا لحظة. فقد قلت بصوت لا يكاد يُسمع:

- لا، بل أنا دينو.

وسرعان ما فقد الصوت كلّ شبه بصوت سيسيليا، بل تبدّى مختلفاً عنه كلّ الاختلاف، كما لو أنّ ذلك الشبه لم يخلق آنذاك إلّا بسبب ضيقي، فقال بلهجة مضطربة:

- أوه! المعذرة! أليس هنا منزل السنيور باليستياري؟
- بلى.
- وباليستياري غير موجود؟ لقد كنت لو تعلم خارج روما لمدّة أربعة أشهر، وكنت أودّ أن أحيّيه. أنت أحد أصدقائه، أليس كذلك؟
- نعم. أنا صديق. ولكن من أنت؟
فأجاب الصوت بلهجة مؤثّرة مليئة بالأمل، كما لو أنّه كان بهذه اللهجة يذكّر بصداقته الحميمة مع الرسام العجوز:
- أنا ميللي.
- يا سنيوريتا ميللي، إنّ السنيور باليستياري... قد ذهب.
ذهب؟ ألا تعرف متى يعود؟
- لا.
- حسناً، قلّ له إذن حين تراه إنّ ميللي قد تلفنت له.
فأعدت السماعة وظللت لحظة جامداً، وأنا أجترُ الشعور الغامض المنزعج الذي أوحته لي هذه المخابرة التليفونية. ثمّ لحظت أنّ الجوّ كان بارداً في المرسم وأنّ هذا البرد كان ينفذ حتّى عظامي. بردٌ غريب، غير نقي وجنائزي في الوقت نفسه، شبيه ببرج قبرٍ هو في الوقت نفسه مخدع نوم، أو برد مخدعٍ هو في الوقت نفسه قبر.
وكنت قد جلست وأنا أردّ على التلفون، وربّما كنت مرهقاً بالاضطراب الذي استولى عليّ وأنا أحسب أنّني أسمع صوت سيسيليا. ونهضت، فخرجت إلى الممرّ.
وإذ عُدت إلى مرسمي، نظرت إلى الساعة، ولما أدركت أنّني لم أكن أنتظر أحداً بعد، فهمت أنّي كنت أريد فحسب أن أعرف كم يفصلني من الوقت عن المخابرة التليفونية المألوفة التي كانت سيسيليا تفتحها لي صباح كلّ يوم. وبعد ذلك بقليل، فكّرت بأنّها كانت تلك المرّة الأولى التي يخطر لي فيها مثل هذا؛ وقلت لنفسي إنّ أفكاراً كهذه ستهاجمني بعد الآن أكثر فأكثر.

الفصل الخامس

صباح اليوم التالي، إذ فكرت ثانية بزيارة سيسيليا التي لم تتمّ، اقتنعت أو بالأحرى سعيت لإقناع نفسي بأنّ غيابها كان مردوداً إلى عوامل لم تكن لها أدنى صلة بعلاقاتنا. لأنّي إذا كنت ما أزال راغباً في التخلص من سيسيليا، فإنّ السيسيليا التي كنت أريد التخلص منها كان سيسيليا مغرمةً بي، أو أنّني كنت أتصوّرها كذلك، وليست سيسيليا التي قد كفت عن حبي وأصبحت تخلف مواعيدنا. وليس ذلك لهذا الطراز من الحب الذي يُسمّى حبًّا معاكساً والذي يقضي بأنّ نحبّ من لا يحبنا، ولا نحبّ من يحبنا، بل لأنّ السيسيليا التي كانت تحبني قد تبدّت مضجرة، أي وهميةً، بينما كانت السيسيليا التي تحبني تكتسب أكثر فأكثر في عيني ظاهراً من الواقع (بسبب أنّها لم تكن تحبني بالذات).

على أنّي مع ذلك كنت أفضّل التفكير بأنّ سيسيليا كانت تحبني، وأنّني بالتالي ليس لي أن أغيّر قراري بالتخلّص منها لأنّ فكرة أنّها لم تكن تضجرني، وبذلك تصبح واقعية، كانت توحي لي في الحقيقة بنوعٍ من الخوف، كما لو أنّي أجابه تجربة لم أكن أحسني قادراً على مجابهتها.

وبالانتظار، كانت تبقى مسألة صغيرة ولكنّها مقلقة: هل كان عليّ أن أبادر بعمل مخابرة تلفونية لها، أم أنتظر مخابراتها التلفونية؟

كانت سيسيليا معتادة أن تتلفن لي كلّ يوم، في الساعة نفسها، حوالي الساعة العاشرة صباحاً، لتحييني وتؤكد موعد بعد الظهر.

وإذن، فقد كان باستطاعتي دون شك أن أنتظر هذا اليوم مخابرتها التلفونية؛ ولكنّي في الوقت نفسه كنت أخشى ألّا تعطيني علامة حياة، وتخرج؛ وفي هذه الحالة، حين أقرّر أن أتلفن لها أنا نفسي، فلن أجدها ويجب عليّ آنذاك أن أبقى طوال النهار في شك من مجيئها، وهو شكّ كنت أعرف أنّه أصبح بعد الآن أليماً.

ومن جهة أخرى، كنت ألاحظ، بسبب حكاية التلفون هذه، أنّ معطيات مسألتي كانت تتكرّر متشابهة: كنت أريد من سيسيليا أن تخابرني هي أوّلاً، لأستطيع الاستمرار في اعتبارها غير موجودة، لأنّها إنّما هي مهيّأة؛ فلو كنت بالعكس أنا الذي أخابرها أوّلاً، فينبغي أن أفكر فيها كما أفكر بشيء حقيقي، لأنّها مبهمة وغير قابلة للالتقاط.

وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين كنت ما أزال غارقاً في هذه الأفكار، فإذا بالتلفون، هناك في جوف المرسم، يرنّ في إلحاح وهدوء وشكوى وسخرية، كا ليقول لي إنّ أفكاري، مهما بلغ تبصّرها، لم تكن ذات قيمة أمام هذا الرنين.

ونهضت، فرفعت السمّاعة، وسمعت فوراً صوت سيسيليا:

- آه! وأخيراً، ولكن أين كنت؟

فأجبت بصوت منخفض جدًّا:

- كنت في المرسم، ولكنّي لم أسمعك.

وسادت لحظة صمت، ثمّ قالت.

- إنّني لم أتلفن لك هذا الصباح لأنّ تلفوني كان معطلاً. ولكنّنا سنلتقي اليوم في الساعة المألوفة؟

فلم أتمالك أن صحت في بعض الحيوية:

- لماذا لم تأتي أمس؟

وكنت أنتظر جواباً صادقاً أو كاذباً، ولكنّه في أي حال واضح؛

وعلى العكس، فإنّ الجواب كان هذه الكلمات المحيّرة التي بلغتني:

- لأنّني لم أستطع.

- ولماذا لم تستطيعي.

- لأنّي كنت مشغولة.

وقلت غاضباً، وقد عرفت في هذه الأجوبة قدرة سيسيليا المميّزة على تحاشي الكذب وقول الحقيقة في وقت واحد:

- حسناً جدًّا. إذن، إلى اللقاء.

- نعم، إلى اللقاء.

ولاحظت على الفور بأنّ مخابرتها لي أوّلاً لم تحمل لي العزاء الذي كنت أرجوه. صحيح أنّها تلفنت أوّلاً. ولكنّها تمكّنت بتكتُّمها من أن تظل هاربةً وسرية، لا أكثر ولا أقل ممّا لو أعطتني علامة حياة. وحركة مخابرتي التي كان لا بدّ من أن تعني تهيّؤاً وتبعيّةً وبالتالي انعداماً، لم تكن تعني شيئاً في الواقع. وقد كان عليّ بأي حال أن أقطع صلتي بها، كما كنت قد قرّرت.

وبالانتظار، كان يجب أن أعيش، أعني أن أقضي الساعتين اللتين كانتا ما تزالان تفصلانني عن اللحظة التي تظهر فيها سيسيليا أمام المرسم. ولكي أعطي فكرة عن نفاد صبري، أقول إنّني لفرط حيرتي حول ما ينبغي أن أعمله، فكّرت حتّى بأن أعود إلى الرسم، بعد انقطاع دام أكثر من شهرين. فقد قلت لنفسي إنّي إذا بلغت على الأقل أن أغطّي بأيّة طريقة هذه اللوحة التي كانت ما تزال معسكرةً على المسند، فسوف أحصل على حجة أخرى للانفصال عن سيسيليا؛ والواقع أنّي كنت أعرف أنّ الرسم وحده سيتمكن من أن يملأ في حياتي الفراغ الذي سيخلفه انتهاء علاقتنا. ولكن كفاني أن أنظر إلى القماشة، هناك على المسند، لأفهم أنّني لم أكن قادراً على الرسم كما لم أكن قادراً أن أرفع يدي لأخطّ عليها أيّ خطّ. والواقع أنّه لم

يكن لي في تلك اللحظة إلّا علاقة واحدة، هي في الحق مريبة، مع حاجةٍ ما، وكانت هي علاقتي مع سيسيليا التي كنت أستعد لتحطيمها. ولكن ما كان عساي أن أرسم على هذه اللوحة التي كنت يوم لقائي الأوّل مع سيسيليا قد وقعّتها كأنّما لأشير إلى أنّي قد ودّعت الرسم؟

ولكي أعزّي نفسي قرأت نصاً لكاندانسكي في موضوع اللوحة الفارغة بالذات «اللوحة الفارغة. في الظاهر: فارغة حقًّا، صامتة، لا مبالية. شبه مندهشة. في الواقع: ملآى بالتوتّرات، مع ألف صوت منخفض، مثقلة بالانتظار. مذعورةٌ ليلاً لأنّها يُمكن أن تُغضب وتُقهر. ولكنّها وادعة. إنّها تقوم راضية بكلّ ما هو مطلوب منها، ولكنّها تطلب الشفقة. إنّها تستطيع أن تحمل كلّ شيء، ولكنّها لا تحتمل كلّ شيء. رائعةٌ هي اللوحة الفارغة، أجمل من كثيرٍ من اللوحات الملآى، إلخ...».

وفجأة قذفت كتابي أرضاً في عنف، وخرجت من مرسمي وأنا أكاد أعدو.

وكنت أعرف أين كنت أوجّه خطاي، لا يقودني فكري، بل تقودني حاسّة شمّ شبيهة بحاسّة كلب صيد يقتفي رائحة في غابة أو براح. وهكذا انتقلت إلى شارع ديبابوينو، بعد أن غادرت شارع مارغوتا، وسرت في اتجاه «ساحة إسبانيا»، وأنا أحاذي الحوانيت مسرعاً بين الناس الذين كانوا يدافعونني، كما لو أنّي كنت خائفاً أن أصل متأخراً إلى موعد مضروب. واجتزت زهاء مئة متر، ثمّ رأيت فجأة سيسيليا أمامي.

وهي أيضاً كانت تسير بسرعة، كامرأة تعرف أين تتوجّه، وهي على عجل للوصول. وبعد أن فكّرت لحظة في اللحاق بها، أبطأت السير وتبعتها؛ وقد لاحظت فجأة أنّها لم تبد لي قطّ حقيقية واقعية كما كانت الآن بعد أن نويت الانفصال عنها؛ وكنت أريد أن أتمتّع

بهذه الحقيقة الواقعية وأن أفهم في الوقت نفسه لماذا كانت تتكشّف الآن بالذات.

إذن، فقد نظرت إليها بتنبّه، فشعرت بأنّي أراها للمرّة الأولى في حياتي في هيئة لا تقلّ جدّةً عن هيئة أوّل يوم من أيام الخليقة. فقد كانت تفاصيل شخصها تبدو لي، لا أدري بأيّة معجزة، أكثر ظهوراً من المألوف، ظاهرة بنفسها إذا صحّ التعبير، أعني ظاهرة بجميع الأشكال، حتّى ولو لم أكن قد نظرت إليها وراقبتها: كتلة شعرها الأسمر المتموّج الخفيف، الأميل إلى مشابهة جزّة عانةٍ مختلطة متوحشة، منها إلى شعرٍ مسرّح؛ وحركات عنقها الذي لم يكن يُرى إذ إنّه كان خافياً، ولكن كان يمكن تصوّره طرياً جميلاً؛ ومرونة ثوبها الطويل الأخضر الزغب حول قامتها التي كنت أعرف أنّها عارية، بصدرها الريّان المشرئب الذي كانت قمّتاه الدقيقتان معرّضتين لاحتكاك الصوف الخشن؛ والتنورة السوداء، القصيرة والضيقة، التي كانت ترتسم في داخلها، لدى كلّ خطوة، استدارة خاصرتيها في وضوح متحرّك متوازن، وجسمها برمّته كان يبدو بالإجمال وهو يجذب أو يلتهم، إذا صحّ التعبير، نظراتي بمثل النهم الذي تمتصّ به المطر أرضٌ قتلها الجفاف. ولكنّي لاحظت، إلى جانب هذه المظاهر التي كانت تثب أمام العين، أنّي كنت ألمح حقيقةً أخرى، من الدرجة الثانية، إذا كان هذا الوصف صحيحاً، أي شيئاً كان يمنح روحاً لهذه الأشكال التي كانت بحدّ ذاتها حيّة ومليئة بالرونق. وقد فهمت أخيراً ما كان ذلك الواقع. ففي جميع هذا الذي يغلي بالحركة، كان ثمة ما يشبه قوّة لاوعية وتلقائية كانت تبدو وهي تدفع سيسيليا، كما لو أنّها كانت مروصة ذات عينين مغمضتين وذهنٍ مظلم. وهذه القوّة كانت تنتزعها منّي، وبالتالي، تجعلها حقيقية واقعية.

وإذ بلغت سيسيليا «ساحة إسبانيا» توجّهت في تصميم نحو الدرج.

وتوقّفت لحظة، واتجهت عيناي إلى المكان الذي كان يبدو أنّها تقصده، فالتقتا بطيف رجل كان يبدو بالفعل أنّه ينتظر أحداً، وهو واقف بالقرب من مظلّة بائعة زهور. وكان رجلاً شاباً، طويلاً، ذا مظهر قويّ؛ وقد لاحظت سريعاً أمرين لديه: كتفين عريضتين جدًّا كانتا تذكّران ببنيةٍ عتليتية، وشعرٍ أشقر مذهّب، متأكسد. وفي هذه الأثناء، كانت سيسيليا قد اجتازت، وهي خافضة الرأس، أرض ساحة إسبانيا وكانت تقترب شيئاً فشيئاً منه، من غير أن تحثّ الخطى، ولكن بحركة من خاصرتيها مليئة بدفع مثير لا يقاوَم.

والتقت به فتوقّفت، وحسبتني أرى أنّهما يتصافحان؛ وإذ ذاك سارعت بعبور الساحة بدوري، فإذا بهما الآن يتحدّثان، وكانت سيسيليا وهي واقفة على الدرجة الأولى، تبدو أكثر منه انخفاضاً.

وفي لحظة كنتُ بجانبهما ولاحظت أنّ سيسيليا لم ترني، وتقدّمت حتّى أصبحت على خطوة منها تقريباً، ولكنّي تبيّنت أنّها لم ترني بعد. وصعدت الدرجة، واستدرت حولها، وأنا أكاد ألامسها هذه المرّة، وكانت تتحدّث وتضحك بمرح مع الرجل ذي الشعر المتأكسد. وفجأت، توقّفت عيناها الكبيرتان المعتمتان عليّ، ولكنّي لاحظت هذه المرّة أيضاً، مهما بدا ذلك مستحيلاً، أنّها لم تكن تراني. وأيقنت أنّي أسجّل هذه الأمور من غير أن أفكّر بشيء، وفهمت أنّي لم أكن أفكّر بشيء، لأنّي كنت أتألم. وذهبت أخيراً فاختبأت خلف مظلّة بائعة الزهور، على بُعد خطوات من هناك.

وها هو الشاب ذو الشعر المتأكسد يأخذ الآن سيسيليا تحت ذراعه بحنان بليغ، ويدفعها برقّة نحو المظلّة التي كنت مختبئاً وراءها. وتوقفا؛ واختار الشاب، من غير أن يترك ذراع سيسيليا، باقة من البنفسج كانت في إناء، وقدّمها لها. وحملت سيسيليا الباقة إلى منخريها؛ ودفع الشاب للبائعة وصعد الاثنان الدرج، من غير أن يترك

أحدهما ذراع، الآخر، نحو «الترينيتيه ديمون» وللمرّة الأولى رأيت أنّ الشاب كان يرتدي سترة خضراء صغيرة لم أكن رأيتها حتّى ذلك الحين.

وبعد أن اختفيا، بقيت لحظة حيث كنت، وأنا أنظر إلى الدرج. وكنت أشعر بألمٍ حادّ لم يكن يترك لي راحة، وفي الوقت نفسه بغض عاجز لكوني أحِسّ ذلك الألم. وكنت أدرك في الواقع أنّي ما دمت أتألم هكذا، فلن أستطيع أن أنفصل عن سيسيليا كما كنت ما أزال أرغب. وكنت أدرك كذلك أنّني مع سيسيليا لم أكن أستطيع إلّا أن أسأم وأتألم؛ كنت حتّى ذلك الحين قد سئمت، ومن أجل هذا رغبت في تركها، أمّا الآن، فكنت أتألم وأحسّ بأنّني لم أستطع أن أنفصل عنها إلّا إذا سئمت من جديد.

ولا بدّ أنّ هذه الأفكار وأفكاراً أخرى مشابهة كانت عميقة جدًّا ومستغرقة إذ إنّني في ذهول وجدتني بلا شعور في مرسمي؛ كنت قد عدت، بلا وعي، وأنا غارق في أفكاري كما لو كنت غارقاً في ضباب، إلى شارع مارغوتا، فدخلت وارتميت على الأريكة. وكان المنبّه على الطاولة الوسطى يسجّل الرابعة والنصف؛ ولم يكن باقياً على وصول سيسيليا إلّا نصف ساعة. ولكن لم يكن لديّ حقًّا ما أفعله، إلّا أن أنتظرها. وقد بدت لي نصف الساعة هذه لا تنتهي من الانقضاء، كما لو أنّ الزمن قد توقّف وانتظر أن أدفعه ليستأنف جريه. والواقع أنّي كنت أنا الذي جُمدت أمام فكرة ثابتة بالرغم من جميع جهودي.

وما كان يثير غضبي حقًّا هو أنّ الظروف كانت، بالرغم من عدم حبّي لسيسليا، تقسرني إذا صحّ التعبير، على أن أستشعر العواطف الخاصّة بالحب وأن أتصرّف كمحبّ عاشق. وقد وددت لو أتحرّر من هذه الظروف، كما يود جاموسٌ أن يتحرّر من النير الذي يثقل على

عنقه، ولكنّي كنت لدى كلّ حركة أشعر بأنّها كانت تضيّق عليّ الخناق أكثر فأكثر وتجبرني على أن أتصرّف كعاشقٍ كنت مقتنعاً بأنّي لم أكنه.

كنت أقول لنفسي مثلاً: «إنّ سيسيليا وصديقها هما الآن في ركن منزوٍ من قصور بورغيز»، وسيسيليا تفعل ما فعلته معي مراراً: إنّها تقبّله بارتباك وبرودة، بشفتيها الطفوليتين، وفي الوقت نفسه توجّه إلى بطنه ضربة عانتها القاسية الآمرة. ولكنّي ما لبثت أن فكّرت: «ولكن لماذا تراني أفكّر بهذا كلّه، ولماذا أتألم منه؟ طبعاً لأنّني رأيتهما معاً، وبسبب هذا وحده، أي بسبب رؤيتي إياهما معاً، كنت مجبراً، بالرغم منّي، على أن أغار عليها وأتألم».

كنت أفكّر مطرق الرأس، وعيناي مثبتتان في الأرض، وأخيراً ألقيت نظرة على المنبّه فلاحظت أنّ وصول سيسيليا كان وشيكاً. وقمت آنذاك عن الأريكة وتمطّيت بضلوعي المتألمة، وأنا أفكّر بأنّني لم أكن، في آخر المطاف، واثقاً كلّ الثقة من الخيانة. فما الذي رأيته في الحقيقة؟ موعد لقاء بريء في مكان ليس فيه أي خفاء أو سريّة، وهدية لطيفة، ولكنّها غير ذات معنى كبير، من باقة بنفسج، ونزهة في «البانشيو». إنّ مثل هذه الأمور تحدث في كلّ ساعة، وفي كلّ يوم، من غير أن يكون الذين يقومون بها مرتبطين بصلات غرامية. صحيح أنّه كان ثمّة أمر الموعد الذي أخلفته أمس. ولكن كان عليّ أن أحذّر هذا الاستعداد الذهني الذي يميل إلى إقامة علاقات اعتباطية بين أمور متباعدة ومختلفة. إنّ سيسيليا لم تأتِ أمس إلى الموعد المتفق عليه: هذا أمرٌ قد حدث. ولقد رأيتها بعد الظهر مع شاب ذي شعر متأكسد: وهذا أمرٌ آخر قد حدث. ولكن لم يكن مؤكداً أنّ هذين الأمرين مرتبطان، ومرتبطان خصوصاً برابطة الخيانة.

وشيء غريبٌ أقوله: ما كدت أفكّر بهذه الأفكار، حتّى عاد وجه سيسيليا (تلك التي كانت تظهر لعينيّ حيّة وحقيقية، بالرغم من أنّها

مليئة بالأسرار، أو بسبب أنّها مليئة بالأسرار، ما دمت أتهمها بالخيانة) حتّى عاد وجهها ذلك، الآن وقد شككت بتلك الخيانة، وهمياً ومضجراً كما في الأيام السابقة. وكما حدث في الأيام السابقة، كنت أحسّ بأنّ عليّ أن أقطع علاقتي بها بأي ثمن، وتأكد تصميمي على ذلك بذكرى القسوة التي عمدت إليها، في أحد لقاءاتنا الأخيرة، حتّى لا أسقط في السأم.

وكانت سيسيليا دقيقةً في الموعد. ففي الساعة الخامسة سمعت الجرس برنّته المألوفة، القصيرة المتكتّمة، والصميمية في الوقت نفسه. وكنت أفكّر، وأنا ذاهب لأفتح لها الباب: «ما إن تقع عيني عليها، حتّى أقول لها إنّني ذاهب إلى الريف، بحيث أكون، حتّى ولو ندمت على ذلك فيما بعد، قد خلقت أمراً واقعياً يمكنني بصعوبة أن ألغيه بعد ذلك».

وكنت أتوقّع أن تُلقي سيسيليا على عادتها، ذراعيها حول عنقي، حين تدخل، بحركتها المألوفة الآلية الحرارة، ولكنّي سأمسك هذه المرّة بيديها، فأحلّ اعتناقها وأنا أقول لها: «قبل كلّ شيء، يجب أن أحدّثك».

ولكن حدث، على العكس، ما لم أكن قد توقّعته، وما كان عليّ في الحقيقة أن أتوقّعه. فبعد أن فتحت الباب، لم ترتمِ سيسيليا على عنقي، بل اقتربت وهي تقوم بحركة لتُبعدني ثمّ قالت:

- قبل كلّ شيء، يجب أن أقول لك أمراً.

ولم أتمالك من التفكير بأنّ هذه الكلمات كانت تقريباً ما نويت أن أقوله لها، ثمّ خطر لي على الفور أنّ سيسيليا كانت تريد أن تبلغني قراراً شبيهاً بقراري، أي أنّها كانت تريد أن تتركني. وفي هذه الأثناء كانت قد توجهت إلى الأريكة وجلست عليها. فتبعتها وجلست إلى قربها، وقلت لها بصوت قويّ مغتاظ:

- لا، قبل كلّ شيء، يجب أن تعطيني قبلة.

فانحنت مطيعة ورشقت خدّي بقبلة سريعة، ثمّ تراجعت وقالت:

- إنّ ما عليّ أن أقوله لك هو أنّنا بعد الآن لن نستطيع أن نلتقي بعدُ كلّ يوم، وإنّما مرّتين في الأسبوع.

- ولماذا؟

- هدّئ نفسك، ولا تغضب.

قالت لي ذلك قبل أن تجيبني، وكنت بالفعل قد تكلمت بصوت عالٍ، وبلهجة مرّة، ولكنّي غضبت غضباً حقيقياً وأنا أسمعني أقول:

- إنّني هادئ ولست غاضباً. كلّ ما هناك أنّي وددت أن أعرف سبب هذا كلّه.

- لقد بدأوا عندنا في البيت، يستاءون لكوني أقصدك كلّ يوم.

- ولكن ألم تقولي لهم: إنّك كنت تأخذين دروساً في الرسم؟

- بلى، ولكنّي قلت إنّني آخذ هذه الدروس مرّتين في الأسبوع. أمّا من أجل الأيام الأخرى، فيجب عليّ دائماً أن أخترع عذراً ما، وقد فهموا الآن!

- ليس هذا صحيحاً، فإنّ ذويك غير مستائين. إنّهم مثلاً لم يكونوا يحتجّون حين كنت ترين باليستياري كلّ يوم.

- كان باليستياري في الخامسة والستين، لا في الخامسة والثلاثين مثلك، وهم لم يكونوا يحترسون منه. ثمّ إنّهم كانوا يعرفونه.

- إذن قدّميني إلى ذويك.

- سوف أقدّمك. ولكن بانتظار ذلك، ينبغي ألّا نلتقي إلّا مرّتين في الأسبوع.

وظللنا لحظة صامتين. وكنت أكتشف الآن أنّني لم أكن فقط غير راغب في قطع العلاقة مع سيسيليا، بل إنّني لم أكن لأحتمل ألّا أراها إلّا مرّتين في الأسبوع. ثمّ فجأة فهمت. لقد كنت ما أزال مستعداً أن

أباعد ما بين مواعيدنا، ولكن كان ينبغي أن أكون واثقاً ثقة عميقة بأنّها لم تكن لتكذب عليّ وأنّ ذويها قد احتجوا حقًّا. ولمّا لم أكن واثقاً من ذلك فإنّ فكرة أنّها كانت تكذب عليّ كانت توحي لي شعوراً بالضيق، كما لو أنّها أفلتت منّي في اللحظة نفسها التي كان تصبح فيها، بفضل هذه الكذبة، حقيقيةً في نظري ومشتهاة.

وتناولت يدها:

- قولي الحقيقة، إنّك لا تريدين أن ترني بعد.

فأجابت بحيوية:

- إنّ هذا لا علاقة له بما أطلبه منك. لقد قلت لك إنّ علينا أن نتقابل مرّتين في الأسبوع فقط، هذا كلّ شيء.

ولاحظت أنّ صوتها كان محايداً تماماً، على مسافة متساوية من الحقيقة والكذب. وكانت هذه ملاحظة أحسست بها عدّة مرّات، ولكن فقط من أجل تسجيل تفصيلٍ تتفرّد به سيسيليا، من غير أن أضفي عليه أيّ معنى. وبالإجمال، لم تكن تبدو أنّها تقول دائماً الأشياء التي تقولها، لا أكثر ولا أقل، أقصد بلا أدنى مشاركة عاطفية. وهذه المشاركة كنت أعرف أنّها موجودة في العلاقة الجنسية، وفيها وحدها فقط. ولكن كان عليّ أن أعرف تماماً إذا كانت تكذب عليّ، لأنّي كنت ما أزال راغباً في الانفصال عنها، وكان الكذب يمنعني من ذلك.

والححت:

- الواقع أنّك تريدين أن نفترق، ولكنّك لا تملكين الجرأة على قول ذلك، ولهذا تحاولين أن تُمهّدي لي. فأنت اليوم تقولين: مرّتين في الأسبوع، وغداً سيكون مرّتين في الشهر، وفي النهاية ستقولين الحقيقة...

- أيّة حقيقة؟

وكان على رأس لساني أن أقول: «إنّ لك رجلاً آخر»، ولكنّي امتنعت، وكانت الصلة بين قرارها بتخفيف زياراتها ولقائها بالرجل في «ساحة إسبانيا» واضحة أكثر ممّا ينبغي، وكان قبولها يذلّني.

وقلت فجأة:

- حسناً، ليكن ما تريدين: فلن نلتقي أبداً ابتداء من اليوم إلّا مرّتين في الأسبوع. فلنغيّر الحديث...

- ولكن ما بك؟ لماذا تبدو هيئتك قاتمة إلى هذا الحدّ؟

- لنغيّر الحديث. أتعلمين أنّني اليوم مررت تحت أنفك، ولم تريني؟

- أين؟

- في ساحة إسبانيا، عند أسفل الدرج.

- في أيّة ساعة؟

- في حوالي الرابعة.

وكنت أنظر إليها في تنبّه: كان وجهها يحتفظ بعبيره المتردّد الطوفلي، بل هي لم ترتعد قط:

- آه، نعم، كنت مع ممثل يُدعى «لوسياني».

وكان الصوت أيضاً لا يكشف عن أي شيء خاص: فهو محايد، لا معبّر، يتجاوز الطهارة والإثم، وسألتها كيفما تأتي لي:

- ولماذا تراه يؤكسد شعره؟

- لأنّه كان عليه أن يمثّل دور رجل أشقر.

- كنتما تبدوان في صداقة حميمة، إذا حكمنا على الأقل من طريقة مشيتك.

فسألت بفضول غير مصطنع:

- أيّة طريقة؟

فأحسست بأنّ الكلمات لن تفي بوصف الحنان الذي أخذها الممثل به من ذراعيها، فقلت:

- انهضي.

- ولكن لماذا؟

- انهضي.

فأطاعت، فأخذت إذ ذاك ذراعها وأجبرتها على أن تمشي قليلاً عبر المرسم؛ تماماً كما رأيتها تمشي مع الممثّل؛ وقلت أخيراً وأنا أترك ذراعها:

- هكذا.

فعادت تجلس على الأريكة ونظرت إليّ لحظة، ثمّ قالت:

- إنّه يفعل ذلك تماماً.

وفكّرت بأنّها كانت عبارة لا تعني على الإطلاق أنّه كان بينها وبين الممثل غرام.

وسألتها:

- متى تعرّفت عليه، لوسياني هذا؟

- منذ شهرين.

- وهل تقابلينه كثيراً؟

- بين وقت وآخر.

ورأيتها تنهض وتبدأ في نزع صدرتها من رأسها، فسألتها:

- ولكن، كنت على موعدٍ معه اليوم؟

- نعم، هو يودّ لو أعمل في السينما، وكان علينا أن نتحدّث في هذا الموضوع بالذات.

فتفحصتها مليًّا: كانت قد رفعت صدرتها فوق رأسها، كاشفةً عن إبطيها الأبيضين بشعراتهما النادرة الطويلة، الطريّة والسمراء؛ ولكنّ صدرها لم يكن قد حُرّر بعد، فلم يكن يُرى إلّا نصفها الأعلى الهزيل

المراهق. وأخيراً، بحركة مفاجئة، نجحت في التخلص من ثوبها، فانبثق نهداها إلى الخارج: دفعةً واحدة، أصبح النصف الأعلى من جسدها نصف امرأة، فيما ظلّ يحتفظ بشيء من الرخص وسبق النضج. وخطر لذهني أنّها كانت تنزع ثيابها لتضع حدًّا لاستجواب مزعج. وسألتها:

- إذن، ستعملين في السينما؟

- لا أدري بعد.

- وبعد ذلك، إلى أين ذهبتما؟

- إلى «البانسيو» لنأخذ فنجان قهوة.

وكانت الآن قد جلست على الأريكة من جديد، عارية حتّى النطاق. وبعناية، كانت تقلب كمّي ثوبها؛ فقلت:

- لقد رأيتكما في الواقع تصعدان نحو «الترينيتيه ديمون». ولكن هذا الممثل، ألا يسكن في شارع سيستينا؟

- لا، بل في ضاحية باريولي، شارع أرخميدس.

- وبعد القهوة، ماذا فعلتما؟

- تنزّهنا في ممرّات قصور بورغيز، حتّى الساعة التي تركته فيها لأجيء إلى هنا.

ولاحظت أنّي كنت أنظر إليها في رغبة، فأدركت أنّي كنت أشتهيها لا لأنّها كانت عارية، بل لأنّها كانت تكذب عليّ. ويظهر أنّها لاحظت نظرتي فأضافت ببساطة:

- وإذن، هل تريد أن تقوم بفعل الحب؟

وثار غضبي فجأة إذ فكرت بأنّها إنّما كانت تعرض عليّ القيام بفعل الحب لتخفي عنّي أنّها كانت تكذب عليّ. لقد كنت متأكداً أنّ عاشقاً فقط كان يستطيع أن يضمّ ذراع امرأة على النحو الذي رأيت

لوسيانو يضمّ به ذراعها. ولكنّي تحاشيت هذه المرأة أيضاً أن أذكر اسم الممثل، فقلت هادراً:

- كلا، لا أريد أن أقوم بفعل الحب، بل أريد أن أعرف الحقيقة.

- ولكن، أيّة حقيقة؟

- الحقيقة مهما كانت.

- إنّني لم أفهم قصدك.

- بالأمس لم تأتي إلى موعدنا، حتّى من غير أن تخبريني أنّك لن تستطيعي المجيء. واليوم تريدين أن تخففي زياراتك. أريد أن أعرف الحقيقة، أريد أن أعرف ما وراء هذا كلّه؟

- لقد قلت لك السبب، إنّ أهلي غير راضين.

وأحسست من جديد أنّه كان على رأس لساني أن أقول: «هذا غير صحيح، والحقيقة هي أنّك تقومين بفعل الحب مع لوسياني» ولكنّي فهمت في الوقت نفسه أنّني لن أستطيع النطق بذلك بأي ثمن. وإذن، فقد ظللت صامتاً وقاتماً، منخفض العينين. ثمّ أحسست بيدها على خدّي:

- أيغضبك كثيراً ألّا تراني كلّ يوم؟

- نعم.

- حسناً، فليكن الأمر كما لو أنّي لم أقل شيئاً. سنستمرّ كما في السابق. ولكن ينبغي أن نكون أكثر تنبّهاً. فحسب الأيام سنتقابل في ساعات مختلفة. والحق أنّي سأتلفن لك في الصباح لأبلغك كلّ مرّة الساعة التي نستطيع أن نتقابل فيها. فهل أنت راضٍ الآن؟

وهكذا عدلت سيسيليا، بطريقة مفاجئة سريّة، عن تخفيف زياراتها. وكنت مندهشاً جدًا حتّى إنّي لم أفكر بأيّة فكرة رديئة. كان الأمر واضحاً: إنّ سيسيليا بالرغم من تجاربها المبكّرة، كانت فتاة

صغيرة تخاف ذويها، وقد أوحى لها هذا الخوف بأن تقلّل مقابلاتنا، ولكن إزاء حزني وشكوكي، غيّرت قرارها من جديد لترضيني. وعلى هذا، فإنّها لم تكن تخدعني، ولم تكن تكذب عليّ، إنّها لم تكن إلّا فتاة بسيطة وبلا أسرار، متوزّعة بين خوفها من ذويها وتعلّقها بعشيقها.

وبدا لي مستغرباً ألّا أكون قد فكّرت بهذا قبل ذلك، وسرعان ما أصبحت الطريقة التي أخذ فيها الممثل بذراع سيسيليا تفصيلاً لا أهمية له، ربّما كان يفعل ذلك مع جميع النساء، أيًّا كانت علاقته بهنّ!.

ودامت هذه الأفكار لحظة، ثمّ أدركت أمراً جديداً: إنّني لم أكن فحسب راضياً من كون سيسيليا قد عدلت عن تقليل زياراتها، بل كنت أرى السأم ينبت في أفقنا، كسحابة صغيرة قائمة في سماء صافية.

- شكراً. ربّما كان بوسعنا، إذا أردت، أن نلتقي أربع مرّات في الأسبوع بدلاً من سبع مرّات؟

- كلا، دعْ عنك هذا، فسأجد حجة ما.

وكانت قد عادت إلى الكرسي الذي كانت قد وضعت عليها صدرتها، واستأنفت نزع ملابسها. ورأيتها ترفع يديها إلى سحاب تنّورتها، إلى جانب، وتخفضه. وتساءلت آنذاك عمّا إذا كانت الحركات الحيّة الأنيقة التي كان يُخلّفها سقوط ثيابها المتتالي، وتعرّي جسدها التدريجي، تبدو لي الآن وقد تأكدت من أنّها لم تكن تخدعني، مضجرة ولا معقولة كما في السابق؛ وبعد لحظة تنبّه، كان لا بدّ من أن أقرّ أنّ الأمر كان كذلك.

والواقع أنّ سيسيليا التي كانت تبدو لي مشتهاة جدًّا ما دمت أتهمها بالخيانة، قد أصبحت الآن، كما لو أنّ معجزة عكسية قد حدثت، أي معجزة تجرّد الواقع من شيء سحري، بدلاً من أن تزوّده به - أقول أصبحت الآن وقد تأكدت من العكس، شيئاً تافهاً، ربّما

يكون حاضراً لإدراك حواسّي إدراكاً سطحياً، ولكنّه لم يكن بسبب ذلك واقعياً حقًّا.

وفكّرت بأنّها كانت «هنا برمّتها»، في هذه الحركة التي تخفض السّحاب، من غير قرينة استقلال ذاتي أو أسرار، كان هنا برمّتها الآن وبالتالي غير موجودة. إنّها ممتَلَكةٌ سلفاً، حتّى قبل أن تأتي العلاقة الجنسية فتعطي هذا الامتلاك المعنوي توكيداً إضافياً؛ إنّها ممتلكة، وبالتالي مضجرة.

وأذكر أنّي أنا أيضاً، فيما أنا غارق في هذه الأفكار، كنت أخلع ثيابي بدوري. ولم أتمالك من إلقاء نظْرة على عضوي، وأنا أخشى تقريباً أن يكون في حالة انتصاب، كما كان بوسعي أن أخشى إذا حكمت على الأمر بناء على أفكاري. ولكنّه كان كذلك؛ وأبداً لم أعجب، كما عجبت في تلك اللحظة، بقوّة الطبيعة التي كانت إذا صحّ التعبير تجعلني أشتهي من غير شهوة حقيقية. وكنت الآن عارياً. وتمدّدت على الأريكة، على نحو ما يتمدّد مريض على سرير طبيب، يأخذني الشعور نفسه بأنّي أخضع نفسي لتجربة مزعجة، وهي على أي حال، بعيدةٌ عن الحب.

وإذ ذاك حدث أمرٌ غير متوقع. فبعد أن فرغت سيسيليا من نزع ثيابها، اتجهت كعادتها، على رؤوس أصابعها، فأسدلت ستائر النافذة، وبحركة تشبه حركة مَنْ تحرّر من كلّ شيء وعدا نحو البحر ليرتمي فيه، ركضت نحو الأريكة واستلقت عليّ، بثقل وعنف، وهي تطلق صرخة نصر ثاقبة. ثمّ قعدت عليّ منفرجة الساقين، وكنت مستلقياً على ظهري، وضغطت بكلتا يديها على كتفيّ وصاحت:

- قل الحقيقة؛ اعترف بأنّك منذ لحظة، ظننت أنّي كنت أخونك مع لوسياني؟

ونظرت إلى وجهها المهتاج، المحمّر من النشوة بين شعرها

الخفيف المتماوج الذي لم يبْد لي قط من قبل كما بدا لي آنذاك ممتلئاً بالحياة، وفجأة تيقّنت من عكس ما كنت قد فكرت به حتّى ذلك الحين. نعم، كانت سيسيليا قد كذبت عليّ، نعم، كانت سيسيليا قد خانتني مع الممثل: ودليل ذلك، إن كان هناك من دليل، كان صوتها المنتصر، الذي كان يشبه في سذاجته التي لا تُقاوم صوت صبي مزح مع رفيق له مزاحاً ناجحاً، فصاح به: «قل الحقيقة، لقد وقعت حقًّا في الشرك!».

وفي الوقت نفسه، رأيتها من جديد أكثر حقيقةً وواقعاً من أي وقت مضى، وبالتالي، مشتهاةً بصدرها ذلك الأسمر الريّان المعلّق بنصفها الأعلى الهزيل الأبيض المراهق، وقامتها الدقيقة وخاصرتيها القويتين الصلبتين؛ وكنت أفكّر بأنّها إذا كانت تبدو لي حقيقةً ومشتهاة، فلأنّها إنّما كانت تفلت منّي بالكذب والخيانة.

ولدى هذه الفكرة، غمرني غضبٌ متململ وحقود، فأخذتها من شعرها بقوةٍ شديدة، حتّى إنّي سمعتها تئنّ، وقلبتها ثمّ ارتميت عليها.

والامتلاك الجسدي لم يكن في العادة إلّا تكرار امتلاك ذهني سابق، أي أنّه كان يؤكد السأم الذي كان يرد لي سيسيليا وهمية ولامعقولة، ولكنّي في هذه المرّة أحسست مباشرة بأنّ الامتلاك كان يبدو وهو يؤكد على العكس، عجزي عن امتلاكها حقيقة؛ لقد حاولت طويلاً أن أقسو معها، وأضمّها وأشدّها، وأعضّها وألج فيها، ولكنّي لم أكن أمتلك سيسيليا، فقد كانت في مكان آخر، من يدري أين؟ وانتهى بي الأمر إلى أن سقطت واهن القوى، ولكنّي ظللت ممتلكاً بالغضب، خارجاً منها كما أخرج من جرح لا فائدة منه، وخيّل إليّ أنّ سيسيليا وهي متمدّدة إلى جانبي، مغمضة العينين، كأنّ على وجهها هيئة ساخرة، حتّى في التعبير المطمئن الذي يتبع إرضاء الشهوة الجسدية. وفكرت بأنّها نفس هيئة تلك الحقيقة التي كانت

تهرب منّي وتتلاشى في اللحظة نفسها التي كنت أتوهّم فيها أنّني أصبحت سيدها ومالكها.

وتفرّست فيها مليًّا. ولا بدّ أنّها أحسّت بنظرتي، فإنّها قد فتحت عينيها ونظرت إليّ بدورها، ثمّ قالت:

- لقد كان ذلك جميلاً جدًّا اليوم، لو تعرف!

- أليس هو دائماً جميلاً هكذا، وبالطريقة نفسها؟

- أوه! كلا، بل هو دائماً مختلف. هناك أيام يكون فيها أقلّ جمالاً، أمّا اليوم فهو جميل جدًّا.

- ولماذا؟

- هذه أمورٌ لا تُشرح. ولكن المرأة تشعر حين يكون ذلك جيّداً جدًّا أو لا يكون كذلك. أتعرف كم مرّة حصلت على المتعة؟

- كم مرّة؟

فرفعت ثلاثة أصابع من يدها وقالت:

- ثلاث!

ثمّ أغمضت عينيها من جديد وهي تلتصق بي التصاقاً خفيفاً، وفي هذه الحركة برز مرّة أخرى على وجهها ذي الجفون المسبلة، التعبير الساخر الذي سبق أن لمحته.

وفكّرت أنّه كان ممكناً إذن أن أكون قد امتلكتها حقًّا، امتلكتها بعمق، من غير أدنى تقييد في الاستقلال الذاتي أو السريّة. ولكنّي لم أكن أستطيع أن أعي ذلك، ولا أن أتمتّع به بالتالي؛ وكان يخيّل إليّ أنّ الذي يُمتلك وحده هو الذي يمكن أن يعي الامتلاك، لا الذي يمتلك. ومن جديد عاودني أقوى من أي وقت آخر شعور العجز عن الامتلاك، بالرغم من اكتمال العلاقة الجسدية. وكنت أودّ أن أسأل: أكان أجمل معي أم مع لوسياني؟ ولكنّي أحسستني مرّة أخرى عاجزاً عن النطق باسم الممثل.

وعلى العكس، سألتها حتّى من غير أن أعرف السبب:

- أصحيح أن باليستياري قد مات بين ذراعيك، بينما كنتما تقومان بفعل الحب؟

فرأيتها ووجهها يتقلّص خفية، من غير أن تفتح عينيها، كما لو أنّ ذبابةً لامسته في طيرانها، ثمّ تمتمت:

- لماذا تريد أن تعرف ذلك؟

واحتفظت بعينيها مسبلتين، فكنت أشعر كأنّي أسأل مرَوْبصة، ثمّ أجابت:

- ليس تماماً؛ لقد شعر بانزعاج بينما كنّا نقوم بفعل الحب، ولكنّه مات فيما بعد وكنّا قد فرغنا من ذلك.

- أنت لا تقولين الحقيقة.

- ولماذا تريدني ألّا أقولها؟ لقد أصابني خوفٌ شديد! فقد ظننته حقًّا قد مات، ولكنّه ما لبث أن أنتعش، لحسن الحظّ، فتمكّنت من أن أوصله إلى سريره.

- إنّكما إذن لم تكونا آنذاك على السرير؟

- لا.

- وأين كنتما؟

- ما أشدّ فضولك!

- أين كنتما؟

- على الدرج.

- على الدرج؟

- نعم، كانت به رغبة للقيام بفعل الحب في كلّ لحظة، إذا صحّ التعبير. وكنّا قد قمنا به مرّةً أولى في غرفته الصغيرة، بالطابق الثاني، وكنّا هابطيْن إلى المرسم لأنّه كان يريد أن يرسم. وكنت أتقدّمه في الهبوط، وفجأة أخذته الرغبة للقيام بفعل الحب، ففعله، هناك على الدرج. ولكن تصوّر...

- ماذا؟

- بعد أن شعر بانزعاجٍ، وبعد أن ساعدته في الصعود ثانية إلى غرفته والتمدّد على سريره، ظلّ لحظة مغمض العينين، جامداً، ثمّ أخذ يستعيد رويداً رويداً قواه، فتصوّر أنّه كان يريد أن يقوم بفعل الحب مرّة ثالثة. ولكنّي أنا التي لم أرد. كان وجهه قد أصبح وجه ميت، وكان يثير خوفي. وقد عدل عن ذلك، على مضض، وبعد أن غضب. وأنا أفكّر أحياناً بأنّه قد مات لأنّه قد غضب.

وفكّرت أنّ باليستياري إذن قد أراد حقًّا أن يقتل نفسه؛ وكان يخيّل إليّ أنّي أراهما هذين الكائنين اللذين كانا ينفصلان في أجمل لحظات الحب؛ وأتمثّل الرسام العجوز متشبثاً بكلتا يديه بالدربزين، وهو يتحامل بمشقة، درجة بعد درجة، حتّى يبلغ الرواق، ويتّجه فيرتمي على سريره، ثمّ أتمثّل ذلك النوع من الجثّة تجلس فجأة وتمدّ ذراعيها نحو سيسيليا.

سألت إذ ذاك، وأنا أتبع مجرى أفكاري:

- قولي: أكنت تخونينه، باليستياري؟

فرأيتها تكشّر تكشيرة انزعاج، كما لو أنّ ذبابة كانت تضايقها؛ لقد فهمت أنّي في الحقيقة إنّما سألتها:

- هل تخونينني؟

والواقع أنّها بدت هي أيضاً تدرك المغزى الحقيقي لسؤالي، لأنّها اكتفت بأن تمتمت:

- هأنت ذا تعودا

فألححت:

- قولي لي، أرجوك، هل كنت تخونينه؟

- فأجابت أخيراً:

- لماذا تريد أن تعرف ذلك؟ نعم، كنت أخونه بين وقت وآخر، فقد كان مُضجراً جدًّا.

- ماذا تقصدين؟

- مضجر.

وهكذا كانت سيسيليا تخونني، وهي إنّما كانت تخونني لأنّني كنت مضجراً، يعني بكلّ دقّة غير موجود، كما كانت بالنسبة لي. ولكن كان بيننا هذا الفرق: هو أنّي كنت أعرف ما كان السأم، لأنّني عانيت منه كلّ حياتي؛ أمّا بالنسبة إليها، فإنّ السأم لم يكن إلّا دفعاً غامضاً لتحويل حركة خاصرتيها المثيرة، والتي لا تقاوم، إلى مكان آخر.

ونظرت إليها من جديد: كانت متمدّدة على ظهرها، منفرجة الساقين، كما خلّفتها الضمّة الأخيرة، بلا حشمة، ولكنّها في الظاهر واثقة من أنّي كنت أعتبر استسلامها كدلالة على الطبعيّة والصميميّة. وإذ كنت أتأمّلها لم يمتنع عليّ هذا الوهم الرجاليّ الذي يرى في الامتلاك المادي الامتلاك الحقيقي الوحيد.

وفكّرت: أجل، كانت سيسيليا تفلت منّي، كانت تهرب منّي، ولكن من يدري، إذا أخذتها من جديد، فربّما نجحت هذه المرّة في إزالة ذلك الشعور بأنّي لم أمتلكها، وفي امتلاكها حقًّا، ونهائياً، ونهضت، وانحنيت عليها، فلامست شفتيها بقبلة. ومن غير أن تفتح عينيها همست:

- أعتقد أنّه قد آن الأوان لأمضي.

- انتظري.

وعلى هذه الصورة أخذتها مرّةً أخرى من غير أن تفتح عينيها بالرغم من أنّ جسدها قد أفهمني بأنّه كان يتلقّى الاعتناق ويسهّله بنهمه المألوف؛ وكان لا بدّ من دليل أخير بكونها غائبة في مكان آخر، وأنّ ما كنت أستولي عليه لم تكن له أيّة قيمة في نظرها، وبالتالي في نظري. ولكن سيسيليا فتحت عينيها هذه المرّة، بعد عملية الحب مباشرة، وصرّحت:

- الآن، يجب حقًّا أن أذهب.

ونهضت فركضت إلى غرفة الحمام واختفت. وإذ بقيت وحدي، سقطت في نوعٍ من التفكير الفارغ. كنت أفكّر، بالمعنى الذي يعطى حرفياً لهذه الكلمة، أي أنّني تأمّلت نفسي، في مرآة ضميري المعتمة، وأنا متمدّد عارٍ، جامد، فوق الأريكة في المرسم، مع المسند واللوحة البيضاء بالقرب من النافذة وجميع الأشياء التي كانت الغرفة تضمّها. ثمّ تسلّلت فكرة معيّنة في هذا العالم المتجرّد الميت: هي أنّ سيسيليا قد ظلّت بعد اعتناقنا الثاني، أشدّ فراراً وهروباً من أي وقت مضى، فكانت إذن حقيقيةً، بحيث إنّي لو حدثت معجزة في الطبيعة، واستطعت أن آخذها لا مرّتين متتاليتين فقط، بل مئة مرّة متتالية، فسوف أجدني آخر الأمر على مثل ما كنت عليه من عدم الرضى.

وبالإجمال كنت أقلّ امتلاكاً لها بمقدار ما كنت أكثر أخذاً لها، لأنّني كنت إذ آخذها أفرّط بالطاقة التي كان يمكنني أن أحتاج إليها لأمتلكها حقًّا، بطريقة لم أكن أتوصّل إلى تصوّرها، لهذه الفترة على الأقل.

وفي تلك اللحظة، سمعت سيسيليا تفتح باب غرفة الحمام؛ فتحاملت إذ ذاك على مرفقيّ، وقلت لها:

- انظري في الخزانة، فإنّ لك فيها هدية.

فصاحت:

- لي أنا؟

من غير أن تنمّ لهجتها عن دهشة أو حتّى عن سرور؛ ثمّ لا بدّ أن تكون قد فتحت الخزانة، فتناولت محفظة اليد، وأخرجتها من الورقة التي كانت تغلّفها، ونظرت إليها؛ ولكنّي لم أر شيئاً، إذ كنت راقداً على ظهري، وعيناي في السقف.

ولكن بعد لحظة، شعرت بشفتيها تلامسان شفتي في إحدى تلك القبلات الجافة الطفولية، وتمتم صوتها:

- شكراً!

وفيما بعد، نهضت على مرفقيّ، فإذا بسيسيليا وقد ارتدت ثيابها، وكانت واقفة أمام الطاولة، تنقل حاجاتها الشخصية المختلفة من محفظتها القديمة إلى محفظتها الجديدة. وتركتني أتداعى مرّة أخرى على ظهري.

الفصل السادس

لم تكن سيسيليا ثرثارة، ويبدو لي أنّي جعلت القارئ يفهم ذلك، بل يمكن القول إنّ مسلكها الطبيعي كان مسلك الصمت؛ ولكن حتّى ولو كانت تتكلم، كانت تنجح مع ذلك في أن تكون صامتة، بسبب إيجاز لغتها المحيّر ولا شخصيتها.

لقد كانت الكلمات في فمها تبدو وكأنّها تفقد كلّ معنى حقيقي، وتتحوّل إلى أصوات مجرّدة، كما لو أنّها كانت كلمات لغة أجنبية أجهلها. وقد كان انعدام أيّة لهجة أو لكنة يمكن أن تدلّا على طبقتها الاجتماعية، وانعدام أيّة أمور مشتركة ذات دلالة، وقصر محادثتنا على مجرد تقرير وقائع لا تحتمل النقاش، من مثل «الجو حارّ اليوم»، إنّ ذلك كلّه كان يؤكّد هذا الانطباع بالتجريد.

كنت أسألها عمّا فعلته مساء أمس، فكانت تجيبني:

- لقد ذهبت أتناول العشاء في البيت، ثمّ خرجت مع ماما فقصدنا إلى السينما.

وقد حدث أنّ لاحظت على التوّ أنّ كلمات «البيت» و«العشاء» و«ماما» و«السينما» التي كانت تعني، لو نطق بها فمٌ آخر، ما تعنيه عادةً، وكانت بالتالي جديرة بأن تُفهمني، وفق الطريقة التي نُطقتْ بها، إذا كانت تكذب عليّ أو تقول لي الحقيقة - إنّ هذه الكلمات لم تكن في فم سيسيليا تبدو شيئاً آخر غير أصوات مجرّدة، كان من المستحيل أن نتصوّر خلفها واقع الحقيقة أو واقع الكذب. ومن جهة أخرى، تساءلت كثيراً كيف كانت سيسيليا تستطيع أن تتكلم، فيما هي

تُشعر بأنّها صامتة. وقد انتهيت إلى أنّها لم يكن لديها إلّا طريقة واحدة للتعبير، هي الطريقة الجنسية، التي كانت مع ذلك تستعصي على الإدراك، بالرغم من أنّها مبتكرة وقادرة؛ ولئن كان فمها لا يقول شيئاً، حتّى ولا الأشياء المتعلقة بالجنس، فلأنّ الفم لديها كان، إذا صحّ التعبير، فوهة لا عمق لها ولا صوت، ولا تتّصل بشيء في الداخل. حتّى إنّي غالباً، إذ كنت أراها متمدّدة، منفرجة الساقين، لم أكن أستطيع الامتناع عن مقارنة شقّ فمها الأفقي بشق الفرج العمودي، وأن ألاحظ في اندهاش بأنّ الشقّ الثاني كان أكثر تعبيرية من الأوّل، بتلك الطريقة السيكولوجية التي تختصّ بملامح الوجه التي تكسف عن شخصية الإنسان.

ومن جهة أخرى، كان عليّ أن أعرف مع ذلك ما كان يختبئ وراء عبارة من مثل «لقد ذهبت أتعشى في البيت ثمّ خرجت مع أمّي وقصدنا السينما»، إذا كانت هذه الكلمات بالجملة تتعلّق حقًّا بعشاء وبيت وأمّ وسينما، أمّ أنّها كانت تخفي موعداً مع الممثل ذي الشعر المؤكسد.

وفجأة أخذتني رغبة مجنونة في أن أعرف سيسيليا معرفة أعمق، بينما لم أكن قد اهتممت حتّى ذلك الحين بأن أعرف أي شيء عنها، متوهّماً أنّني أمتلكها بالعلاقة الغرامية وأنّني بالتالي أعرف كلّ شيء عنها. مثلاً: أسرتها. فإنّ سيسيليا كانت قد قالت لي، بإيجازها المألوف، إنّها كانت فتاة وحيدة، وإنّها كانت عيش مع أبيها وأمّها اللذين لم يكونا يملكان المال الكثير، لأنّ أباها كان مريضاً، ولم يكن يعمل بعد. كنت قد اكتفيت بهذه المعلومات، وكدت أعترف بالجميل لسيسيليا ألا تقول لي أكثر من ذلك، لأنّ ما كان يهمّني خصوصاً هو أن تأتي كلّ يوم إلى المرسم لنقوم بفعل الحب.

ولكن ابتداء من اللحظة التي أصبحت أشكّ فيها بأنّها تخونني،

فإذا بهذا الشك يحوّلها فجأة من الفتاة الوهمية المضجرة التي كانتها، إلى الفتاة الحقيقية المشتهاة، أخذني الفضول بأن أعرف المزيد عن حياتها العائلية، كما لو أنّي كنت أؤمّل بواسطة معرفة معمّقة أن أبلغ هذا الامتلاك الذي كان العلاقة الغرامية تمنعه عليّ.

وإذن فقد أخذت أسألها وأستجوبها، كما فعلت بصدد علاقتها مع باليستياري.

وهذا نموذج من حديثنا:

- هل أبوك مريض؟
- نعم.
- وممَ يشكو؟
- من سرطان.
- وماذا يقول الأطباء؟
- يقولون إنّه مصاب بالسرطان.
- لا، أقصد: هل يظنون أنّه يمكن أن يُشفى؟
- كلا، يقولون إنّه لا يمكن أن يشفى.
- إنّه إذن سيموت عمّا قريب.
- نعم، يقولون إنّه سيموت عمّا قريب.
- وهل تتألمين لذلك؟
- ماذا؟
- أن يموت أبوك؟
- نعم.
- وتقولين الأمر هكذا؟
- وكيف تريدني أن أقوله؟
- ولكنّك تحبين أباك؟
- نعم.

- حسناً... لنتابع: كيف هي أمّك؟
- ماذا تقصد؟
- أقصد هل هي قصيرة أم طويلة، جميلة أم قبيحة، سمراء أم شقراء؟
- هي بين بين، امرأة ككثير من النساء.
- ولكن أيّ مظهر لها؟
- آه، ليس لها أي مظهر...
- ليس لها أي مظهر؟ ولكن ماذا تقولين؟
- أقصد ليس لها أي مظهر خاص. إنّها كجميع الأخريات.
- هل تحبين أمّك كثيراً؟
- نعم.
- أكثر أم أقل من أبيك؟
- بطريقة مختلفة.
- ماذا تعنين بكلمة: مختلفة؟
- مختلفة تعني: مختلفة.
- حسناً... وأمّك، هل تحبّ أباك؟
- أظن أنّ نعم.
- لماذا؟ ألست متأكدة من ذلك؟
- إنّهما متفقان، فأنا أتصوّر أنّهما يتبادلان الحب.
- ماذا يفعل أبوك طوال النهار؟
- لا شيء.
- ما معنى لا شيء؟
- لا شيء، يعني لا شيء.
- ولكن من يقول إنّه لا يفعل شيئاً، فهذه طريقة في التعبير، لأنّ المرء في الواقع يفعل أشياء كثيرة، حتّى ولو لم يفعل شيئاً. إنّ أباك لا يشتغل، ولكن ماذا يفعل بدلاً من ذلك؟

- لا يفعل شيئاً.

- يعني؟

- الواقع أنّي لا أدري: فهو في البيت يبقى جالساً قرب الراديو، على كرسي. وكل يوم يقوم بنزهة صغيرة، هذا كلّ شيء.

- فهمت... أتسكنون شقّة في «براتي»؟

- نعم.

- كم غرفة فيها؟

- لا أدري.

- كيف، لا تدرين؟

- إنّني لم أعدّها قط.

- ولكن هل هي شقّة صغيرة أم كبيرة؟

- بين بين.

- يعني؟

- متوسطة.

- صفيها لي.

- إنّها شقة ككثير من الشقق، وليس فيها ما يوصف.

- ولكنّها ليست فارغة، هذه الشقة؟ إنّ فيها أثاثاً، أليس كذلك؟

- نعم، فيها الأثاث المألوف، سرر، كراسي، خزائن...

- أي نوع من الأثاث؟

- أوه، لا أستطيع أن أصفه، أثاث كباقي الأثاث.

- لنأخذ غرفة الاستقبال مثلاً، هل لديكم غرفة استقبال؟

- نعم.

- وكيف هي مؤثثة؟

- بالأثاث العادي: كراسي، طاولات صغيرة، أرائك، كما في جميع غرف الاستقبال.

- ومن أي طراز هو هذا الأثاث؟

- لا أدري.

- ولكن ما هو لونه على الأقل؟

- لا لون له.

- كيف لا لون له؟ ماذا تقصدين؟

- أقصد أنّه لا لون له: فهو مذهّب.

- فهمت. ولكن الذهب هو أيضاً لون. هل تحبين بيتكم؟

- لا أدري إن كنت أحبه. والحق أنّي لا أمكث فيه كثيراً.

وبوسعي أن أمضي إلى ما لا نهاية، على هذا النحو. ولكن يبدو لي أنّي أعطيت مثالاً طيباً لما سميته تجريد سيسيليا. وربّما فكّر البعض، في هذا الصدد، بأنّ سيسيليا كانت بليدة، وعلى كلّ حال، بلا أدنى شخصية. ولكن الواقع لم يكن كذلك: والدليل على أنّها لم تكن بليدة، كوني لم أسمعها قط تنطق بأشياء بليدة؛ وأمّا شخصيتها، فقد كانت تكمن في مكان آخر، غير كلماتها، بحيث إنّ ثقل هذه الكلمات، من غير إرفاقها في الوقت نفسه بوصف وجه سيسيليا وجسدها، يشبه قليلاً قراءة كرّاس أوبرا بلا موسيقى أو فيلم من غير صور على الشاشة. ولكنّي أردت أن أنقل مثالاً للمحادثة لكي يدرك المرء جيّداً بأنّ لغة سيسيليا إذا كانت موجزة وشاحبة، فلأنّ سيسيليا نفسها كان تجهل الأمور التي كانت أسألها عنها، كانت تجهلها مثلي وأكثر منّي. لقد كانت بالتأكيد تعيش مع أبيها وأمّها، في شقّة ببراتي، وقد سبق أن كانت عشيقة باليستياري؛ ولكنّها لم يحدث لها قط أن وقفت تنظر إلى أشخاص حياتها وأشيائها، ومن أجل هذا لم ترها قط، ولم تراقبها على الإطلاق. وبالإجمال كانت غريبة عن نفسها وعن العالم الذي كانت تعيش فيه، لا أكثر ولا أقل ممّن كانوا لا يعرفونها ولا يعرفون عالمها.

وعلى أي حال، فإنّ الشك الذي كان ينتابني بصدد خيانة سيسيليا بدأ بجعلها سريّة لديّ وممتنعة على الإدراك، وبالتالي حقيقية، وانتهى بأن يوحي لي بالرغبة في التحقّق من هذه المزاعم، حتّى ولو لم تكن الغاية إلّا إلغاء هذا الجزء من السر الخفيّ الذي كان خارج العلاقة الغرامية.

وهذا ما حدا بي يوماً إلى أن أطلب منها أن تعرّفني على أسرتها. لقد لاحظت في بعض الدهشة أنّ الطلب لم يكن ليربكها قط، بالرغم من «الاحتجاجات» التي كانت قد قدّمتها لتبرّر نيّتها من تقليل لقاءاتنا. وقد قالت:

- لقد فكرت أنا نفسي بالأمر: إنّ الماما تحدّثني دائماً عنك.

- وهل قدمت باليستياري لعائلتك، في حينه؟

- نعم.

- هل عرف ذووك يوماً أنّك كنت عشيقة باليستياري؟

- لا.

- ولو عرفوا، ما عساهم كانوا يصنعون؟

- أتساءل عن ذلك...

- وهل كان باليستياري يزوركم كثيراً في البيت؟

- نعم.

- وماذا كان يفعل عندكم؟

- لا شيء. كان يأتي لتناول الغداء، أو تناول القهوة، ثمّ كنّا نذهب معاً إلى مرسمه.

- وهل حصل أن قمتما، أنت وباليستياري، بفعل الحب يوماً في بيتكم؟

- كانت لديه دائماً رغبة في ذلك، ولكنّي أنا لم أكن أريد، لأنّي كنت أخشى أن يفهم أهلي هذا.

- ولكن لِمَ كان راغباً أن يقوم بذلك، في بيتكم بالذات؟

- لا أدري، كان ذلك يروق له.

- ولكن هل قمتما بالفعل، أم لا؟

- نعم، قمنا به أحياناً.

- أين؟

- لست أذكر بعد...

- حاولي أن تتذكري.

- آه! نعم. قمنا به مرّة في المطبخ.

- في المطبخ؟

- نعم، كانت أمّي قد خرجت لتشتري شيئاً، وكان عليّ أن أبقى لأراقب الفرن.

- ولكن أما كان بوسعكما أن تذهبا إلى غرفتك، ما دام لم يكن هناك من أحد في البيت؟

- حين كانت الرغبة تأخذ باليستياري بالقيام بفعل الحب، كان يفعله حيث وُجد. كان يحبّ أن يفعله في الأماكن غير العادية.

- لماذا؟

- لا أدري.

- ولكن كيف كنتما تقوما بفعل الحب في المطبخ؟

- وقوفاً.

وإذن، فقد نقلت إليّ سيسيليا ذات يوم دعوةً من ذويها لتناول الغداء. وقد أبدلت ذلك اليوم صدرتي وبنطلوني المخملي ببذلة كاملة غامقة اللون، وقميص أبيض وربطة عنق رصينة، تناسب الأستاذ الذي كان عليّ أن أتقمّصه؛ وحوالى الساعة الواحدة سرت باتجاه بيت سيسيليا، إلى شارع في براتي.

والحق أنّي كنت أشعر فضولاً عميقاً وما يشبه الاضطراب

لتوجّهي إلى بيتها، لأنّ كلّ اكتشاف كنت أقوم به أو أحسبني أقوم به في ما يخص سيسيليا، كان يصبح على الفور حدثاً شهوانياً، كما لو أنّي إذ أكتشف مظاهر حياتها التي كنت أجهلها، إنّما أكتشفها هي نفسها، مادياً، كما لو أنّي عرّيتها.

ولم ألقَ كبير مشقة في العثور على الشارع. وهو شارع هادئ رتيب، مستقيم، يكتنفه شجر الدلب العاري، وعند الطوابق الأرضية من البنايات الصفر والرمادية كانت تصطف بعض الحوانيت. وكان باب سيسيليا يفضي إلى ساحة واسعة، كان بعض النخيل المغروس فيها وسط مجموعات شجر مقلّم يرفع قممه المصفرة حتّى حبال الغسيل المنشور في الطوابق الأخيرة. وكان ثمّة بضعة سلالم مطبوعة بأحرف تبدأ من حرف A وتنتهي بحرف F؛ وكان السلم الذي يؤدّي إلى بيت سيسيليا هو السلّم .E وكانت لوحة تحمل عبارة «واقف بسبب التصليح» تتدلّى من حاجز المصعد القديم؛ وهكذا رقيت على القدمين عدّة درجات، وانتقلت من سطيحة إلى سطيحة، في نور شاحب وبارد، وأنا أتفحّص لدى كل طابق لوحات الأبواب. الشقة ١ و٢ و٣ الشقة ٤ و٥ و٦ الشقة ٧ و٨ و٩ الشقة ١٠ و١١ و١٢. وهكذا كنت أفكّر، وأنا أبلغ الطابق الخامس، بالشقة ١٣؛ وإذ ضغطت على زر الجرس، قلت هذا هو إذن السلم الذي تصعده سيسيليا وتهبطه كلّ يوم إذ تقصد مرسمي وتعود منه، فما عساني كنت سأعرف من هذا السلّم لو طلبت من سيسيليا أن تصفه لي؟ لا شيء على الإطلاق! كانت ستجيبني بتكرارها المعهود إنّ «السلّم كان سلّماً» وينتهي كلّ شيء. ومع ذلك، فقد كانت تخلّف عند هذا السلّم جزءاً من حياتها؛ وذلك النور الرمادي، وتلك الدرجات المرمرية البيض، وهذه المربعات الحمر لدى السطيحات، كان ينبغي أن تظل في ذاكرتها كما تظل لدى آخرين أكثر حظاً المناظر الضاحكة التي قضوا فيها طفولتهم وحداثتهم.

وعبر هذه الأفكار سمعت، خلف الباب، خطوة خفيفة وإن كانت تصدي صدى قوياً على بلاط مترجرج. وفُتح الباب، فبدت سيسيليا على عتبته.

وكانت ترتدي، على عادتها، كنزتها الخضراء الزغبة التي كانت تنحدر إلى ما تحت خاصرتها والتي كانت لدى صدرها العاري تكشف عن مولد النهدين؛ وتحت تنورتها السوداء، القصيرة والضيقة، كان بطنها ينطبع في ثنيات عميقة ومشتركة المركز.

وإذ كنت أحيّيها، أطلّت خارج الباب، فعجبت، لأنّي حسبت أنّها كانت تريد أن تقبّلني، وهذا ما لم تكن جديرةً به، في هذا المكان وهذه اللحظة. ولكنّها على العكس، قالت لي بصوت منخفض:

- تذكّر أنّ اليوم هو يوم درس، وأنّنا بعد الغداء، سنخرج معاً لنقصد المرسم.

فلم أدرِ لماذا جعلني هذا الطلب الغريب مرتاباً؛ وتساءلت عمّا إذا كانت سيسيليا تريد أن تستغلّني وتستغلّ موعداً لتخفي موعداً آخر.

وكانت غرفة المدخل مؤثثة على طراز بعض النُزُل العائلية في المحطات الحمّامية: مقاعد وطاولة من الخيزران، نبتةٌ في زاوية، وفي الزاوية الآخرى تمثال من الجصّ لامرأة عارية. ولكن الكراسي والطاولة كانت تبدو قديمة ومتفسّخة، وكان التمثال مرمداً من الغبار في أماكن الثقوب، وكان، بالإضافة إلى ذلك، تنقصه يد. وأمّا النبتة، وهي من جنس الصبّار، فلم يكن باقياً منها إلّا عرقان في نهاية غصن طويل. وقد لاحظت أيضاً أنّ الجدران البيضاء كانت تغطّيها آثار من غبار، غبار قديم لزج كان يبدو في زوايا السقف وهو يثقل في بعض خيوط سميكة ومسوّدة من خيوط العنكبوت. وخطر لي أنّ أيّة فتاة كان لا بدّ أن تشعر بالخجل من مثل هذا البيت، على صواب أو خطأ، في

اللحظة التي تُدخل إليها عشيقها. أيّة فتاة، ولكن ليس سيسيليا.

وكانت تتقدّمني داخل ممرّ طويل فارغ، ثمّ فتحت باباً، وأومأت لي أن أتبعها.

ورأيت حجرة كبيرة مستطيلة، ذات أربع نوافذ تغطّيها ستائر صفر مصطفة على الجدار نفسه. وكانت الحجرة مفصولة إلى قسمين بواسطة درجة تعلوها فتحة واسعة بشكل قوس. وكان القسم الأكبر هو الصالون الذي كان يقوم فيه ذلك الأثاث الذي وصفته لي يوماً سيسيليا على أنّه بلا لون، أي مذهّب. والواقع أنّه كان أثاثاً من طراز لويس الخامس عشر، مقلداً عن الأثاث القديم، وقد كان شائعاً منذ أربعين سنة، وكان موضوعاً بشكل دائرة حول طاولات صغيرة مستديرة ومصابيح هزيلة ذات مظلات مزدانة بالآلئ. ومن النظرة الأولى لاحظت القشور البيضاء للملاط المذهّب، وظلّ القذارة على السواعد المزدانة بالزهور، ولطخات الرطوبة على السجاجيد الصغيرة ذوات الموضوعات الغزلية.

ولكنّ انحطاط البيت كان أقلّ ظهوراً في مظهر الأثاث المتهرّئ منه في بعض تفاصيل تكاد لا تصدّق، لما تنمّ عليه من إهمال طويل لا مبرّر له. فقد كانت رقعة كبيرة ضيّقة من السّجادة الجدارية المزدانة بباقات صغيرة وسلال، تتدلّى مثلاً وسط لوح مأطور كاشفةً تراب الجدار الخام؛ وكانت إحدى الستائر الصفر عند النوافذ تكشف عن تمزّق عريض غير متساوٍ وذي أطراف مقطعة إرباً، وكان ثقب كبير أسود ينفغر عن زاوية من زوايا السقف.

لماذا كان أهل سيسيليا لا يهتمّون على الأقلّ بإلصاق رقعة الورق الجدارية المدهونة، وبإصلاح الستائر، وبترميم السقف؟ أمّا بالنسبة لسيسيليا، فقد كان هذا إذن هو البيت الذي كان بيتاً، وغرفة الاستقبال التي كانت غرفة استقبال، والأثاث الذي كان أثاثاً؟ أكان

ممكناً أنّها تعيش في شقة فريدة إلى هذا الحدّ بمظهرها البائس، من غير أن تكون واعية لها حقًّا؟

كنت أفكّر بهذه الأمور وأنا أتبع سيسيليا إلى أصغر جزء من غرفة الاستقبال الذي كان مفصولاً عن الجزء الآخر بقوسٍ دائري ومجعولاً غرفة طعام، وفيه أثاث من طراز «الرونيسانس» نفسه، معتم وكثيف، كنت لاحظت مثله عند باليستياري. ومن فتحة نافذة، كانت تتسرّب في الصمت نغمات راديو موسيقية وثّابة. وربّما لأنّ صمت البيت كان فيه شيء مثلّج، لاحظت وأنا أسمع هذه النغمات أنّه بالرغم من أنّنا كنّا في مطلع كانون الأوّل، لم يكن البيت مدفأً.

وقالت سيسيليا وهي تسبقني:

- بابا، أقدّم أستاذي في الرسم.

فنهض أبو سيسيليا على مشقة من الأريكة التي كان جالساً فيها ليستمع إلى الراديو، ومدّ لي يده من غير أن يتكلم، وهو يومئ في الوقت نفسه إلى حلقه، كأنّما ليوضّح لي أنّه فاقد الصوت، بسبب مرضه. وتذكّرت الهمس الغريب في التنفّس الذي سبق لي أن سمعته في التلفون قبل ذلك بأيام، فأدركت أنّه إنّما كان هو الذي يجيبني، أو يجهد في إجابتي.

ونظرت إليه فيما هو يتداعى للسقوط على أريكته الجليدية القديمة، المسودّة والمتهرّئة، وينحني إلى أمام ليخفض صوت الراديو. ولا بدّ أنّه كان في السابق ما يسمّى عادة برجل جميل، وبذلك الجمال الذي هو مع ذلك مبتذل بعض الشيء، والمختصّ به بعض من لهم بنيات متينة. ولكن لم يكن باقياً من هذا الجمال شيء. فإنّ المرض كان قد عكّر ذلك الوجه، فنفخه هنا، وجوّفه هناك، وحمّره هنا، وصفّره هناك.

وفكّرت بأنّ الموت كان قد عشّش في هذا الشعر الأسود المنبسط

الذي لا حياة فيه والذي كان يبدو ملتصقاً بالجبين والصدغين بعرقٍ متّسخ، وفي ذلك اللون البنفسجي للشفتين ولا سيما في العينين مذعورتي التعبير. وقد كانت هاتان العينان تبدوان وكأنّهما تقولان أشياء كان الفم يظلّ صامتاً عنها، حتّى ولو لم يكن فاقد الصوت. حتّى ليظنّ المرء أنّ هناك بُكماً ليس مصدره المرض بقدر ما هو وهْنٌ معسّف، وهن شخصٍ موثقٍ ومكموم الفم ومتروك وحده، بلا دفاع، لخطر الموت.

وطلبت سيسيليا من أبيها أن يجلس، ودعتني كذلك أن آخذ مقعداً وأجالس أباها، لأنّه كان عليها أن تذهب إلى المطبخ، وكانت تتكلم بصوت مرتفع، مسمّية أباها كحاجة لا روح لها ويمكن التصرّف بها في يسر.

وقد جلست قبالة المريض، فلم أدرِ ماذا أقول، فجعلت أتحدّث حديث إطراء وثناء على موهبة سيسيليا الفتية. وكان الأب يستمع إليّ وهو يدير عينين مذعورتين، كما لو أنّي، بدلاً من أن أحدّثه عن ابنته، كنت أحدّثه عن أخطار عظيمة. وبين الفينة والفينة يتكلم، أو بالأحرى يحاول أن يتكلم بدوره، على نحو ما فعل على التلفون يوم أجابني، ولكنّ الأصوات التي كانت تخرج من فمه، مهمومةً أكثر منها ملفوظة كانت تظلّ بالنسبة لي غير مفهومة.

وفجأة، وبلا أدنى انزعاج، بتلك التربية الرديئة التي يظهر بها غالباً الأصحّاء إزاء المرضى، صرّحت بأنّه كان عليّ أن أذهب فأغسل يديّ. ونهضت وخرجت من غرفة الاستقبال.

وما دفعني للخروج، كان هو ذلك الفضول نفسه الذي جعلني أطلب من سيسيليا أن تقدّمني إلى ذويها. وحين أصبحت في الرواق، قصدت على غير تعيين أوّل بابٍ من الأبواب الأربعة المصطفّة وفتحته. ورأيت غرفة صغيرة فقيرة فقراً مثلجاً: كان النور، الواطئ

والبارد، يجيء من الباحة، عبر زجاج النافذة التي كانت بلا ستائر. سرير من الحديد الملمّع الأسود مع نبة شجرة الزيتون المقدّسة معلّقة بالقضبان، والغطاء الأحمر يعلو الفراش الدقيق، وكرسيان من القش الأصفر، من كراسي المطبخ، وخزانة صغيرة من الخشب الأبيض: هذا كلّه أثاث الغرفة. وقد تأكّدت على الفور أنّ هذه الغرفة شبه الفارغة كانت غرفة سيسيليا، وقد حزرت ذلك من الرائحة التي كانت تطفو في الهواء، تلك الرائحة النسوية الحازمة بعض الشيء والوحشية التي سبق لي أن شممتها في شعرها وعلى بشرتها.

وفتحت الخزانة لأكون أكثر يقيناً، فرأيت بالفعل، معلّقاً على أقواس خشبية، الملابس القليلة التي أعرفها والتي كانت تشكّل كلّ ثياب سيسيليا: تنّورة الراقصة الصغيرة التي كانت قد لبستها طوال الصيف حين تعرّفت عليها، وثوب من قطعتين من الصوف الرمادي كانت ترتديه في الأيام الباردة، ومعطف صغير أسود للمساء، وفستان أسود، من تلك الفساتين التي توصف بأنّها «السهرات العشاء». وعلى أحد الرفوف، كان ثمّة رزمة معلّقة بورق حريري أبيض: المحفظة التي أعطيتها لسيسيليا في اليوم الذي كان المفروض أن يكون يوم فراقنا.

وأغلقت الخزانة ونظرت في ما حولي، وأنا أحاول أن أحدّد لنفسي الشعور الذي كانت توحيه لي هذه الغرفة، وفهمت أخيراً: كانت غرفة عارية بائسة ذلك العري والبؤس الطبيعيين، اللذين يكادان يكونان حيوانيين، واللذين نلاحظهما في الصخور أو الثقوب التي تسكنها الحيوانات المتوحشة. وبالاختصار، إنّه عُريٌ أجدر بالجُحر منه ببيت بائس.

وخرجت على رؤوس أصابعي وفتحت الباب المجاور. وهناك كان الظلام كاملاً تقريباً، ولكنّي إذ لمست زوايا سرير كبير لشخصين

وشممت رائحة انغلاق تختلف عن رائحة غرفة سيسيليا، بما هي أثقل وأقلّ صحيّة، حدست بأنّها غرفة والديها. وأغلقت هذا الباب لأفتح الثالث.

وكانت تلك غرفة الحمام، وكانت أشبه برواق طويل ضيق منها بحجرة، وكان لها نافذة ذات مصراعين متقاربين تجاه الباب. وكان المغطس والمرحاض والمغسلة والطست مصطفّة كلّها على طول الجدار. كان المغطس ذا طراز قديم، متفسّخاً تفسّخات صدئة على المينا القديم المصفرّ، وكانت المغسلة تكشف عن شبكة من التشققات الدقيقة السوداء، وكان جوف المرحاض مغطّى بنوع من الزنجار الرمادي السميك، وأخيراً كشف لي نظري الذي كان يتنقل باشمئزاز بين هذه الآلات الوسخة، عن شيء رطب أسود وملمّع، كان على الطرف الداخلي للمرحاض، ولا شكّ في أنّه قاوم الماء غير الكافي الذي كانت ترسله آلة المياه القديمة. واقتربت من المغسلة وبدأت أغسل يدي. وفيما أنا أفعل ذلك، كنت أتذكّر الأسئلة التي كنت قد طرحتها على سيسيليا عن بيتهم، والأجوبة التي حصلت عليها، الأجوبة الموجزة والتجريدية، فتأكد لي افتراضي الأوّل: إنّ سيسيليا لم تعرف أن تقول لي شيئاً عن بيتهم، لأنّها في الواقع لم تكن قد رأته قط.

ثمّ فُتح الباب ودخلت سيسيليا.

- آه... أنت هنا؟

قالتها من غير أن تبدو مندهشة ألّا أكون في الصالون برفقة أبيها، كما أوصتني، ومرّت خلف ظهري، واتجهت توًّا إلى المرحاض فرفعت ثوبها بكلتا يديها وجلست تبوّل. وحين رأيتها جالسة، وساقاها منفرجتان ومطويّتان، وصدرها مشرئب ووجهها ملتفتٌ نحوي، وحين رأيت خصوصاً عينيها الرائعتين المعتمتين اللامعبرتين اللتين كانتا

تحدّقان بي في براءة شبيهة ببراءة الحيوانات التي تقضي حاجتها جاهلةً أنّ إنساناً يراقبها، عادت إلى ذهني مرّة أخرى فكرة الجُحر التي جاءتني وأنا أزور غرفتها.

وقلت لنفسي: نعم، كانت تلك الشقّة تلوي القلب إذا فكّر المرء بأنّها كانت مسكونة بالبشر، ولكنّها كانت تصبح مقبولة وطبيعية ابتداء من اللحظة التي يستطيع المرء فيها أن يتصوّرها مسكونة بحيوان صغير، متوحش وظريف، ثعلب أو سمّور أو فقم...

وفي هذه الأثناء، كانت سيسيليا قد فرغت من التبويل. ورأيتها تحمل فخذيها العاريتين من المرحاض إلى المغسلة، فتقرفص تغتسل فترة طويلة بيدٍ واحدة ثمّ نهضت فباعدت ما بين فخذيها وأمرّت بينهما منشفة. وقالت أخيراً وهي تخفض تنورتها:

- دعْ لي المكان لحظة، فيجب أن أمشّط شعري ثانية.

فابتعدتُ، وتناولت هي من على الطاولة فرشاة متهرّئة ومشطاً قذراً جدًّا كانت تنقصه عدّة أسنان، فأخذت تسرّح شعرها في قوّة. وقلت من غير تحديد:

- إنّ أباك مريض جدًّا، وأنا أخشى أن يكون الأطباء على حق.

- ماذا تقصد؟

- أن يموت عمّا قريب.

- نعم، أعرف ذلك.

- وماذا ستصنعون؟

- وماذا نصنع في أي شيء؟

- حين يموت.

- بأيّ معنى؟

- ممّ ستعيشون؟

فأجابت بسرعة وهي تمرّ على شفتيها إصبع حمرة:

- كما عشنا حتّى الآن.

- وكيف عشتم؟

- إنّ لنا حانوتاً... ومنه نعيش...

- حانوت؟ إنّك لم تقولي ذلك قط.

- وأنت لم تسألني في ذلك قط.

- وماذا يُباع في هذا الحانوت؟

- مظلات، محافظ، حقائب، حاجات جلدية...

- ومن يهتمّ بالحانوت؟

- أمّي وعمّتي.

- وهل يحقّق دخلاً كبيراً، هذا الحانوت؟

وكانت قد انتهت من صبغ شفتيها فأجابتني بطريقة تختم الحديث:

- لا، إنّ دخله قليل.

وأحطت قامتها بذراعَي والتصقتُ بها، ضاغطاً بطني على ظهرها، ورأيتها ترميني بنظرة سريعة، لم أفهم أكانت نظرة تفاهم أم اندهاش، ثمّ تناولت قلماً أسود وجعلت تروتش حاجبيها. وسألتها:

- ألا تفكرين بالموت قط؟

وكنت ملتصقاً بها تماماً، وبدأت تحرّك خاصرتيها، بقوّة، يميناً وشمالاً:

- لا، لا أفكّر فيه قط.

- وحتّى حين ترين أباك بهذا الوضع؟

- نعم.

- إنّ أي إنسان في مثل وضعك لا بدّ أن يفكّر فيه.

- إنّ صحتي جيدة، فلماذا ينبغي أن أفكّر بالموت؟

- ولكنّ هناك الآخرين أيضاً...

- هذا ما يُقال.

- كيف، ألست متأكدة من ذلك؟

- لا، لقد قلت هذا كما أقول شيئاً آخر.

- وأبوكِ، أتظنّين أنّه يفكّر بالموت؟

- هو، نعم.

- هل يخاف أن يموت؟

- جدًّا!

- إنّه إذن يعلم أنّه سيموت؟

- لا، لا يعلم ذلك.

- وأنتِ، ألا تفكّرين أبداً أنّه بسبيل أن يموت؟

- ما دام حيًّا، ولو كان مريضاً، فإنّي لا أفكّر بموته. أفكّر فقط بأنّه مريض.

وفجأة ابتعدت عنها وأنا أقول:

- أتعلمين أنّي اشتهيتكِ؟

- لقد لاحظت ذلك.

وفرغت من روتشة حاجبيها، فوضعت القلم على الطاولة ودفعتني إلى الباب وهي تقول لي:

- هيّا بنا الآن، فلا بدّ أنّ أمّي قد عادت.

وبالفعل كانت قد عادت، فإذ كنّا في الممر، أخذ صوت ثاقب غير متناسب، شبيه بصوت تلك الأجراس الصغيرة التي تدقّ عند انفتاح بعض الأبواب، يصيح:

- سيسيليا... سيسيليا...

واتّجهت سيسيليا باتجاه هذا الصوت، وتبعتها. وكان باب المطبخ مفتوحاً، فرأيت الأم بمعطفها وقبعتها واقفة أمام الفرن، وهي تُدير ملعقة في إناء. وكان للمطبخ المعتم المدخن شكل غريب مثلث،

وكان الفرن قائماً في الناحية الأكثر طولاً، تحت القفّة، وكانت زاوية المثلث متجهة نحو النافذة، ضيّقة ومرتفعة، وهي في الواقع نصف نافذة، ثمّ هي محجوبة حتّى العمى بغسيل منشور حتّى يجف. وكان المطبخ يبدو قذراً وفي فوضى كبيرة، وكان ذا بلاط مليء بالثقوب، وكان سطح الطاولة الرخامية مغطّى بالرزم والورق القديم، وعلى البالوعة، بالقرب من النافذة، كان يقوم ركامٌ وركامٌ من الصحون القذرة، المنضدّة بعضها فوق بعض بلا نظام.

وقالت أمّ سيسيليا من غير أن تلتفت:

- الصحون... يجب غسل الصحون.

فأجابت سيسيليا:

- سأغسل كلّ شيء هذا المساء، صحون اليوم وصحون الأمس.

فقالت الأم:

- صحون أوّل من أمس أيضاً، وقد غسلت هذا الصباح صحون طعام الفطور، أمّا صحون الغداء فيجب أن تغسليها أنت نفسك، لأنّ عليّ أن أذهب إلى الحانوت.

- ماما، أقدّم لك دينو.

- أوه! بروفسور، اعذرني، تشرّفنا... تشرّفنا... اعذرني، اعذرني... تشرّفنا.

وظلّ جرس هذا الصوت الأمومي يدحرج كلمتي «اعذرني» و«تشرّفنا» فيما كنت أصافح يد المرأة. ونظرت إليها: وكانت قصيرة ذات وجه دقيق رثّ؛ ومع ذلك فقد كان يبدو أنّ شباباً صاخباً كان قد انفجر فيه متأخّراً. وكانت العينان السوداوان البسيطتان بتجعّدات دقيقة تلتمعان بشيء جريء؛ وكان لونٌ فاقع، لا أدري إن كان طبيعياً أم اصطناعياً، ينعش الخدّين الطريّين؛ وكان الفم الكبير المصبوغ بالأحمر يفترّ عن بسمة لامعة. وقد لاحظت أنّها كانت تشبه سيسيليا،

ولا سيّما بطابع جبينها الطفولي الناتئ فوق عينين متباعدتين وبشكل الوجه المستدير.

وصاحت بصوتها الأبح:

- ولكنّي لم أكن أعرف أنّ البروفسور قد وصل. سيسيليا، رافقي البروفسور إلى الصالون، وسوف أهتمّ بالمطبخ.

وفي الممر قلت لسيسيليا:

- لقد قدّمتني لأبيك على أنّي أستاذ الرسم، ولأمّك على أنّي دينو. فهل تكونين قد نسيت اسم عائلتي؟

- فأجابت بشرود:

- قد لا تصدّق ذلك، ولكنّي في الواقع لا أعرفه بعد. لقد عرفتك كدينو، ولم أفكّر بعد ذلك قط أن أسألك عن اسم عائلتك. وبالمناسبة، ما اسم عائلتك؟

فقلت:

- لا أهميةّ! فما دمت لا تعرفينه بعد، فالأفضل أن تستمري هكذا. سأقوله في مناسبة أخرى.

والحق أنّي شعرت فجأة بأنّي كنت غير قابلٍ للتسمية، وربّما لأنّ سيسيليا بالذات كانت تبدو وكأنّها تفضّلني بلا اسم.

- كما تريد...

ودخلنا معاً غرفة الاستقبال، وسألت سيسيليا:

- إنّ أمّك تشبهك كثيراً، فكيف هو طبعها؟

- ماذا تقصد؟

- كيف هي، خبيثة أم طيبة، هادئة أم عصبية، كريمة أم بخيلة؟

- ولكنّي لا أستطيع أن أقول لك... فأنا لم أفكّر بالموضوع قط. إنّ لها طبعاً عادياً. إنّها بالنسبة لي أمّي، وهذا يكفيني.

فسألتها وأنا أومئ إلى أبيها الجالس في أريكته، قرب الراديو:

- وهو؟ كيف هو طبعه، في نظرك؟

فلم تجبني بشيء، تلك المرّة، واكتفت بهزّ كتفيها، كما لو أنّي كنت أوجّه لها سؤالاً محروماً من المعنى. وأخذني غيظ مفاجئ فقبضت على ذراعيها وسألتها في أذنها:

- ما هذا الثقب الأسود، فوق، في السقف؟

فرفعت عينيها ونظرت إلى الثقب كما لو أنّها كانت تراه للمرّة الأولى:

- إنّه ثقب، وهو موجود هناك منذ حين.

- آه! إنّك إذن ترين هذا الثقب؟

- ولماذا تريدني ألّا أراه؟

- إذا كان الأمر كذلك، فكيف يحدث أنّك لا ترين طبع أبيك ولا طبع أمّك؟

- إنّ الثقب شيء يُرى. أمّا الطبع، فلا يُرى. إنّ أبي وأمّي شخصان ككثير من الأشخاص. هذا كلّ ما في الأمر.

وكنّا قد وصلنا إلى مقربة من الأب الذي كان يصغي، جامداً، إلى الراديو. وجلست على كرسي واطئ تجاهه، وقلت له وأنا أرفع صوتي:

- كيف حالك اليوم؟

فأخذت انتفاضة في أريكته ونظر إليّ نظرة مذعورة، ثمّ قال شيئاً لم أفهمه. وشرحت لي سيسيليا التي كان يبدو أنّها تفهم فهماً ممتازاً الهمسات الأبوية:

- يقول إنّه لا حاجة للصراخ، فليس هو بالأصمّ.

وكانت على حقّ، فلماذا تراني قد فكّرت بأنّه ما دام نصف أبكم، فلا بدّ من أن يكون كذلك أصمّ؟ وقلت:

- اعذرني، كنت أسألك كيف حالك؟

فأشار إلى النوافذ. وقال شيئاً ترجمته سيسيليا على هذا النحو:

- إنّ هناك ريح سموم، وفي أيام السموم، لا يشعر بأنّه في حالة جيّدة.

وسألت:

- ولماذا لا تقصد حانوتك؟ ألا تظنّ أنّ ذلك يسلّيك؟

فرأيته يقوم بحركة نفي متواضع، ثمّ يجيب بطريقته وهو يشير إلى حلقه ووجهه. وشرحت سيسيليا:

- يقول إنّه لا يستطيع أن يذهب إليه، لأنّ الزبائن إذا رأوه متغيّراً إلى هذا الحدّ، فسوف يتأثّرون، وسيؤثّر ذلك على البيع. ويقول إنّه سيعود إليه فور أن تتحسّن صحته.

- وهل تُعنى بعلاج نفسك؟

وتكلّم من جديد، ومن جديد ترجمت ابنته:

- إنّه في هذه الفترة يعالج نفسه بأشعة .X وهو يأمل أن يشفى أثناء العام.

ونظرت هذه المرّة إلى سيسيليا لأرى الأثر الذي كانت تحدثه لديها إشارات أبيها المؤثرة، وكالعادة لم يكن شيء يشفّ على وجهها المستدير، أو في عينيها اللامعبرتين. وفكّرت بأنّ سيسيليا لم تكن فقط تدرك أنّ أباها كان بسبيل أن يموت، ولكنّها، على عكس ما أكدته لي، لم تكن تلاحظ أنّه كان مريضاً، أو بالأحرى بلى، كانت تعي ذلك كما تعي الثقب الأسود الذي كان فاغراً في السقف: كان الثقب ثقباً، وكان مرض أبيها مرضاً.

ودقّ خلفنا جرس صوت أمّها:

- لقد جهز الطعام، فالرجاء أن تتفضلوا إلى المائدة.

فنهضنا لنجلس إلى الطعام، واعتذرت الأم عن عدم وجود خادمة، وحملت هي الإناء تطوف بنا. وحين نظرت إلى كبّة المعكرونة

السمينة الحمراء في إناء البورسلين، فكّرت بأنّ الطعام نفسه كان يشبه البيت، أقصد أنّه كان فيه شيء قديمٌ ومهمل. وهكذا أكلت بنفور هذه المعجنات الرديئة وأنا أستعمل شوكة كانت ذراعها المكوّنة من العظم المصفرّ مترجرجة، وكنت أحسد مضيفيّ الثلاثة ولا سيّما سيسيليا، الذين كانوا يلتهمون المعكرونة في شهيّة.

وصبّت لي أمّ سيسيليا خمراً حكمت من الجرعة الأولى أنّه كان محمّضاً، وحين طلبت منها ماءً بارداً، ملأت قدحي الآخر ماءً معدنياً كان هو أيضاً قديماً، أي حارًّا ولا يفور بعد. على أنّ قلّة اللذة في هذا الطعام، قد تجاوزها انعدام اللذة إطلاقاً في الحديث الذي كانت الأم، وهي وحدها التي تكلّمت، تصرّ على أن تعقده معي.

وسرعان ما بلغت منطقياً، إلى أنّ الحجة الوحيدة التي كنّا نشترك فيها معاً، بصرف النظر عن الكلام العادي حول الطقس والأفلام وما إلى ذلك، إنّما هي باليستياري إذ إنّه كان سَلَفي في إعطاء دروس الرسم لسيسيليا.

ولهذا، فبينما كنت، بعد المعكرونة الرديئة، أعلك قطعة من اللحم قاسية ومحترقة، مزدانة بخضار مقلية بزيت من جنس رديء جدًّا، هاجمتني بصوتها الرنّان:

- بروفسور، لقد عرفت البروفسور باليستياري، أليس كذلك؟

وقبل أن أجيب، نظرت إلى سيسيليا، فنظرت إليّ بدورها، واستولى عليّ شعور بأنّها لم تكن تراني لفرط ما كانت نظرتها مجرّدة وغير مطمئنة، وأجبت بجفاء:

- نعم، كنت أعرفه بعض المعرفة.

- إنّه رجل طيب ودود وذكي. إنّه فنّان! وأنت لا تستطيع أن تتخيّل الأثر الذي خلفه موته في نفسي.

فقلت بلا تفكير:

- أي نعم! وهو مع ذلك لم يكن مسنًّا جدًّا!

- إنّه لم يكن يتجاوز الخامسة والستين، ولكن لم يكن يبدو عليه أنّه يتجاوز الخمسين. وكان قد مضى عامان فقط على تعرّفنا عليه، ولن كان يخيّل إليّ أنّي كنت أعرفه منذ الأزل. ولقد كان عضواً من أسرتنا، إذا صحّ التعبير وكم كان متعلّقاً بسيسيليا! كان يقول إنّه كان يعتبرها قليلاً مثل ابنته.

فصحّحت من غير أن أبتسم:

- كان عليه أن يقول: مثل حفيدته!

فوافقت الأم آلياً:

- طبعاً، مثل حفيدته... تصوّر أنّه لم يكن يريد أن يأخذ أجرة دروسه. وكان يقول «إنّ الفنّ لا يؤجر» وكم هذا صحيح!

فقلت في ملاحظة شاقّة الخبث:

- ربّما كان قصدك أنّ عليّ أنا أيضاً، أن أعطي دروساً مجانية لسيسيليا؟

- لا، وإنّما قصدت أن أقول فقط إنّ باليستياري كان يحبّ سيسيليا. أمّا أنت، فلك شأن آخر. أما باليستياري فالحق أنّه كان يموت حبًّا بسيسيليا.

وكان على طرف لساني: «بل هو قد مات فعلاً بذلك» ولكنّي سألت على العكس:

- هل كنت ترينه كثيراً؟

- كثيراً؟ كلّ يوم تقريباً كان من أفراد البيت. وكان صحنه موضوعاً على المائدة دائماً. ولكن لا يذهب بك الظنّ أنّه كان عديم التحفّظ، بالعكس!

- ماذا تقصدين؟

- الواقع أنّه كان يسعى دائماً إلى التعويض علينا. كان يشارك في

النفقات ويشتري دائماً بعض الحاجات، ثمّ إنّه كان يرسل لنا الحلويات والخمر والزهور... وكان يقول: ليس لي من أسرة، فأنتم بعد الآن أسرتي... فاعتبروني قليلاً قريباً لكم... المسكين! كان منفصلاً عن زوجته ويعيش وحده!

وإذ ذاك قالت سيسيليا:

- بروفسور، أعطني صحنك، وأنت يا ماما أعطيني صحنك، وأنت يا بابا.

ووضعت الصحون الأربعة المصفحة، والصحون العميقة بعضها فوق بعض، وخرجت من القاعة. وما إن اختفت حتّى بدا على أبيها أنّه يريد أن يوجّه إليّ الكلام، وكان قد اكتفى بأن ينظر إلينا بعينيه الخائفتين المبتهلتين، فيما كانت زوجته تلقي رثاء التأبين لباليستياري. فانحنيت قليلاً، وفتح المريض فمه وقال بقوّة شيئاً لم أفهمه.

ونهضت الأم فاتجهت إلى «البوفيه» من غير أن تقول كلمة، فتناولت دفتراً صغيراً وقلماً وضعتهما على الطاولة، إلى جانب زوجها، وهي تقول:

- اكتب ما تريده، فإنّ البروفسور لا يفهمك.

ولكن الأب كنس بحركة عنيفة الدفتر والقلم، ملقياً بهما إلى الأرض.

وقالت الأم:

- نحن نفهمه، أمّا الأجانب فلا يفهمونه تقريباً أبداً. وكم مرّة طلبنا منه أن يكتب، فرفض. وهو يقول إنّه ليس أبكم، وهو ليس كذلك، ولكن ما دام الآخرون لا يفهمونه، فالأفضل أن يكتب، ألا تعتقد ذلك؟

ورمى الأب زوجته بنظرة حانقة، ثمّ عاد يتحدّث. وشرحت لي الأم، بصوت حزين مطيع:

- يقول إنّ باليستياري لم يكن يحوز حبّه.

وهزّت رأسها في عاطفة آسفة حقًّا ثمّ أضافت:

- إنّ المرء ليتساءل: ما الذي فعله له باليستياري هذا المسكين؟

وقال الزوج من جديد شيئاً ما، في قوّة. وترجمت الأم:

- يقول إنّ باليستياري كان يأخذ هنا مظاهر رب البيت.

وكان الزوج ينظر إليها الآن بعينين قلقتين حقًّا. ثمّ بذل جهداً يائساً، كأبكم يخفق في إفهام عبارته، ففتح فمه على سعته ونفخ في وجهي بعض أصوات غير مفهومة. ورأيت سيسيليا، وكانت قد عادت، ترفع عينيها نحوي وتنظر إليّ. وقالت الأم:

- إنّ زوجي يقول أشياء لا معنى لها. فهل فهمت ما قاله؟

- لا.

وشعرت بأنّ المرأة كانت متردّدة، ولكنّها انتهت إلى القول:

- يقول إنّ باليستياري كان يغازلني.

ولفظت هذه الكلمات بمظهر مهتمّ، وقد حدّدت عينيها لا بي، ولكن بزوجها، في نظرة كثيفة كان يمتزج فيها الحزن والرجاء والعتاب. والتفتّ نحو المريض ففهمت أنّ نظرة زوجته قد بلغت تأثيرها، على نحوٍ ما. فقد كان يبدو متطامناً مذلاً ككلب تلقّى ركلةً قوية. وقالت الأم بلهجة تحمل بعض العزاء:

- كان باليستياري يحبّ أن يقدّم التهاني، وأن يمازحني قليلاً، وبالإجمال أن يكون لطيفاً، ولكن هذا كلّ شيء. هذا كلّ شيء حقًّا...

واستطردت وهي تتكلم عن زوجها كما لو أنّه كان حاضراً أو أنّه لم يكن إلّا حاجة بلا روح، كما فعلت سيسيليا قبل ذلك بدقائق:

- لا، يا بروفسور... إنّ زوجي طيّب جدًّا، طيّب جدًّا، ولكن رأسه يشتغل، ويشتغل ويشتغل... ألا ترى عينيه؟ إنّها الأفكار التي

يجترّها طوال النهار في رأسه. إنّ رأسه يشتغل ويشتغل ويشتغل، ثمّ تخرج منه حماقات!

وتطلّعت إلى الزوج، فإذا هو الآن صامت، مستاء، مُرهق، يُدير عينين مذعورتين ويعجن بأطراف أصابعه بعض فتات الخبز. وحسبتني دفعةً واحدة، كأنّما ذلك برق، أجد تفسيراً معقولاً لغضبه الذي انحسر بسرعة: لقد أحسّ دونما ريب بأنّ شيئاً ما كان يحدث بين باليستياري وسيسيليا، أو أنّ باليستياري، على الأقل، كان قد غذّى نحو سيسيليا عاطفة لم يكن فيها أثر أبويّ، بعكس ما كان يريد أن يحمل على الاعتقاد. وتلك كانت التهمة التي قذفها المريض في وجه زوجته التي سارعت فأخذت محلّ ابنتها، بأن شرحت أنّ زوجها كان يغار، ويتصوّر أنّ باليستياري كان يغازلها هي.

يبقى أن أعرف لماذا أرادت الأم أن تخفي عنّي المعنى الحقيقي لكلمات زوجها. أتراها كانت لا تريد أن تكرّر تهمة كانت تراها مزيّفة وغير محتشمة؟ أم تراها قد استفادت من كرم باليستياري، حتّى من غير أن تلاحظ أنّ هذا الرجل وسيسيليا كانا عاشقين؟ أمّ تراها كانت على علم بالعلاقات القائمة بين ابنتها وبين الرسّام العجوز، وكانت تقبل الهدايا بكل رضى؟ إنّ هذه الاحتمالات الثلاثة، وقد لاحظت ذلك بسرعة، كانت هي أيضاً معقولة، بالرغم من اختلافها، واختلاف خطورتها.

وفيما كنت أقلّب هذه الأفكار في رأسي، كنت أنظر إلى سيسيليا فأفهم مرّة أخرى أنّ كلّ ما كنت أكتشفه خلال زيارتي، لم يكن في الحق يعنيها قط. ففي أسوأ الحالات، أي إذا كانت الأم قد علمت بعلاقة ابنتها، وبالاتفاق معها، أفادت منها فوائد مادية، فإنّ ذلك لن يمكنني من التأكد أنّي علمت شيئاً نهائياً عن سيسيليا. ذلك أنّ سيسيليا

كانت تعيش في أسرتها كأنّها مروبصة ووسط أثاث بيتها نفسه، أي فيما هي تبعده عن وعيها الخاص.

وانتهى الغداء الخفيف بطريقة غير منتظرة. فبعد أن أكل كلٌ منّا تفاحة صغيرة حمراء وخضراء، نهض الأب بلا إنذار وجرّ ساقيه المرتبكتين في بنطلونه الفضفاض الواسع كما لو أنّه كان فارغاً، وخرج من الصالون، ليظهر بعد لحظة مرتدياً معطفاً مفرط الاتساع، ووجهه نصف مختبئ بأطراف قبعة لا تبدو أنّها كانت قبعته.

وحيّاني من بعيد وهو يلوّح بيده، ثمّ أضاف شيئاً وهو يشير إلى النوافذ التي كان تبدو الآن مضاءةً بأمل شمسي ضعيف. وشرحت الأم وهي ترفع صوتها:

- يقول إنّه ذاهب للتنزّه، ويجب أن أذهب معه. وسوف نقوم بنزهة صغيرة ثمّ أصحبه إلى السينما حيث أتركه، لأنّ الحانوت يفتح في الساعة الرابعة... آه إنّه لعذاب شديد، يا بروفسور، أن يبلغ إنسانٌ هذا الوضع!

وأضافت أشياء أخرى من النوع نفسه عن زوجها الذي كان في هذه الأثناء ينتظرها جامداً على العتبة، في داخل الصالون، شبيهاً بفزّاعة عصافير؛ ثمّ مدّت لي يدها وأوصت سيسيليا بأن تحكم إغلاق الباب بعد خروجهما ومضت. وخرج زوجها معها. وبعد لحظة، سمعت صوت الأم التي كانت تقول كلاماً لم أفهمه، ثمّ انغلق الباب وساد السكون.

وظللنا أنا وسيسيليا حيث كنّا، متباعدين، أمام المائدة الغارقة في الفوضى.

وقلت بعد لحظة:

- وها هم ذووك الذين تقولين إنّهم كانوا يغضبون لأنّنا كنّا نلتقي كلّ يوم؟

فرأيتها تنهض وتبدأ في إخلاء المائدة. وكانت تلك طريقتها التي أعرفها للإجابة على الأسئلة المربكة.

وألححت:

- كيف تريدين أن أصدّق أنّ أبوين كأبويك قد وجّها إليك تأنيباً؟

- لماذا؟ وأيّ شيء خاص يتميّز به أبي وأمي؟

- لا شيء خاصاً... بل شيء مشترك جدًّا!

- ماذا تقصد؟

- إنّ هذين الأبوين لا يبدوان قاسيين أكثر ممّا ينبغي!

- ومع ذلك، فصحيح أنّهما غاضبان لأنّنا نلتقي أكثر ممّا ينبغي.

- ربّما أبوك، أمّا أمّك فلا.

- ولماذا أمي لا؟

- لأنّ أمّك كانت على علم بصدد باليستياري. وإذا كانت لم تغضب بشأنه، فلماذا يجب أن تغضب بشأني؟

- لقد سبق أن قلت لك إنّها لا تعرف شيئاً.

- إذا كانت لا تعرف شيئاً فلماذا لم تردّد اليوم تماماً الكلمات التي قالها أبوك؟

- متى حدث ذلك؟

- أتظنّين أنّي لم ألاحظ هذا؟ الواقع أنّ أباك قد قال إنّه لم يكن يحبّ باليستياري لأنّه كان يغازلك؛ وقد أرادت أمّك أن تحملني على الاعتقاد بعكس ذلك، أي أنّ باليستياري كان يغازلها هي. أليس هذا صحيحاً؟

فتردّدت ثمّ أقرّت على مضض:

- بلى.

- أسألك إذن من جديد: إذا كانت أمّك لا تعرف شيئاً من

علاقتك بباليستياري، فأيّة حاجة بها لأنّ تريدني أن أعتقد أن باليستياري كان يغازلها هي:

فأجابت ببساطة:

- لأنّ ذلك صحيح.

- ما هو الصحيح؟

- أنا التي قلت لباليستياري أن يغازل أمّي، حتّى لا تلاحظ أنّه كان مغرماً بي.

- هذا بارعٌ جدًّا ودقيق جدًّا. ولكن هل كانت أمّك تصدّق مغازلة باليستياري لها؟

- جدًّا!

- أمّا أبوك، فلم يكن يصدّق ذلك؟

- نعم، لم يكن يصدّقه.

- لماذا؟

- لأنّه رآنا ذات يوم، أنا وباليستياري...

- وماذا رأى؟

- رأى أنّ باليستياري كان يقبّلني.

- ولم يخبر أمّك بذلك؟

- بلى، أخبرها، ولكن أمّي لم تصدّقه، لأنّ باليستياري كان في الوقت نفسه يغازلها، ولهذا فقد قالت لأبي إنه كان يخترع ذلك لأنّه كان يغار.

- وبعد ذلك، هل استمرّ باليستياري في زيارتكم؟

- نعم، استمرّ، ولكنّنا أصبحنا أكثر حذراً وتنبّهاً، حتّى إنّ أبي اقتنع آخر الأمر بأنّ نظره قد خدعه. على أنّ كرهه لباليستياري لم يخفّ. وكان يخرج حين يراه قادماً.

وكانت المائدة قد فرغت من محتوياتها، وكانت سيسيليا تعيد

الكراسي إلى أمكنتها. وإذ كانت تمرّ بقربي، جذبتها من ذراعها وأجبرتها على الجلوس على ركبتي، وهي متردّدة شاردة. وسألتها:

- إذن، بعد قليل، سنقصد المرسم؟

فرأيتها تنظر إلى ساعة يدها، ثمّ أجابتني:

- إنّني أنتظر مخابرة تلفونية.

- يعني؟

- وفق هذه المخابرة، سأذهب إلى المرسم أو لا.

- ومن الذي سيتلفن لك؟

فتأملتني تأمّلاً غير قابل للتعريف، ثمّ أجابتني:

- إنّه منتج سينمائي يريد أن يحدّد لي موعداً للقاء. فإذا كان هذا الموعد لهذه الساعة بالذات، فإنّي أخشى ألّا نستطيع اليوم أن نلتقي...

وعلى الفور كنت متأكداً من أنّها تكذب. ودليل كذبها كان لهجة صوتها المفرطة الطبعيّة، تلك اللهجة التي لا يمكن أن يتكلم بها إنسان إلّا إذا كان يكذب. وقلت:

- لماذا لا تقولين الحقيقة؟ أيكون الممثل هو الذي سيتلفن لك؟

- أي ممثل؟

- لوسياني.

فقالت بطريقة لم أكن أنتظرها:

- لقد رأيته أمس.

وفكّرت بأنّها تقذفني بحقيقةٍ عمرُها أربع وعشرون ساعة لتخفي عنّي كذبةً عمرُها دقيقة واحدة:

- ولقد قصدنا معاً أحد المنتجين؛ وليس من اليسير أن أراه كلّ يوم.

- أمس أيضاً، قصدت منتجاً؟

- إنّه هو نفسه. وقد قدّمني إليه لوسياني. ولم يكن المنتج يستطيع أن يستقبلني فأبلغني أنّه سيتلفن لي اليوم.

ولاحظت كم كان ذلك معقولاً، وربّما كان كلّ شيء صحيحاً، في تفاصيله على الأقل، لأنّي كنت أعرف أنّ سيسيليا، حين كانت تجد نفسها مضطرة للكذب، فإنّها كانت تكذب وهي تبني بناء كذبتها بمواد الحقيقة. وألححت:

- كفى! إنّ لوسياني هو الذي سيتلفن لك. فماذا يكلّفك الاعتراف بذلك؟

- إنّه لا يكلفني شيئاً ولكنّه غير صحيح.

- إذا كان ذلك غير صحيح، فستتركينني أذهب إلى التلفون، لأجيب بدلاً منك؟

- افعل ذلك، إذا كان يروق لك.

وجعلني تنازلها هذا أفكّر بأنّه ربّما كان بينها وبين لوسياني اتفاق، كما يحدث غالباً بين العُشاق: فإذا كانت هي التي تجيب، فإنّ لوسياني سيظهر على حقيقته؛ أمّا إذا كان ثمّة شخص آخر على التلفون، فسيقول إنّه كان المنتج.

وقلت بمرارة:

- لا، إنّني لا أريد أن ألتمس البرهان. وإنّما أودّ أن تفهمي شيئاً، شيئاً واحداً.

- وما هو؟

- هو أنّي لا أريد أن تحبّيني، أريد أن تقولي لي الحقيقة. إنّي أفضل أن تقولي لي إنّك سترين اليوم لوسياني، إذا كان صحيحاً أنّك سترينه، على أن تقولي لي إنّك لن تريه، لإرضائي.

وتبادلنا النظرات. ثمّ داعبتْ خدّي بحركة رقيقة تقريباً، وقالت:

- حقيقتي هي أنّني اليوم لن أرى لوسياني. فهل تفضّل أن أقول حقيقتك، أي أنّني سأراه اليوم؟

وهكذا كان سيسيليا توحي، من غير أن تقصد، بأنّ الحقيقة والكذب لم يكونا في نظرها إلّا شيئاً واحداً، وأنّه ليس ثمّة، في آخر المطاف، لا حقيقة ولا كذب. وفجأة، رنّ في الممرّ جرس التلفون، فنهضت سيسيليا عن ركبتي وهي تصرخ: «التلفون!» وغادرت القاعة وهي تركض. فتبعتها.

كان جهاز التلفون في نهاية الممر، على طاولة صغيرة تقوم في أظلم زاوية. ورأيت سيسيليا ترفع السمّاعة إلى أذنها وتقول بسرعة: «مرحبا» فاقتربتُ فإذا هي تدير إليّ ظهرها، كما لو أنّها أرادت أن تخفي وتحمي السمّاعة الأبنوسية السوداء التي كانت تتكلّم فيها وتسمع الكلام. ثمّ استمرّت المحادثة؛ ولكنّي لاحظت أنّ سيسيليا كانت تجيب بكلمات موجزة ذات مقطع واحد أو بكلمات أشدّ خلواً من المعنى من الكلمات التي كانت تعبّر بها عادةً عن أفكارها. وتأكّدت فجأة من أنّ الممثل كان على الطرف الآخر من الخطّ، وأنّه كان يدبّر موعداً مع سيسيليا، وأنّ سيسيليا كانت تخونني معه. وفي الوقت نفسه لاحظت أنّي كنت أشعر برغبة عنيفة بها، هي التي كانت تكذب عليّ، وبالتالي تفلت منّي، وتصبح بذلك حقيقية وجذّابة؛ بحيث إنّني لو أخذتها هناك، في الممر، بينما هي تتحدث إلى عشيقها، كان بإمكاني أن أمتلكها في اللحظة نفسها التي كانت، بواسطة التلفون، تستعصي فيها على الامتلاك.

وكنت ملتصقاً بها، كما فعلت في غرفة الحمام؛ وعلى الفور، لدى قيامها بحركة في فخذيها بإزاء بطني، حسبتني أفهم أنّها لن تعارض فقط اعتناقاً كهذا غريباً وغير مناسب، بل إنّها ستشجعه

باستسلام مزيّف، كأنّما لتعوّض عليّ من استسلام حقيقي تقوم به من تلقاء نفسها لذلك الذي يتلفن لها.

وفي سورة غضبي وشهوتي، كنت قد بدأت أشدّها إليّ، حين تذكّرت أنّ باليستياري سبق له أن أخذها في المطبخ، بالطريقة نفسها، وعلى الأرجح، بدافع الشعور نفسه. وسرعان ما ابتعدت؛ وشعرت سيسيليا بالأمر فرمتني من فوق كتفها بنظرة متسائلة؛ ثمّ مدّت يدها الحرّة فيما وراء ظهرها لتشدّ بها على يدي، بينما مضت في التحدّث على التلفون. وتركتها تفعل، واستندت إلى الجدار، خلفها، ووجهي مائل على صدري، وذهني شارد.

وقالت سيسيليا أخيراً:

- إذن إلى اللقاء عمّا قليل.

ثمّ وضعت السمّاعة وظلّت لحظة حالمة، ويدها في يدي؛ وحين التفتت أخيراً قالت:

- آسفة، إنّني اليوم لا أستطيع أن أجيء إلى مرسمك. فإنّ المنتج ينتظرني بعد نصف ساعة.

- حسناً، إنّني أتركك على الفور.

- انتظر، تعال الآن معي.

وكانت تتقدّمني في الممرّ متجهة نحو غرفتها؛ ودخلت قبلي، وما إن دخلت حتّى أغلقت الباب بعناية:

- بالانتظار، هل تريد أن نقوم بفعل الحب هنا؟ ولكن يجب أن نقوم به على الفور، لأنّ الوقت الذي أملكه قصير حقًّا.

وتجاه هذا الاقتراح اللطيف الوقح، شعرت من جديد بتلك الرغبة التي لا يبدو أنّها قد أشبعت قط، لأنّني لم أكن أشتهي جسدها المتهيئ دائماً والوديع، بل كنت أشتهيها كلّها. على أنّي قلت:

- لا ، لا نتحدّث بهذا، فأنا لا أحبّ الأمور التي تُعمل على عجل.

- ولكنّنا لن نعمله على عجل. غير أنّ عليّ بعد ذلك مباشرة أن أذهب.

- كلا ، لست كباليستياري، وأنا لست حريصاً على أن أقوم بفعل الحب في بيتك.

- ما الذي جاء بباليستياري؟

- بمناسبة باليستياري، يجب أن تقولي لي شيئاً...

- ماذا؟

- تلك المرّة التي قمتما فيها بفعل الحب في المطبخ، ألم يسبق ذلك نقاش أو خصام أو خلاف بينكما؟

- كيف تريد أن أتذكّر ذلك؟ لقد انقضى على ذلك وقت طويل جدًّا!

- حاولي أن تتذكّري.

- حسناً، نعم، لا بدّ أن يكون قد وقع نقاش ما. كان باليستياري مضجراً جدًّا، إذ كان يريد أن يعلم كلّ شيء.

- كلّ شيء؟

- نعم، كلّ شيء: منْ كنت أرى، وإلى أين كنت أذهب، وماذا كنت أفعل.

- وفي ذلك اليوم، حدث بينكما نقاشٌ من هذا النوع؟

- أظنّ أن نعم.

- وكيف انتهى ذلك؟

- كالعادة.

- يعني؟

- يعني أنّني إذ لم أجبه في لحظة من اللحظات، أراد أن يقوم بفعل الحب.

فلم أتمالك أن صحّت:

- مثلي تماماً؟

- كلا، بل أنت على العكس، فأنت لا تريد أن تقوم بفعل الحب. هيّا، هيّا، لماذا لا نقوم بفعل الحب؟

وكانت تنظر إليّ بإغراء، كما لو أنّها شعرت بديونٍ نحوي وأرادت أن تسدّدها بأي ثمن، كي تكفّ عن التفكير بالأمر نهائياً. وقد وددت أن أجيب: «لا أريد أن أقوم بفعل الحب، لأنّني لا أستطيع أن أفعل الأشياء نفسها التي كان يفعلها باليستياري...» ولكنّني قلت عكس ذلك وأنا قبلها في عنقها:

- سنقوم بفعله غداً في المرسم، في هدوء.

فرأيتها تهزّ رأسها علامة خيبة خفيفة، ثمّ تقصد الخزانة فتفتحها وتخرج منها المحفظة فتخلّيها من ورقتها الحريرية، وتقول لي وهي تبتسم:

- أترى، إنّني آخذ محفظتك!

وخرجنا من القاعة، ثمّ من الشقّة؛ وكانت سيسيليا تهبط أمامي وأنا أتبعها مفكّراً. وكنت أقول لنفسي إنّني تحاشيت، ولو بجهد يتجاوز قدرة البشرة، أن آخذها في الممرّ، بالرغم من رغبتي العنيفة جدًّا؛ وإذن فقد تحاشيت، هذه المرّة على الأقل، أن أفعل مرّة أخرى الشيء الذي سبق لبالستياري أن فعله. ولكن ذلك لم يكن إلّا فصلاً واحداً من فصول عاطفة مهووسة كانت في نموّها العام تمثيل أكثر فأكثر لأن تشبه العاطفة التي كان الرسّام العجوز يغذّيها نحو سيسيليا.

وبالإجمال، كان باستطاعتي، بفضل وعي كبير أن أمتنع عن القيام بما يشبه أعمال باليستياري في فرصٍ خاصّة؛ ولكنّي لم أكن أستطيع، على ما يخيّل إليّ، أن أتوقف على الدرب الذي سلكه قبلي حتّى نهايته.

وإذ وصلنا إلى قرب المخرج، قلت لسيسيليا فجأة:

- إذن، إلى اللقاء.

فبدا أنّ صوتي وكلماتي قد أدهشتها:

- ولكن كيف، ألا ترافقني؟

- ولكن إلى أين؟

- لقد سبق أن قلت لك: إلى ذلك المنتج.

- حسناً، هيّا بنا.

وطول الطريق، ظللت أبكم. وكان أكثر ما يغيظني، لا كون سيسيليا قد طلبت منّي أن أصحبها إلى موعدٍ مع عشيقها، وإنّما كونها طلبت ذلك بلا خبث ولا فظاظة، وبشرود، وربّما لأنّه كان يُسئمها بكلّ بساطة أن تستقل وحدها، كالعادة، سيارة أو أوتوبيس ملأى، بينما كنت أنا هنا، على أتمّ الاستعداد، بسيارتي. وقد لاحظت أنّي كنت أتألم من عدم الحساسية هذه التي كان متحلّلة وطفلية أكثر ممّا كنت سأتألم من أيّ فجور ودعارة.

وأوقفت السيارة أمام البناية السينمائية، ورأيت سيسيليا تختفي في ظل المدخل المسقوف بخطوتها المتباطئة التي تهتز معها خاصرتها. بالطبع، كانت على موعد مع الممثل؛ ولكن إمّا أنّ الممثل كان ينتظرها في المكتب، أو أنّ سيسيليا ستقصد منزله بعد أن تكون قد تحدّثت مع منتج الأفلام. وفي كلتا الحالتين، سيكون يسيراً عليّ أن أكتشف الحقيقة، إمّا بأنّ ألحق بسيسيليا على الفور، وإمّا بأن أنتظرها عند الخروج. ولكنّي عدلت عن ذلك. لقد كنت ما أزال عند تلك النقطة من الغيرة التي تمنعني عندها بقية من شعور الكرامة أن أتجسّس على الشخص الذي يثير الغيرة. ومع ذلك، فبينما كنت أبتعد، أدركت أنّي لم أكن أفعل غير أن أؤخّر هذه المراقبة. وفكّرت بأنّي، في المرّة القادمة، لن أستطيع مقاومة الظروف التي كانت بالفعل توحي إليّ بل تفرض عليّ أن أترصّد سيسيليا.

الفصل السابع

لعلّ ما سوف أرويه يعطي فكرةً عن أزمة غيرةٍ مألوفة بما فيه الكفاية؛ وبالفعل، لو أنّ مشاهداً قليل التبصّر راقب مسلكي خلال هذه الأيام، لوضح له أنّه مسلك الغيور الكامل. ولكن الأمر لم يكن كذلك. فإنّ الغيور يعاني من إحساسٍ متطرف بالملكية، فيتّهم الآخرين من غير انقطاع بأنّهم يريدون الاستيلاء على امرأته هو، ويوحي له هذا الشك الطاغي بتخيلات وأوهام خارقة، ويمكن أن يدفعه حتّى إلى الجريمة.

أمّا أنا، فقد كنت على العكس أعاني من أنّي كنت أحبّ سيسيليا (لأنّ القضية أصبحت في آخر المطاف قضية حب)؛ وكنت أرمي من مراقبتي لها أن أتأكّد من خيانتها، لا من أجل أن أعاقبها عليها، وأن أمنعها بكلّ بساطة من المضيّ في خيانتي، وإنّما من أجل أن أتحرّر منها ومن حبّي. وبالإجمال، فإنّ الغيور يميل، حتّى بالرغم منه، إلى تعزيز عبوديته؛ أمّا أنا، فقد كنت أريد بالعكس، أن أتخلّص من هذه العبودية بالذات، ولم أكن أرى، لبلوغ هذا الهدف، إلّا أن أهدم استقلال سيسيليا الذاتي وسرّيتها، وأحيلها بمعرفةٍ أدقّ لخيانتها، إلى شيء معروف، ومشترك، وخالٍ من المعنى.

وقد فكّرت أوّل الأمر في أن أستخدم التلفون. وكانت سيسيليا، كما سبق أن ذكرت، تتلفن لي كلّ صباح حوالي الساعة العاشرة. وفي الأوقات الأولى، لم تكن تفعل ذلك أبداً إلّا لتحيّيني. أمّا الآن وقد أخذت تقلّل زياراتها (فقد تبدّى وعدها بأن تراني كلّ يوم، كما كان

الأمر في أوّل علاقاتنا، مائعاً) فإنّ التلفون قد أصبح عنصراً أساسياً من عناصر علاقاتنا. والواقع أنّ سيسيليا إنّما كانت بالتلفون تحدّد لي بين مرّة وأخرى، وبطريقة غير منتظمة، مواعيد لقائنا.

وحدث أن لاحظت، في الفترة الأخيرة، أنّ مخابرتها التلفونية كانت تأتي ظهراً، بدلاً من الساعة العاشرة. وكانت سيسيليا قد برّرت هذا التغيير في الوقت بأنّ جهازها التلفوني كان مشتركاً، وأنّ المشترك الذي كان يستعمله معها قد اعتاد أن يعطي عدّة مخابرات تلفونية في الصباح الباكر. ولكنّي كنت قد اقتنعت بأنّ عذرها كان شيئاً آخر: إنّها لم تكن تتلفن لي في الساعة العاشرة بعد، لأنّها لا تكون في تلك الساعة قد تحدّثت مع الممثل، الذي كان كسائر زملائه ينام حتّى ساعة متأخرة من الصباح. وبناء على أنّها لا تكون قد حدّثته بعد، فإنّها لا تعرف ما سوف تفعله في النهار، ولا تستطيع بالتالي أن تقول لي إذا كانت تستطيع أن تراني، ومتى.

ولم يكن رقم الممثل في دليل التلفون، ولكن كان يسيراً عليّ أن أحصل عليه من شركة سينمائية كنت قد اشتغلت لها في السابق. وإذ حصلت على الرقم، تأكّدت من صحّة افتراضي بالطريقة التالية:

كنت أتلفن أوّلاً لسيسيليا، حوالي الساعة الحادية عشرة وثلاثة أرباع، فكنت أجد التلفون مشغولاً بصورة لا تتغيّر، وكنت سرعان ما أتلفن آنذاك للممثل فاكتشفت أنّه كان كذلك يتكلم. وكنت أنتظر خمس دقائق أو عشراً ثمّ أكرّر تجربة المراقبة: فأجد الجهازين حرّين. وبالواقع، ما إن تنقضي بعد ذلك دقيقة، حتّى يرنّ جرس تلفوني في وقت دقيق معيّن كان يملأني بالأسى، وتقول لي سيسيليا في الطرف الآخر من الخطّ، بهدوء ودقّة تتميز بهما كلّ سكرتيرة، إنّ بوسعنا في ذلك اليوم أن نلتقي أوّلاً، حسب الظروف.

وكنت أستخدم التلفون أيضاً لأراقب خروج سيسيليا وعودتها.

فقد كنت أتلفن بصورة منهجية (إذا كان ممكناً أن نتحدّث عن المنهج بصددِ حيلٍ للغيرة جنونية) في ساعات مختلفة من النهار، فإمّا ألّا أجد أحداً، وإمّا أن أجد أمّها التي كانت غالباً ما تبقى في البيت تاركة الحانوت بعهدة أختها. وكنت آنذاك أعقد الحديث مع الأم التي لم تكن تطلب شيئاً أفضل من أن تثرثر؛ بحيث إنّي كنت أتوصّل، بواسطة الثرثرات الأمومية، إلى معرفة ما كنت أرغب في معرفته، بشكلٍ أو بآخر.

وبالطبع، فإنّ معلومات الأم كانت تَرِدُها كلّها تقريباً من سيسيليا التي كانت تكذب عليها كما كانت تكذب عليّ، ولم تكن تترك لها أن تعرف، بأي حال، إلّا ما كان يناسبها أن تقوله، ولكن كان بمقدوري الآن أن أفكّ ألغازاً كثيرة من هذه المعلومات، لا سيّما وأنّ سيسيليا، التي لم تكن تعرف أنّها مراقبة، لم تكن تهتمّ بجعلها منسجمة مع المعلومات، المزيّفة ولكن المختلفة، التي كانت تعطيني إيّاها.

وهكذا استطعت أن أعرف أنّ سيسيليا، الروتينية كسائر من كانوا على شاكلتها محرومين من الخيال الخصب، كانت قد برّرت، أمام ذويها، علاقاتها بالممثل، بمثل ما بررت به العلاقات التي كانت تعقدها مع باليستياري، ثمّ معي: كانت تدّعي أنّها ترى الممثل لأنّ هذا كان قد وعدها بأن يجعلها تشتغل في السينما، كما سبق لها في الماضي أن قالت إنّها كانت ترى باليستياري، ثمّ تراني أنا نفسي، لأنّنا كنّا نعطيها دروساً في الرسم. ولكن الدروس لم تكن تدوم إلّا ساعتين، في حين أنّ العلاقات مع وسطٍ للعمل كان يمكن أن تدوم النهار برمّته.

وإذن، فقد اكتشفت أنّها كانت تراه أحياناً في الصباح، وفقاً لهذه الحجّة، لا سيّما حين يكون الطقس جميلاً، ليقوما بنزهة في المدينة أو يتناولا المشهّيات؛ وكانت تلقاه ثانية بعد الظهر، ليقوما بفعل

الحب على الأرجح؛ وكانت تلقاه ثالثة في المساء لتناول العشاء أو لمرافقته إلى السينما.

وكانت الأم قلقةً بعض الشيء لهذا «النشاط» السينمائي الذي تقوم به ابنتها. ولكنّها كانت مع ذلك مفتونةً به بعض الشيء. وكانت تتخذني نجيّها فتسألني تارة في قلق عمّا إذا كان جو السينما الواضح التحرّر، إذا لم نقل المنحلّ، يوشك أن يُفسد سيسيليا؛ وكانت تسألني تارة أخرى، بالعكس، وبالقلق نفسه، عمّا إذا كانت ابنتها تملك حظوظاً لتصبح كوكباً سينمائياً. وكانت تتكلم بسذاجة كليّة، ولكن ذلك كلّه كان يشعرني أنّها، على الطرف الآخر من الخط، كانت على اطلاع كامل بما يجري، معي أنا والممثل، وأنّها كانت تتسلّى بتعذيبي في قسوة واعية ومرهفة. والواقع أنّ القسوة، كما كنت واثقاً من ذلك، إنّما كانت في الظروف، وفيها وحدها.

وهكذا فإنّ التلفون، بين أوهام الأم وأكاذيب البنت، لم يكن يستطيع أن يطمئنني كلياً، ولا أن يقدّم لي تلك الحجج اليقينية التي كنت بحاجة إليها لكي أتحرّر من عشيقتي الصغيرة ومن حبّي لها. فقد كان التلفون، بطبيعته اللامباشرة والمجرّدة يبدو لي بعد الآن رمزاً لوضعي: وسيلة للاتصال كانت تمنعني من الاتصال؛ آلة للمراقبة لم تكن تسمح لي أن أعرف شيئاً دقيقاً، مكنةً آلية سهلة الاستعمال إلى أبعد حدّ كانت تتبدّى جامحة وغير أمينة تقريباً.

ومن جهة أخرى، كان التليفون يبدو مصنوعاً ليؤكد بالذات عدم قابلية سيسيليا للالتقاط. وبالطبع، لم يكن الذنب ذنب الجهاز الأبنوسي الصغير إذا كانت سيسيليا تتأخّر في مخابرتي أو عدم مخابرتي، وإذا كانت تكذب عليّ أو تخيّب ظنّي. ولكن لما كان ذلك كلّه يحدث بواسطة التلفون، فقد بلغ بي الأمر أن كنت أكنّ كراهية متطرفة لهذه الآلة البريئة.

ولم أكن أتلفن بعد ذلك إلّا في نفور كبير؛ ولم أكن أسمعه يرنّ من غير ضيق. وكنت أخشى، في الحالة الأولى، ألّا أجد سيسيليا، وكان ذلك هو الذي يقع دائماً تقريباً. وفي الحالة الثانية كنت أخشى أن أسمعها تكذب عليّ، وكان ذلك شكلاً عدم وجودها. غير أنّ التلفون كان يؤكد خصوصاً عدم قابلية سيسيليا للالتقاط، لأنّه كان يُحِلّ محل الشخص الجسمي قسماً منه، هو فوق ذلك أكثر الأقسام تجريداً، أي الصوت. فحتّى حين كان هذا الصوت لا يكذب عليّ، كان يظلّ بالنسبة لي ملتبساً مبهماً هارباً، لأنّه بالذات لم يكن إلّا صوتاً. لا سيّما وأنّ صوت سيسيليا كان دائماً لا معبّراً بصورة عنيدة.

ولكن ما دفعني خصوصاً للتجسّس على سيسيليا مباشرة، إنّما كان التعب. إنّني أقضي بعد الآن نهاري كلّه تقريباً إلى جانب التلفون، إمّا في انتظار الساعة التي كانت تتلفن لي فيها، أو الساعة التي كنت أعلم أنّي أستطيع أن أتلفن لها فيها وبي أملٌ لأن أجدها. وبالإضافة إلى ذلك، كان ثمّة المخابرات التلفونية التي لم تكن تجد أحداً، أو تسمع فقط همسات الأب؛ ثمّ المخابرات التلفونية المرهقة المغيظة مع الأم، بغية تمثّل نهار سيسيليا.

وجميع هذه الحيل التلفونية التي كانت تزداد تعقّداً وقلقاً، كان من شأنها أن تلغي كلّ العزاء الذي كنت أستطيع أن أصيبه من التلفون نفسه. وأشبه بحالة الجائعين الذين كان يبدو جوعهم ما يزال قائماً بعد أن يكونوا قد أكلوا، كنت أشعر بأنّ غضبي وضيقي لم يكونا يزولان بعد أن أوفّق بالتحدّث مع سيسيليا. وكانت نتيجة ذلك كلّه نوعاً من الجنون الجنسي يتلخّص بأنّي بعد أن أكون قد صمّمت على استجواب سيسيليا مطوّلاً، وبهدوء، لأقسرها على الاعتراف بخيانتها، كنت فور ظهورها على عتبة المرسم أنسى تصميماتي الباردة؛ وكنت ألقيها على الأريكة وآخذها حتّى من غير أن أنتظر ريثما تنزع ثيابها، بل حتّى من

غير أن أدع لها الوقت للتنفّس، على حدّ ما كانت تقول في لهجة مسايرة طفولية. وكان ما يدفعني إلى هذا الجنون الغرامي الوهم الرجولي المعتاد بأنّ الحصول على الامتلاك دفعة واحدة إنّما يتمّ دفعة واحدة بالعمل الجسدي، من غير كلام. ولكنّي كنت ألاحظ خطئي بعد انتهاء عمل الحب مباشرة إذ كنت أرى سيسيليا أشدّ امتناعاً على الالتقاط من أي وقت مضى، وكنت أقول لنفسي إنّي إذا كنت أريد أن أمتلكها حقًّا، فينبغي ألّا أبذّر طاقتي في فعلٍ لم تكن له إلّا مظاهر الامتلاك.

وحادثٌ تافهٌ هو الذي كان سبب عزمي على مراقبة سيسيليا. وإذا كنت أرويه، فإنّما لأعطي انطباعاً عن الحالة النفسية التي كنت أجدني فيها آنذاك.

فقد حدث ذات صباح، بعد أن تحقّقت من مخابرات سيسيليا والممثل، على مألوف عادتي، وبعد أن وجدت الجهازين كليهما مشغولين، أن تلفنت لي سيسيليا، فسارعت بسؤالها:

- لمن كنت تتلفنين؟ لقد كان خطك مشغولاً لمدّة عشرين دقيقة على الأقل.

فأجابت بطبيعة كاملة:

- كنت أتلفن لجيانا.

وكانت جيانا صديقة لسيسيليا، وكنت بالاتفاق أعرف اسمها وعنوانها. وتبادلت بضع كلمات عجلى مع سيسيليا، ومضيت أبحث في الدليل عن رقم جيانا. وفي غيظي، كنت أفكّر بأن أضع سيسيليا هذه المرّة في موضع حرج. وطلبت الرقم، فأجابني صوت امرأة، وهو على الأرجح صوت الأم. وسألت:

- الآنسة جيانا؟

- لقد خرجت.

- كم مضى على خروجها؟

- أوه! أكثر من ساعة... من يطلبها؟

فأعدت سمّاعة التلفون وطلبت من جديد رقم سيسيليا. وما كدت أسمع صوتها حتّى صحت:

- لقد كذبت عليّ!

- ماذا تعني؟

- لقد قلت لي إنّ جيانا قد تلفنت لك منذ دقائق. والواقع أنّي تلفنت لها أنا نفسي، فعلمت أنّها خرجت منذ ساعة.

- وإذن؟ لقد كانت جيانا تتلفن من الخارج. ومن تلفون عمومي.

فأسقط في يدي وانقطع نَفَسي.

وهكذا لم أعد قادراً، في الإرهاق الذي كنت أجدني فيه، على التفكير بمنهجية وتبصّر؛ لقد حسبتني أحبس سيسيليا في مصيدة كان الخروج منها أمراً سهلاً للغاية. وقلت وأنا شبه مذهول:

- اعذريني، إنّني لم أفكّر في ذلك. إنّني منذ حين من الزمن، لا أفهم بعد شيئاً من شيء...

- هذا ما يبدو لي.

وأقنعني هذا الحادث، على تفاهته، بأنّني لم أكن أستطيع أن أركن إلى ذهني المتعب، والمختلط؛ وأنّه كان عليّ أن أراقب سيسيليا مباشرة، بعيني. ولأوّل وهلة، بدا لي، أنّ ذلك هو أيسر الأمور في الدنيا، ولكن ما إن باشرته، حتّى ظهر لي العكس.

وكانت فكرتي أن أتلفن لسيسيليا من أقرب تلفون عمومي إلى بيتها، وبعد أن أتأكد من أنّها في بيتها، أذهب فأقف موقف الحارس تجاه باب بيتها، في انتظار أن تخرج كعادتها، حوالي الساعة الثالثة. وكانت علائم عديدة قد أقنعتني بأنّها كانت تقصد الممثل في تلك الساعة تقريباً: سوف أتبعها، وأتأكد من وصولها إلى بيت لوسياني،

فأنتظر خروجها، وأقبض عليها آنذاك. ولم يكن مستبعداً بالطبع أن تتمكّن سيسيليا، حتّى تلك اللحظة وذلك المكان، من أن تجد وسيلة لتكذب عليّ، أو على الأرجح، من ألّا تقرّ إلّا جزءاً من الحقيقة، يكون بالذات هو ذلك الجزء البريء الذي يوجد دائماً في كلّ عمل مذنب؛ ولكنّي كنت أعوّل على المفاجأة وعلى الافتضاح لكي أكشف أمرها وأجبرها على الاعتراف. حتّى إذا حصلت على الاعتراف، كنت على يقين بأنّ سقوط سيسيليا في عيني، وتحرّري الذي يلزم عنه، سيأتيان تلقائياً.

وكنت قد لاحظت أنّ ثمّة حانة تقع على بُعد بنايتين فيما تحت بيت سيسيليا؛ عند ملتقى الشارع الذي تسكنه بشارع معترض. وقد أوقفت سيارتي، بعد ظهر أحد الأيام أمام هذه الحانة، وطلبت قسيمة وأدرت رقم سيسيليا. وبينما كان التلفون يرنّ لاحظت أنّه لم تكن لي أيّة حجة للتحدّث معها. وكان قد سبق لنا أن تكلّمنا في الصباح نفسه واتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي؛ فما كان بوسعي أن أقول لها؟

وفكّرت في أن أرجوها أن تجيء إلى المرسم في هذا اليوم بالذات، خلافاً لما كنّا قد اتفقنا عليه؛ وقلت في نفسي أيضاً بأنّني إذا قبلت، فسوف أعدل نهائياً عن ترصّدها.

ودقّ جرس التلفون طويلاً، ثمّ جاء أخيراً صوت سيسيليا، محايداً لا لون له:

- هذا أنت؟ ماذا تريد؟

- لقد فكّرت. أودّ أو أراك اليوم.

- اليوم، مستحيل.

- لماذا هو مستحيل؟

- لأنّني لا أستطيع.

- هل تذهبي اليوم أيضاً إلى هذا المنتج؟

فلم تجب هذه المرّة، منتظرةً دون ريب أن أغلق السمّاعة. وكنت من جهتي أنتظر، مؤملاً أن تكون سيسيليا منافقةً بما فيه الكفاية لتقول لي كلمة لطيفة، كما تفعل كلّ امرأة تجد نفسها في موضع الارتياب والشك. ولكن سيسيليا كانت عديمة الخيال، وكانت لا تقول قط أكثر ممّا كان ضرورياً. ولهذا سمعتها تختم الحديث، بعد صمت طويل بقولها:

- إلى الغد، «شيو».

وخرجت من الحانة، صعدت إلى سيارتي، فذهبت أقف على بُعد بيتين، تجاه مدخل بيت سيسيليا. وكانت تلك هي المرّة الأولى في حياتي التي أتجسّس فيها على إنسان؛ وقد سبق أن قلت إنّ الوهم كان يدغدغني بأنّ ذلك سيكون أمراً يسيراً. فبخلاف الذين كانوا يتجسّسون بحكم مهنتهم، من رجال الشرطة وسواهم، ألم تكن هناك نساء ثرثارات يتجسسن عبر شقوق النوافذ، وسوقة من ثقوب الأبواب، وعاطلون عن العمل يريدون أن يقتلوا الوقت؟

ولكنّي إذ باشرت ذلك بدوري، اكتشفت أمراً بسيطاً جدًّا لم أكن قد توقعته: ذلك أنّه إذا كان التجسّس بحكم المهنة، كرجال الشرطة، أو بفضول الثرثارات والسرقة شيئاً، فقد كان شيئاً آخر مختلفاً التجسّسُ من أجل غاية دقيقة تعنيك شخصياً، كما كان وضعي. والواقع أنّه لم يكن قد انقضى بعد أكثر من عشر دقائق حتّى أحسستني أتألم أكثر ممّا لو ظللت في مرسمي أحلّل ذهنياً شكوكي من غير أن ألتمس توكيداً لصحّتها. لقد كنت الآن مستمراً في الارتياب بسيسيليا، ولكن كان ينضاف إلى ضيق الشك ضيقُ التجسّس. فلو أنّي، على الأقل، كنت أعرف اللحظة الدقيقة التي كانت سيسيليا تخرج فيها، لأمكنني أن أكون مطمئناً، حتّى الدقيقة التي تسبق ظهورها على عتبة منزلها. ولكن لما كنت أجهل متى تصل هذه اللحظة، فإنّ كلّ هنيهة

تمرّ كانت تتميّز في نظري بما تتميّز به من مزية كبرى ومؤلمة تلك اللحظةُ الفريدة التي سأراها فيها وهي تبرز.

وهكذا فإنّ الانتظار، الذي كان يخيب كلّ لحظة، لم يكن إلّا ليتفاقم فارغاً ومتوتراً، بدلاً من أن ينقسم بالنسبة لي إلى عدد من التأخرات التي يسهل تبريرها، من مثل التأخّر الذي يُمنح عادة للنساء، أو التأخّر المتسبّب عن التزيّن، أو عن مخابرة تلفونية، أو عن زيارة إلخ... وكان ذلك شبيهاً بلحنٍ حادٍ إلى أبعد الحدود كان يصعد أكثر فأكثر، أو كألم كامن يزداد حيوية.

وطوال الدقائق العشر الأولى، انتظرت في هدوء، لأنّني كنت واثقاً من أنّ سيسيليا لن تخرج قبل عشر دقائق، ما دمت قد انتصبت للحراسة في الساعة الثالثة إلّا عشر دقائق، وكنت أعلم أنّها لن تخرج قبل الساعة الثالثة. وقد انقضت هذه الدقائق العشر الأولى من غير أن تظهر سيسيليا، فمنحتها عشر دقائق أخرى، وقد انقضت هذه أيضاً. ثمّ عشر غيرها، فقرّرت إذ ذاك أن أنتظر عشر دقائق أخرى، من غير أن أستطيع هذه المرة أن أتصوّر بأيّة صورة ما الذي كان يحبس سيسيليا في بيتها. وقد استغرقت هذه الدقائق العشر الفارغة، على كونها ما تزال محتملة، وقتاً للانقضاء أطول من الدقائق الثلاثين الأولى، لأنّني لم أكن بعد مستعداً للانتظار، وكنت أؤمّل أن أرى سيسيليا تظهر عند الدقيقة الرابعة أو الخامسة؛ ولكن سيسيليا لم تظهر، ووجدتني للمرّة الخامسة تجاه وقت فارغ كان يُخمد همّتي، كما يمكن لساحةٍ شاسعة خالية أن تُخمد همّة شخص مصابٍ بالأغورافوبيا[١].

ومع ذلك، فقد انتظرت وأنا أقول لنفسي، في أمل لا يخلو من صوفيّة، إنّ سيسيليا لا يمكن هذه المرّة إلّا أن تأتي. ولكنّها لم تظهر،

(١) دوار يشعر به بعض الأشخاص حين يعبرون ساحة أو شارعاً.

فعزمت على أنّ أنتظر عشر دقائق أخرى، وأنا أفكّر لأعزّي نفسي بأنّ الوقت الذي أكون قد قضيته ساعة هو ساعة، وأنّ مدّة ساعة، في أيّة حالةٍ من الحالات، هي مدّة الانتظار القصوى.

ولكن بالطبع (وأقول: بالطبع، لأنّي كنت أحسّ منذ ذلك الحين بأنّ ظهور سيسيليا سيكون أمراً مخالفاً للطبيعة، نوعاً من المعجزة) لم تجئ سيسيليا، هذه المرّة أيضاً، فتجشمت أن أنتظر للمرّة السابعة عشر دقائق أخرى، وأنا أبرّر نفسي بفكرة دقيقة واعتباطية، هي أنّه كان عليّ، ما دامت الساعة هي المدّة القصوى للانتظار، أن أمنح سيسيليا عشر دقائق زيادة عن الساعة، بدافع من شهامةٍ على الأقل.

وفي تلك اللحظة، تحقّقت من أنّ ذهني كفّ عن التفكير، وأنّه إذن كان يرفض مرافقتي في هذا الانتظار. كنت وحيداً مع نفسي، أي مع الضيق والقلق الذي كان في الوقت الراهن طراز حياتي الوحيد، وكان الشيئان اللذان يهمانني هما الساعة التي كنت أحملها في معصمي، وباب الخروج الذي كانت عيناي تراقبانه. فأمّا الساعة فكنت أقسر نفسي على ألا أنظر إليها إلّا كلّ ثلاث دقائق، وأمّا باب الخروج، فقد كنت أنظر إليه أطول وقت ممكن، وأنا أكاد أخشى أن تخرج سيسيليا في سرعة البرق وتختفي في اللحظة التي تكون فيها عيناي مثبتتين على ساعتي، ولكن كان يحدث باستمرار أنّ نفاد صبري كان يجعلني أظن أنّ الدقائق الثلاث كانت قد انقضت، حين أنّها لم يكن قد انقضى منها في الواقع إلّا دقيقة واحدة، وأمّا الجهد الذي كنت أبذله لأجبر نفسي على التحديق في الباب، فقد تبدّى لي فجأة غير محتمل، على غرار كلّ توتّر عضوي يدوم أكثر ممّا ينبغي، مندهشاً بأن أرى دقائق الانتظار هذه تبدو أبطأ من جميع دقائق حياتي التي كان عليّ فيها أن أنتظر، وعلى العكس، كنت أشعر برغبة تكاد لا تُقهر بأن أنزع عينيّ عن الباب الذي لم تكن عتبته تبدو خالية إلّا

لأنّي كنت أنظر إليه، كما لو أنّ تلك الحجارة، وهذا البلاط، وجصّ الدار ذاك، كانت تعرف انتظاري، فتحرمني بخبث من رؤية سيسيليا، لأنّي إنّما كنت أتمنّى تلك الرؤية بهذا العنف.

وإذن، فقد انتظرت عشر دقائق، بعد الساعة، ثمّ عشراً أخرى، لأنّي كنت أعرف أنّ أم سيسيليا كانت تقصد في الرابعة والثلث حانوتها غير البعيد الذي كان يفتح في الرابعة والنصف، وكانت سيسيليا أحياناً تنتظر ذهاب أمّها لتخرج. ولكن في الساعة الرابعة والربع، أدرت، بلا تفكير، محرّك سيارتي فجأة، كما لو أنّ عضلاتي قد أصيبت بانتفاضة غير إرادية، فأقلعت ومضيت. غير أنّي لم أبتعد كثيراً، بل توقّفت عند حانة الزاوية فهبطت وذهبت أتلفن. وأجابتني أم سيسيليا بصوت متردّد:

- لا بدّ أنّها قد خرجت، لقد كنت في المطبخ، ولم أرها، يمكن أن تكون قد خرجت منذ خمس دقائق أو منذ نصف ساعة.

فسارعت أغادر الحانة، وصعدت إلى سيارتي ثانية، ثمّ اجتزت بأقصى سرعتي الشارع والشوارع المتفرّعة، حتّى بلغت محطة الأوتوبيس التي كنت أعرف أنّ سيسيليا كانت عادة تقصدها، ولكنّي لم أجد أحداً. لا شك إذن في أنّ الأم قد أخطأت، وأنّ سيسيليا لم تخرج لا منذ خمس دقائق ولا منذ نصف ساعة، بل منذ دقيقة، ولا بدّ أنّها قد اجتازت عتبة بابها في اللحظة نفسها التي كنت أبحث فيها عنها في الشوارع المجاورة، إلّا أن تكون قد بلغت منتصف السلّم فصعدت ثانية لسببٍ لم أكن أستطيع أن أتصوّره، بحيث إنّها الآن موجودة في البيت. ولكن لم تكن لديّ رغبةٌ بعد أن أنصرف مجدّداً إلى مراقبات تلفونية، فعزمت أن أذهب فأعسكر تجاه بيت لوسياني.

وكان الممثل يسكن في شارع أرخميدس «بباريولي» وهو شارع ملتوٍ وضيّق يحيط بالرابية بين صفّين من البيوت العصرية. وكان قد

سبق لي أن عبرت هذا الشارع، قبل ذلك بأيام، لا لأتجسّس، بل لأرى المكان الذي كنت أعرف أنّ سيسيليا تقصده غالباً، وحسبتني أتذكّر أنّه كان ثمة، تجاه بيت الممثل تماماً، حانةٌ يسهل عليّ أن أراقب منها. وبالفعل، ما كدت أترجّل من السيارة، حتّى اقتربت من الحانة وتأكّدت من أنّي لم أكن على خطأ: فقد كان خلف الواجهة طاولتان أو ثلاث إذا تطلّع المرء منها عبر الزجاجات وعلب الحلويات، أمكنه بسهولة أن يراقب باب البيت المقابل، من غير أن يُرى.

وجلست، فطلبت فنجان قهوة، وأخذت أراقب، وهو عملٌ كنت قد بدأت أحتقره من كلّ قلبي. وكان مدخل بيت الممثل المؤطّر بالمرمر الأسود يرتسم على الواجهة البيضاء كإعلان وفاة على صفحة جريدة؛ ولكنّي اكتشفت بعد قليل أنّ زجاجة كحول، معروضة في الواجهة، كانت تحجب عنّي نصف الباب. وكان بإمكان سيسيليا أن تنسلّ إلى البيت، عبر هذا النصف الذي لم أكن أراه، أو تتسرّب خارجه من غير أن ألاحظها. وحاولت أن أغيّر موضع كرسيّ، فإذا بعلبة بسكوت إنكليزية كبيرة تحجب عنّي الباب برمّته. وتساءلت عمّا إذا كان مناسباً أن أمدّ يدي وأغيّر موضع الزجاجة، ولكنّي فهمت أنّني لن أستطيع أن أفعل من غير أن أثير تنبّه صاحب الحانة. وأخيراً قرّرت أن أتخلّص من الحاجة المربكة، بأن أشتريها. صحيح أنّ صاحب الحانة كان يمكن أن يكون لديه زجاجة أخرى مماثلة، وأنّه بالتالي لن يعطيني زجاجة الواجهة، ولكن لم تكن لديّ وسيلة أخرى لبلوغ هدفي، فقد ناديت:

- أريد هذه الزجاجة.

وأقبل عليّ بسرعة، وكان شاباً ذا هيئة قاسية، هزيلاً وشاحباً جدًّا، وكان له ما يتفرّد به: فم يشبه فم الأرنب مختفٍ تحت شاربين هابطين؛ وسأل بصوت ضخم أليف:

- زجاجة الويسكي الكندي؟

- نعم، هذه.

فانحنى وتناول الزجاجة من الواجهة ورسم بحركة إبدالها بأخرى كانت معروضة إلى جانبها. وقلت بحيوية، في صيغة أمر:

- أرني إيّاها.

فمدّ لي الزجاجة، وهو مندهش بعض الشيء، فتظاهرت بأنّي أتفحّصها مطوّلاً، على أمل أن ينسى المكان الخالي في الواجهة. ومن حسن الحظ أن دخل في تلك اللحظة زبون، فتركني صاحب الحانة ليذهب خلف المشرب. وبعد قليل، جاءني بقهوتي، ولكنّه لم يضع زجاجة بدلاً من التي أعطاني إيّاها. وتنفّست الصعداء، ثمّ كرّست نفسي لمراقبة الباب الذي أصبح الآن يُرى بأكمله.

وحسبت الحساب التالي: لا بدّ أنّ سيسيليا قد استقلّت الأوتوبيس، لأنّي كنت أعرف أنّه لم يكن معها مال، وأنّها من جهة أخرى لم تكن قطّ تتعجّل الوصول إلى مواعيدها. والواضح أنّ المسافة بالأوتوبيس تستغرق على الأقل عشرين دقيقة بين بين سيسيليا والباربولي. هذا، طبعاً، إذا كانت سيسيليا قد خرجت حقًّا قبل مخابرتي التلفونية بدقيقة، وإذا كانت متوجهة إلى بيت لوسياني. وقرّرت، ظاهرياً على الأقل، بأنّ هذين الاحتمالين كانا صحيحين، وقضيت زهاء عشرين دقيقة وأنا لا أنزع عيني دقيقة واحدة عن الباب.

وبعد أن انقضت هذه الدقائق العشرون، تصبّرت أيضاً عشر دقائق، ثمّ طرحت على نفسي هذا الافتراض: إمّا أن تكون سيسيليا قد وصلت قبل بسيارة تاكسي (لم يكن ذلك بعيد الاحتمال: فقد وجب عليّ أن أتوقف ثلاث مرّات عند الإشارات الحمر) وإمّا أنّها لم تصل إطلاقاً. فما الذي كان ينبغي عمله؟ أأنتظر أن تخرج أم أذهب؟ وكنت من شدّة الثقة يومذاك بأنّ سيسيليا قد قصدت بيت لوسياني،

حتّى إنّي عزمت، آخر الأمر، على أن أنتظر. ثمّ لنفرض أنّ سيسيليا قد وصلت قبل بخمس دقائق، فقد كان يبقى عليّ أن أنتظر خمساً وثلاثين دقيقة على الأقلّ.

ولكن برز لعيني فجأة شبح رجل في سترة خضراء، كما لو أنّ ذلك كان بمثابة نفي لهذا العزاء المتواضع. وخيّل إليّ أنّي أعرف فيه على شخص كنت أعرفه، وحين اجتاز الشارع، عرفته نهائياً من كتفيه العريضتين، ورأيته يدخل البيت ويختفي.

وهكذا فإنّ انتظاري كان ما يزال في بدئه. كانت سيسيليا قد وصلت قبل لوسياني، فدخلت الشقة وكانت في انتظاره؛ أو أنّها لم تكن قد أتت؛ ولكن التثبّت من ذلك يقتضي الانتظار ردحاً من الزمن لا يعرفه إلّا الله. والدقائق الثلاثون التي قضيتها وأنا أتجسّس، إنّما انقضت عبثاً.

وشعرت بسرعة أنّ الانتظار تجاه بيت سيسيليا، إذا كان مؤلماً، فأشدّ من ذلك إيلاماً بمئة مرّة، كان الانتظار أمام بيت الممثل. فالواقع أنّي حين كنت أنتظر سيسيليا خارج بيتها، كنت أنتظر أن تنتهي من طعامها ومن ارتداء ثيابها أو من انتهاء ثرثرتها مع أمّها، وكلّها أشياء بريئة؛ ولكنّي إذ أنتظرها خارج بيت لوسياني، فإنّما كنت أنتظر أن تفرغ من القيام بفعل الحب. وهكذا، بينما كنت قبل ذلك بساعة أعاني من انتظار فارغ لا شكل له، ولا تستطع مخيّلتي أن تملأه، فقد كنت أعرف الآن معرفة جيدةً لماذا كانت سيسيليا عند لوسياني، وكنت أعاني من انتظار كان يأخذ شكل العمل الجنسي وإيقاعه. وبعكس ما كان يحدث من قبل، كان بوسعي الآن، وأنا أنظر إلى ساعتي، أن أحسب بالدقيقة تقريباً ما كان يحدث في شقة الممثل. «في هذه اللحظة، تنزع سيسيليا كنزتها من رأسها. وفي هذه اللحظة تقترب، عارية، من السرير، فتصعد وتتمدّد عليه. وفي هذه اللحظة،

تصيب نشوتها الأولى، وبعد انتفاضتين عنيفتين أو ثلاث من بطنها، تقلب رأسها إلى خلف وتستسلم، نافدة القوى». وكانت جميع هذه التصوّرات تجدّد لديّ بالطبع الشعور بأنّي لا أمتلك، ولم يسبق لي قط أن امتلكت سيسيليا، لأنّني حتّى الآن لم أتوهّم أنّي امتلكتها إلّا بأن أمتلك جسمها، هذا الجسم الذي هو الآن بين ذراعي لوسياني.

وكان الإحساس بعدم قابلية سيسيليا للالتقاط يُولّد أيضاً من عدم اليقين الذي كنت أجدني فيه بالنسبة لحضورها الفعلي في بيت لوسياني. فقد كان ممكناً، بعد كلّ حساب، ألّا يلتقيا ذلك اليوم، لسبب كنت أجهله. وفي مثل هذه الحالة، كانت تصوّراتي تصبح تصوّرات غيورٍ لا يختلف عن الغيورين المبتذلين، غيورٍ يبني على علامةٍ خادعة بناءً شاهقاً من الافتراضات. والحق أنّ ذلك كلّه لم يكن يعني أنّ سيسيليا لم تكن تخونني، وإنّما كان يعني ببساطة أنّها لم تكن تخونني في ذلك اليوم بالذات.

وأخيراً، قرّرت أن أتلفن للوسياني، فربّما استطعت، بواسطة ضجّة ما، أن أحزر حضور سيسيليا في الشقة. ومن حسن الحظ أنّ جهاز تلفون الحانة كان قريباً من الباب، بحيث كنت أستطيع أن أتلفن من غير أن أكفّ عن مراقبة البيت المواجه. وطلبت الرقم، فسمعت صوت الممثل ودفعت القسيمة ولم يكن حسابي خاطئاً مئة بالمئة، إذ بينما كان الممثل يردّد: «آلو، آلو» تمكّنت بالفعل من أن أسمع بوضوح ألحان موسيقى راقصة؛ وكان ذلك انهياراً لقلبي، لأنّي كنت أعرف أنّ سيسيليا كانت مغرمة بالقيام بفعل الحب على ألحان الموسيقى. وبعد أن ردّد الممثل «آلو» مرّة أخيرة، أضاف كلمة واحدة: «أبله!» ثمّ أعاد السماعة.

ولئن كانت الموسيقى قد صوّرت لي، على نحوٍ ما، أبعاد الغرفة وموضعها ومظهرها، تلك الغرفة التي كانت الموسيقى تُصدّى فيها،

فإنّ هذه الشتيمة التي حسبتني أشعر فيها بالغيظ الناشئ عن الإزعاج، وفي الوقت نفسه بالغرور الرجولي الذي توحيه طبيعة الشيء نفسه الذي أزعج، إنّ هذه الشتيمة قد أرتني سيسيليا والممثل كما كانا في تلك اللحظة؛ هو، واقفاً، عارياً، قرب الطاولة الصغيرة التي كان جهاز التلفون موضوعاً عليها، رائعاً، بعضلاته الصدرية الواسعة وكتفيه العريضتين اللتين يغطيهما الشعر، وبطنه ذي العضو الذي ربّما كان لا يزال في حالة الانتصاب، وخاصرتيه وساقيه العتليتين؛ وهي، عارية، متمدّدة باسترخاء على السرير، تحضن بعينيها جسم عشيقها.

وأغلقت السمّاعة، وعدت أجلس خلف الواجهة.

وانتظرت أيضاً زهاء عشرين دقيقة، ثمّ برز لي دليلٌ آخر عن حضور سيسيليا في بيت لوسياني. فقد سُمع جرس التلفون يرنّ في الحانة، فقصد صاحب الحانة الجهاز فأصغى وقال بصوت عليّ عسكري:

-... «في خدمتك دائماً، يا سنيور لوسياني».

وبعد لحظة، رأيت خادم الحانة، وهو فتى مراهق ذو سحنة محمرّة، يخرج وهو حاملٌ صينية أتيح لي أن ألقي نظرة عليها: كان ثمّة زجاجة بيرة، وسندويشات مغلّفة بمنشفة، وقدح كبير من عصير البرتقال.

وكنت أعرف أنّ سيسيليا كانت تحبّ، بعد فعل الحب، أن تطفئ عطشها بثلاث برتقالات معصورة أو أربع. وتبعت الخادم بنظري، فرأيته يدخل باب البيت المواجه، ثمّ يخرج بعد دقيقة حاملاً صينية فارغة.

ودخل إلى الحانة، فقال له سيّده بلهجة ضاحكة هازئة:

- ما بك؟ ما الذي رأيته؟ لقد أوصيتك مع ذلك أكثر من مرّة: إنّ ما تراه عند الناس لا يعنيك... هيّا عجّل، اغسل هذه الأقداح.

وفي تلك اللحظة بالذات، كما لو أنّي كنت مدفوعاً بنابضٍ قويّ، وبالطاّة العضلية نفسها التي جعلتني أتخلّى عن مراقبة بيت سيسيليا، وضعت المال على الطاولة، وتناولت زجاجة الويسكي وخرجت.

وفهمت بعد أن انتظرت طوال هذه المدّة، أنّ ذهابي كان يعني إلقاء جميع الجهود وجميع الآلام التي عانيتها بعد ظهر هذا اليوم الطويل، ونثرها أدراج الرياح، ولكنّي كنت أحس أنّني لن أقوى بعدُ على الانتظار، بالنسبة لذلك اليوم على الأقل. وفيما بعد، فكّرت بأنّي ربّما كنت في الواقع أريد تأخير اللحظة التي سوف أشعر فيها، فيما أكون على أتمّ اليقين بخيانة سيسيليا أنّني كنت أمتلكها، ما دام باستطاعتي أن أدينها، وبالتالي أنّي كنت متحرّراً منها، وأنّي كففت عن حبّها. وعلى أي حال، فإنّ التدليل النهائي على هذه الخيانة قد أرجئ إلى ما بعد، وأرجئ معه كشف خداع سيسيليا، وتحوّلها من مخلوقة سريّة إلى بغيّ صغيرة تافهة.

لقد أردت أن أصوّر بهذه التفاصيل يوم تجسّسي الأوّل، لأنّ الأيام العديدة الأخرى التي تلت كانت مشابهة تقريباً، وهذا ما يوفّر عليّ التحدّث عنها مطوّلاً. والفرق الوحيد هو أنّي كنت في اليوم الأوّل ما أزال قادراً على أن أتصرّف بواسطة منهج ما. وعلى العكس، بمقدار ما كان الزمن ينقضي، وكانت هذه الانتظارات المرهقة تتكرّر، كنت أتصرّف اعتباطاً وفي بلادة. والواقع أنّ التجسّس بطريقة مجدية كان يقضي، كما سبق أن ذكرت، أن أملك ما يملكه رجل التحري من تجرّد تكنيكي بارد، أو ما يملكه الجريء من فضول يجد غايته في نفسه. ولكنّي على العكس كنت أراقب سيسيليا بنفس عاشقٍ قلقة، وكان سواء لدي أن أكون عاشقاً لم يكن يريد أن يحتفظ بالمرأة التي كان يحبّها، بل كان يريد أن يتحرّر منها.

وكم من ساعة قضيت خلال هذه الأيام، جالساً في سيارتي تجاه

بيت سيسيليا! وكم من ساعة في الحانة، أمام الطاولة وراء الواجهة! ولكي أفهم إلى أي حدّ كنت مغموراً بالغيرة، يكفيني أن أقول إنّني بعد أسبوع من الترصّد المرهق، اكتشفت بالاتفاق أنّ مراقبة بيت سيسيليا كانت بلا جدوى، لأنّه كان للبيت مدخلان: أحدهما على الشارع الذي كنت أنصب فيه كميني، والآخر على شارع موازٍ كانت تمر فيه الأوتوبيسات وكان يمكن العثور فيه على سيارات أجرة. وبالطبع، كانت سيسيليا تخرج من هذا الباب الأخير الذي كان يناسبها تماماً. وقد بدا لي هذا الاكتشاف ذا مغزى. فقد كنت من شدّة الخبل بحيث أنّي احتجت إلى أسبوع لألاحظ أمراً كان أي إنسان يفكّر به منذ اللحظة الأولى.

وبعد أن اكتشفت المدخل الثاني لبيت سيسيليا، حيث إنّ مراقبتي التي أصبحت تقتصر على بيت الممثّل وحده، ستغدو أسهل بكثير. ولكنّي كنت مخطئاً مرّة أخرى. كان يبدو الآن أنّني كنت أختار دائماً، من دقائق النهار كلّها، تلك التي لم تكن تجري قطّ على ساعة يد سيسيليا. إنّ زمن سيسيليا وعشيقها لم يكن زمني. كان زمنهما هو ثمن الحب الهادئ، المطمئن، المنتظم. أمّا زمني، فكان زمن الغيرة الغاضب المتشنّج.

وإذن، فقد كان يحدث على الأرجح أنّي كنت أصل إلى الحانة حين تكون سيسيليا قد دخلت بيت الممثل، وكنت أغادر الحانة حين لا تكون هي قد خرجت من بيته. والواقع أنّي لم أكن أنجح في التغلّب على نفوري من هذا التجسّس الذي كنت أجده مذلاً ومخيّباً في وقت واحد. كان هذا النفور يجعلني كسولاً حين أقصد الحانة، ونافد الصبر في تعجّل انتهاء انتظاري.

وهكذا، وبالرغم من تهافتي في ترصد سيسيليا، لم أرها مرةً واحدة تدخل إلى بيت لوسياني أو تخرج منه. وكان يبدو لي ذلك أمراً

لا يصدّق، وأنّه خارج للطبيعة، حتّى إنّه قد اتفق لي أحياناً أن أفكّر بأنّ سيسيليا إنّما كانت مخلوقاً غير مرئيّ، ولقد كانت كذلك، بالنسبة لي على الأقل، شأنها في ذلك شأن الأشياء التي كانت تفلت من الذهن، فيما تكون بديهيّة للحواسّ.

وعدم قابلية سيسيليا للالتقاط لم تكن موكدة لي فقط بإفلاس مراقبتي، وإنّما أيضاً بإفلاس تحقيقاتي عن علاقاتها مع لوسياني. فبالرغم من معرفتي بأنّي لم أكن أستطيع أن أهاجمها مواجهةً بسبب استعدادها الدائم للكذب عليّ، وهذا ما كان يجعلها أشدّ امتناعاً على الالتقاط، حاولت أحياناً أن أحملها على الكلام عن الممثل بطريقة تافهة لأرى إذا كانت في أجوبتها تشفّ عن أن تكون أكثر من وديّة.

وهذا نموذج عن هذه الاستجوابات:

- هل ترين لوسياني كثيراً، في هذه الفترة؟
- نعم، أراه أحياناً.
- وبالإجمال، أنت تعرفينه الآن جيّداً؟
- نعم، أعرفه قليلاً.
- إذن، قولي لي رأيك فيه.
- رأيي فيه؟ ماذا تقصد؟
- نعم، رأيك فيه، أقصد كيف تحكمين عليه؟
- إنّني لا أحكم عليه، ولماذا يجب أن أحكم عليه؟
- أقصد أيّة فكرة تكونينها عنه، وكيف تجدينه؟
- إنّه لطيف.
- هذا كلّ شيء؟
- ماذا تقصد بـ: هذا كلّ شيء؟
- لطيف فقط؟
- أجل، إنّه يبدو لي لطيفاً، وهذا كلّ شيء.

- وأنت تخرجين معه لأنّه لطيف وهذا كلّ شيء.

- نعم.

- ولكنّي لطيف، وأنت لطيفة، وأبوك لطيف، وأمّك لطيفة، فالقول عن شخصٍ بأنّه لطيف لا يعني شيئاً تقريباً.

- وماذا يجب أن أقول؟

- نقائص، مزايا، طيّب، شرّير، ذكيّ، بليد، بخيل، كريم...

وما يدريني؟

فصمتت هذه المرّة، مجيبةً على كلامي بصمت لم يكن عدائياً، ولم يكن مقهوراً، ولم أمتنع عن التفكير بأنّه يشبه صمت حيوان. وألححت:

- أراكِ لا تتكلمين؟

- ليس لديّ ما أقوله. تريد أن تعرف كيف هو لوسياني، ولا أستطيع أن أقول لك شيئاً، لأنّني لم أفكّر بالأمر قط، ولأنّني لا أعرفه. كلّ ما أعرفه هو أنّني أجد نفسي راضيةً معه.

- لقد قيل لي إنّه كان ممثلاً رديئاً جدًّا.

- هذا ممكن، وأنا لا أفهم شيئاً من ذلك.

- ومن أين هو لوسياني؟

- لا أدري.

- وما هو عمره؟

- لم أسأله ذلك قط.

- هل هو أصغر منّي سنًّا أم أكبر؟

- ربّما كان أصغر.

- إنّه كذلك بلا شك. ويصغرني بعشر سنوات على الأقل. قولي لي: هل له أب وأم وأخوة وأخوات، وبالإجمال أسرة؟

- إنّنا لم نتحدّث في ذلك.

- وبمَ تتحدّثان حين تلتقيان؟

- بأشياء كثيرة...

- مثلاً؟

- كيف لي أن أتذكّر؟ إنّنا نتحدّث، وهذا كلّ شيء.

- أمّا أنا فأتذكّر جيّداً جميع أحاديثنا تقريباً.

- وأمّا أنا، فعلى العكس، لا أتذكّر شيئاً قط.

- ولكن، بالإجمال، إذا كان عليك أن تصفي لوسياني، إذا كنت مجبرة على ذلك، ولم تكوني تستطيعين تحاشي الأمر، فكيف تصفينه؟

فتردّدت ثمّ أجابتني ببساطة:

- ولكن ليس ثمة من يجبرني، فلست إذن مضطرة إلى وصفه.

- إذن، سأصفه لك بنفسي: إنّه طويل، عتليتيّ، ذو كتفين عريضتين، وعينين سوداوين، وشعر أشقر، ويدين صغيرتين، وقدمين صغيرتين، وهيئة مختالة.

- ماذا تعني كلمة: مختالة؟

فصمتت لحظة، ثمّ قالت ملاحظة:

- صحيح أنّ يديه وقدميه صغيرة، أمّا وأنّك تقول لي ذلك، فإنّي الآن أتذكّره.

- لو لم أقله لك لما تذكّرته؟

- إنّني لا أفعل كما تفعل، فأنا لا أنظر إلى الناس في تفاصيلهم. وإنّما أرى فقط إن كنت أجدهم لطفاء أو غير لطفاء. وهذا يكفيني.

وجاءتني الفكرة طبعاً أن أتساءل عن رأي سيسيليا بي. وكان على رأس لساني هذا السؤال:

- ولكن ما رأيك فيّ؟

غير أنّي لم أستطع طرحه، كما لو أنّي كنت أخشى أن تجيبني، كما فعلت بصدد لوسياني، بأنّها لا تفكّر بشيء عنّي.

على أنّي عزمت ذات يوم فسألتها:

- وما رأيك فيّ؟

فأجابت بصورة غير متوقّعة:

- أوه! عندي أشياء كثيرة.

فأحسست بالعزاء وألححت في السؤال:

- حقًّا؟ ما هي؟

- لا أستطيع أن أقول... أشياء كثيرة.

- قولي لي واحداً، على الأقل.

فبدت تفكّر، في اهتمام، ثمّ أجابت:

- ربّما لأنّك تريد الآن بالذات أن تعرف ذلك، فإنّي لا أجد شيئاً، هذه اللحظة.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنّ لديّ شعوراً في هذه اللحظة بأنّي لا أفكّر بشيء.

- لا شيء على الإطلاق!

- لا شيء.

- ولكن منذ لحظة كنت تقولين إنّك تفكرين بأشياء كثيرة عنّي؟

- لقد قلت ذلك، ولكن يبدو أنّي كنت مخطئة.

- ولكن ألا يزعجك ألّا تفكري بشيء، بشيء على الإطلاق، عن الرجل الذي تقومين مع بفعل الحب؟

- كلا، لماذا؟ أيّ حاجة لنا بأن نفكّر في شيء ما؟

وهكذا، فإنّ سيسيليا لم تكن تظل فحسب غير قابلة للالتقاط، بل كانت تنجح في أن تجعل كلّ ما كان يعنيها غير قابل للالتقاط: شأنها في ذلك شأن بعض شخوص قصص الجن الذين لا يرضيهم أن يكونوا غير مرئيين، فإذا هم يجعلون كلّ ما يمسّونه غير مرئي.

ومع ذلك، فقد كنت أمتلكها مرّتين أو ثلاثاً في الأسبوع، أقصد

أنّني كنت آخذها. وتجاه عدم كفاية العمل الجنسي هذا، كان لشخص آخر أن يبحث في ميدان آخر عن شرح لهذا العطش الذي كان يتفاقم بمقدار ما كان يُروى. ولكنّي كنت بعد الآن على دربٍ أحسّها مشؤومة ومخطئة: وهكذا كنت أتهافت على أن ألتمس في الامتلاك الجسدي، الذي كنت أعرفه مع ذلك وهمياً، هذا الامتلاك الحقيقي الذي كنت محتاجاً إليه حاجةً يائسة. ربّما كنت أشعر، وأنا أرتمي على جسد سيسيليا، بأنّي كنت أعوض بهاتين الساعتين من الحضور الخدّاع، عن غياب الأيام الأخرى؛ وربّما كنت أبحث في وداعتها التي لم تكن قابلةً للتعكّر، عن عامل للسأم، وبالتالي للتحرّر. ولكن جسد سيسيليا لم يكن سيسيليا، وما كانته سيسيليا، لم أكن أنجح في أن أعرفه. أمّا وداعتها، فقد كفّت الآن عن أن توحي لي بأي سأم، وإنّما كانت توحي بحذر عميق، كضرب من شرَك للطبيعة وضعت فيه قدمي، ولم أكن أنجح في التخلص منه.

على أي حال، لا أذكر أنّي أحببت قط سيسيليا بمثل العنف الذي أحببتها به في تلك الأيام التي كنت أراقبها فيها وأنا أفكّر بأنّها كانت تخونني. كنت أرتمي عليها كما أرتمي على عدوّ أريد أن أقطعه إرباً، وهو مع ذلك عدو حبيب كان يحثّني هو نفسه، بطريقة ملتبسة، على أن أتصرف كذلك؛ ولم أكن لأقنع قط باعتناق واحد. فبشكل ذي مغزى، كان الإحساس بأنّي لا أمتلكها حقًّا يرهقني غالباً إذ كانت تتّجه نحو الباب، مرتدية ثيابها، لتذهب بعد أن تكون قد ودعتني؛ كما لو أنّ رحيلها كان يكشف لي فجأة، بطريقة جسمية محض، قدرتها التي لا تتغيّر على الإفلات منّي والفرار. وكنت آنذاك أهرع إليها فأقبض عليها من شعرها وأقذف بها في عنف إلى الأريكة، من غير أن أتوقّف عند احتجاجاتها، التي كانت في الحقيقة ضعيفة، وكنت آخذها من جديد، كما هي، مرتدية ثيابها كلّها، وحذاؤها في قدميها، ومحفظتها

في ذراعها، تداخلني دائماً تلك الفكرة الوهمية بأن أمحو، إذ آخذها، استقلالها الذاتي وسريتها. وبالطبع، كنت ألاحظ، بعد الاعتناق مباشرة، أنّي لم أكن قد امتلكتها. ولكن بعد فوات الأوان؛ كانت سيسيليا تمضي، وكنت أعلم أنّ كلّ شيء سيعود من جديد في اليوم التالي: المراقبة اللامجدية، والامتلاك المستحيل، وخيبة.

وأخيراً، وبعد أكثر من شهر على التجسّس اللامجدي، ومن الجنون الجنسي الذي هو أكثر لا جدوى، فهمت ما كان ينبغي لي أن أحزره منذ اليوم الأوّل: أي أنّ المراقبة ليست أمراً يمكن أن يقوم به الشخص نفسه الذي يهتم بنتائج المراقبة. فإذا كنت أريد أن أبلغ غاية ما، فعليّ أن أتوجّه للاستعانة بأولئك الذين كانوا يمارسون هذه المراقبة بدافعٍ من واجبهم المهني: وكالة تحقيقات خاصّة. وكانت سيسيليا هي نفسها التي أوحت لي بفكرة الوكالة.

فإنّي فيما كنت أراقبها، لم أكن أكفّ قط عن التفكير بباليستياري. وكان الرسّام العجوز الذي لم أهتم به مطلقاً في حياته، قد أصبح بالنسبة لي، الآن وقد مات، موضوع اجتذاب فظيع وغير قابل للفهم. وكنت أقول لنفسي أحياناً: الواقع أنّ باليستياري كان لي ما كونه مرآة لمريض: شاهد لا يُرد لما يحرزه المرض من تقدّم. وكنت أفكّر خصوصاً بباليستياري كلّما كنت أحسب أنّي أقوم بأمرٍ كان قد سبقني إلى القيام به. من أجل هذا، لم أقاوم، خلال الأيام التي كنت أتجسّس فيها على سيسيليا، إغراءً لسؤالها عمّا إذا كان الرسام العجوز قد عرف الضعف نفسه.

كنّا في السيارة، وكنت أصحب سيسيليا إلى بيتها، ذات مساء. وإذ وصلنا إلى الشارع الذي كانت تسكنه، والذي سبق لي أن انتظرت فيه مرّات عديدة، بلا جدوى، أن تخرج من بيتها، أوقفت السيارة وسألتها، من غير تمهيد

- هل تجسّس عليك باليستياري يوماً؟

- ماذا تقصد؟

- هل كان يلاحقك، وينتظرك، ويراقبك بالإجمال؟

- نعم.

- لم تقولي لي ذلك قط.

- لم تسألني في ذلك قط.

- وبأيّة طريقة كان يراقبك؟

- كان يقف في ساحة البيت الخارجية، وينتظر أن أخرج.

وفكّرت بأنّ باليستياري كان إذن أذكى منّي، فإنّه قد اكتشف على الفور المخرجين كليهما. وسألتها أيضاً:

وبعد ذلك!

- بعد ذلك، كان يتبعني فور خروجي.

- وكان يفعل ذلك غالباً؟

- في فترة من الفترات، وفعله كلّ يوم.

- وفي أيّة ساعة كان يترصّدك في الساحة؟

- كان هذا يتوقّف. فحين كان يعرف في بعض الأيام أنّ المفروض أن أخرج في ساعة مبكرة، كان يعسكر في الساحة منذ الثامنة.

- وكيف كنت تستطيعن أن تعرفي ذلك؟

- كنت أراه من نافذة غرفتي.

- وما الذي كان يفعله في الساحة؟

- كان يذرعها جيئة وذهاباً أو يتظاهر بقراءة جريدة، أو يرسم على دفتر صغير.

- ولكن ما الذي كان يفعله حتّى لا ترينه أنت حين كنت تخرجين؟

- كان يذهب فيقف في عتمة المدخل، أو خلف شجرة.

- وبعد ذلك؟

- ثمّ كان يتبعني.

ولزمت السكوت لحظة؛ وكان يُخيّل إليّ أنّي أرى الرسام العجوز القصير المربوع، بكتفيه العريضتين، وقدميه الكبيرتين، ووجهه الأحمر وشعره الفضيّ، يرفع باقة مشمّعة، ويخفض على عينيه طرف قبعته، ليتبع مراهِقَةَ الستة عشر عاماً، من الساحة إلى الشارع، ومن شارع إلى شارع؛ وأحسست في ردّ فعل معاكس هذا الشعور من العار الذي أصبح مألوفاً وأنا أفكّر بأنّي قد قمت، طوال أيام، بمثل هذا تماماً. وقلت مؤكّداً:

- ولكن هل كنت تلاحظين أنّه كان يتبعك؟

- أحياناً نعم، وأحياناً لا.

- وماذا كنت تفعلين حين كنت تلاحظين ذلك؟

- لاشيء؛ كنت أتابع طريقي كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. غير أنّي التفتُ مرّة، فأقبلت للقائه وتوجّهنا معاً إلى مقهى.

- وماذا قال في المقهى؟

- لم يقل شيئاً. بل أخذ يبكي.

وظللت صامتاً لحظة. وانتهزت سيسيليا الفرصة، ولم تكن تحبّ الاستجوابات، فتظاهرت بأنّها تترجّل من السيّارة، ولكنّي أوقفتها:

- انتظري. في الوقت الذي كان يقاربك فيه هل كنت تخونينه؟

فأجابت، كأن توافق الظروف قد سلاها:

- تصوّر أنّي لم أكن أخونه على الإطلاق، ولم أعرف شخصاً آخر إلّا بعد بضعة أشهر.

- وعلى هذا، فقد كان يراقبك بلا سبب، وبلا عدل؟

- بكلّ تأكيد.

- وحين تعرّفت على ذلك الشخص الآخر، كما تقولين، كفّ عن متابعتك؟

- لا ، لأنّه حصل على الدليل بأنّي لم أكن أخونه.

- وكيف؟

- لقد كلّف أحداً باتباعي.

- مَنْ؟

فقالت في غموض:

- إحدى تلك الوكالات التي تقوم بالتحقيقات، وبالإجمال كلّف رجل تحرّ خاصًا. فأكدوا له أنّي لم أكن أعرف غيره.

- وكيف استطعت أن تعرفي أنّه كلّف وكالة بمتابعتك؟

- لقد قالها لي هو نفسه. وقد قرأ لي ذات يوم وصفاً لأعمالي وحركاتي، طويلاً في أربع صفحات. وقد كلّفه ذلك لا أدري كم...

- وهل كان مسروراً؟

- كان سعيداً.

وسألتها بعد صمت قصير:

- وقد خنته فور أن دلّت له الوكالة أنّك لم تكوني تخونينه؟

- نعم، بعد ذلك بشهر، لم أفعل ذلك عن قصد: وإنّما كان بالمصادفة...

- وهل عرف الأمر، هو؟

فتردّدت، ثمّ أجابت:

- أعتقد أنّه ارتاب بشيء ما، ولكنّه لم يكن يوماً واثقاً من ذلك.

- يعني؟

- لقد رآني مرّتين أو ثلاثاً مع الفتى نفسه؛ فعاد يلاحقني بنفسه، من غير معونة الوكالة. غير أنّه تعب قليلاً من ذلك، فكان يقوم بالمتابعة أقل من ذي قبل. ثمّ مات.

- ولماذا لم يكلّف الوكالة، تلك المرّة، بمتابعتك؟

- فقالت بهيئة تفكّر:

- لو كلّف أحداً بذلك لعلم كلّ شيء. ولكنّه لم يكن يؤمن بعدُ بالوكالة. كان يقول إنّني قد خنته دائماً، وإنّ الوكالة لم تعرف أن تكشف الحقيقة.

وبعد هذه المحادثة، عاودني التفكير مرّة بعد مرّة بأنْ ألجأ إلى وكالة، كما فعل باليستياري. والغريب أنّني بينما كنت في الماضي أمتنع عن القيام ببعض الأمور، لأنّي كنت أعرف أنّ باليستياري كان قد فعلها، كنت أحسّني الآن، على العكس، ميّالاً للجوء إلى وكالة كما لجأ باليستياري إلى وكالة لكانّي بعد أن اعترفت بلا جدوى جهودي التي كنت أبذلها لأقف على هذا المنحدر الذي سبق لباليستياري أن انزلق عليه، عزمت على القيام بما كان يقوم به من أعمال، كما لو أنّ القيام بها طوعاً ووعياً كان هو بعد الآن الطريقة الوحيدة لأتميّز بها عنه، هو الذي فعلها بالرغم عنه تقريباً، في حالة لا وعي قريبة من الجنون.

وإذن، فقد مضيت ذات يوم إلى وكالة «فالكو»[1] الواقعة في بيت مظلم بشارع ناسيونال، شديد الزهو من الخارج، مزدان بالأعمدة والتماثيل والكتابات اللاتينية، ولكنّه معتم وبائس من الداخل. ورقيت حتّى الطابق الرابع في مصعد كريه الرائحة وفي حالةٍ يرثى لها، وخرجت إلى سطيحة مظلمة فتوجّهت نحو فتحة باب ذي زجاج متّسخ كان معلّقاً عليه اسم الوكالة وصورة عصفور رمزي صغير لا بدّ أن يكون بازاً.

وانفتح الباب الزجاجي فرنّ معه جرس؛ ودخلت غرفة أمامية

(١) فلكو تعني بالإيطالية طائر الباز.

فارغة تقريباً، مؤثثة ببعض كراسي الخيزران. وكان رجلان يخرجان آنذاك من غرفة وهما يشدّان نطاق مشمّعيهما ويركّزان قبعتيهما على رأسيهما؛ وقد حكمت من مشيتهما بأنّهما لا بدّ أن يكونا من رجال التحري، وستُعهد قضية متابعة سيسيليا إلى مثلهما. وظلّ الباب مفتوحاً، فاقتربت من العتبة؛ وكان في جوف غرفةٍ كبيرة رجل أسمر هزيل، أصلع، ذو صدغين منكمشين وخدّين ممتقعين، وكان يقرأ صحيفة خلف مكتب. وقال لي بصوت قوي، ولكنّه لطيف:

- إنّني المدير... تفضّل بالجلوس.

ودخلت، فنهض ليمدّ لي يده ويقدّم نفسه:

- الماجور موسكوني.

جلست ونظرت أوّلاً إلى الوجه الضامر، ثمّ إلى البذلة السوداء المتهرئة، وربطة العنق المعقودة عقداً رديئاً، ولطخات الحبر القديمة التي تلطّخ ظاهر المكتب وكنت أتساءل عمّا يمكن أن يكون لذلك كلّه من شأن مع سيسيليا ومعي، وكان الجواب «لا شيء» ومع ذلك، فقد قلت:

- أودّ أن أدعوكم إلى مراقبة شخص.

فأجاب الماجور بلهجة حيّة وسريعة:

- إنّنا هنا من أجل ذلك... هل هو رجل أم امرأة؟

- امرأة.

- وهل هذه المرأة زوجتك؟

- لا، فلست متزوجاً. وإنّما تربطني بها عاطفة خاصّة.

- هل المطلوب إذن تحقيق «سابق للزواج»؟

- إذا شئت.

فقام الماجور بحركة يقصد بها أنّه لن يلحّ؛ فلم تكن بي حاجة لمزيد من الكلام ثمّ سأل:

- وبأي دافع تريد أن تراقب هذه المرأة؟

فنظرت إلى الماجور؛ وكانت سحنته تتناقض في كلّ شيء مع اسم تلك الوكالة المدعوة بالباز، ذلك الطير الكاسر ذي النظر النافذة. وكانت عيناه الغائرتان، الصغيرتان والمنطفئتان، تحملان على التفكير ببرقش أعمى أكثر ممّا تحملان على التفكير بباز. وأجبت في قسوة لطيفة تقريباً:

- إنّ لي أسباباً وجيهة للاعتقاد بأنّ هذه المرأة تخونني.

وكان واضحاً كلّ الوضوح أنّ الماجور لم يكن حريصاً على أن يبلغ بهذه السرعة المفرطة إلى عقدة القضية، التي هي في الحقيقة بسيطة جدًّا، لا لأنه لم ين يفهم ما هو الموضوع وإنّما ليحافظ على رصانة دوره.

وسأل:

- أهي متزوجة؟

- لا، بل هي فتاة.

- وهل أنت متزوج؟

- قلت لك أن لا.

- عفواً... لقد نسيت ذلك... إذن، إنّ لديك شعوراً بأنّ هذه الآنسة... لأنّها آنسة، أليس كذلك؟

فلم يسعني إلّا أن أؤكد بنفاد صبر:

- طبعاً.

- اعذرني، لقد أسأت التعبير: كنت أريد أن أعرف إن كانت القضية قضية آنسة تنتمي إلى أسرة طيبة، أم قضية امرأة تعيش وحدها، وتسوق حياة مستقلة؟

- آنسة من أسرة طيبة.

فقال بلهجة سريّة:

- لقد توقعت ذلك.

فلم أتمالك هذه المرّة من أن أسأله:

- ولماذا توقعت ذلك؟

- إنّ هؤلاء هنّ اللواتي يشغلننا أكثر من سواهن، الفتيات الصبيّات، ذوات الثامنة عشرة، والعشرين. إنّ لديك شعوراً إذن بأنّ الآنسة تخونك؟

- أجل.

- إنّه الدافع الأبدي الخالد. اعذرني إذا قلت ذلك، فإنّ تسعين بالمائة من الذين يأتون إلينا يقولون الشيء نفسه. ومن سوء الحظ أنّ شكوكهم في سبعين بالمائة من الحالات، تتكشّف صائبة.

- إذا كانت شكوكهم صائبة، فلماذا إذن يلجأون إلى وكالتكم؟

- ليحصلوا على يقين حسابي دقيق.

- وهذا اليقين، هل أنتم قادرون على الحصول عليه؟

فهزّ الماجور رأسه في حركة تعاطف رحيمة:

- اسمع، ربّما كنت تظنّ أنّ بوسع أي إنسان أن يقوم ببعض التحقيقات. حتّى الشخص المعنيّ نفسه. ولكن الأمر ليس كذلك. فإنّ بين تحريّات محقّق مرتجل، وبين تحرّياتنا، الفرق نفسه الذي يقوم به تحليلات هاوٍ محرومٍ من الوسائل ومن الجدّ، وتحليلات مختبر علمي. فإذا كنت تريدُ أن تعرف مرضاً معيناً، أتراك تقصد مشعوذاً لتطلب منه التحليل، أم تقصد مختبراً علمياً رصيناً، ذا حظوة، ومعترفاً به من القانون؟ إنّك بالطبع تفعل هذا الأمر الأخير. ووكالة فالكو هي مختبر رصين ذو حظوة، ويعترف به القانون (وكفّ الماجور عن الكلام ليشير إلى شهادة مؤطّرة معلقة على الجدار، فوق رأسه) مختبر قادر على أن يحصل بطريقة علمية على اليقين الذي تحتاج إليه.

فسألته، كسباً للوقت:

- يمكنكم بعبارة أخرى، أن تكشفوا الحقيقة؟

- دائماً. إنّ عدم اليقين هو حالةٌ نادرة، وتكاد تكون غير موجودة. فوكلاؤنا بارعون، جديرون بكلّ الثقة؛ وهم جميعاً من رجال الدرك والأمن العام، ومن المستحيل علمياً إلّا يلقوا الضوء على الخفايا.

- وكم تستغرق المراقبة من الوقت؟

فقام الماجور بحركة بيروقراطية كلاسيكية؛ وأعاد إلى مكانه قلماً كان موجوداً في مكانه. وأخذ ذقنه بيده، ونظر إليّ بعينيه الصغيرتين السوداوين المنطفئتين:

- بوسعي أن أقول لك أسبوعين أو ثلاثة. بل أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك. ولكنّي لا أريد أن أسرق مالك. فنحن بعد أسبوع نكون مطّلعين على كلّ شيء. حين تحبّ امرأة رجلاً، لا تراه مرّةً واحدة في الأسبوع. وإنّما تراه كلّ يوم، بل بضع مرّات في اليوم. فإذا أثبتنا أنّ الشخص المراقب يرى رجلاً كلّ يوم، أو حتّى بضع مرّات في اليوم، فإنّ زبوننا يقبض على جميع الحجج التي بين يديه وطبعاً، إذا لم يقتنع زبوننا، فبوسعنا أن نقوم بعمل تحقيق إضافي، نتعمّق فيه الأمور...

- ماذا تقصد بتعمّق الأمور؟

- المعذرة، فهذه ليست أشياء يمكن التحدّث عنها مسبّقاً. يجب أن نعرف الحالة. ولكن بوسعك أن تطمئنّ، فأسبوع واحد سيكفي. إنّ حالتك، لنقل ذلك من غير أن نجرحك، هي حالة مشتركة.

- ولماذا مشتركة؟

- إنّها أبسط الحالات. وليست لديك فكرةٌ عن التعقيدات التي نواجهها أحياناً. فإنّ أسبوعاً واحداً، كما قلت لك هو أكثر من كافٍ.

فقلت: «فهمت» ثم لزمت الصمت لحظة. وكنت أفكّر بأنّ الماجور كان مقتنعاً بإمكانية العثور على الحقيقة بفضل تحقيقاته التي

يصفها بأنّها علمية، وكنت أفكّر أيضاً بأنّ حقيقة الماجور هذه لم تكن حقيقتي. وسألته أخيراً:

- ما هي شروط الدفع؟

- عشرة آلاف لير في اليوم. مع مبلغ إضافي يحدّد إذا كان الشخص الذي تريد أن تراقبه يتنقّل في السيارة، لأنّ وكلاءنا في هذه الحالة، سيضطرون لأن يستعملوا بدورهم سيارة.

فقلت بتفكّر:

- ولكنّها لا تتنقّل بالسيارة، بل على القدمين.

- في هذه الحالة عشرة آلاف لير.

- ومتى تستطيعون البدء؟

- غداً، ستقدّم لي كلّ المعطيات المطلوبة فأدرسها، وغداً يبدأ الوكيل ملاحقته.

ونهضت فجأة وأنا أقول:

- سنبدأ بعد أسبوع. فالشخص المعني ليس موجوداً في روما الآن، ولن يعود قبل أسبوع.

كان الماجور موسكوني قد نهض هو أيضاً، وقال:

- كما تشاء ولكن إذا كنت متردّداً بسبب السعر، فاستعلم، وسترى أنّ الوكالات الأخرى لن تكلّفك أقلّ من ذلك.

فأجبت بأنّ القضية لم تكن قضية سعر، وردّدت بأنني سأعود بعد أسبوع ثمّ مضيت.

وعدت آلياً إلى مكتبي وتهيّأت لانتظار سيسيليا، لأنّه كان أحد اليومين أو الثلاثة التي كنّا نلتقي بها في الأسبوع.

وكنت منذ حين من الزمن أعاني الأرق بسبب القلق الذي كانت توحيه لي علاقاتي بسيسيليا. وكنت في العادة أستغرق في النوم فور تمدّدي في السرير، ولكن ما إن تنقضي ساعة حتّى كنت أستيقظ

منتفضاً كما لو أنّي تلقيت ضربة، وكنت إذ ذاك آخذ في التفكير بسيسيليا تفكيراً لا يُقهر، ولا يعود إليّ النوم إلّا مع الفجر، لأستيقظ بعد ذلك، في الساعة المعتادة، أي في ساعة مبكرة جدًّا. ولهذا كان يتفق لي، في أثناء النهار، أن أستسلم للإرهاق، فأنام حيث أكون نوماً ثقيلاً لمدّة ساعتين أو ثلاث.

وهذا ما حدث لي في ذلك اليوم. وكان ستار النافذة مسدلاً، فكان نورٌ مريحٌ أصفر وحارٌ يملأ الرسم. وتمدّدت على الأريكة، وأخذت أنظر وأنا مستلقٍ على جانبي إلى القماشة البيضاء التي كانت ما تزال قائمة على المسند، بالقرب من الباب الزجاجي. وكنت أفكّر بأنّ القماشة كانت فارغة لأنّني لم أكن أنجح في امتلاك حقيقةٍ ما، بالطريقة نفسها التي كان ذهني فيها فارغاً بالنسبة لسيسيليا التي كانت تفلت منّي والتي كنت عاجزاً عن امتلاكها. وكان العمل الجسدي الذي كان يعطيني غالباً وهم امتلاك سيسيليا يعادل الرسم الداعر الذي كان ينفّذه باليستياري، أي أنّه لم يكن امتلاكاً، كما أنّ ذلك لم يكن رسماً. وعلى نحو ما كنت أترجّح مع سيسيليا بين السأم وبين الهوس الجنسي. هكذا كنت في الفنّ، أتحيّر بين الرسم الرديء والعدول عن الرسم. وها إنّني الآن أتوجّه إلى وكالة فالكو لأعرف شيئاً يقينياً عن سيسليا، ولكن ذلك كان شبيهاً بلجوئي إلى قراءة كتاب علمي عن طبيعة المادة وتركيبها، من أجل أن أرسم. كنت أفكّر بأنّ القماشة كانت فارغة، لأنّ سيسيليا كانت تفلت منّي، وكان ذهني فارغاً لأنّ الحقيقة الواقعة كانت تهرب منّي. والحقيقة وسيسيليا كانتا الكلمتين اللتين تُصديان في رأسي أضعافا فأضعافا، مذكّرتين بعمليتين مختلفتين كنت أحسّهما مع ذلك مرتبطتين برباط لا يُنكر. وكان يخيّل إليّ أنّ هذا الرباط إنّما كان هوس الامتلاك، وأنّ العمليتين كلتيهما كانتا تخفقان، بسبب استحالة الامتلاك.

وانتهى بي الأمر إلى الاستغراق في النوم، وأنا أفكّر بهذه الأمور تفكيراً يزداد مشقة وإجهاداً.

ولكنّي ما كدت أنام حتّى استيقظت. وكان المرسم في الظلمة تقريباً، وإذ أضأت المصباح، لاحظت أنّي في الواقع قد نمت زهاء ساعة. وكانت الساعة الخامسة والنصف. وكنت قد عُدت من الوكالة حوالي الرابعة والنصف. وهذا النوم الذي كان عميقاً جدًّا حتّى إنّه أشعرني بأنّي لم أنم على الإطلاق، عاد عليّ بالراحة؛ وأحسستني متبصّراً إلى أبعد حدّ، وكان مثل هذا يحدث لي في الماضي حين كنت أتأهّب للرسم، ممتلئاً بطاقة خلّاقة واعية ومبصرة.

ورفعت عيني نحو القماشة، فجاءتني، على غير ما إرادة منّي تقريباً، فكرةُ أنّه كان ممّا يؤسف له أن أكون قد عدلت عن الرسم: لقد كنت في حالة نفسية صالحة للعمل. ومع ذلك، ما كادت هذه الفكرة تأتيني، حتّى قفزت من الأريكة وهرعت إلى خارج المرسم. وكنت على ثقة بأنّ سيسيليا كانت في بيت لوسياني، وكنت أريد أن أفاجئها في اللحظة التي تخرج فيها لتقصد مرسمي.

وبالواقع: كنت حتّى ذلك الحين قد راقبت سيسيليا كلّ يوم، باستثناء اليوم الذي كنّا نلتقي فيه، لظنّي، ولا أدري السبب، أنّها لم تكن تقوم بفعل الحب معي ومع الممثل بعد ظهر اليوم نفسه. ولكن سيسيليا كانت قد أخبرتني ذلك الصباح بالتلفون بأنّها لن تستطيع أن تراني قبل الساعة السادسة؛ وكنت أدرك الآن لماذا كانت قد أعطتني موعداً في تلك الساعة: إن عليها قبل أن تجيء إلى مرسمي أن تقصد بيت لوسياني. وهكذا، فبينما لم أكن أستطيع، في الأيام الأخرى، أن أعرف الساعة التي كانت سيسيليا تقصد فيها بيت لوسياني، ولا الساعة التي تتركه فيها، كنت أعرف اليوم على الأقل، معرفةً يقينية، الساعة التي ستغادر فيها بيته، لأنّها كانت الساعة التي تجيء فيها إليّ.

ودهشت أن يكون أمرٌ في مثل هذه البساطة، ومتطابق مع بسيكولوجية سيسيليا القاسية قسوة بريئة، لم يخطر على ذهني قبل ذلك. والواقع أنّ من شأنها حقًّا أن تنتقل من ذراعي الممثل إلى ذراعي، في مدّة لا تكاد تجاوز نصف ساعة؛ وأن تهب نفسها لي بمثل الاستسلام اللطيف الذي وهبت نفسها له، وأن تمزج في بطنها بالذات زرع كلّ منّا، بنهم حيواني. فكيف حدث أنّي لم أفكّر بمثل هذا قبل ذلك؟

وبعد ربع ساعة، كنت أمام بيت الممثل، وقد وجدت تجاه المدخل تقريباً، مكاناً لسيارتي ظللت فيه. ولم تكن بي حاجة لأن أذهب فأجلس في الحانة: وكان المفروض بسيسيليا، وفق حساباتي، أن تخرج بعد خمس دقائق على الأكثر.

وأشعلت سيكارة، فيما ظللت أحدّق بمصاريع الطابق الأرضي المضاءة. وكانت تلك مصاريع لوسياني؛ وفي تلك اللحظة، كان من المرجّح أنّ سيسيليا ترتدي ثيابها، وهي تقول للممثل تلك الأكذوبة الطفولية نفسها التي كانت تقولها لي: «يجب أن أذهب، فإنّ أميّ تنتظرني» ولاحظت وأنا أنظر إلى المصاريع أنّي كنت أشعر بشعور غثيان لا يختلف كثيراً عن الشعور الذي كان يوحيه لي في السابق وجه القماشة البكر في اللحظة التي كنت أتأهّب فيها للرسم: فمن هذا الباب المؤطّر بالمرمر الأسود، سيبرز ما كنت أرغب في الوقت نفسه أن أعرف وأجهل، شيء كان يوقظ فيّ في وقت واحد شهوة واشمئزازاً: سيسيليا، أي الحقيقة الواقعة، وكنت أعلم أنّه كان عليّ أن أبقى في سيارتي ما لم ألمح سيسيليا على العتبة، ولكنّي كنت في الوقت نفسه شديد الرغبة في الذهاب. وعلى ضوء هذا الشعور المزدوج المتناقض، كنت أدرك مرّة أخرى أنّ ما كان قد دفعني غالباً إلى التخلي عن مراقبتي، في الأيام الماضية، لم يكن كما سبق أن ظننت تمرّداً من كرامتي، بل كان اشمئزازاً من سيسيليا على النحو الذي كانت عليه، أي إزاء الحقيقة الواقعة.

وكما توقّعت، رأيت بعد خمس دقائق سيسيليا والممثل يظهران معاً على العتبة، وكان كلٌ منهما يمسك بيد الآخر وقد أوحيا لي بأنّهما كانا معاً يترنحان، منتشيين على نحوٍ ما. ولاحظت أنّ سيسيليا كانت تضمّ يد الممثل بطريقة خاصّة، إذ كانت أصابعها مشتبكة بأصابعه، كأنّما هي تكرر بلا وعي اعتناق جسديهما الحديث.

وابتعدا على الرصيف، هابطين المنحدر، ما تزال يداهما متعانقتين.

إنّ بوسع المرء أن يتنبأ بكلّ شيء، إلّا بالشعور الذي يمكن أن يوحيه لك ما تنبأت به. فمن الممكن مثلاً التنبؤ بأنّ حية ستخرج من ثقبٍ تحت صخرة، ولكن من الصعب التنبؤ بصفة وكثافة الخوف الذي ستخلّفه فينا رؤية الحيوان الزاحف. وكنت قد تخيّلت ألف مرّة خروج سيسيليا من بيت الممثل، وحدها أو بصحبته، ولكنّي لم أتنبأ بالمشاعر التي سأحسّ بها إذ أراها تخرج من هذا الباب المؤطّر بالمرمر الأسود، ويدها في يد لوسياني. ولهذا أدهشني، إذ رأيت سيسيليا والممثل جامدين (وكأنّهما كذلك إلى الأبد) على عتبة الباب، أن أشعر بشعور فظيع شبيه بالإغماء. كنت أتألم بصورة هائلة، ودهشت في الوقت نفسه بأن أتألم إلى هذا الحد وبهذه الصورة الجديدة، بينما كنت قد أعددت نفسي بمثل تلك التنبؤات الدقيقة. وكنت أحسّ صور هذين الكائنين تُحفر في ذاكرتي بشكل غير قابل للإمحاء، وكنت أشعر بألم محرق كما لو أنّ هذه الصورة كانت حديدة محمّرة بالنار، وكانت ذاكرتي لحماً حسّاساً كان يتلوّى تحت الحفر.

قلت إنّ عذابي كان يشبه إغماء. والواقع أنّه أغمي عليّ في كلّ جسمي، إلّا في نقطة كانت حيويتي برمّتها قد تركزت فيها على ما يبدو، فلم أكن مغمياً عليّ، وإنّما كنت حاضراً لنفسي بشكل يتجاوز

كلّ حدّ. ومن هذا كنت أعاني: أنّ أحسّني أنهار في كلّ مكان، إلّا في هذه النقطة الحادّة. وكنت قد أدرت المحرّك بصورة آلية، وأخرجت السيارة من حيث كانت واقفة، وبدأت أتبع سيسيليا ولوسياني عن بُعد.

كانا يسيران ببطء، متشابكي اليدين، صامتين وسعيدين بلا شك. وأمام حانوت حلاق، وقف الممثل، فحدثته سيسيليا لحظة، ثمّ مدّت له يدها فقبّلها. وثبّتّ عيني عليها، وكانت تختفي تارة وطوراً تظهر، حسب منعطفات الطريق، وهبطت قسماً من الطريق وأنا أسوق ببطء. وكنت أنظر إليها، وأتأمل خاصة حركة خاصرتيها في ثوبها القصير الضيق، حركة كانت في الوقت نفسه مرتكبةً، لامبالية، قوية، وكنت أشعر أنّي ما زلت أشتهيها، كما لو أنّي لم أكن قط على يقين من خيانتها. وفهمت أنّي إذا كنت أريد حقًّا ألا أشتهيها بعد، فينبغي أن أقسرها على الاعتراف بالحقيقة، هذه الحقيقة التي من شأنها وحدها أن تحدّدها لعينيّ، فتقتل حبّي.

وفي هذه الأثناء، كانت سيسيليا قد بلغت موقف الأوتوبيس، على انخفاض قليل. ونظرت إلى ساعتي: كان ما يزال باقياً على موعدنا عشر دقائق. وإذن، فإنّ سيسيليا الدقيقة في مواعيدها قد حسبت حساباً مضبوطاً: فبعد ربع ساعةٍ على الأكثر، سيضعها الأوتوبيس في «ساحة الشعب»، على بُعد خطوات من مرسمي. وسوف تستطيع سيسيليا عند الساعة السادسة، وعلى الموعد المضروب، أن ترتمي بين ذراعي.

وفجأة أوقفت سيارتي قربها، وكانت في تلك اللحظة تفتّش في محفظتها، خافضة الرأس؛ وفتحت باب السيارة فقلت لها بصوت طبيعي:

- هل تريدين أن تصعدي؟

فرفعت عينيها ورأتني، وبدت على وشك أن تتكلّم، ثمّ عدلت، ثمّ صعدت بصمت. وانطلقت، وسرعان ما سألتها:

- ما الذي جاء بك إلى هذه النواحي؟

فأجابت:

- لقد قصدت منتج الأفلام.

- ولكن، أليس مكتبه في شارع مونتبيلو؟

- بلى، ولكن هنا مسكنه الخاص.

فحدجتها بنظرة جانبية، ولاحظت بالرغم من اضطرابي، أنّها كانت هي كذلك مضطربة مهما بدت هذه الكلمة غير جديرة بوصف شخص يبلغ من قلّة التعبير ما تبلغه سيسيليا. ولكنّي حزرت ذلك من تقطيب خفيف جدًّا في حاجبيتها كنت أعلم أنّه يسجل لديها اضطراباً وتململاً. وعزمت على أن أهاجمها في عنف عقلاني، كما يحدث في استجوابات الشرطة.

- ما اسم هذا المنتج، بسرعة، الاسم والعائلة...

- اسمه ماريو ميلوني.

- أين يسكن، رقم الشارع، والطابق، والشقة، بسرعة...

فأجابت بصوت مائعٍ، كتلميذة صغيرة يسألها معلّمها:

- يسكن في شارع أرخميدس، رقم ٣٦، الطابق الثالث، الشقة ٦.

وكان ذلك رقم بيت لوسياني، ولكن لا الطابق ولا رقم الشقة. وفهمت أنّ سيسيليا كانت تريد، وهي تعطيني هذا الرقم، أن تحترس ضد نزاع محتمل، إذا قلت لها إنّي رأيتها تخرج. ولكن كيف تراها ستشرح وجود الممثل إلى جانبها؟ وأردت أن أعرف كيف ستبرّر ذلك.

- لقد رأيتك تخرجين، منذ لحظة، من رقم ٣٦، ولكنّك لم تكوني وحدك، بل برفقة لوسياني.

- كان هو أيضاً عند المخرج وقد قصدناه معاً.

- لأية غاية؟
- كان المتفق أن يحدّثنا عن عمل.
- أي عمل؟
- فيلم.
- ما عنوان هذا الفيلم؟
- لم يقل لنا ذلك.
- وأين استقبلكما ميلوني؟
- في غرفة الاستقبال.
- صفي لي هذه الغرفة، بسرعة، ابتداء من الأثاث والأماكن الموضوع فيها.

وكنت أعرف أنّ سيسيليا لم تكن ترى الأشياء ولا الإطار الذي كانت تقوم فيه بالإجمال. وإذن فقد فكّرت أنّها إذا وصفت لي، من أجل أن تطمئنني، أثاث صالون ميلوني بكلّ تفاصيله، هذا الصالون الذي لم يسبق لها قط أن رأته، فسأحصل على دليل آخر بأنّها كانت تكذب عليّ. ولكنّي لم أحسب حساب كسلها التجريدي الذي لا يُقهر. فهي قد أجابت بجفاء:

- غرفة استقبال ككثير من غرف الاستقبال.

فألححت وأنا حائر وشبه معجب:

- يعني؟
- غرفة استقبال، فيها أرائك ومقاعد وطاولات وكراسي.

وكانت هي الكلمات نفسها التي استعملتها لتصف غرفة استقبال ذويها، وألححت من جديد:

- ما هو لون الأرائك والمقاعد؟
- إنّني لم أنظر إليها.
- وما هو لون «كلسون» لوسياني، إنّك قد نظرت إلى هذا على الأقل!

- آه! هكذا، كنت أعلم أنّك ستبدأ بغمزاتك!

وكنّا آنذاك قد بلغنا شارع مرغوتا. فأدخلت السيارة إلى الساحة، ثمّ وثبت إلى الخارج، ثمّ واصلت برنامج الإرهاب النظامي الذي كنت قد وضعته، فقبضت على سيسيليا من ذراعها وأخرجتها بفظاظة من السيارة:

- سنرى، الآن...

- ماذا؟

- إن كنت قد قلت الحقيقة.

وكنت أضغط بقوّة على ذراعها الهزيلة، ذراع الفتاة الصغيرة، ولاحظت أنّي إنّما كنت أسحبها وأنا أعدو لأوجّه لها بين الحين والحين هزةً عنيفة، بحيث يمكن أن تتعثّر بل حتّى أن تقع. وقالت في المرّة الأولى:

- أيّة طريقة هذه!

وقالت في المرّة الثانية:

- ولكن هل يمكن أن نعرف ماذا دهاك؟

ولكنّها مع ذلك لم تكن تبدو مندهشة، ولا غاضبة، ولا مذعورة.

ووضعت المفتاح في القفل، ثمّ أدرته وفتحت الباب بركلةٍ من قدمي، ثمّ أضأت النور، وأخيراً، بدفعة أخيرة أعنف، رميت سيسيليا على الأريكة. وسقط رأسها عليها أوّل ما سقط. وهرعت إلى التلفون فأخذت أقلّب صفحات الدليل في غضب، وفقاً للشوارع. وبحثت ووجدت، ثمّ صوّبت إصبعي إلى صفحة، وشهرت الدليل فوق أنف سيسيليا التي كانت قد نهضت آنذاك.

- في الرقم ٣٦ من شارع أرخميدس، ليس هناك من يدعي ميلوني.

- إنّ رقمه غير موجود في الدليل.

- ولماذا؟

- لأنّه لا يريد أن يُزعجه أحد.

- ولكن في الرقم ٣٦، هناك مثلاً، لوسياني...

- هذا غير ممكن، فهو غير موجود في الدليل.

- ربّما كان هذه صحيحاً بالنسبة لدليل أسماء المشتركين. أمّا في دليل الشوارع، فهو موجود... انظري هنا، هل ترين؟

فنظرت على مضض، ولكنّها لم تقل شيئاً. وعلّقت بلهجة ساخرة:

- يا لها من مصادفة! إنّ ميلوني ولوسياني يسكنان البيت نفسه!

- نعم، إنّ لوسياني يسكن في الطابق الأرضي، وميلوني في الثالث.

- حسناً جدًّا... والآن، سنخرج، وسنقصد معاً بيت ميلوني.

وتبع ذلك صمت طويل. وكانت سيسيليا تتأمّلني بعينيها الجميلتين الشاعرتين اللتين لم تكونا مع ذلك تريان شيئاً. وكانت تلتزم الصمت. وتابعت:

- هيّا، تحرّكي!

فرأيتها تحمرّ احمراراً غير متساوٍ، يصعد لطخاتٍ من عنقها إلى خدّيها.

وقالت:

- نعم، هذا صحيح.

- ما هو الصحيح؟

- إنّنا نتقابل، أنا ولوسياني.

وهذه المرّة أيضاً، كنت قد توقعت كلمات الاعتراف هذه، منذ وقت طويل؛ ولكن كان ثمّة فرق بين التوقّع بالذهن، والسماع بالأذنين؛ ومن جديد، كما حدث حين رأيتها تخرج من بيت لوسياني، شعرت بأنّي كنت منزعجاً.

وتمتمتُ ببلادة:

- إنّكما تتقابلان؟ ماذا تقصدين؟ أنا أعرف جيّداً أنّكما تتقابلان.

- إنّنا نقوم بفعل الحب.

- وتقولين ذلك هكذا؟

- وكيف ينبغي لي أن أقوله؟

وفكّرت بأنّها كانت على حق، إنّها لم تكن تحبّني، وكانت تخونني: فلهجتها الواضحة الخالية من الحرارة هي اللهجة المناسبة. بيد أنّي ظللت أشعر بحاجةٍ مسعورة لأنّ أحبسها في اعترافها كما في زنزانة عارٍ لن تستطيع أن تهرب منها أبداً.

- ولكن لماذا فعلت ذلك؟

فبدت تفكّر بجدّ وتدقيق قبل أن تجيب. ثمّ قالت ببساطة:

- لأنّ ذلك كان يلذّ لي.

- ولكن ألا تدركين أنّه كان عليك ألّا تفعلي ذلك؟

- ولماذا كان عليّ ألّا أفعله؟

- لأنّنا لا نخون رجلاً نحبّه، وقد قلت لي مرّات كثيرة أنّك كنت تحبينني!

- نعم أحبّك، ولكنّي أحبّ أيضاً لوسياني.

- وهكذا، فأنت من هؤلاء النساء اللواتي يهبن أنفسهن للجميع، بالأمس لرسّام، واليوم لممثل، وغداً ربّما لعامل الكهرباء...

فنظرت إليّ من غير أن تقول شيئاً. وقلت مؤكداً:

- أنت امرأة حقيرة، ولا قيمة لك.

وظلّت على صمتها. ولماذا تراني كنت ألحّ على هذه النقطة؟ لأنّي كنت أودّ لو أقنع نفسي بأنّ سيسيليا، بعد اعترافها، قد أنقصت قيمة نفسها، وأذلّتها وحقّرتها في عيني، بينما الواقع لم يكن هذا على الإطلاق. ومع ذلك، فلا بدّ من أن يكون ثمّة إنقاص قيمة، وتحقير،

ولم أكن أستطيع الامتناع عن الاعتقاد بذلك. لقد سقطت بعض النساء، من حيث الاعتبار والإحساس اللذين كنت أكنّهما لهنّ، لمجرّد عبارة، أو حركة، أو سلوك؛ فأولى بذلك إذن سيسيليا التي خانتني وخدعتني بطريقة مبتذلة.

وانتهيت إلى القول، في غضب:

- ألا تدركين أنّ المرء هو ما يفعله، وأنّ ما فعلته يجعلك مختلفة عمّا كنته؟

وكنت أودّ لو تسألني:

- ماذا كنت، وماذا أنا الآن؟

ولو فعلت لأجبتها:

- كنت فتاة طيبة، وأنت الآن مومس.

وفي الوقت نفسه كان من شأن سؤالها، لو طرحته، أن يُظهر لديها حاجةً بأن تكون معتبرةً ومحترمةً ومقدّرة من قبلي. ولكن خاب أملي: فإنّ سيسيليا لم تفتح فمها، وفهمت أنّ الصمت كان الجواب الوحيد الذي كان يمكنني أن أنتظره منها. وكان هذا الصمت يعني أنّ الكذب والخداع كانا بالنسبة إليها كلمتين خاليتين المعنى، لا لأنّها لم تكن لتفهمهما، بل لأنّه لم يكن ثمة في حياتها شيء يمكن أن يدلّ عليهما.

وأحسستها تفلت منّي من جديد، فصحت غاضباً وأنا أهزّها من ذراعها:

- ولكن لِمَ لا تتكلمين؟ لمَ لا تجيبين؟

فقالت في صدق:

- ليس لديّ ما أقوله.

فهدّدت أنا غاضباً:

- أمّا أنا، فإنّ عندي، على العكس، ما أقوله. وهو أنّك قحبة صغيرة مبتذلة!

فنظرت إليّ في صمت، وهززتها من جديد:

- أهكذا أراك تسمحين بأنّ توصفي بأنّك بغيّ ولا تحتجّين؟

فرأيتها تنهض:

- دينو، إنّني ذاهبة.

وكنت أتوقع أشياء كثيرة، ولكنّي لم أكن أتوقّع أن تذهب. لقد سقط عليّ ضيق شديد أرهقني، فسألتها:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- إنّني ذاهبة. فالأفضل أن نكفّ عن التلاقي.

- ولكن لماذا؟ لحظة... انتظري... فيجب أن نتحدّث.

- ما جدوى أن نتحدّث؟ ما دمنا غير متفقين. إن لنا طبعين مختلفين أكثر ممّا ينبغي.

وهكذا كان سيسيليا تفلت منّي من جديد وبشكلين مزدوجين: الأوّل حين تقلّل من أهمية اعترافها بالذات: فقد كان بيني وبينها، في نظرها، اختلاف في الطبع فحسب، كما لو أنّ الخداع والخيانة كانا قضية مزاج خاص، لا قضية مبدأ أخلاقي، والثاني حين تتركني قبل أن أتركها أنا نفسي. وبانتقال مفاجئ من المعنوي إلى المادّي، أحسست بغتةً أنّي أشتهيها؛ كما لو أنّي إذا أخذتها في تلك اللحظة أمكنني أن أتوهّم أنّني أمتلكها بالعلاقة الجسدية، بعد أن فوّت الامتلاك النفسي.

وقبضت عليها من قامتها، فيما كانت متجهة إلى الباب وقلت في أذنها:

- سنقوم مع ذلك بفعل الحب مرةً أخيرة.

فأجابت وهي تحاول التخلّص:

- لا، لا، لا، لقد انتهى الأمر.

- تعالي هنا.

- لا ، دعني.

وكانت تقاوم في عناد، ولكن من غير عداوة، كما لو أنّها كان ترفض لمجرّد أنّي لم أكن أعرف أن أقدم لها حبي بطريقة أجدى. بل لقد كان في عينيها المتردّدين الجامدتين نوعٌ من نداء مبهم، وكان في جسدها، فيما فوق قامتها، استسلام لم أحسّ به في نصفها الأعلى الطفولي الناحل. ولكنّها كانت تقاوم؛ وكنت قد نجحت في حملها على الجلوس من جديد فوق الأريكة، فإذا هي ترتمي إلى الخلف، خارج متناول شفتي. وخطرت لي إذ ذاك فكرة، بالأحرى إغراء. وكنت في الصباح نفسه قد أخذت من خزنتي عشرين ألف لير في ورقتين من فئة العشرة آلاف وضعتهما في جيبي. وجذبت سيسيليا في عنف، وفي الوقت نفسه، بينما كانت تصرف وجهها وكانت قبلتي تضيع في عنقها، دسست لها الورقتين في يدها. ورأيتها تخفض عينيها في وضوح وتلقي نظرة سريعة على الشيء الغريب الذي كان في يدها، وكأنّها تودّ أن تتعرّف عليه؛ ثمّ انقبضت يداها، وأحسست أنّ جسدها يكف المقاومة؛ وكانت سيسيليا قد أسبلت جفونها كما يحدث إذ يستعد الإنسان للنوم، وكانت تلك طريقتها في إفهامي بأنّها كانت تقبل حبّي، وتتأهّب للاستمتاع به.

وهكذا أخذتها، حتّى من غير أن تنزع ثيابها، في سُعْرٍ وعنف يفوقان المعتاد، كما لو أنّ جسدها قد أصبح ضرباً من حَلَبَةٍ، كان عليّ أن أتصارع فيها مع الممثل صراع قوّة ومقاومة. أخذتها في صمت، ولكن في لحظة الانتشاء بالذات، همست في وجهها: «قذرة!»، وخيّل إليّ، وربّما كنت على خطأ، أنّ بسمة خفيفة كانت تطيف بشفتيها، ولكنّي لم أستطع أن أفهم إذا كانت تبتسم من النشوة التي كانت تعانيها، أم من شتيمتي.

وفيما بعد، إذ كنت متمدّداً إلى جانبها، وكانت هي قد أغفت،

جاءتني الفكرة المألوفة بأنّ الامتلاك الجسدي لم يكن يُرضي على الإطلاق. وكانت تلك البسمة الغامضة، والهاربة وربّما الهازئة، التي أجابت بها على شتيمتي، تؤكّد على طريقتها بُطلان العلاقة الجسدية. ولكنّي كنت قد رأيتها تشدّ في قبضتها الورقتين الماليتين؛ وفي أثناء الحب، إذ كانت تغطّي جبينها بديها، بقيت الورقتان طوال الوقت أمام عينيّ. وقلت في نفسي فجأة أنّه ربما كان بإمكان المال، بعد إفلاس محاولتي السابقة للامتلاك، أن يشكّل الأنشوطة التي أستطيع أن أحبسها فيها. كانت قد رفضت الاستسلام لي حتّى اللحظة التي وضعت فيها المال في يدها؛ وإذن، وخلافاً لما كنت قد ظننته، فإنّها كانت تباع. وكانت القضية الآن هي قضية التدليل على أنّها كانت كذلك حقًّا، أي تحويل سرّ شخصيتها إلى مسألة مصلحة.

كانت سيسيليا تنام قليلاً إلى جانبي، كمألوف عادتها وللفترة نفسها؛ ثمّ استيقظت، ورشقتني بقبلة على خدّي برقتها الآلية العادية، ثمّ نهضت وهي تسوّي بكلتا يديها ثوبها المدعوك. وكانت الورقتان المطويتان إلى أربع، على الأرض، وقد تركتهما سيسيليا تسقطان أثناء الحب. والتقطتهما ففتحت محفظتها ووضعتهما بعناية كبيرة في حاملة نقودها. وقلت:

- أما زلت راغبةً في أن نفترق؟

ولم تبد مدركة للإيماءة التي تضمّها عبارة «أما زلت» هذه وأجابت بلا مبالاة:

- كما تريد. إذا أردت أن نستمر، فإنّي أقبل. وإذا أردت أن تفترق، فلنفترق.

وفكّرت، لا من غير دهشة، بأنّ المال الذي تلقّته وقبلته لم يخدم هكذا إلا مرّة واحدة؛ إنّه لم يلوّح لمخيلتها الكسلى بأنّ هناك احتمالاً مغرياً بإمكانية ربح مالٍ آخر، في المستقبل، بالطريقة نفسها. وسألتها:

- ولكن إذا استمررت في البقاء معي، فما هو سبب ذلك؟
- لأنّني أحبك.
- وإذا طلبت منك أن تقطعي علاقتك بلوسياني، هل تفعلين؟
- آه! هذا، لا.
وبالرغم مني جرحتني لهجة رفضها الحازمة، فقلت:
- إنّ بوسعك أن تجيبي بلهجة أقلّ حيوية!
- اعذرني.
- بالإجمال، عليّ بعد الآن أن أتقاسمك مع لوسياني؟
فبدت تنتعش كما لو لمست أخيراً نقطة حساسة:
- ولكن ما عسى ذلك أن يؤثّر عليك؟ لماذا يزعجك ذلك إلى هذا الحد؟ سوف آتي للقائك كالعادة، ولن يتغيّر شيء.
وكنت أردّد بيني وبين نفسي: «لن يتغيّر شيء» وأنا أقول إنّ تلك كانت هي الحقيقة، بالنسبة لها على الأقل. وكانت بدأت تتأملني في فضول، وفي شبه أسف. وقالت أخيراً:
- أتعلم أنّه يشقّ عليّ أن أتركك؟
فلم يسعني إلّا أن أتأثّر بصدق هذه الكلمات الواضح. وسألت:
- صحيح؟ أيشقّ عليك ذلك؟
- نعم، لقد تعوّدت عليك.
- ولكن سيشقّ عليك أيضاً أن تتركي لوسياني، أليس كذلك؟
- نعم، كثيراً.
- لقد تعوّدت عليه أيضاً؟
- أنتما شيئان مختلفان.
وظللت صامتاً لحظة. كيف يمكن أن نكون شيئين مختلفين، ما دامت سيسيليا تطلب منّا كلينا الشيء نفسه، وهو العلاقة الجسدية؟ وسألتها:

- إنّك تريدين إذن أن تلتقي بنا كلينا؟

فأومأت برأسها إيجاباً في صمت مليء بالأسرار وبنهم طفولي عنيد. ثمّ قالت:

- أيكون الذنب ذنبي، إذا وجدتني مسرورة مع كليكما؟ إنّ كلاً منكما يعطيني شيئاً مختلفاً...

فأغراني أن أسألها: «إنّني أعطيك المال ولوسياني الحب، أليس الأمر كذلك؟».

ولكنّي تمالكت نفسي، مدركاً أنّه لم يحن الأوان بعد لطرح هذا السؤال. إنّ طرحه يقتضي أن أتعمّق هذه الحالة الجديدة من قابلية البيع. فكونها قد قبلت المال، مرةً بالاتفاق، قد لا يعني شيئاً على الإطلاق.

وصرّحت لها أخيراً، في مزيج من الغضب والإرهاق:

- حسناً، اتفقنا، سنكون لك كلانا، فلنقُم بالتجربة. ولكنّك سترين بنفسك أن حبّ رجلين في وقت واحد أمرٌ مستحيل.

- وأنا أقول لك العكس إن ذلك ممكن جدًّا.

وكان يبدو أنّها كانت مسرورة بما فيه الكفاية لكونها قد حلّت مشكلة علاقاتنا؛ وقد مالت فلامست خدّي بشفتيها وتوجّهت نحو الباب وهي تقول لي كما في كلّ يوم، إنّها ستتلفن لي في صباح اليوم التالي.

واستدرتُ إلى الجدار، وأغمضت عينيّ.

الفصل الثامن

كان عليّ الآن أن أدلّل لنفسي أنّ سيسيليا كانت قابلة للبيع. وكنت أذكر جميع المواقف التي أعطيت فيها مومسات مالاً، وكنت أقول لنفسي إنّ الأمر سينتهي بي، إذا كانت سيسيليا قابلة للبيع، إلى أن أشعر تجاهها بما كنت أحسّ به تجاه هاتيك النساء اللواتي كنت أدفع لهنّ: إحساسٌ بامتلاك مأجور وفائض، وحطّ للشخص الذي تلقّى المال إلى درجة الحاجة التي لا روح لها؛ ونزع كاملٌ للقيمةِ يعزى بحق إلى تسعير تجاريّ. ولم يكن بين هذا وبين السأم الذي من شأنه أن يحرّرني من سيسيليا ومن حبّي لها، إلا خطوة واحدة. لقد كانت طريقة الامتلاك هذه مذهلة ولا شك، سواء بالنسبة للتي تُمتلك أو بالنسبة للذي كان يمتلك؛ وقد كنت أوثر بلا ريب نوعاً آخر من الامتلاك يتيح لي أن أنفصل عن سيسيليا على أنّها شخص كنت أعرفه معرفة عميقة، ولكنّي لم أكن أحتقره، ولكن كان يتوجّب عليّ بأي ثمن أن أهدّئ قلقي. أجل، كنت أفضّل أن أعرف سيسيليا مرتزقة على أن أعرفها مليئة بالأسرار والألغاز؛ لأنّ معرفتي إيّاها كمرتزقة سيمنحني شعوراً بالامتلاك كان السر يحرمني منه.

وإذن، فقد اعتدت، في اللحظات الأولى من لقاءاتنا أن أدس في يد سيسيليا، من غير أن أقول شيئاً كما فعلت في المرّة الأولى، بلغاً كان يتراوح حسب الايام بين خمسة آلاف وثلاثين ألف لير. وكنت أفكّر أنّ سيسيليا السريّة الخفية غير القابلة للالتقاط، والتي لم أكن أنجح في فصلها عنّي، ستُستبدل بهذه الطريقة بسيسيليا محرومة من

السر والخفاء وقابلة بسهولة للإدراك.

ولكن هذا التحوّل لم يحدث، وإنّما حدث العكس. فإنّ المال لم يغيّر طبع سيسيليا، وإنّما غيّرت أقوى السيسيلتين طبعَ المال.

فحين كنت أدسّ في يد سيسيليا الأوراق المالية المطوية، كانت تسارع إلى شدّها في قبضتها، من غير أن تظهر في الواقع أنّها تلقّتها وقبلتها. حتّى لكأنّ اليد التي كانت تعطي هذا المال، واليد التي كانت تأخذه، إنّما كانتا موجودتين في عالم يختلف عن العالم الذي كنّا أنا وسيسيليا موجودين فيه. وبعد ذلك، كانت سيسيليا، فيما كنت أعتنقها، تدع الأوراق تسقط على الأرض، بالقرب من الأريكة، فكان تبقى هناك، مطوية ومدعوكة، بحيث كنت أستطيع ونحن نقوم بفعل الحب أن أراها، فتبدو لعيني رمزاً لنوعٍ من الامتلاك كنت أحسبه أكمل وأدعى للرضى من امتلاكٍ كنت في تلك اللحظة أكرّس نفسي له.

وبعد الحب، كانت سيسيليا وهي تعدو عاريةً على أطراف أصابعها إلى غرفة الحمّام، تنحني بسرعة لتلتقط الأوراق بأطراف أصابعها، في حركة شبيهة بحركة العدّاء الذي ينحني ببراعة ليلم المنديل الذي أسقطه رفيقه، فترميها على الطاولة، بالقرب من محفظتها. وفيما بعد، إذ تفرغ من ارتداء ثيابها، كانت تقترب من الطاولة فتأخذ الأوراق وتضعها بأمان في حافظة نقودها التي كانت تعيدها إلى محفظتها. وكانت تحبّ أن تفعل الأشياء دائماً بطريقة واحدة، بحركات شبه طقسية. وهكذا دخل هذا التفصيل الظرفي للمال في طقس حبّنا المألوف بكثير من الطبعيّة، بل حتّى في شيء من الروعة، بعيداً عن مفهوم البغاء ذاك الذي كنت أظنّ أنّ عليّ أن أربطه به، بل بعيداً عن أي معنى على الإطلاق، ككلّ ما كانت تفعله سيسيليا.

كنت أعطيها في بادئ الأمر، كما ذكرت، بين خمسة آلاف وثلاثين ألف لير، جاهداً في تنويع المبلغ لأرى كيف يكون ردّ فعل سيسيليا؛ وكنت أفكّر أنها إذا سألتني: «لقد أعطيتني في المرّة السابقة عشرين ألف لير، أمّا اليوم، فلا تعطيني إلّا خمسة، فلماذا؟» فسيكون لديّ عامل أكثر من كافٍ لأحكم عليها بأنّها قابلة للبيع. ولكن لم يكن يبدو على سيسيليا أنّها كانت تلاحظ أنّ الورقة التي كنت أضعها في يدها كانت واحدة أو مزدوجة، حمراء أو خضراء، كما لو أنّ حركة الدفع لها لم تكن ذات معنى خاص ودقيق، إنّما كانت إحدى هذه الحركات العديدة التي كنت أقوم بها، وأنا بقربها، وأنّه كان بوسعي أن أفعل حركات أخرى، أو لا أفعل شيئاً على الإطلاق دون أن تتأثّر بذلك علاقاتنا أيّ تأثّر.

وقرّرت إذ ذاك أن أرى ما عساه يحدث إذا كففت تماماً عن إعطائها المال. والغريب إنّي حاولت هذه التجربة في نوع من خفقان القلب. لم أكن أعترف بذلك لنفسي في صراحة، ولكن لما كنت مقتنعاً تقريباً بأنّ الأوراق المالية التي كنت أدسّها خفيةً في يد سيسيليا كانت تشكّل منذ ذلك الحين التبرير الرئيسي لعلاقاتنا، فقد كنت أخشى أن أفقدها في اللحظة نفسها التي كنت آمل أن أدلّل لنفسي فيها أنّه لم يكن لديّ، إذ أفقدها، ما أفقده.

وإذن، فقد أتى يوم لم أضع فيه شيئاً في يدها. واكتشفت في ذهول أنّ سيسيليا بدل أن تُظهر خيبة ما بدت وكأنّها لم تلحظ التغيّر الذي طرأ على طقسنا الغرامي المألوف. ففي ضغط الأصابع التي كانت تتلقى يدي الفارغة، لم يكن ثمّة أي شعور بالاندهاش أو بالخيبة؛ وإنّما كانت الضغطة الحارّة نفسها التي كانت تبلّغني بواسطتها، بعد أن تتلقّى المال، أنّها كانت متأهبةً لأن تهبّ نفسها.

وفي ذلك اليوم قامت سيسيليا بفعل الحب بالطريقة نفسها التي

كانت تقوم به إذ كنت أدفع لها، وذهبتْ من غير أن تشير أيّة إشارة إلى كوني لم أعطها شيئاً. ولقد كرّرت مرتين أو ثلاثاً عدم الدفع هذا، ولكن سيسيليا التي لا يُسبر غورها، أظهرت من جديد أنّها لم تلاحظ شيئاً. وهكذا كنت أجدني أمام ثلاثة فروض: إمّا أنّ سيسيليا كانت قابلة للبيع، ولكنّها كانت تملك مكراً رشيقاً متعالياً يمكّنها من إخفاء ذلك؛ وإمّا أنها كانت شاردة، ولكن شرودها كان مليئاً بالأسرار، أي أنّه كان غير قابل للالتقاط دائماً وأبداً، بالرغم من المال؛ وإمّا أنّها كانت نزيهة غير مغرضة، وفي هذه الحالة أيضاً كانت تفلت منّي وتستعصي على امتلاكي.

وقلبت هذا الموضوع في رأسي على مختلف وجوهه، وعزمت أخيراً على أن أوقعها في الإحراج. وبعد بضعة أيام دسست في يدها من جديد ورقتين من فئة العشرة آلاف لير وقلت لها في سرعة:

- انظري، لقد أعطيتك عشرين ألف لير.

- لقد لاحظت ذلك.

- إنّها المرّة الأولى منذ أسبوع: كنت قد انطقعت عن إعطائك أي شيء. فهل لاحظت ذلك أيضاً؟

- بكلّ تأكيد.

- ولم يزعجك ذلك

- فكّرت في أنّك لم تكن تملك مالاً.

وينبغي أن أقول، بهذا الصدد، إنّ سيسيليا، الخالية من أي فضول، لم تكن قط قد سألتني عن عائلتي، وكانت تجهل إذا كنت غنياً أم لا. كانت تحكم عليّ من مظاهري: رسّام يرتدي كنزة وبنطلوناً مخملياً، وله مرسم في حالة فوضى كبيرة، وسيارة بالية. وإذن، فقد كان جوابها هو الجواب الوحيد الذي استطاعت أن تقوله. وقلت مؤكّداً:

- صحيح، لقد كنت موقتاً في ضيق، ولكن كان يمكن أن تنزعجي بإلّا تتلقي بعدُ شيئاً؟

- فكان جوابها غامضاً:

- قد يحدث لجميع الناس أن ينقصهم المال.

- لنفرض أنّي بعد الآن لن أتمكّن من إعطائك شيئاً: فماذا تراك تفعلين؟

- لقد أعطيتني اليوم مالاً، فلماذا أفكّر في المستقبل؟

وكنت أعرف أنّ هذا من أجوبة سيسيليا الأساسية؛ إنّ الماضي والمستقبل لم يكونا موجودين في نظرها، ولكن الحاضر الأقرب المباشر، اللحظة الهاربة، كانت وحدها تبدو لها جديرة بالاعتبار. ومع ذلك فقد قلت ملحًّا:

- ولكن لنفرض أنّني لا أعطيك بعد شيئاً: فهل تستمرّين في رؤيتي؟

فنظرت إليّ وقالت أخيراً:

- ألم نكن نلتقي حين لم تكن تعطيني شيئاً بعد؟

وقلت في نفسي: إنّ العبارة ممتازة. ولكن اللهجة المتردّدة، الشاكّة المستفهمة، كما لو أنّها لم تكن واثقة كلّ الثقة ممّا كانت تقول، كان يبدو أنّها تدع مجالاً للافتراض بأنّها قد تعيد النظر في قضية علاقتنا كلّها، حين أنطقع نهائياً عن الدفع لها. غير أنّي لم أكن متأكداً، حتّى من ذلك. والواقع أنّني كنت ألاحظ أنّ سيسيليا كانت تجهل حقًّا ما سوف تعمله إذا قطعت عنها عطاياي؛ وذلك للسبب الواضح بأنّها كانت متعلّقة بالحاضر، كما ذكرت، ومحرومة كلياً من الخيال، وأنّها لم تكن تستطيع بالتالي أن تتنبّأ بالإحساس الذي سيوحيه لها ضيقُ ذات يدي، ولا أن تتنبّأ خصوصاً، بعد أن أكف عن الدفع لها، إلى أيّ حدّ ستشعر بالرغبة في القيام بفعل الحب معي،

وإذا ما كان ذلك سيتمّ بالطريقة نفسها، أو بطريقة مختلفة، أو لا يتمّ على الإطلاق. وقلت:

- اسمعي، سأقترح عليك شيئاً: فبدلاً من أعطيك تارة خمسة آلاف، وطوراً عشرة، ومرّة عشرني أو ثلاثين ألفاً، كما افعل الآن، فباستطاعتنا أن نتفق على تحديد مبلغ معيّن أعطيك إيّاه مرّةً في الشهر. فما رأيك في ذلك؟

فاحتجّت بقوّة، احتجاج من يُقترح عليه أن يستبدل بعادة عزيزة لا معقولة بعض الشيء، ولكنّها شاعرية، عادةً أوفر حظاً من العقل، ولكنّها مبتذلة، وقالت:

- لا، لا، لنستمرّ كما كنّا نفعل حتّى الآن. تعطيني شيئاً حين تريد، وكما تريد، بلا أيّة قاعدة، فعلى هذا النحو، ستكون في كلّ مرّة مفاجأة!

ولم أنجح هذه المرّة أيضاً في إلقاء سيسيليا في شرك قابلية البيع، وبالإجمال، في تحويلها من مخلوقة سريّة غير قابلة للالتقاط، إلى امرأة مرتزقة، مبتذلة ومضجرة. وفكّرت أخيراً بأنّ المال الذي يُعطى للمومسات هو في الواقع ذو طابع امتلاكي، لأنّ الذي يعطيه والذي يأخذه، يعتبرانه جميعاً كتعويض عن احتجاجات واضحة ودقيقة. وبعبارة أخرى، فإن عاشق المومس يعرف أنّه إذا لم يدفع لها أجرها، فإنّها سوف تصدّه، وتعرف المرأة، من جهتها، أنّ عليها، إذ تقبل المال، أن تعطي نفسها. ولكنّي كنت مدركاً أنّ سيسيليا كانت تستسلم لي بدافع عوامل لا علاقة لها إطلاقاً بالمال، وأنّها كانت تبدو، من جهة أخرى، وهي تجهل أنّ المال المقبول كان يقسرها على إعطاء نفسها.

وقد حصلت ذات يوم على دليل هذا الجهل، فبعد أن وضعت في يدها الأوراق المالية المألوفة، رأيتها تصدّني بهذه الكلمات:

- اسمع، ليست لديّ اليوم رغبة... فلنبقَ معاً كأخٍ وأخت.

وكانت تلك عبارة لم أكن أستطيع أن أكتشف فيها أيّ نوعٍ من الحساب، وإنّما كنت أكتشف لامبالاة تبلغ أبعد حدود السذاجة. وفي تلك الأثناء، كانت الأوراق المالية في يدها، فوضعتها بسرعة في محفظتها. وهكذا، فإنّ هذا المال نفسه الذي كان يمكن، ما دام في جيبي، أن يبدو لي رمزاً للامتلاك، كان يصبح على العكس، بمجرّد أن يصبح في محفظة سيسيليا، رمزاً لاستحالة هذا الامتلاك نفسه.

ومن جهة أخرى، فإنّ كونها تعرف أنّها كلّما كانت تأتي لتراني، فستتلقى مالاً، لم يغيّر على ما بدا طابع زياراتها المتردّد، المتقطّع، المليء بالألغاز. إنّ سيسيليا ظلّت تأتي أكثر من مرّتين أو ثلاث في الأسبوع، تماماً كما في العهد الذي لم أكن أعطيها فيه شيئاً، وليس ذلك فقط، بل لقد كنت أفهم، عبر تردّدات صوتها وتشكّكاته، حين كانت تحدّد لي موعداً بالتلفون، أنّ لقاءاتنا كانت تتوقّف، كما في السابق، على ضرورات ومناسبات متجرّدة وغامضة لم تكن لها أدنى علاقة بالمال.

وكانت أوّل نتيجة لهذا الهوس بأن أمتلك سيسيليا باللجوء إلى المال، أن تقرّبت من أمّي التي لم أكن قد طلبت منها حتّى الآن إلّا الشيء الضروري لحياتي، تقرّبت منها لأستطيع أن أواجه النفقات التي كانت تطلبها هذه التجربة. وكنت نادماً الآن على أن أكون قد احتقرت مالها ذلك الاحتقار، فقد كنت أدرك أنّي عوّدتها على تجرّد كان بودّي أن أتخلّص منه، وكان يقسرني على أن أمثّل أمام سيسيليا دوراً إن لم يكن دور البخيل، فهو على الأقل دور المقتّر. ولكنّي بلغت هذا المبلغ، لقد أردت أن أكون فقيراً من غير أن أتنبّأ أنّي سأتمنّى ذات يوم أن أكون غنيًّا من أجل سيسيليا، وكان قد فات الأوان لتغيير الأفكار التي كانت أمّي قد كوّنتها عنّي، لا سيما أنّ هذه

الأفكار كانت تنسجم مع ميلها الطبيعي إلى الاقتصاد. غير أنّي كنت أعرف أنّ أمّي كانت مستعدة لتعطيني أكثر ممّا أعطتني حتّى ذلك الحين، ولكن أعرف كذلك أنّها لن تعطيني شيئاً بلا مقابل.

ولقد كانت إرادة أمّي العنيدة هي أن أعود فأعيش معها، ولم أكن أجهل أنّ المال الذي كانت قد أعطتني إياه في الماضي بلا جدوى، والمال الذي كانت تعطيني إياه الآن، وفقاً لطلباتي المتنامية دائماً، كانت لهما في نظرها غايةٌ واحدة، وهي أن تتمكّن من أن تفرض عليّ إرادتها. وجهدت مع ذلك في تأخير موعد الاصطدام الذي كنت أحسّ أنّه لا مفرّ منه، مجيباً كلّ مرّة على كرم أمّي الذي لا أمل منه بمثابرة وموقف ودّي لم أكن بالتأكيد قد عوّدتها عليهما حتّى ذلك الحين، ولكنّي، إذ رأيت أنّها لم تكن فقط تعطيني المال، بل كانت تشجعني دائماً على أن أطلب المزيد منه، أدركت أخيراً أنّه كان بيني وبينها العلاقة نفسها التي كانت بين سيسيليا وبيني. إنّ أمّي كانت هي أيضاً تسعى من جهتها لتأمين سيطرتها عليّ بواسطة المال: ولكن التشابه كان ينتهي هنا، لأنّي لم أكن مماثلاً لسيسيليا، ولم تكن أمّي خصوصاً تشبهني. وبالفعل، فبينما لم يكن المال يبدو مالاً، بين سيسيليا وبيني، بسبب انعدام الأهمية التي كنّا ننسبها إليه، كلٌ لعوامل مختلفة، وإنّما كان يبدو جزءاً من علاقاتنا الغرامية، فإنّه كان يحتفظ بطبيعته الأصلية بين أمّي وبيني، بسبب أنّ أمّي بالذات لم تكن ولا يمكن أن تكون إلّا مالاً. وبالإجمال، فقد كانت أمّي تحبّني، بكلّ تأكيد، ولكنّها لم تكن مستعدة على الإطلاق لإعطائي المال بلا غاية، أي بدافع الحب، الذي كان هو الطريقة الوحيدة لننزع من المال نفسه معناه المألوف.

وقد تأكدت من هذا الفرق يوم طلبت منها مبلغاً أكبر، بحجة رديئة بما فيه الكفاية، كما سنرى. وكان ذلك بعد تناول الغداء، وكانت أمّي قد تمدّدت فوق سريرها في غرفتها، على عادتها، وكانت

إحدى ذراعيها تغطي وجهها، وساقاها متدليتين خارج السرير، وكنت أنا جالساً في مقعدٍ قائم قريباً من رأسها أطرح عليها، كما أظنّ، أسئلة متعلقة بأبي، وهو أحد الموضوعات النادرة التي كنّا نشترك فيها، وكان لا ينى يثير اهتمامي. وكانت أمي تجيبني بطريقة تزداد إيجازاً وإبهاماً، وهي تبدو على وشك أن تنام. وفجأة، وبلا أي تمهيد، قلت لها:

- وبالمناسبة، اسمعي، سأكون بحاجة إلى ثلاثمئة ألف لير.

فرأيتها تزيح ذراعها بكلّ بطء، كاشفة بذلك إحدى عينيها، ثمّ تنظر إليّ لحظة، بعينها تلك الواحدة. ثمّ قالت في لهجة استياء بدت في صوتها الناعس:

- لقد أعطيتك خمسين ألف ليرة يوم السبت، واليوم هو الثلاثاء. فلأي شيء يمكن أن تستعمل هذا المال كلّه؟

فأجبتها، وفق الخطة التي كنت قد تخيلتها:

إنّ هذا ليس إلّا جزءاً من المبلغ الذي ينبغي أن أنفقه: لقد قرّرت أن أجري إصلاحات كثيرة على مرسمي، إنّه في حالة يرثى لها.

- وكم سيكلف مجموع الأعمال؟

- ثلاثة أضعاف على الأقل. فإلى جانب تمليط الجدار، عليّ أن أصلح إصلاحاً كاملاً غرفة الحمّام، وأن أضع ستائر جديدة، وأغيّر البلاط...

وكنت أظنّ خطتي ممتازة. لقد كان المرسم، بالفعل مفتقراً إلى تجديد تام، وإذن فقد كان لديّ تبرير جادّ لأسحب من أمّي مليون لير أو مليوناً ونصف مليون. ومن جهة أخرى، كنت واثقاً أنّ أمّي، بسبب ما كانت تكنّه من كرهٍ نزِق لمرسمي، لن تعزم أبداً على المجيء إلى شارع مارغوتا لتراقب الطريقة التي أنفق بها مالها.

وإذن، فقد انتظرت جوابها في ثقة. ولم تكن أمّي تأتي بأيّة

حركة، كانت تبدو وقد أغفت حقًّا. بيد أنّ صوتها المستيقظ وصلني أخيراً من تحت ذراعها التي كانت تخفي وهها:

- هذه المرة، لن أعطيك مالاً.

- ولماذا؟

- لأنّني لا أرضى ضرورةً لإعطاء مليون لير لمعلم هذا المكان وسيّده، بينما هو يملك إمكانية العيش في مقصورة قائمة على جادة آبيا.

ففهمت ما كانت تقصد إليه، وأدركت، بعد فوات الأوان، أنّ الحجة التي اخترعتها لأسحب مالاً، كانت هي الحجة الوحيدة التي كان عليّ أن أتحاشاها. غير أنّي صحت، متظاهراً بالدهشة:

- ولكن ذلك لا علاقة له...

فقالت أمّي بصوت بطيء، وقاسٍ ورتيب:

- لقد جعلتني أفهم أنّك كنت تنوي الإقامة هنا. وقد أتيح لك أن ترى الفطنة التي عمدت إليها حين تركت لك الوقت كلّه لتقرّر. ولكن ها أنت ذا تطلب منّي المال لتعيد تجديد مرسمك. وأستنتج من ذلك أنّك لا تفي بوعدك:

فقلت مغتاظاً بعض الشيء:

- لم أعدك بشيء. بل إنّي لم أخف عنك قط الاشمئزاز الذي يوحيه لي أن أعيش معك.

- إنّك إذن يا عزيزي دينو، لا تستطيع أن تدهش حين أقول لك إنّني لن أعطيك مالاً هذه المرّة.

وكان قد حدث، قبل ذلك بيومين، أنّي أعطيت سيسيليا آخر خمسين ألف لير كنت أملكها؛ وكان المفروض أن تأتي سيسيليا لتلقاني في اليوم نفسه، بعد الظهر. وبالطبع كان بوسعي ألّا أعطيها شيئاً، كما فعلت ذلك من قبل؛ ولكنّي لاحظت بغتةً أنّني، بعد الآن،

لن أكون قادراً على ذلك. لا لأنّني كنت أتوهّم، إذ أعطيها المال، بأنّي أمتلكها، بل للسبب المعاكس: فقد كان المال يضيف الآن إلى عدم قابلية سيسيليا للالتقاط مظهراً جديداً كان يؤكّدها ويعقّدها: هو التجرّد. وما دامت لا تَدَع نفسها تُمتلك بواسطة المال، فقد كنت أحسّني ميالاً كلّ الميل إلى إعطائها المال؛ كما كنت أحسّني ميّالاً إلى مضاعفة العمل الجنسي؛ لأنّني لم أكن أبلغ به أن أمتلكها. والواقع أنّ المال، كالعمل الجنسي، كانا يعطيانني لمدّة لحظة وهم الامتلاك؛ ولم أكن أستطيع بعدُ أن أستغني عن هذه اللحظة، فيما كنت أعلم بأنّها كانت متبوعة دائماً بإحساسٍ عميق من زوال الوهم.

ونظرت إلى أمّي، التي ما تزال متمدّدة، وما زالت ذراعها تخفي وجهها؛ ثمّ فكّرت في سيسيليا التي كانت إذ تغلق يدها على مالي، تفتح شفيتها لتقبلني، فشعرت بأنّي سأكون جديراً بالمضي حتّى ارتكاب الجريمة، لكي أحصل على المال الذي أحتاج إليه - وفي تلك اللحظة، جذبت انتباهي اليدُ التي كانت أمّي تضعها على عينيها؛ كانت تلبس في كلّ أصبع من أصابعها الهزيلة خاتماً ثقيلاً مزداناً بالأحجار الكريمة. كان حسْبي أحد هذه الخواتم لأستطيع أن أعطي سيسيليا كلّ المال الذي كنت أريده، لمدّة بضعة أشهر على الأقلّ. ثمّ تذكّرت، ولا أرى السبب، الموقف المؤيد، ولو كان مغرضاً، الذي وقفته أمّي يوم استسلمتُ لمغازلة فرّاشتها ريتا، وسرعان ما غيّرت خططي، فنهضت ورحت أجلس على السرير. وقلت في رقّة محسوبة:

- أريد يا ماما أن أكون صريحاً معك. إنّني بحاجة إلى المال لا لأجدّد مرسمي، بل لسبب آخر.

- وما هو؟

- الأفضل لك أن تعطيني ما أطلبه منك، من غير أن تطرحي كثيراً من الأسئلة. فإنّ هناك أشياء ليس من السهل قولها.

- يحقّ للأمّ أن تعرف الطريقة التي ينفق بها ابنها المال الذي تعطيه إيّاه.

- ربّما لو كان ابنها في السادسة عشرة. أمّا إذا كان في الخامسة والثلاثين، فلا.

- إنّ الأمّ هي الأمّ مهما كانت سنّ ابنها.

- حسناً، هذا المال، أنا بحاجة إليه من أجل امرأة!

وبعد أن نطقت بهذه العبارة، تطلّعت إليّ أمّي، فإذا هي ما تزال على جمودها، وإذ بها تبدو كأنّها قد عادت إلى الإغفاء. ولكن صوتها بلغني:

- امرأة سيئة السلوك، بلا شك؟

- ولكن يا ماما، لو كانت القضية قضية مومس، أتعتقدين أنّي سأطلب ثلاثمئة ألف لير؟

- إنّ المرأة المحترمة لا تطلب أن يُدفع لها.

- ولن لنفرض أنّ هذه المرأة محتاجة حقًّا للمال؟

- حذار يا دينو! إنّ هناك نساء جديرات بأن يخترعن روايات حقيقية، ليسحبن المال.

- ليست القضية قضية رواية، وإنّما هي قضية أشياء ذات ضرورة أولية: غذاء، مسكن، ثياب...

- يجب عليك، بالإجمال، أن تتعهدها كليًّا؟

- كلا، وإنّما أريد حقًّا أن أساعدها قليلاً، فترةً من الزمن.

قالت أمّي:

- «واحدة حافية القدمين». كم كان أفضل يا دينو أن تكون لك علاقة بامرأة متزوجة، من وسطك، امرأة كانت لتطلب منك شيئاً، لا لتثقل على حياتك بأيّ شكل.

فأجبت من غير سخرية:

- إنّ وسطي ليس هو الوسط الذي نجد فيه هذا النوع من النساء.
فقالت أمّي:
- إنّ وسطك هو وسطي. ثمّ حذار يا دينو، قبل كلّ شيء، فبوسعك أن تلتقط أمراضاً مع هؤلاء المغامرات اللواتي يسرن اليوم في كلّ مكان.
- لم ألتقط شيئاً حتّى الآن، ولن ألتقط في المستقبل.
- أتعلم من يذهب مع هذه المرأة، حين لا تكون أنت موجوداً؟ أكرّر لك يا دينو، احترس. إنّك لا تجهل، بلا شك، أنّ المرء يستطيع، بل يجب عليه، في بعض الحالات، أن يستعمل بعض الاحتياطات؟
- لن تلبثي طويلاً حتّى تقولي لي كيف يجب أن أتصرّف لأقوم بفعل الحب...
- لا، ولكنّي أريد أن أحذّرك. إنّك ابني أوّلاً وأخيراً، وتهمّني صحتك.
- وبالأجمال، هل تريدين، يا ماما، أن تعطيني هذا المال؟
فنزعت أمّي يدها التي كان تضعها أمام عينيها ونظرت إليّ، وقالت:
- من هي هذه المرأة؟
- أنت ترى، إنكّ تريد مالاً، ولكنّك لا تثق بي.
- ليس السبب أنّي لا أثق بك، ولكن ما يهمّك أن يكون اسمها ماريا أو كلارا أو باولا؟
- إنّني لم أسألك عن اسمها، وإنّما سألتك من تكون، أهي فتاة صبية أم امرأة، أهي تعمل، أم لا تعمل شيئاً، أم أنّها تدرس، ما عمرها، وكيف شكلها؟
- ما أكثرها أشياء، هذه التي تريدين معرفتها مقابل ثلاثمئة ألف لير مسكينة صغيرة!

- إنّك تنسى أنّنا إذا كنّا مضطرين إلى إجراء حسابات، وإلى أن ندخل فيها ما سبق أن أعطيتك إيّاه، فيجب أن تضاعف هذه الثلاثمئة ألف ليرة المسكينة التي تحتقرها إلى هذا الحد.

- آه! لقد فعلت حساب ما أعطيتني إياه؟

- طبعاً.

- حسناً يا ماما، ليست لي أيّة رغبة في أن أجيبك، هذه اللحظة على الأقل، ولكن قولي لي مرّة أولى وأخيرة إذا كنت تريدين أن تعطيني هذا المال، أو لا.

ونظرت أمّي إليّ، ولا بدّ أنّي بدوت لها من العزم، بل من اليأس بحيث ظنّت أنّي لن أسمح لها بأن تشد أكثر ممّا فعلت على حبل قلّة رصانتها. فإذا بها تقول، وهي تتظاهر بخنق تثاؤبة:

- حسناً، اتفقنا. هو هذا المفتاح، فاذهب إلى غرفة الحمّام. أنت تعرف أين هي الخزنة وتعرف السرّ: فافتحها تجد ظرفاً أحمر، فخذه وجئني به.

ونهضت فدخلت غرفة الحمام وأدرت التعليقة المعهودة، وفتحت مربّع الخزف، ثمّ باب الخزنة. وبالفعل، كان فوق ملفّات الأسهم ظرفٌ برتقالي، فأخذته ووزنته: وإذا كان لي أن أحكم عليه من وزنه فلا بدّ أنّه كان محتوياً على نصف مليون لير مكوّنة من أوراق فئة العشرة آلاف على الأقل. وعدت أعطي أمّي الظرف، وكانت قد جلست الآن على طرف السرير وهي ما تزال ناعسة. ورأيتها تفتح الظرف، وتسحب منه بطرف أصابعها ورقة، اثنتين، ثلاث، أربع، خمس ورقات من فئة العشر آلاف:

- خذ هذا الآن.

فلم أتمالك أن صحت:

- ولكن في هذا الظرف خمسمئة ألف ليرة على الأقل.

- بل فيه أكثر من ذلك. ولكن هذا هو كلّ ما أستطيع اليوم أن أعطيك إيّاه. الآن، أعد هذا الظرف إلى مكانه، وأغلق الخزنة، ورُدّ لي المفتاح، ودعني، إنّني متعبة جدًّا وأريد أن أرتاح.

وفعلت ما أمرت به. ولكنّي وأنا أعيد الظرف إلى الخزنة لم يسعني إلّا أن أدهش للثقة التي كانت أمّي، الحذِرة عادة، تمنحني إيّاها. لقد كان بوسعي، بعد كلّ حساب، أن أفتح الظرف من جديد وآخذ مزيداً من المال. ولكنّي ما لبثت أن فهمت أنّ أمي كانت تثق بي. لأنّني منذ ولادتي، إذ صحّ التعبير، كنت قد تدبّرت أمري لأوحي لها بالثقة، بفضل تجرّدي بل احتقاري للمال الذي كنت أتباهى به، ولكنّه كان على كلّ حال صادقاً إلى أبعد حد. وفهمت أنّ الذي تغيّر لم تكن أمّي، بل كنت أنا نفسي، وكنت أحسبّني الآن جديراً تماماً بأن أسرق المال الذي كنت بحاجة إليه لكي أدفع لسيسيليا، وكنت أشعر أنّها إن لم تعطني كفايتي منه، فسينتهي الأمر بي إلى السرقة. نعم، لقد تغيّرت؛ ولم تكن أمّي قد اكتشفت بعد هذا التغيّر فيّ، فظلّت تثق بي كما كانت في السابق. وأغلقت باب الخزنة، وأعدت المربّع إلى مكانه، ورجعت إلى الغرفة، وكانت أمّي قد عادت فتمدّدت على ظهرها، وذراعها على عينيها.

وانحنيت فوضعت المفتاح في يد أمّي ولكن أصابعها لم تلتقطه، فسقط المفتاح على الوسادة. ولامست بشفتي الخد الهزيل المصبوغ وأنا أقول:

- إلى اللقاء، يا ماما.

فأجابتني أنّةٌ خفيفة: كانت هذه المرّة قد أغفلت حقًّا وخرجت على أطراف أصابعي.

وقرّرت أن أقسم هذه الخمسين ألف ليرة إلى قسمين: عشرين ألفاً لي، وثلاثين ألفاً لسيسيليا ستتيح لي في زيارتها القادمة أن أقدّم

تبريراً لقابلية البيع عندها، وهو تبرير أصبح لا غنى عنه. ولكنّي كنت أحسّ أنّ سيسيليا، كما ذكرت، كانت تفلت منّي بمقدار ما كنت أدفع لها؛ وكلّما ازددت دفعاً لها، ازددت شعوراً بأنّها لم تكن لي. ومن جهة أخرى، كان ينضاف الآن إلى قلق امتناعها على الامتلاك قلق الارتياب في أنّها ربّما استسلمت لامتلاك منافسي لها. وبالفعل، كان يبرمني التفكير أكثر فأكثر بأن يكون لوسياني قد تمكّن من امتلاك سيسيليا، وبهذا العمل الجنسي البسيط الذي كان يتبدّى بالنسبة لي غير كاف على الإطلاق. وبالإجمال، كنت أخشى أن يكون الممثل وهو أضعف ثقافة منّي وأقوى غريزة، قد نجح حيث أخفقت. وإذ كنت أفكر بأنّ الامتلاك كان يكمن في تأثير العمل الجنسي على الشخص الذي كان موضوعه أكثر ممّا يكمن في هذا العمل بالذات، فإنّي لم أكن أتعب في سؤال سيسيليا عن علاقتها بلوسياني. وهذا مثال من هذه الاستجوابات:

- هل رأيت لوسياني أمس؟

- نعم.

- رأيته أم قمت بفعل الحب معه؟

- أنت تعلم أنّي حين أقول لك إنّي رأيته، فأقصد أنّي قمت معه بفعل الحب.

- وهل قمتما به كثيراً؟

- كالعادة.

- وهل تقومان به كثيراً عادة؟

- هذا يتوقف على الأيام.

- أتفضلين أن تقومي به معي أم معه؟

- أنتما شيئان مختلفان.

- يعني؟

- مختلفان.
- ولكن أين يكمن هذا الاختلاف؟
- إنّه ألطف منك.
- ويلذّك أن يكون لطيفاً؟
- تلك هي طريقته.
- ولكن أيلذّك ذلك أم لا؟
- لو لم يكن ذلك يلذّني، لما بقيت معه.
- أليس هناك من اختلافات أخرى بيني وبينه؟
- بلى، هو، يتكلم بينما نقوم بفعل الحب.
- وماذا يقول لك؟
- الأشياء التي تقال حين يتبادل المحبّون الحب.
- وأنا أيضاً، أقول لك مثلها أحياناً.
- لا، بل تبقى أبكم، والمرّة الوحيدة التي كلمتني فيها، سمّيتني: قذرة!
- وهل ساءك ذلك؟
- لا، لم يسؤني.
- ولكنّك تفضلين ما يقولك لك، هو؟
- حين أكون معه، أحبّ الأشياء التي يقولها لي، وحين أكون معك، أحبّ صمتك.
- ولكن، بالإجمال، ما الذي تحسّينه حين يأخذك؟
- ليست هذه أشياء يمكن أن تشرح.
- أتحسّين بإحساس أقوى ممّا لو كنتِ معي؟
- لا أدري.
- كيف، لا تدرين؟
- لم أفكر في ذلك قط.

- إذن، فكّري فيه الآن.
- أحسّ أنّه يحبّني.
- وهل يلذك ذلك؟
- يلذّ النساء جميعاً أن يشعرن أنهنّ محبوبات.
- هذا الشعور إذن، هو أقوى من الذي تحسّينه معي؟
- معك أيضاً، أحسّ أنّك تحبّني.
- وهل يلذّك ذلك؟
- بالتأكيد، يلذّني.
- يلذّك أكثر أو أقل ممّا يلذّك مع لوسياني؟
- إنّهما شيئان مختلفان.
- فهمت. والآن، قولي لي: إذا حال سببٌ ما دون أن تلتقي بعد بلوسياني، فهل سيزعجك ذلك؟ هل ستعشرين بفراغ؟
- إنّ هذا لم يحدث بعد، فكيف يمكنني أن أعرفه؟
- ولكن إذا حدث ذلك؟
- سأرى آنذاك. أعتقد أن نعم.
- وإذا لم تستطيعي بعدُ أن تريني أنا؟
- وهذا أيضاً، لم يحدث.
- ولكن تخيّليه.
- حين كنت تقول أنّ علينا أن نفترق، أذكر أنّ ذلك كان يشقّ عليّ.
- كثيراً؟
- كيف يمكننا أن نقيس هذه الأمور؟ كان ذلك يشقّ عليّ.
- ولكن على العموم، أيّنا تحبّين أكثر، هو أم أنا؟
- أنتما شيئان مختلفان.

ورأيت مرّة أخرى أنّي لم أنجح في أن أشدّ سيسيليا عن كثب

حول موضوع عواطفها خلال عملية الحب الجسدي، فحاولت أن أخضع لتحقيقي سؤالاً أكثر براءة:

- مساء أمس، هل خرجت مع لوسياني؟

- نعم، لقد خرجنا نتناول العشاء معاً.

- أين؟

- في مطعم في «تراستيفير».

- لم تريدي قط أن تخرجي معي في المساء.

- لم تكن لي حجّة. إنّ دروس الرسم لا يمكن أن تؤخذ إلّا في النهار. أمّا مع لوسياني، فأستطيع على العكس أن أقول إنّه يريد أن يقدّمني لمنتج أفلام.

- ولكن كيف تريدين أن تقنعيني بأنّ أبويك يعارضان ذلك. لقد رأيتهما، أبويك!

- ماما، كلا، ما كانت لتعارض. أمّا أبي، فبلى. إنّه مريض جدًّا، ولا أستطيع أن أعاكسه.

- حسناً، لندع هذا جانباً. لقد ذهبتما إذن إلى مطعم في تراستفير.

- نعم.

- وبِمَ تحدّثتما؟

- بكثير من الأشياء.

- أيّكما كان أكثر كلاماً: هو أم أنت؟

- أنت تعلم أنّي أحبّ كثيراً أن أصغي.

- طيّب... عمّ تحدّث؟

- لا أذكر.

- اجهدي قليلاً لتذكّري. لقد كان ذلك مساء الأمس!

- ولكنّك تعرف أنّ ليست لي ذاكرة. فأنا لا أذكر حتّى الأشياء التي قلتها لي منذ خمس دقائق.

- حسناً... قليلاً من الصبر! كيف كان المطعم؟
- مطعم ككثير من المطاعم الأخرى.
- ما اسمه؟
- لا أدري.
- أكان صغيراً أم كبيراً، غاصًا أم فارغاً، بقاعة واحدة أم بعدّة قاعات، أنيقاً أم غليظاً؟
- لا أستطيع أن أجيب... فأنا لم أنظر إليه.
- بينما كنتما تتحدّثان، أكانت يدك على يده، على الطاولة؟
- نعم. كيف حزرت ذلك؟
- أتحبّين أن يمسك بيدك؟
- نعم.
- قليلاً أم كثيراً؟
- أعرف أنّ ذلك يلذّني، ولكنّي لا أستطيع أن أقول إلى أيّ حدّ!
- وتحت الطاولة، أكانت ركبتاكما تتلامسان؟
- لا، لأنّا كنّا نجلس متجاورين.
- هل داعبك لوسياني، إلى جانب إمساكه بيدك؟
- نعم، لقد لامس خدّي وقبّلني في عنقي.
- إنّك لا تتذكرني الكلمات، أمّا الملامسات فتذكرينها.
- أذكرها، لأنّني لم أكن أريد...
- وهل تخاصمتما؟
- لا، ولكنّه يريد دائماً أن أفعل أشياء لا أريد أن أفعلها.
- مثلاً؟
- لن أقول لك، لأنّي إذا قلتها، غضبت.
- لا، لن أغضب. قوليها.
- طيّب... كان يريد أن أمسك بيده، ترى أين... هل فهمت؟

- نعم، فهمت؛ وأنت، ماذا؟

- أنا، فعلت ذلك لحظة، ثمّ كففت. ولكن ما بك؟

- لا شيء. ولكن بينما كنت تفعلين ذلك، هل كان يلذّك؟

- كان يلذّني أن يلتذ.

- ولفنرض أنّي أطلب منك الشيء نفسه، فهل يلذّك أن ألتذّ؟

- أظن أن نعم. هناك أشياء كثيرة نفعلها في لذة لأنّنا نعرف أنّها تلذّ شخصاً آخر.

- شخصاً آخر؟ إذن أي شخص؟

- لا. أقول شخصاً آخر واقصد أنت أو لوسياني.

- فهمت. ثمّ ماذا حدث؟

لقد أكلنا وشربنا. ففي المطعم يأكل الناس ويشربون؟ أليس كذلك؟

- وماذا أكلت؟

- لا أذكر؛ إنّني لا أنتبه قط لما آكله. الأشياء العادية.

- وماذا فعلتما أيضاً؟

- لوسياني استقدم الموسيقيين فغنّوا لنا أغاني من نابولي.

- أيّها؟

- لقد نسيت.

- هل تحبين أغاني نابولي؟

- أظن أن نعم.

- تحبينها أم لا؟

هذا يتوقف. في المطعم، نعم. ولكن إذا أتى من يغنيها لي بينما أنام، فلا.

- وبعد ذلك، ماذا فعلتما؟

- ماذا فعلنا؟ لا شيء آخر.

- أراهن أنّ لوسياني اشترى لك وردة ذات ساقٍ ملفوفة بورق فضة؛ اشتراها من إحدى تلك الفتيات اللواتي يذرعن المطعم وهنّ يبعن زهوراً؟

- آه؛ نعم، صحيح، كيف عرفت ذلك؟

- إنّني أعرف أشياء كثيرة، أنا. وأعرف أيضاً أنّك رفعتها إلى منخريك، أليس كذلك؟

- هذا ما يفعله المرء حين يُهدى زهرة، أليس كذلك؟

- وهل لذّلك أن يعطيك لوسياني وردة؟

- نعم.

- وبعد العشاء، إلى أين ذهبتما؟

- إلى السينما.

- ما عنوان الفيلم الذي رأيته؟

- لا أدري.

- ومن هم الممثلون؟

- أستطيع أن أقول... إنّني لا أعرف أسماءهم.

- ولكن على الأقل، ماذا يحدث في هذا الفيلم؟

- أظنّ أنّه كان فيلماً أميركياً؛ إنّهم كما تعرف أشخاص يركبون خيولاً ويطلقون الرصاص.

- فيلم «وسترن». وفي السينما تشابكت أيديكما؟

- نعم.

- وهل تبادلتما القبلات؟

- نعم.

- وهل قمتما بفعل الحب؟

- نعم.

- كيف! قمتما بفعل الحب في السينما؟

- كان مقعدانا في جوف القاعة، خلف عمود، وكانت السينما نصف فارغة.
- وبأيّة طريقة قمتما بفعل الحب؟
- صعدت على ركبتيه.
- وهل لذّك ذلك؟
- لا. كنت خائفة خوفاً شديداً. ثمّ إنّني لا أحبّ أن أفعل هذه الأشياء في الأماكن العامّة.
- لماذا إذن فعلت ذلك؟
- لأنّ الرغبة قد جاءتني آنذاك.
- لقد لذّك هذا إذن؟
- كلا، كانت لديّ الرغبة، ولكن ذلك لم يلذّني.
- وماذا فعلتما أيضاً مساء أمس؟
- قصدنا أحد المراقص.
- أيّها؟
- لا أدري ما اسمه. إنّه يقع خلف شارع فينيتو.
- وكيف كان المرقص؟
- كان فيه كثير من الناس.
- لا، أقصد كيف كانت القاعة، كيف هي مؤثثة، ومزينة؟
- لم أنظر إليها.
- وهل رقصتما؟
- نعم.
- كثيراً؟
- نعم.
- وفي أثناء الرقص، هل التصقت به؟
- لا.

- لماذا؟
- كانت الرقصات التي نرقصها لا تستدعي التقارب الشديد.
- وماذا فعلتما أيضاً؟
- لا شيء غير ذلك. حوالي الساعة الثالثة، رافقني ليوصلني إلى بيتي.
- هل يملك سيارة:
- كان يملك سيارة، ولكنّه باعها.
- إنّه إذن لا يملك مالاً كثيراً؟
في هذه الفترة لا، لأنّه بلا عمل.
- هل تعطينه بعض المال، أحياناً؟
- نعم أعطيه أحياناً.
- مالي أنا؟
- نعم، ما تعطيني إياه.
- هكذا إذن، فإنّ المبالغ التي أعطيك إياها، لا تنفقينها لحسابك؟
- بلى، فإنّي أشتري بعض الحاجات. ولكنّ أكبر جزء منها، أنفقه بمعيّته.
- أمس مساء، أكان هو الذي دفع، أم أنت؟
- لقد تقاسمنا النفقات، فدفع هو السينما، ودفعت الباقي.
- بالإجمال، أنت التي دفعت كلّ شيء تقريباً؟
- لقد دفع في مرّات كثيرة سابقة!
- كيف تمّ لك الأمر إذ أعطيته مالاً؟
- في المطعم، نقلتُ له المال من تحت الطاولة. وفي المرقص، أخذه بنفسه من محفظتي.
- ثمّ رافقك إلى بيتك، في سيارة تاكسي؟

- نعم.
- وهل دخل معك إلى الساحة؟
- نعم.
- وصعدتما السلم معاً؟
- نعم.
- وعلى السلّم، قمتما بفعل الحب؟
- قليلاً على السطيحة، أمام عتبة بيتنا.
- ماذا تقصدين بـ «قليلاً»؟
- لم نمضِ إلى النهاية.
- وهل لذّك ذلك؟
- أكثر من السينما. لأنّي كنت أقلّ خوفاً.
- وبعد ذلك؟
- ثمّ افترقنا.
- وذهبت تنامين؟
- نعم.
- وفكّرت به قبل أن تغفي؟
- لا، بل فكّرت بك.
- بي أنا؟
- نعم، فكّرت بك إلى أن غفوت.
- ماذا فكّرت؟
- لا أذكر. فكّرت بك. هذا كلّ ما في الأمر.

وأودّ الآن أن أروي حادثاً وقع ذات يوم، ليؤكد الشعور بعدم قابلية الالتقاط الذي كانت سيسيليا توحيه لي. فغالباً ما كنت أقصد مرسم باليستياري الذي كان ما يزال في الحالة التي خلّفه فيها موت الرسام العجوز؛ وكنت أقصده خصوصاً حين كنت أعلم أنّ سيسيليا لن تأتي للقائي. ولم تكن الأرملة قد اهتمت بتأجيره، أو أنّها على

الأرجح، لم تكن قد وجدت بعد من يستأجره استئجاراً ثانياً. ولمحت المرسم بفضل المفتاح الذي كان باليستياري قد أعطاه لسيسيليا فسرقته منها؛ وأخذت أطوف بين قطع الأثاث تلك التي كانت الآن مغطاة بغلالة من الغبار، في تلك الرائحة للأشياء القديمة التي تتفاوت في درجات النظافة، باحثاً عمّا لست أدريه. وكنت أحسّ وأنا في تلك القاعة الكبيرة المظلمة الملآى بالأثاث الأسود والطنافس الحمر التي شهدت غراميات سيسيليا وباليستياري - كنت أحسّ بشعور مأتمي، كما لو أنّي، بدلاً من أن أكون في مرسم باليستياري، كنت أجدني في مرسمي، وأنّي كنت أعود إليه، وأنا ميت، بشكل شبح - باعتبار أنّ الأشباح ترجع دائماً، كما هو معروف، إلى أماكن غرامها. وإلى جانب التشابه المنفر للعلاقة القائمة بين سيسيليا وبيني مع العلاقة التي كانت قائمة بين سيسيليا وباليستياري، كان هذا الشعور يأتيني من الاعتقاد بأنّي كنت أنا أيضاً ميتاً على نحو ما، وربّما بطريقة أكثر حسماً من الرسام العجوز الذي لم يسبق له، هو، أنّ شكّ بفنّه، وكان قد رسم حتّى آخر نسمة من حياته، إذا صحّ التعبير. أمّا أنا، فعلى العكس - كنت أقول ذلك لنفسي وأنا أنظر إلى صور سيسيليا العارية الضخمة التي كانت تغطّي الجدران حتّى السقف - كنت قد متّ كرسّام حتّى قبل أن ألتقي بسيسيليا؛ ولئن كنت ميتاً، كباليستياري، بسبب سيسيليا، فإنّ حياتي لم يكن من شأنها إلّا أن تؤكد ما كان قد حدث في فني. وإذن فقد كنت أشعر شعوري الدائم بأنّه كان ثمة علاقة بين أزمة رسمي وصلتي بسيسيليا، بين استحالة رسم اللوحة الموضوعة على مسندي واستحالة امتلاك سيسيليا على وسائد الأريكة؛ ومثل هذه الصلة التي كانت قائمة بين صفة رسم باليستياري القبيح، وطابع علاقاته مع سيسيليا. إنّها صلة غامضة ومهدّدة تحمل المعنى الذي تحمله لمسافرٍ في الصحراء رؤيةُ العظام المبيضّة المتناثرة فوق الرمل.

وحدث أنّي بينما كنت بعد ظهر أحد الأيام أتأمّل صور باليستياري العارية الكريهة، كما يتأمّل أحدنا العلامة الخفيّة للغةٍ لم نحل ألغازها، فُتح الباب الذي كنت قد تركته مشقوقاً، وبرز منه رأس امرأة. وإذ تأكّدت المرأة من وجودي دخلت وأقبلت عليّ؛ لقد عرفتها على الفور تقريباً، وكانت أرملة باليستياري التي كان وجهها، في يوم الجنازة، مختفياً كلّه تحت غلالة حدادٍ سميكة، على نحو ما يُرى في الجنازات القروية؛ ولكنّي كنت منذ ذلك الحين قد لقيتها عدّة مرّات. وكانت امرأة طويلة ذات أشكالٍ ضخمة، وقد سبق أن كانت جميلة، وكانت في الخمسين ما تزال تحافظ على ألوان الشباب التي كانت قد تعدّلت وامتزجت فوق لحمٍ مترهّل: بياض لامعٌ في الوجه، وسواد شفّاف في عينين بقريتين بعضَ الشيء، وحمرةٌ فاقعة تشبه حمرة الكرز الناضج، في الشفتين الرطبتين. لقد كانت في شبابها نموذجاً للرسم، وكانت المرأة الوحيدة التي أحبّها باليستياري أو ظنّ أنّه يحبّها قبل سيسيليا، وكان قد تزوّجها وعاش معها عشرين عاماً. وقد وُلدت في إحدى قرى «اللاتيوم» المشهورة بأنّها قدّمت لرسّامي روما نماذج نسائية، فاحتفظت بريفية أصلها وبساطته. وقد لاحظت على التو أنّها لم تدهش ولم تغضب بأن تجدني في مرسم زوجها. وقد عرّفتني بنفسها بصوت حارّ، صوت قروية: «السنيورة باليستياري».

فسارعت إلى الاعتذار:

- اعذريني، فقد وجدت الباب مفتوحاً، فدخلت ألقي نظرة على اللوحات.

فأجابت في ودّ:

- عفواً يا بروفسور، تستطيع أن تدخل متى أردت. فأنا أعلم كم كنتما صديقين، أنت وزوجي.

فلم أجرؤ على مخالفتها في الرأي. وكانت تنظر إليّ وهي تبتسم؛

وكان في بسمتها ما يشبه رفقاً ودوداً لم أكن أفهمه، وقالت لي:

- لقد قصدتك في مرسمك، يا بروفسور، لأنّ عليّ أن أحدّثك عن أمرٍ قد يهمّك، ولكنّي وجدت بابك مفتوحاً. وإذ رأيت أنّك لم تكن موجوداً، فكّرت بأنّك كنت هنا.

- كيف فكّرت بأنّي كنت هنا؟

- كنت أعرف أنّ معك مفتاح مرسم زوجي.

- ومن قال لك ذلك؟

- بوّاب البناية، يا بروفسور.

- وكنت تريدين أن تحدّثيني؟

فأجابت بهدوء:

- نعم لقد سبق لي أن بحثت عنك ذات يوم، ولكنّك كنت غائباً.

ثمّ غيّرت الموضوع في عدم اكتراث قروي مرتبك:

- إنّ هذه اللوحات تروق لك، أليس كذلك يا بروفسور؟

فأجبت مرتبكاً:

- كان زوجك رساماً مليئاً بالمزايا.

- إنّها جميلة، أليس كذلك؟

قالت ذلك وهي تسير في المرسم، متطلعة إلى اللوحات التي تتدلّى من الجدار، وأضافت:

- هل تعرف يا بروفسور، أنّ نموذج اللوحات جميعاً، هو واحد؟

فلم أقل شيئاً. واستطردت بعد لحظة، باللهجة نفسها المحملة بالإيماءات والساخرة بطريقة شعبية:

- أيّة فتاة جميلة، أليس كذلك يا بروفسور؟ انظر إلى هذا الصدر، وهاتين الساقين، وذلك الظهر، وهاتين الخاصرتين؟ إنّها حقًّا ما يمكن أن نسمّيه فتاة رائعة، أليس هذا رأيك يا بروفسور؟

فسألتها لأعرف مجرى الحديث:

- وأنت، ألم يرسم زوجك مرّة صورتك؟

- أوه! بلى، مرّات كثيرةً، منذ سنوات، ولكن هذه اللوحات ليست هنا. فحين افترقنا، نزع زوجي جميع اللوحات التي كانت تمثلني وأعادها إليّ. فهي عندي كلّها. ولكنّي لم أكن في جمال هذه الفتاة! لقد كان لي بالأحرى جمال كلاسيكي، وكنت مصنوعة كالتمثال. أمّا هذه، فهي على العكس، جمال عصري، نصف صبية، ونصف امرأة، كما يحبونهنّ الآن.

ورددت في تنهدة:

- نعم، فتاة رائعة حقًّا! وخسارة ألا تكون طيبة بمقدار ما هي جميلة...

فلم أتمالك عن سؤالها، من غير سذاجة:

- إنّك إذن تعرفينها؟

- وكيف لا أعرفها! كيف يمكن ألا أعرفها! إنّه يمكن القول إنّ زوجي قد مات بسببها.

- هذا ما رووه...

فصحّحت بجد:

- نعم، أعرف ماذا رووا. القذارات المعهودة. إنّه يمكن لهذا أن يكون قد حصل، كما يمكن أن يحصل مع أيّة امرأة أخرى. ولكن لا، ليس هذا ما أردت أن أقوله. أردت أن أقول إنّه مات من جرّاء الهموم التي سبّبتها له.

- بأيّة طريقة؟

- بسبب رداءتها.

- أتكون شريرة إلى هذا الحد، هذه الفتاة؟

فأجابت في اعتدال متعقّل:

- أنا لا أقول إنّها شريرة. فأنت تعرف أنّ النساء يكنّ طيّبات أو شريرات تبعاً لحبّهن أو لا. على كلّ حال، كانت مع زوجي شريرة. ولا ريب في أنّها ستكون معك طيبة!

وأدركت أخيراً الإيماءات الغامضة في عينيها وكلماتها: كانت تعرف أنّ سيسيليا كانت عشيقتي. وقلت متظاهراً بالدهشة:

- ما دخلي بهذه القصة؟

فرفعت يديها وربتت على كتفي بحركة رثاء قروية:

- مسكين يا بروفسور... آه آه! مسكين يا بروفسورا

ثمّ ابتعدت عنّي وأشارت إلى الجدار، وسألتني فجأة:

- هذه اللوحة، أتروق لك يا بروفسور؟

فاقتربت ونظرت. وكانت لوحة فريدة، بمعنى أنّ باليستياري الذي كان يكتفي عادةً بتصوير سيسيليا وحدها، في أوضاع مختلفة، قد رسم هنا نوعاً من التأليف. كانت سيسيليا مرسومة على الأرضية المألوفة القذرة المزفتة، في نورٍ مختص بالطيف الشمسي، ولكنّها كانت هنا تركب شكلاً إنسانياً ذا أربعة أرجل.

وكانت تلك إحدى لوحات باليستياري الأشدّ إيحاء بالنفور، فهو من أجل أن يعطي فكرة عن انتصار سيسيليا لم يجد أفضل من أن يرفع لها في السماء يداً منتصرة، بينما كانت اليد الأخرى تتشبّث برقبة الـ «كاليبان»[1] المشوّه الذي تتّخذه دابّة ركوب.

وقلت بجفاء:

- لا بأس بها!

---

(١) شخصية خيالية في «العاصفة» لشكسبير. وهو عفريت ممسوخ بجسد القوّة الوحشية المضطرة إلى إطاعة قدرة عليا. ولكنّها مع ذلك ثائرة عليها دائماً. (المترجم)

واقتربت الأرملة من اللوحة. فنظرت إليها نظرة انتقامية، وسألت:

- أتعرف من هو الرجل الجاثم على أربع أرجل؟ إنّ من ينظر إليه لا يعرفه لأنّ وجهه غير ظاهر جيّداً، أمّا أنا، فأعرفه. إنّه زوجي. ربّما ظننت أنّ زوجي حين يرسم نفسه على هذا الشكل، يريد أن يُفهم الناس أنّ هذه الفتاة كانت تسيّره. ولكن لا: إنّه كان يمارس هذه اللعبة ممارسة حقيقة!

- وكيف ذلك؟

- كان يركع على أربع، فتركب على ظهره ويشب هنا وهناك في الغرفة كالأطفال الذين يلعبون بالحصان. وبعد ذلك، يقوم برفسة ويلقي الفتاة أرضاً، وساقاها في الهواء. لقد رأيتهما بعيني ذات يوم، من خلال الباب الزجاجي. وكم كانا يتسلّيان!

وصمتت لحظة، وعيناها ما تزالان مثبتتين على اللوحة، ثمّ أضافت:

- إذا كانت هذه اللوحة تعجبك؟ يا بروفسور، فإنّي أبيعك إيّاها.

وكنت أتوقّع أقلّ ما أتوقّع مثل هذا العرض حتّى إنّي ظللت لحظة لا أدري بما أجيب: كانت الأرملة تعرف عاطفتي المهووسة بسيسيليا، وكانت تريد أن تساوم على هذا الوضع. وأحسست فجأة، بشعور خجل كإنسان مصاب بعيب خفي تُقدّم له في الشارع رزمة من الصور الفاجرة موضوعها هو هذا العيب. وسألت مغتاظاً:

- لماذا ينبغي لي أن أشتري هذه اللوحة؟

فأجابت بهدوء:

- أعرض عليك ذلك إذا كان الأمر يهمّك. فإنّ عليّ بعد بضعة أيام أن أنزع جميع هذه اللوحات، لأنّي قد أجّرت المرسم، والمستأجر الجديد غير راغب في اللوحات. وهو يجدها أجراً ممّا ينبغي. ولهذا فكّرت بأنّ من الممكن أن ترغب في إحداها كتذكار.

- تذكار عن أي شيء؟ وممّن؟ من زوجك؟ إنّنا لا نكاد نعرف بعضنا.

ومن جديد ندّت عنها حركة رثاء خبيثة، فربتت على كتفي وقالت وهي تهزّ رأسها:

- يا بروفسور، يا بروفسور. لنحاول أن نفهم بعضنا. فلماذا لا تكون صريحاً معي؟ لقد ابيضّ شعري (وأشارت إلى شعرها الأسود سواداً غرابياً وكان مسرحاً في ضفائر ملساء معقودة على العنق كان يمكن أن يميّز الناظر بينها بعض خيوط بيضاء). وربّما كنت في سن أمّ هذه الفتاة فلماذا لا تكون صريحاً معي؟

وفي هذه المرّة، جلست على الطاولة التي كان الجهاز التلفوني موضوعاً عليها. وأشرت إلى الأرملة بأن تجلس أيضاً. وتظاهرت بأنّي لم أسمع دعوتها إلى الصراحة فقلت لها في جد لا يخلو من تهديد:

- سنيورا باليستياري، أرجوك أن تقولي لي تماماً ما هي القضية. لقد أومأت عدّة إيماءات لم أفهمها، فتفضّلي بشرحها لي.

فأجابت بلهجة قروية تثير الرثاء ولا تخلو من الخوف:

- من سوء الحظ أنّ زوجي قد تركني في وضع مالي سيئ. وكنت قد ظننت أنّك تستطيع، كفنان، أن تفهم لوحاته أفضل فهم، وأن تشتري إحداها على الأقل. لقد حاولت أن أبيعها، ولكنّها لا تُفهم.

فقلت:

- ولكنّي لا أملك درهماً. فأنا لست إلّا رسّاماً. وأنا فوق ذلك رسّام لا يرسم.

فدُهشت دهشة صريحة:

- هذا غريب، فقد قيل لي أنّ أمّك كانت غنيّة جدًّا.

- أمّي؟ نعم، أمّا أنا، فلا.

- إذن لنفترض يا بروفسور أنّي لم أقل شيئاً، لنفرض أنّي لم أقل شيئاً!

فألححت بقولي:

- لحظة، لقد وردت على لسانك إيماءة، منذ لحظات، لماذا، بالإجمال، ينبغي أن أشتري هذه اللوحة على سبيل الذكرى؟ ذكرى من؟

فنظرت إليّ وهي تباعد ما بين عينيها السوداوين:

- ذكرى هذا النموذج.

- ولماذا؟

- إنّك يا بروفسور تعرف جيّداً لماذا!

- سنيورا باليستياري. إنّني لا أفهمك.

- طيّب، أتعرف ما يقولون يا بروفسور؟ إنّ هذه الفتاة هي عشيقتك.

- ومن يقول ذلك؟

- جميع الناس، ابتداء من بوابة البناية.

فتظاهرت بحركة حائرة، ثمّ نطقت على مهل، وفي حزم:

- آه. من أجل هذا إذن! ولكنّك في الواقع مخطئة. إنّ هذه الفتاة ليست شيئاً بالنسبة لي.

فرسمت ابتسامة لطافة متواطئة:

- آه، يا بروفسور. آه، يا بروفسور...

ولكنّي قاطعتها وأنا أرفع صوتي بطريقة مألوفة:

- إذا كنت أقول لك شيئاً، فهذا الشيء صحيح.

ومن جديد انسحبت إلى قوقعتها كبزاقة مذعورة. ولكنّها ما لبثت أن قالت ملاحظة:

- إنّني أصدّقك يا بروفسور. وهل تعلم ما أقوله لك: إنّني مسرورة من أجلك.

- لماذا؟

- لقد قلت لك السبب: إنّ هذه الفتاة جميلة، ولكنّها ليست طيبة.

- بأي معنى؟

فتنهدّت وقالت:

- كان بإمكان زوجي أن يخبرك أفضل منّي. ولكن زوجي مات. لنكن واضحين. فأنا لا أعرف شيئاً دقيقاً. ولكن هناك شيئاً أعرفه: فقد كان لزوجي في حي ساحة بولونيا شقة من خمس غرف يُساوي ثمنها بضعة ملايين. وحين مات، اكتشفنا أنّه قد باع الشقة، ولكن الملايين لم يُعثر عليها. وبالمقابل، وجدنا دفتراً صغيراً كان زوجي، وهو رجل منظّم، يسجل عليه نفقاته. وكان مكتوباً في كلّ صفحة تقريباً: سيسيليا، كذا وكذا...

- أتُريدين أن تقولي إنّ هذه الفتاة كان تستغلّ زوجك؟

- بالضبط يا بروفسور.

وزفرت من جديد وأضافت سريعاً وبصوت منخفض:

- إنّها مياه نائمة، هذه الفتاة، يا بروفسور. بلا قلب، خادعة، مغرضة. وبالإضافة إلى ذلك كلّه كانت تخونه، كانت تأخذ ماله وتعطيه إلى آخر.

فلم أتمالك من الصياح:

- كانت تعطي المال لآخر!

- بكلّ تأكيد. رجل جائع كانت تلتقي به كلّ مساء بعد أن تكون قد قضت النهار مع زوجي.

- ولكن من كان هذا الرجل؟

- عازف على السكسفون. كان يعمل في مرقص ليليّ. وكان كلاهما ينفقان معاً مال زوجي. بل إنّ هذا الشخص كان قد اشترى سيارة.

- إذن كان زوجك يعطي هذه الفتاة مبالغ ضخمة؟

- ملايين يا بروفسور... كلّ شيء مسجل على دفتر النفقات. ولكن هل تعلم يا بروفسور؟

- ماذا؟

- لقد ظللنا أنا وزوجني، بالرغم من انفصالنا، صديقين إذا صحّ التعبير. وهكذا كان يأتي أحياناً ويحدّثني عن هذه الفتاة. كانت أقوى منه. ولم يكن يستطيع أن يستغني عنها، وكان يتّخذني كاتمةً لأسراره. وهل تتصوّر؟ رجل مثله عرف كثيراً من النساء، رجل في مثل تجربته وذكائه، وكان يبكي؟

- يبدو أنّ دمعته سريعة، زوجك!

- سريعة؟ أوه! كلّا! لقد بقينا معاً سنوات، فلم أره قط يذرف دمعة. كان يبكي لأنّ هذه الفتاة كانت تدفعه إلى اليأس. وهل تعلم ما كان يقول؟ كان يقول إنّ هذه الفتاة ستكون موته. إيه! لقد كان لديه الشعوب المسبّق!

- وما اسم عازف الساكسفون الذي كانت سيسي-... الذي كانت الفتاة تعطيه المال؟

ففهمت أنّ الأمر كان يهمّني وأرادت أن تفهمني أنّها كانت تفهم. وإذا بها تستقيم بجدارة وتقول:

- آن لك يا بروفسور أن تسمّيها باسمها، سمّها سيسيليا. كان عازف الساكسفون هذا يدعى «توني بروانتي» وهو يعزف في مرقص «كاناري»، الواقع في جهات شارع فينيتيو. حسناً... إنّني إذن ذاهبة يا بروفسور. اعذرني مرّة أخرى. إذا كانت هذه اللوحات تهمّك، فبوسعك دائماً أن تجدني في بيتي. واسمي في دليل الهاتف: اسونتا باليستياري. أو ربّما أقنعت أمّك بشراء إحدى هذه اللوحات، يا بروفسور؟ أأنت باقٍ أو تريد الخروج معي؟

ولم أبق، وبعد أن حييتها عُدت إلى مرسمي، فارتميت على الأريكة واستغرقت في تفكير عميق. لقد كانت الأدلة على قابلية

سيسيليا للبيع تتكاثر. ولكن الغريب أنّ هذه الأدلة لم تكن تدلّ على شيء آخر. فلقد كانت سيسيليا، بناء على قول أرملة باليستياري، تحوّل المال من الرسّام العجوز إلى عشيقها توني برواتي. وكان فقر خزانة سيسيليا بالثياب وكونها لا تملك أدنى مجوهرات، يبدوان وكأنّهما يؤكدان صحة ذلك. فإذا لم تكن قد أعطت برواتي مال باليستياري، فأين عساه يكون قد ذهب؟

وفي اليوم التالي لزيارة أرملة باليستياري، سألت سيسيليا فور وصولها إلى مرسمي، بلا تمهيد:

- من هو توني برواتي؟

فأجابت بلا تردّد:

- عازف ساكسفون يعزف في «كاناري».

- نعم، ولكنّه ما كان بالنسبة إليك؟

- خطيبي.

- هل كنتما مخطوبين؟

- نعم.

- وإذن؟

- وإذن ماذا؟

- إذن ماذا حدث؟

فأجابت في تردّد:

- لقد تخلّى عنّي.

- لماذا؟

- لأنّه كان يحبّ امرأة أخرى.

- وهل كان باليستياري يعرف أنّكما كنتما مخطوبين؟

- بكل تأكيد، كان يعرف ذلك؛ كنت مخطوبة لتوني وأنا في الرابعة عشرة، أي قبل أن أعرف باليستياري بسنة.

فظللت مشدوهاً وتمتمت:

- ولكن سبق أن قلت لي إنّ باليستياري لم يكن يعرف شيئاً، وإنّه كان يغار، وهو من أجل ذلك قد توجّه إلى وكالة للاستعلامات الخاصّة.

فأجابت ببساطة:

- لم يكن باليستياري يغار من توني، باعتبار أنّه جاء بعد توني، وعلم على الفور أنّنا كنّا مخطوبين، أنا وتوني. وإنّما بدأ يصبح غيوراً حين ظنّ أنّي كنت أخونه مع آخر.

- ولكن، هل كان ثمّة حقًّا رجل آخر؟

- نعم، والحق أنّ الأمر دام وقتاً قصيراً.

- وهل حدث ذلك في عهد توني؟

- لا، بل بعد أن انقطعت صلتنا، أنا وتوني.

- ولكن، هل كان توني على علم بعلاقتك مع باليستياري؟

- كيف تفكّر بهذا؟ لو عرف ذلك، لقتلني.

- وبالإجمال، من كان الأوّل بالنسبة إليك؟

- الأوّل؟ ماذا تقصد؟

- الأوّل الذي قمت معه بالحب؟

- توني.

- في أيّ سنّ؟

- لقد قلت لك: في الرابعة عشرة.

- والآن، أنت لا ترينه أبداً، توني؟

- نلتقي أحياناً، فنتبادل التحية.

- أخبريني شيئاً آخر: هل كان باليستياري يعطيك مالاً؟

فنظرت إليّ لحظة ثمّ أجابتني بتردّدها العجيب المألوف:

- نعم، كان يعطيني.

- كثيراً أم قليلاً؟

- كان هذا يتوقّف...

- علامَ كان يتوقّف؟

فصمتت من جديد ثمّ قالت:

- لم أكن أريد أن أقبل، ولكنّه كان يعطيني بالقوّة.

- يعني؟

- بالقوّة. كان قد علم أنّ توني لا يملك درهماً، وأنّنا حين كنّا نخرج أنا وتوني في المساء، لم نكن نستطيع حتّى أن نذهب إلى السينما، وإذ ذاك، أراد أن يجبرني على قبول هذا المال، فأعطيته لتوني.

- باليستياري كان يجبرك على أن تعطيه لتوني؟

- نعم.

- وكيف حدث الأمر، في المرّة الأولى؟

- كنت قد قلت له إنّنا لافتقارنا إلى المال كنّا نقضي أمسياتنا في الشوارع. وإذ ذاك أخذ ورقة من فئة العشرة آلاف فوضعها في يدي وهو يقول: «خذي، تستطيعان بذلك أن تذهبا إلى السينما».

- وأنت؟

- لم أكن أريد هذا المال، ولكنّه فرض عليّ أن آخذه، مهدّداً إياي، إن لم آخذه، بأن يبلّغ توني أنّه كان يقوم معي بفعل الحب؛ وعند ذلك أخذته.

- وبعد ذلك، استمرّ في إعطائك المال؟

- نعم.

- وهل أعطاك مبالغ أكبر؟

- لمّا كان يعلم أنّ المفروض أن نتزوج أنا وتوني، وأنّ علينا أن نؤثّث بيتنا، فقد أجبرني على أن أشتري بماله أثاثاً لشقتنا.

- وماذا حدث بهذا الأثاث؟

- إنّه في بيت توني. لقد تخليت له عنه.

- والسيارة؟

- أيّة سيارة؟

- ألم يشتر باليستياري أيضاً سيارة لتوني؟

- بلى، لقد اشتراها، سيارة ذات طراز نفعي. من أخبرك ذلك؟

- أرملة باليستياري.

- آه! تلك المرأة؟

- أتعرفينها؟

- نعم، لقد قصدتني يوماً، وكانت تريد أن أردّ لها المال.

- وبمَ أجبتها؟

- أخبرتها الحقيقة. أنّ زوجها أجبرني على قبوله قسراً، وأنّي لم أكن أملك بعد شيئاً، لأنّي كنت قد أعطيت توني كلّ شيء، كما كان زوجها يريد.

- ما طول المدّة التي أعطاك فيها باليستياري مالاً؟

- عامان تقريباً.

- وكيف كنت تشرحين لتوني عن مصدر المال الذي كنت تعطينه إياه؟

- كنت أقول له إنّه كان لي عمّ غني يحبّني جدًّا.

- وبعد أن تركك توني، هل استمرّ باليستياري في إعطائك المال؟

- نعم، بين وقت وآخر، حين كنت أطلب منه ذلك.

- ولكن الآخر الذي جاء بعد ذلك، والذي كان يوقظ شكوك باليستياري، أكنت تعطينه المال الذي كنت تتلقينه؟

- ذاك لم يكن بحاجة إليه. فقد كان ابن صناعي.

- وقد تخلّى عنك هو أيضاً؟

- كلا، بل أنا الذي تركته لأنّي لم أكن أحبّه بعد.

- ومن كنت تحبّين؟

- أنت. أتذكر حين كنت ألتقيك في الممر فأنظر إليك؟ لقد تركته في تلك الفترة بالذات.

- وهل لاحظ باليستياري يوماً أنّك كنت تحبينني؟

- لا.
- ألم تحدّثيه عنّي قط؟
- بلى. مرّة واحدة. إنّه لم يكن يطيقك.
- وماذا كان يقول عنّي؟
- كان يقول إنّك كنت شاباً مدّعياً.
- شاباً مدّعياً؟
- نعم، كان يزدري رسمك. وكان يقول إنّك لا تعرف أن ترسم.

وقد أكّدت لي هذه المحادثة الاعتقاد بأنّ تلك المحاولة بأن أدلّل لنفسي قابلية سيسيليا للبيع انتهت أخيراً إلى الإخفاق: إنّ سيسيليا لم تكن لتباع؛ ولم يكن ممكناً اعتبار شخصها من زاوية المصلحة وحدها. لقد كان واضحاً أنّ باليستياري قد سعى لتوكيد تفوّقه الشخصي على توني إذ تعهّده بواسطة سيسيليا، من غير أن تنبّه عازف الساكسوفون إلى ذلك. وكان واضحاً أنّ سيسيليا، من جهتها، قد استجابت لمناورة باليستياري البسيكولوجية من غير أن تشارك فيها أو تفهمها. وعلى العموم، كانت سيسيليا قد نجحت، غريزياً، كما نجحت معي، في إبقاء عالميّ الحب والمال منفصلين. طبعاً كان بوسعنا، أنا وباليستياري، أن نؤكد أنّنا كنّا قد أعطيناها مالاً، ولكن كان بوسعها، من جهتها، أن تبرهن على أنّها لم تكن مأجورة.

وكان مسلكي تجاهها يميل أكثر فأكثر إلى أن يشبه مسلك باليستياري، مع فرق واحد، هو أنّ الرسّام العجوز قد مضى إلى أبعد ممّا مضيت. وعلى سبيل التعويض، كان جنوني أكبر من جنونه، لأنّه هو لم يكن له أي سلفٍ يمكن اعتباره مرآة، وكان ممكناً أن يدرك المرء لماذا لم يوقف على الدرب الذي سلكه. أمّا أنا، فقد كان لي، بالعكس، مثالُه يحذّرني لدى كلّ خطوة من الخطر الذي كنت أتعرّض له، وبالرغم من ذلك، فقد كنت أكرّر أخطاءه، بل كنت أعمد إلى نوعٍ من المسايرة والمراعاة في ارتكابها.

الفصل التاسع

في هذه الأثناء، كانت سيسيليا ماضيةً في لقاء لوسياني كلّ يوم، بما في ذلك الأيام التي كانت تلقاني فيها؛ بحيث إنّ عدم قابليتها للالتقاط، بعد أن كانت افتراضاً لمدّة طويلة، قد أصبحت يقيناً، أي شيئاً يشبه طبعاً ثابتاً كان يجب أن أحسب حسابه، على نحوٍ أو آخر، وكان يجب أن أنسجم معه.

وبالفعل، فقد كنت أحسّ أنّ حبي لها، هذا الذي وُلد من عجزي عن امتلاكها، بعد أن ترجّح بعنف بين السأم والألم، كان يتّخذ رويداً رويداً مظهر نوعٍ من العلة ذي أربع مراحل متتابعة: محاولة امتلاك يختلف عن الامتلاك الجنسي؛ إخفاق هذه المحاولة، سقوط آخر مسعور ولا مجدٍ، في العمل الجنسي، إخفاق جديد، وهكذا تعود الدورة. ولكن الشيء الوحيد الذي لم أكن قادراً عليه، هو أن أخضع لعدم قابلية سيسيليا للالتقاط، وأن أقرّه، وأن أتقاسم بالإجمال عطاياها مع لوسياني. وأذكر أنّني، على غرار باليستياري الذي لم يكن يغار من توني برواتي لأنّه كان متوهماً أنّ سيسيليا كانت قد خانت توني معه، كنت أسعى أنا أيضاً إلى أن أعزّي نفسي إذ أقول إنّي بينما كنت مطلعاً على غراميات سيسيليا مع الممثل، فإنّ هذا كان يجهل أنّ سيسيليا كانت تقوم بفعل الحب معي. وبعبارة أخرى، قد انتهيت إلى أن أجدني تجاه لوسياني في مثل وضع عاشق تجاه زوج أعمى. ولم يحدث أن غار عشيق من زوج لأنّ المعرفة تعني في بعض الأحوال الامتلاك، ولأنّ الجهل يعني عدم الامتلاك.

وكانت تلك تعزية مسكينة، ولكنّها كانت تجعلني أمضي الوقت في حسابات من هذا القبيل: كنت أعرف ما كان من شأن لوسياني. ولكن لوسياني كان يجهلني. وإذن فإنّ سيسيليا كانت تخونه معي ولم تكن تخونني معه. ومن جهة أخرى، فإنّه قد جاء بعدي، وبالتالي فإنّ سيسيليا كانت قد خانتني معه ولم تخنه معي. وكانت هناك أخيراً قضية المال كما كان الشأن مع باليستياري. كنت أعطي سيسيليا مالاً، بينما كان لوسياني، الذي كان يسوؤه ألا يعطيها، كان ينفق مالي معها، وإذن فقد كنت أنا الذي يدفع لها، وليس هو، وبالتالي، كانت تخونه معي على نحو ما. غير أنّنا لم نكن نستطيع أن نستبعد أمر أنّها كانت تذهب مع لوسياني بدافع الحب ومعي بدافع المال، وإذن فقد كان تخونني مع لوسياني. ولكن سيسيليا لم تكن تعلق أيّة أهمية على المال، وهذا ما أصبحت واثقاً منه الآن. وإذن فقد كان ممكناً أن يكون للمال بيني وبينها مغزى عاطفي. ولمّا كان الممثل لا يعطيها مالاً، فربّما كانت تخون لوسياني معي. وهلّم جرًّا، إلى ما لا نهاية.

وكان يبقى دائماً بعد هذه الأفكار الجميلة الكثيرة أمر واحد لا يتعكر ولا يمحي، وهو أنّ سيسيليا كان تقوم بفعل الحب مع لوسياني وأنّها ما دامت مستمرة في ذلك، فلن يمكنني أن أمتلكها لأنّه ليس هناك امتلاك غير كامل. وليت أنّ سيسيليا جهدت على الأقل لتجعلني أنسى أنّني لم أكن أمتلكها كلّ الامتلاك. ولكنّها، لثقتها بأنّها قد حلّت حلاً نهائياً مشكلة حضور رجلين في حياتها بصورة مزدوجة، فإنّها لم تكن قط تحدّثني بحرية عن علاقاتها بالممثل، بل كانت لا تهتم بأن تخفي عنّي الآثار التي كان يمكن لحب لوسياني أن يخلفها على شخصها.

والحق أنّه لم يكن ثمة أيّة مراعاة أو أيّة قسوة في صوت سيسيليا حين كانت تجيبني بلا اكتراث على سؤال أطرحه عليها فتقول: «إنّه

لوسياني، لقد عضني...» أو تقول أيضاً: «هذه اللطخة البيضاء هنا على ثوبي، لأنّنا قمنا بفعل الحب من غير أن ننزع ثيابنا». ولكنّها تقول ذلك في صفاء المرأة التي تجد أيسر وأنسب أن تقول الحقيقة من أن تخترع أكاذيب. لقد كانت سيسيليا من فرط الاقتناع بحيث إنّي أصبحت لا أعاني بعد من هذه القسمة الغرامية، وبحيث إنّها قد بلغت أن تعطي بحضوري مواعيد لقاء بالتلفون للوسياني، ثمّ تطلب منّي بعد ذلك أن أرافقها لأوصلها إلى بيته.

وأخيراً كنت ذات يوم أصطحبها في السيارة إلى شارع أرخميدس، حيث كان لوسياني ينتظرها، فقالت لي فجأة:

- كم سيلذّني أن تستطيع أنت ولوساني أن تتعارفا وتصبحا صديقين.

فلم أقل كلمة. ولكنّي فكّرت بأنّ عالماً مصنوعاً على شاكلة سيسيليا سيكون مختلفاً اختلافاً كاملاً عن العالم الذي نعيش فيه، المليء بالاختلاط، الذي لا حدود له ولا منعطفات ولا هندام، الاتفاقي واللاواقعي، والذي كانت جميع النساء فيه تخص جميع الرجال، والذي ليس فيه لأيّة امرأة إلّا رجل واحد.

ولكنّي كنت أتألم. وشيئاً فشيئاً، عَبر الألم، كانت فكرةٌ أدهشني أنّها لم تخطر لي قبل ذلك، تشق دربها في ذهني: فربّما كانت الطريقة الوحيدة للتحرّر من سيسيليا، أي لأن أمتلكها كليًا، وبالتالي لأن أسأم معها، هي أن أتزوجها. ولم أكن قد وصلت إلى حدّ أن توحي لي سيسيليا السأم، فيما هي عشيقتي، فكنت شبه متيقّن من أنّها ستُسئمني ما إن تصبح زوجتي.

وهكذا بدأت فكرة الزواج تجتذبني أكثر فأكثر، وتكشف لي منظوراً يختلف كلّ الاختلاف عن المنظور الذي يبتسم عادةً لمن يتأهّب للزواج: إنّ هذا الأخير يداعب حلم حبّ لا نهاية له، أمّا أنا

فقد كنت بالعكس أحلم بنهاية الحب. وكنت أتخيّل في انبساط أنّ سيسيليا إذ تتزوّج تصبح امرأة عادية، ذات مشاغل بيتية واجتماعية، امرأة راضية، وليس فيها من سرّ ولا خفاء. إنّها ستصبح بالإجمال، كما يقال في لغة المجتمع، امرأة عاقلة. وربّما لم يكن عدم قابلية سيسيليا للالتقاط إلّا تعبيراً عن مطمح زواجي: فلعلها كانت تبحث غريزياً، بين عشّاقها، عن الزوج الذي تستطيع معه أن تتركز وتستقر. وكنت أفكّر أن أتزوّجها بكلّ مظاهر البذخ الديني والبورجوازي، وبعد الزواج، أن أصنع لها عدداً كبيراً من الأولاد الذين سيشاركون هم أيضاً في تحديدها وفي حبسها في صورة الأمومة التي لا تحمل أي لغزٍ أو سرّ.

وتبيّن لي أنّ هذه الفكرة باللجوء إلى الزواج، في الوقت الذي أخفقت فيه العلاقة الجسدية والمال، إنّما هي فكرة غير معقولة، وبالتالي ناقصة. ولكن الواقع أنّ أية صلة لديّ بالمجتمع كانت، وأحسب أنّي أظهرت ذلك، قد انطقعت ولا سيما بالمجتمع الذي كانت تنتمي إليه أمّي. وفي هذه الغيبة الكاملة للجذور والمسؤوليات، وهذا الفراغ المطلق للسأم، كان الزواج يبدو لي كشيء ميت وتافه يقدّم، بصفته تلك بالذات، شيئاً ما على الأقل.

وكنت أنوي بالطبع، بعد أن أتزوج، أن أذهب فأعيش في مقصورة جادّة آبيا، مع زوجتي وأمّي. فالزواج، والمقصورة، وأمّي ومجتمع أمّي، كانت جزءاً من الآلة الشيطانية التي ستكون سيسيليا، وهي العفريت المليء بالأسرار، قد دخلتها لتصبح فيها إحدى النساء البورجوازيات.

ومن جهة أخرى، فإنّ فكرة الزواج كانت قد جاءتني تلقائياً، على أنّها أضمن وسيلة لقطع العلاقات بين سيسيليا ولوسياني. وبالفعل، فقد كنت أظن أنّها إذ تقبل الزواج بي فستعدل طوعاً عن لقاء لوسياني.

ولكن كان صحيحاً كذلك أنّه إذا أصبحت سيسيليا زوجتي، فسيكون سواء لديّ بلا شك، أن تستمر في اتخاذ لوسياني أو سواه كعشيق، أو أن تكفّ عن أن يكون لها عشّاق.

وينبغي أن أقول إنّ حل الزواج، إلى جانب منظور تحريري من حب سيسيليا، كان يلوّح أمام عيني بأمل إعادتي إلى الرسم، بمجرّد أن تكون سيسيليا المقيمة في مقصورة أمّي قد ملأت أفقي. ولقد كنت أتمثّل سيسيليا منهمكة وسط أولادها وحياتها الاجتماعية، بينما أقوم أنا في المرسم القائم عند نهاية الحديقة، أكرّس نفسي بلذة إلى رسمي الحبيب، الطاهر، الغارق في الفكر والثقافة. وسوف يكون شيئاً مختلفاً كلّ الاختلاف عن عاريات باليستياري الغرامية القذرة! وكنت أحسّ أنّه سيكون بوسعي أن أرسم أكثر اللوحات تجريداً، منذ أن وجد الرسم التجريدي. وفي نهاية الأمر، سأزرع هناك سيسيليا وأمّي. وأعود لأعيش لوحدي في شارع مارغوتا.

وقد يقال لي إنّ ذلك كلّه كان متناقضاً مع ما كنته وما فعلته حتّى هذا التاريخ، وأنّ معطيات قضيتي، من جهة أخرى، لم تكن هذه. وبالفعل: فإنّ حب سيسيليا والرسم لم يكونا أمرين يتوقف أحدهما على الآخر، ولكنّهما كانا متعادلين ومستقبلين. لم يكن حبي لسيسيليا هو الذي يمنعني من الرسم، وإنّما الذي كان يمنعني عجزي عن الرسم بمقدار ما كان عجزي عن امتلاك سيسيليا. فتحلّلي من حبي لسيسيليا لم يكن يعني إذن أنّني سأكون قادراً على العودة إلى الرسم. ثمّ إنّني كنت قد احتقرت دائماً بيت أمّي ووسط أمّي ومال أمّي، وكنت قد ذهبت أسكن في شارع مارغوتا لأنّي كنت قد شعرت بأنّه يستحيل عليّ أن أرسم في مقصورة جادة آبيا. وهأنذا أضع مشروعاً بالعودة للعيش قرب أمّي، في ذلك البيت وذلك العالم الذي كنت أكرهه. وأنا لا أرى أي تفسير لهذا، إلّا أن التناقض يشكّل الجذر

المتحرّك وغير القابل للنفس البشرية. والواقع أنّي كنت يائساً، وكان يخيّل إليّ أنّ هذا النوع من الانتحار الذي تعنيه عودتي بالقرب من أمّي، كان أفضل من وضعي الحاضر، شريطة أن يؤدّي إلى تخليصي من سيسيليا.

كنّا إذ ذاك في الصيف، وقلت لسيسيليا ذات يوم، خلال المخابرة التلفونية الصباحية المعتادة، إنّ بوسعنا بدل أن نلتقي في المرسم، أن نقوم بنزهة في السيارة خارج روما. وكنت أعرف أنّ سيسيليا تحبّ الهواء الطلق، ولكنّي دهشت مع ذلك للهجة المفرطة الحرارة التي استقبلت بها اقتراحي، وأضافت بطريقة غير متوقّعة:

- بل نستطيع اليوم أن نبقى معاً طوال النهار، حتّى الليل... فأنا حرّة.

فسألتها بسخرية:

- ما الذي يحدث؟ أيسمح لك أبوك القاسي جدًّا أن تخرجي الآن معي؟

فأجابت بصراحة، كأنّما أدهشها أن أذكّرها بالكذبة التي عمدت إليها لتخفي عنّي علاقتها بلوسياني:

- ليس الأمر كذلك. ولكن لوسياني لا يستطيع أن يراني هذا المساء. ولهذا فكّرت بأنّه سيروق لك أن تقضي طول النهار معي.

- اشكري لوسياني شكراً حارًّا من قِبَلي، على كرمه...

- هكذا أنت! إنّ المرء لا يستطيع أن يقول لك الحقيقة!

- حسناً... سأمرّ لأصطحبك في الساعة الحادية عشرة، وسنتناول الغداء مع لوسياني.

- حسناً.

- الحق أنّه كان يبدو لي عجباً أن تظلي نهاراً بطوله من غير أن تريه...

- سأجيء إلى المرسم حوالي الساعة الثالثة.

- اتفقنا، إلى الساعة الثالثة.

ومثلت سيسيليا، بدقّتها المعهودة، في الساعة المحدّدة. وكانت ترتدي ثوباً جديداً يتألف من قطعتين خضراوين تناسبانها تماماً، وقد عبّرت عن ذلك. وسرعان ما أجابتني بلهجة عرفان أدهشتني قليلاً:

- لقد اشتريته بمالك. وهذا أيضاً...

وأشارت إلى حذائها ثمّ مدّت ساقها لتريني جوربيها وهي تضيف:

- بالإجمال، من فوق ومن تحت، فأنا كلّي مكسوّة بفضل مالك.

وسألتها وأنا أخرج السيارة من الساحة:

- لماذا تقولي لي ذلك؟

- لأنّك قلت لي مرّة إنّك تحبّ أن تسمعني أقول هذه الأشياء.

- صحيح. ولكن يروقني أكثر أن تكوني لي، لا من فوق ولا من تحت فقط، بل من الداخل.

- داخل أين؟

- داخل.

فرأيتها تضحك ضحكتها تلك الطفولية التي كانت تشمّر شفتيها عن أسنانها الحادّة:

- من داخل، لست لأحد. ففي الداخل رئتي وكبدي وأمعائي. فما عساك تفعل بها؟

وكانت مرحة، فلفتّ انتباهها إلى ذلك. وأجابت بخفّة:

- إنّني مرحة لأنّني معك.

- شكراً، أنت لطيفة جدًّا.

واجتزت «ساحة الشعب» وعبرت «التيبر» وجزت شارع «كولاديرمانزو» وبعد أن استدرت حول جدران الفاتيكان المائلة،

سلكت شارع «أوريليا» باتجاه «فريجين». وكانت سيسيليا جالسة بجانبي لا تتحرّك، وعنقها مستقيم، وكتلة شعرها كثيفة متموجة، مؤطرةً وجهها المستدير، ويداها في حضنها.

وبين الفينة والفينة، كنت وأنا أقود، أرميها بنظرة جانبية فأتعرّف مرّة أخرى هذه الملامح والأطباع التي كانت تجعلها مشتهاة وهاربة في وقت واحد: مظهر الوجه الطفولي الذي تناقضه مع ذلك تلك التجعدات الدقيقة التي كانت تشقّ البشرة لدى زاويتي الفم الصغير؛ وهُزال الكتفين المروّستين اللتين كان بروز نهديها المنتفخين يبدو وهو ينكرهما، ورقة القامة الرخصة التي لم تكن تنسجم مع امتلاء الخاصرتين وكثافة الفخذين. وفي حضنها، يداها الكبيرتان البشعتان، بياضهما المعتكر، والجذابتان مع ذلك وربّما الجميلتان، إذا كان ممكناً أن يوصف شيء قبيح بأنّه جميل.

ولم يسبق لها قط أن راقتني كما راقتني آنذاك، وبطريقة شبيهة بها كلّ البشه، أي مغيظة وهاربة. وكنّا لم نتجاوز روما كثيراً حين أخذت أفكّر بأنّي لن أصمد حتّى السادة السادسة، وهي الساعة التي كان المفروض أن نعود بها إلى المرسم. كان أمامي عشر ساعات، وهو وقت كاف للقيام بفعل الحب مرّتين: على الفور، وفي المساء بعد العشاء. الآن، في حقلٍ ما؛ وبعد العشاء، في المرسم.

وكانت الطريق تصعد وتهبط بين كثبان لا شجر لها، يغطيها عشبٌ ريّان زاخر، ذو خضرة تكاد تكون زرقاء: العشب الذي أنبتته أمطار الشهرين الماضيين الغزيرة في الأرض المشبعة بالماء، ولكن السماء لم تكن قد صَفَت بعد: فقد كان ثمّة غيوم سوداء كانت تبدو عاجزة عن أن تنهض بسبب ثقل المطر الذي كانت تحمله في جوانبها، فكانت تظل معلقة طبقات جامدة فوق هذه الخضرة التي ما تزال ربيعية. وكنت أبحث بعيني عن مكان ملائم، فيما أنا أسوق

بسرعة كبيرة، ولكنّي لم أكن أجد شيئاً: فإمّا أنّ ذلك كان قريباً من الطريق أكثر ممّا ينبغي، وإمّا أنّه كان براحاً مكشوفاً، وإمّا أنّه كان غير بعيد عن مزرعة، وإمّا أنّه كان على منحدر قوي جدًّا. وسرت بضعة كيلومترات أخرى، وأنا لا أتكلم، وأنا أمتلئ في هذا الصمت بكلّ ما كان في شهوتي من قوّة ومن شُعر. وأخيراً، استدرت عند أوّل طريق جانبي معترض، فسألتْ سيسيليا:

- ولكن، ألم يكن المفروض أن نقصد شاطئ البحر؟

فأجبت:

- إنّنا الآن ذاهبان إلى ركن منعزل لنقوم بفعل الحب، وبعد ذلك نقصد البحر.

فلم تقل شيئاً؛ ودفعت السيارة إلى أقصى سرعتها، على طريق الريف المحصبة البيضاء. وبعد كيلومتر من السير الوثّاب على الحجارة المفرقعة، أخذ المنظر يتغيّر، كما كنت أؤمل. فليس من روابٍ معشبة وبلا شجر، بل هي مرتفعات تغطّيها الأحراج وتنتصب داخل مروجٍ صغيرة كانت ترعى فيها خيولٌ وقطعان خرفان. وكان هذا ما أبحثُ عنه. وأوقفت السيارة قرب حاجز وقلت لسيسيليا:

- لنهبط.

فأطاعت وابتعدت لتَدَعني أمرّ قبلها، فقلت، بلا سبب:

- أفضّل أن تسبقيني.

فلم يكن لها اعتراض، وبعد أن دفعت الحاجز الريفي سلكت ممراً صغيراً، أو بالأحرى أثراً خطّته الأقدام في عشب مرتفع وكثيف؛ وإذ ذاك فهمت لماذا طلبت منها أن تسير قبلي: كنت أريد أن أنظر إلى حركة خاصرتيها القوية واللامبالية في وقت واحد. وكنت أعرف أنّ هذه الحركة لم تكن مقصودةً لي، شأنها في ذلك شأن دعوة المرأة الجنسية، مهما كان نوعها، فهي لا تعني ذكراً بعينه. فلو أنّي كنت

أمشي أمامها، لتوّهمت أنّي كنت أقودها. وعلى العكس، فإنّي إذ أجعلها تمرّ قبلي، كنت أؤكّد لنفسي فكرة أنّ هذه الحركة لم يكن يخلقها حضوري بقدر ما كانت تخلقها اللذة التي تنتظرها في زاوية من الغابة، وهي لذةٌ صحيح أنّني كنت أنا أوفرها لها، ولكنّي لن أكون فيها أكثر من واسطة.

وكنّا نسير في صمت، فوق العشب الممتزج الدبق. وفوق رأسينا كانت طبقة الغيوم تبدو الآن وهي تتبدّد في غلالات ضباب لشدّة انخفاضها وانتفاخها، كبطن امرأة حامل. وكان الهواء حاراً وطرباً وممتلئاً بالطنين. وكنت أنظر إلى وركيّ سيسيليا اللذين كانا يبدوان، بمقدار ما كنّا نقترب من الغابة، وهما يؤكّدان قوّة تأرجحهما ورتابته، كآلةٍ وجدت إيقاعها الطبيعي. وكنت أفكّر أنّ بين هذه الحركة التي تقوم بها وهي تمشي، والحركة التي ستقوم بها بعد لحظة، حين تتمدّد، لم يكن ثمة من فرق. لقد كانت سيسيليا متهيّئة دائماً للعمل الجنسي، تماماً كالآلة التي غذّيت غذاء جيّداً بالوقود، فهي دائماً مستعدة للعمل. ولا بدّ أنّها قد شعرت بنظرتي، لأنّها التفتت وسألتني:

- ولكن ما بك، لماذا لا تقول شيئاً؟

- إن اشتهائي لك أشدّ من أن يَدَعني أتكلم.

- إنّك تشتهيني دائماً.

- وهل يسؤوك ذلك؟

- لا، وإنّما كنت أسألك...

ومشينا فترة أخرى، وعَقِبَ عُشبُ الحقل الكثيف نباتَ الغابة الأخفّ، وابتدأت الأشجار الأولى تنبثق من الأرض الوعرة، متوحّدة أوّل الأمر، ثمّ ازدادت التصاقاً. ومضينا بعد خطًى أخرى، ثمّ دلفنا إلى ممرّ صغير بين تلّتين تغمره الأشجار من كلّ جانب، وتغطّي الشجيرات والأدغال فيه نتوءات الأرض المتعرّجة وفجواتها. وكنت

أبحث بعيني عن مكان ملائم يمكننا أن نتمدّد فيه، وأخيراً حسبت أنّني وجدته. كان خلاء مسطحاً، مغطّى بالعشب، تحيط به سرخسيّات مرتفعة وأدغال ضخمة من الوزّال. وكنت على وشك أنّ أرشد إليه سيسيليا حين التفتت إليّ وقال بإهمال:

- آه! نسيت أن أقول لك إنّني لا أستطيع اليوم أن أقوم بفعل الحب.

وأحست كما لو أنّي وضعت قدمي في فخّ، وسألتها:

- ولماذا؟

- إنّني متوعكة.

- أنت لا تقولين لي الحقيقة.

فلم تجب، وتقدّمتْ بضع خطى أخرى بين الوزّال والسرخس، وصعدت إلى أكمة صغيرة مستديرة، ثمّ التفتت إليّ، وانحنت فتناولت بكلتا يديها طرف ثوبها ورفعته حتّى بطنها. ولمحت الفخذين المستقيمتين المتّحدتين مشدودتين بالحرير، وعند أسفل البطن، حيث تشفّ عادةً قماشة «السليب» عن لطخة العانة السوداء، لمحت بياض حزمة قطن:

- هل صدّقتني الآن؟

فأجبت في غضب:

- نعم، صحيح... إنّ الأمور معك صحيحة دائماً.

فخفضت ثوبها في صمت، ثمّ سألت:

- لماذا تقول ذلك؟ إنّني في الأيام الأخرى، لم أمتنع عليك قط.

وكنت أحسّ آنذاك بشعور جنون: لقد كانت شهوتي المكبوتة تذوب مع فكرتي المهووسة بأنّ عاجز عن امتلاكها، كما لو أنّ عائق ذلك اليوم لم يكن إلّا مستحيلاً واحداً من مستحيلات وضع متشابه دائماً. وقلت:

- كنت أشتهيكِ بقوّة، وإذ أتيتِ معي، جاعلةً إياي أعتقد أنّك كنت موافقة، ضاعفتِ شهوتي. فلماذا لم تقولي لي على التوّ أنّك كنت متوعّكة؟

فأجابت، وهي تنظر إليَّ بلامبالاة، كما ينظر تاجرٌ يبادل على حاجة نافدة، بحاجة مختلفة تماماً وأقل قيمة:

- ولكنّنا سنبقى معاً طوال النهار.

- ولكنّي أنا كنت أريد أن أقوم بفعل الحب.

- سنقوم به في وقت آخر، ربّما غداً...

- ولكنّي كنت أريد أن أقوم به اليوم، بل في هذه اللحظة.

- إنّك طفلٌ حقيقي!

وتبع ذلك صمت. وكانت سيسيليا تمشي خافضة الرأس بين الأدغال، وتبدو وكأنّها تبحث عن شيء. ثمّ انحنت، فانتزعت نبتة عشب وضعتها بين أسنانها. وقلت لها في غضب جامح:

- من أجل هذا عرضتِ عليّ أن أبقى معك طوال النهار. لقد كنت تعرفين، بكلّ بساطة، أنّك لم تكوني تستطيعين القيام بفعل الحب مع لوسياني.

- كان لوسياني أيضاً يريد أن يقوم بفعله، فقلت له ما قلت لك.

- ولكن لوسياني أخذك بالأمس. أمّا أنا فقد مضى عليّ ثلاثة أيام لم آخذك فيها.

- إنّ لوسياني لم يأخذني أمس، فهو أيضاً قد أخذني مثلك منذ ثلاثة أيام.

وظلّت تتقدّمني بين الأدغال، شاردة، ونبتة عشب في فمها. وفجأة سألتها في غضب:

- ولكن إلى أين أنت ذاهبة؟ وماذا تريدين أن تفعلي؟

- ما تريده.

- ما أريده، تعرفينه.

- ولكنّي قلت لك إنّ ذلك مستحيل!

- إذا لم نكن نستطيع أن نقوم بذلك الشيء، فلا أرى حقًّا ما نستطيع أن نفعل.

- أتريد أن نعود إلى المدينة ونقصد السينما؟

- لا.

- أتريد أن نقصد البحر؟

- لا.

- أتريد أن نذهب من جهة «القصور»؟

- لا.

- أتريد أن تبقى هنا؟

- لا.

- أتريد أن نذهب؟

- لا.

- إذن ماذا تريد؟

- لقد قلت لك: أريد أن آخذك.

- وأنا قد قلت لك: اليوم، لا.

- إذن لنعُدْ إلى السيارة.

- وإلى أين نذهب؟

- لا أدري، هيّا...

وهكذا عدنا إلى السيارة، وفي هذه المرّة، كنت أتقدّم سيسيليا؛ بالرغم من أنّني، خلافاً لها هي التي كان يبدو دائماً أنّها تعرف، إن لم يكن بالذهن، فبالجسد على الأقل، إلى أين كانت تتجه، كنت أجهل تماماً إلى أين أذهب.

وما كدنا ندخل السيارة، حتّى مضيت بأقصى سرعة، من غير أن

أنتظر حتّى أن تغلق سيسيليا الباب كليًا. وكنت أستشعر غضباً متزايداً لم يكن يرتوي ولم يكن ينطفئ، كنارٍ تجد دائماً وقوداً لها في لهيبها. وكان هذا الغضب يوحي لي بأوهام مستمرّة، طاغية، كما لو أنّي كنت، وأنا لم أستطع أن آخذ سيسيليا، أبحث عنها في كلّ مكان، ببلادة وعناد، بمجرد أن يتيح لي ذلك شبهٌ ما، مهما بلغ من البُعد. وهكذا كانت بعض الأمكنة المسطحة، الحليق بعضها والمعشب بعضها الآخر، تجعلني أفكّر ببطنها، وبعض الكثبان المستديرة بنهديها، وبعض تعرّجات الأرض بمنحنيات وجهها وشعرها. وكنت أحياناً أرى الطريق تنسلّ بين رابيتين طويلتين مستديرتين، فيخيّل إليّ أنّهما ساقا سيسيليا المنفرجتان، وهي متمدّدة على ظهرها، وأنّ بين هاتين الرابتين كان يوجد شقّ فرجها الذي كانت سيارتي تعدو نحوه. ثمّ فجأة، بينما كان يخيّل إليّ أنّي سأغرق كليًا، بسيارتي، في هذه السيسيليا الضخمة المصنوعة من الأرض، إذا بالمنظور يتغيّر بغتة، فتبدو أربع رواب بدلاً من اثنتين، وتزول الساقان والفرج وكلّ شيء، فليس هو بعد إلّا منظراً عادياً من المناظر. ومن جهة أخرى، كان يخيّل إليّ أنّي، كما سبق أن قلت، كنت أعدو بحثاً عن شيء كانت سرعة عدوي مع ذلك لا تتيح لي أن أبلغه. وهذا الشيء، كان دائماً أمامي، هناك، في تلك الباقة من الشجر، أو هذه الرابية، أو ذلك الوادي، أو هذا الجسر، ثمّ لا يكون هناك شيء بعد، ويلزمني من جديد أن أعدو حتّى تتقطّع أنفاسي نحو أهداف جديدة وهمية. وفي الوقت نفسه، وحتّى في هذا الهذيان من الغضب الأعمى العاجز، كان يبقى لي دائماً إحساسٌ واضح بأنّ سيسيليا كانت هنا، إلى جانبي، قريبة وغير قابلة للالتقاط.

ولم أعرف الوقت الذي سرتُ فيه على غير هدى، من طريق إلى طريق مرتمياً، لدى التقاء الطرق، في أي اتجاه، عائداً إلى الخلف،

ملتهماً كيلومتراً وراء كيلومتر، تارة في محاذاة البحر وأخرى بين أشجار الغابات الصغيرة: ربّما أكثر من ساعة.

وفجأة، أوقفت السيارة على إحدى الطرق، تجاه مساحة من الحقول يكتنفها صنفٌ من شجر الحور، وقلت:

- يجب أن أقدّم لك اقتراحاً.

- أي اقتراح؟

ولم أكن قد فكّرت به خلال رحلتنا. ولكنّي كنت قد فكّرت به في الأيام السابقة وفي صباح اليوم نفسه، قبل أن أرى سيسيليا. ولهذا بدا لي أنّي أقول شيئاً طبيعياً جدًّا:

- أريد أن تصبحي زوجتي.

فرأيتها تنظر إليّ بلا دهشة، في خدرٍ مطمئن:

- تريد أن تتزوجني؟

- نعم.

- ولكن لماذا تقول لي ذلك الآن؟

- لقد انقضى عليّ زمن وأنا أفكّر في الأمر، ولكن اللحظة المناسبة جاءت الآن.

كانت تنظر إليّ، وكنت أحسّ بما يحسّ به من دوار وشهوة ذلك الذي يتردّد تردّداً طويلاً قبل أن يلقي برأسه، أوّل ما يلقي، في الفراغ. وأخذت يديها وقلت لها بسرعة كبيرة:

- ستصبحين زوجتي، وسنذهب فنسكن في بيت أمّي. وربّما كنت لا تعلمين أنّي غنيّ.

- أنت غنيّ؟

- نعم، أو على الأصح أمّي هي الغنية، وبمجرّد أن نعيش معها، في مقصورتها الواقعة على جادة آبيا، تصبح ثروتها هي أيضاً ثروتي، أقصد ثروتنا.

وظلّت تلتزم الصمت، واستطردت:

- سوف نتزوّج بكلّ مظاهر البذخ الممكنة. زواج في الكنيسة، هدايا، ملبّس، زهور، عشاء، استقبال إلخ... وبعد ذلك فوراً نقوم برحلة عسل جميلة، فنسافر إلى إسكنديناڤيا في الشمال، أو إلى مصر في الجنوب. وبالمقابل، ستتغيّر حياتك رأساً على عقب، فتصبحين سيدةً من سيدات المجتمع في روما، هاتيك اللواتي نراهن في شارع فينيتو أو في ساحة إسبانيا.

فظلّت لا تقول شيئاً؛ وتابعت في سُعر متزايد: وأنا أشدّ على يديها:

- وسنرزق أولاداً، لأنّني أريد أولاداً. إنّك في هيئة امرأة يمكنها أن ترزق أولاداً لا أدري عددهم. فسأهبك اثنين، أربعة، ستة، ثمانية، العدد الذي تريدين.

وكان صمتها المستمرّ يقلقني، فسألتها فجأة:

- إذن، ماذا تقولين؟

فعزمت أخيراً على الإجابة ونطقت ببطء:

- إنّني لا أستطيع أن أجيبك هكذا، على وجه فجائي. ويجب أن أفكّر في الأمر.

- فكّري. أتريدين أن تعطيني جوابك غداً، بعد غد؟ كما تريدين.

وأضفت بسرعة:

- وبالانتظار، سنقصد على الفور أمّي، حيث أقدّمك كخطيبتي.

وكان قد خطر لي أنّ سيسيليا ربّما كانت تشكّ بتأكيداتي حول غنى أمّي، وكنت أريد أن تتثبّت من ذلك بعينها. ومن جهة أخرى، كنت أريد، وأنا أقدّمها كخطيبتي، أن أحرجها، وأن أجبرها بطريقة ما على أن تقبل اقتراحي.

وسألتني:

- لماذا تقصد أمّك اليوم؟ ألا تستطيع أن تعرّفني عليها في وقت آخر؟

- لا، الأفضل هو اليوم؛ فبهذه الطريقة تعرفينها وتدركين الوضع.

- ولكنّك لا تستطيع أن تقدّمني على أنّي خطيبتك، ما دمت لست بعد خطيبتك.

- ما يهمّ؟ إذا لم نتزوج، في آخر المطاف، فسأقول لأمي إنّك قد غيّرت رأيك.

وقالت فجأة، بطريقة غريبة، كما لو أنّها قد اتخذت القرار الذي كانت تريد أن تبلّغني إياه بعد بضع ساعات:

- بل سأعطيك جوابي هذا اليوم بالذات، في هذا المساء.

- ولماذا، هذا المساء؟ لماذا ليس الآن؟

- لا، هذا المساء.

فلم أقل شيئاً، وأرخيت الفرملة وأدرت المحرّك ثمّ انطلقنا. وأحسست إذ ذاك برغبة شديدة بها حتّى إنّ الزواج الذي عرضته عليها كان يبدو لي ثمناً غير كافٍ تقريباً لا لخلود الحب بالطبع، وإنّما لاعتناق واحدٍ خاطف. لقد كنت مستعداً، لكي أمتلكها، ولو مرّة واحدة، ولكن امتلاكاً كليًّا، لا للزواج بها فحسب، بل حتّى لعقد حلف مع الشيطان والحكم على روحي بالهلاك. وقد يقال لي إنّ هذه ليست عبارة. وهي إلى ذلك من طراز رومنطيقي. ولكنّ هلاك الروح لم يكن آنذاك مجرد عبارة بالنسبة لي، بل كان أمراً واقعياً يمكن أن يتمّ لا في العالم الآخر الذي لم أكن أؤمن به، بل في هذا العالم الذي ينبغي لي أن أعيش فيه. والغريب أنّ معنى هذا الهلاك لم يكن ينفصل عن أملّ بالتحرّر بعيد جدًّا. ذلك التحرّر الذي كنت أبداً أتصوّر أنّي سأحصل عليه يوم أنجح في امتلاك سيسيليا.

ولم يكن غياب الشمس بعيداً آنذاك؛ وانبثقت أخيراً أشجار الشربين والصنوبر في طريق آبيا، سوداء كالحبر، وخلفها خطّ طويل أحمر كان يبدو وسط انهيار الغيوم كأشعة حريق. وصعدت على مهل الطريق الرومانية الضيقة، مبطئاً حيث كان البلاط القديم يلامس الإسفلت، متوقفاً بين الفينة والفينة لأتأمل الخرائب والحواجز والسيارات المصطفة عند أرصفة الطريق. وفي هذه الأثناء كنت أفكر بالعرض الذي اقترحته على سيسيليا، فأدرك أنّني إنّما استعملت الزواج، في لامبالاة ربّما كانت مفرطة، كوسيلة من وسائل كثيرة لبلوغ هدف لم يكن فقط غريباً عنه، بل كان أيضاً ينكره. وكنت أخشى فجأة أن أكون قد كشفت حالتي النفسية ونواياي، بحيث كان ممكناً أن أشعر سيسيليا شعوراً مستاءً بأنّني لم أكن أرغب في الزواج بها إلّا لأتخلص منها. وفكّرت بأنّه لم يكن مستحيلاً في آخر المطاف أن تكون سيسيليا ممّن يحترمون في قلوبهم المثل الزوجي، وأنّني ربّما كنت قد جرحت هذا المثل إذ عرضت عليها بمثل تلك السرعة أن تصبح زوجتي. واستطردت بعد لحظة:

- الواقع أنّك تحسنين صنعاً إذ لا تجيبينني على الفور. فالزواج ليس أمراً يمكن أن يُفعل بخفّة وعلى عجل.

فلم تقل شيئاً، وأضفت:

- إنّ الزواج يعني الاتحاد لمدى الحياة. هذا ما أفهمه منه، أنا على الأقل؛ ومن أجل هذا نريد أن نتزوج في الكنيسة.

وفجأة، وبطريقة غير متوقّعة، سمعتها تسأل:

- ولماذا، في الكنيسة؟

فأجبت في انبساط:

- لأنّنا حين نتزوج في الكنيسة نكون حقًّا متحدين، من غير إمكانية الانفصال إلى الأبد.

فقالت:

- ولكنّك غير مؤمن.

- سأكون مؤمناً من أجلك.

- ولكنّي أنا أيضاً غير مؤمنة.

- كيف، لا تؤمنين؟ لقد سبق أن قلت لي إنّك كنت لدى الراهبات حتّى الثانية عشرة من عمرك.

- هذا لا يعني شيئاً. حتّى حين كنت لدى الراهبات، لم أكن مؤمنة.

- بِمَ كنت تؤمنين؟

فبدا عليها أنّها تفكّر لحظة، ثمّ أجابت في وسواس جافّ وواضح:

- بلا شيء. ولكن إذا كنت لا أؤمن، فليس ذلك لأنّي كنت أفكّر في الأمر، وأنّي إذ أفكّر فيه ألاحظ أنّي لا أؤمن. بل كنت لا أؤمن لأنّي لم أكن أفكّر بهذا قط. والآن أيضاً، لا أفكّر فيه أبداً. إنّني أفكر بجميع الأمور الممكنة، ولكنّي لا أفكّر بالدين. وحين لا يفكّر إنسان بشيء قط، فهذا يعني أنّ الشيء لا يوجد في نظره. فليست القضية أنّ الدين يجتذبني أو لا يجتذبني، بل هي أنّه في نظري غير موجود.

فقلت وأنا أخفّف السير حتّى كدت أوقف المحرّك:

- إنّك الآن لا تفكّرين به أبداً. ولكنّك لا تستطيعين أن تستبعدي إمكانية التفكير به ذات يوم.

فلزمت الصمت لحظة، ثمّ قالت:

- لا أظنّ ذلك. إنّني لم أكن أفكّر به لدى الراهبات حيث لم يكن ثمّة إلّا الدين، إذا صحّ التعبير، فلماذا تراني سأفكّر به الآن، خارج الدير، بينما هناك أمورٌ كثيرة تستحق التفكير؟ أتعرف ما الذي كنت أفكّر به وأنا أتلو الصلوات لدى الراهبات؟

- بِمَ كنت تفكرين؟

- بالساعة.

- ولماذا، بالساعة؟

- لأنّه كان ثمّة ساعة جدار. كنت أنظر إليها، وفيما أنا أتلو صلواتي، كنت أعدّ الثواني والدقائق.

- أكان يُسئمك إلى هذا الحدّ أن تتلي صلواتك؟

- نعم.

- لماذا؟

- هناك أشياء كثيرة نعلم أنّها يمكن أن تكون مجدية، حتّى ولو كانت مسئمة جدًّا. أمّا الصلاة، فهي بالنسبة لي على الأقل، لا تجدي شيئاً.

- لا يستطيع المرء أن يعرف. فربّما أجدتك يوماً.

- لا أظن. إنّني لا أستطيع أن أتصوّر أن أحسّ يوماً بحاجة إلى الدين. إنّه نافلة.

- نافلة؟

- نعم، كيف أوضّح؟ إذا كان موجوداً، فإنّ الأمور تكون على شكل ما، وإذا لم يكن موجوداً تظلّ الأمور كما هي. لم يتغيّر شيء: فهو إذن نافلة.

- نستطيع أن نقول ذلك عن أمورٍ كثيرة في هذا العالم.

- ما هي؟

- الفن مثلاً! إنّ الأمور تظلّ كما هي حين لا يوجد الفنّ.

- ولكن الفنّ يحقّق شروداً وذهولاً لمن يتعاطاه. كان باليستياري يتلهّى وأنت تتلهّى. أمّا الدين، فهو على العكس مضجر. وفي الدير، كنت أحسّ دائماً بأنّ الراهبات كنّ ضجرات، كما كان الرهبان ضجرين، وعلى العموم، جميع الذين يهتمون بالدين. وفي الكنائس،

كم يسأم الناسّ! انظر إليهم حين يكونون في الكنيسة، فسترى أنّ ليس فيهم من لا يسأم حتّى الموت!

وكانت هي المرّة الأولى التي تحدّثني فيها سيسيليا عن السأم، ولم أتمالك عن سؤالها:

- ولكنّك تسأمين؟

- نعم، أحياناً.

- وبمَ تشعرين حين تسأمين؟

- أشعر بالسأم.

- ولكن ما هو السأم في نظرك؟

- كيف لي أن أشرح لك السأم؟ السأم، هو السأم.

وكان بودّي أن أقول لها: «السأم هو انقطاع كلّ صلة، وإذا كنت أريد أن أتزوّجك، فلكي تسأميني، لكي لا أتألم بعد، لكي لا أحبّك بعد، وبالإجمال، لكي أعتبرك غير موجودة بعد، كما أنّ الدين غير موجود في نظرك، وكذلك كثير من الأمور الأخرى، ولكنّي لم أجرؤ على ذلك». ثمّ إنّها قد قطعت محادثتنا دون تمهيد، فرفعت يدها لتلامس بها خدّي:

- والآن، لنقصد بيت أمّك، قبل أن يصبح الوقت متأخّراً جدًّا.

فقلت:

- حسناً.

ولكن لم يسعني في الوقت نفسه إلّا أن أتساءل عن سبب هذه الرغبة المفاجئة في الذهاب إلى أمّي، في حين أنّ سيسيليا قد أبدت، قبل ذلك بقليل، ما يشبه النفور من القيام بهذه الزيارة. وبعد التفكير، أحسست أنّني أفهم أنّ سيسيليا كانت تقترح عليّ الذهاب إلى أمّي لتتحاشى محادثة كانت تعذّبها. وبالفعل، فقد كنت أعرف أنّ سيسيليا كانت تكره أن يُتحدّث عنها. وكنت أنا، على العكس، أفعل ذلك

باستمرار، وقد خطر لذهني أنّ تكتّمها العنيد ربّما كان صادراً عن كرهها لهذا النوع من الحديث الذي كنت أفسّرها عليه. كانت سيسيليا مستعدّة دائماً لأنّ تهب نفسها جسدياً، في كلّ لحظة، وفي أيّة مناسبة، ولكنّها حين تكون موضوع الحديث، فإنّها تصبح شبيهة بصدفة مغلقة بعناد تشدّ صماماتها بمقدار ما يجهد المرء لفتحها. وكانت سيسيليا تحاول عادةً أن تقطع هذا النوع من المحادثة بأن تعرض عليّ القيام بفعل الحب؛ فكانت تأخذ بيدي وتحملها إلى بطنها وتغمض عينيها. وبالإجمال، كانت تهبني جسدها لتخفي وتنقذ كلّ شيء آخر. ولكنّنا لم نكن في ذلك اليوم نستطيع أن نقوم بفعل الحب، فإذا بها، وهي في حاجتها اليائسة لأن تكفّ عن سماع الحديث عنها، تعرض عليّ ما كان تحت يدها: الزيارة المزعجة لأمّي.

وفيما كنت أفكر بهذا كلّه، سُقت السيارة لحظة في صمت. ثمّ سألتها:

- ألم يكن باليستياري يحدّثك قط عن نفسك؟

- لا، على الإطلاق.

- وعمّ كان يتحدّث، بصورة خاصّة؟

- عن نفسه.

- وماذا كان يقول؟

- كان يقول إنّه كان يحبّني.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، لا شيء. كان يمضي في التحدّث عن نفسه، وعن عواطفه إزائي. إنّك تعرف العبارات المألوفة التي ينطق بها الرجال حين يكونون مغرمين.

ولم أستطع الامتناع عن التفكير بأنّي كنت قد وجدت، في آخر المطاق، فرقاً بين باليستياري وبيني: إنّني لم أكن أفعل إلّا أن أحدّث

سيسيليا عن نفسها، أمّا باليستياري، فقد كان على العكس يحدّثها عن نفسه، شأنه في ذلك شأن جميع المهووسين الجنسيين. وقرّرت أنّ باليستياري، في الواقع، لم يحب سيسيليا قط حبًّا حقيقياً.

وسألتها:

- أكان يلذّك أن يحدّثك عن نفسه؟

- حين كان يقول لي إنّه كان يحبّني، لذّني ذلك فترة من الزمن، ولكنّه إذ جعل يردّد ذلك دون ما انقطاع، كففت آخر الأمر عن الاستماع إليه.

- أكنت تفضلين أن يحدّثك عن نفسك؟

- لا.

- ألا تحبّين أن تُحدّثي عن نفسك؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أدري.

- لا بدّ إذن من أن أسبّب لك السأم، أنا الذي أطرح عليك دائماً أسئلة عن نفسك.

- نعم.

وأمام هذه اللغة الموجزة الحاسمة، ظللت مكتوم الأنفاس:

- ربّما يبلغ بك الأمر أن تحتقريني إذ أحدّثك عن نفسك؟

- لا، لست أحتقرك، ولكن يثقل عليّ الوقت فأتمنى أن تنتهي بأسرع وقت.

وبمَ تشعرين، حين أسألك عن نفسك؟

ففكّرت لحظة ثمّ أجابت:

- أشعر بالرغبة في ألا أرد عليك.

- أي أن تظلّي صامتة؟

- نعم، أو أن أقول لك أشياء غير صحيحة، لمجرد أن أسرّك.

وصمتت لحظة، ثمّ استطردت في ثرثرة مفاجئة:

- تصوّر أنّي حين كنت في الدير وكان عليّ أن أعترف، كنت أخترع، لأتحاشى التكلم عن نفسي، ذنوباً لم أكن قد ارتكبتها. وبهذا، كان الكاهن مسروراً؛ وكان يقول لي إنّه كان عليّ أن أتوب، وكان يعطيني صلوات لا أذكر عددها لكي أتلوها للعذراء وللقديس يوسف. وكنت أجيبه نعم، دائماً نعم، ولكن لم أكن أقوم بشيء ممّا كان يطلب منّي القيام به، إذ لا أكون قد فعلت شيئاً رديئاً، ولم يكن عليّ أن أتوب.

وخطرت لي فكرة: هي أنّ هذا الكاهن كان يريد أن يقوم في الحقيقة بما حاولت غالباً أن أقوم به: أن يستولي على سيسيليا، ويحبسها في إثمها ويسمّرها بحكم. وسألت مذعوراً:

- أتكونين معي أيضاً قد اخترعت أشياء لم تفعليها قط؟

فأجابت بإبهام:

- نعم، ربّما اخترعت أحياناً.

- ولكن ماذا تقصدين؟ إنّك كذبت عليّ؟ متى؟

- لقد قلت ربّما: ولكنّي الآن لا أذكر.

- حاولي أن تتذكّري.

- إنّني لا أتذكّر.

- هل كذبت عليّ مثلاً في ما يخصّ علاقاتك بباليستياري؟

- أقسم لك أنّي لا أذكر.

- وهكذا، كلّ ما قلته لي عن ماضيك يمكن ألا يكون صحيحاً؟

- لا، اطمئن. لقد قلت لك الأكاذيب حين كان ذلك ضرورياً فقط.

- متى مثلاً؟

- لا أذكر الآن: حين كان ضرورياً.

- ومتى يكون ضرورياً، في نظرك، أن تكذبي؟

- كيف أجيبك؟ يكون ضرورياً حين يكون ضرورياً.

- حسناً... لنذهب الآن إلى بيت أمّي. سوف أقدّمك كخطيبتي، وبعد شهر على الأكثر نتزوج.

واستأنفنا سيرنا في بطء، وما لبثنا أن وصلنا إلى الحاجز العائلي، بين ذينك الركنين المزدانين بالتحف الرومانية. ولم يكن الباب مغلقاً على عادته، بل كان مفتوحاً على سعته؛ وكان الفانوسان القائمان على أعلى الركنين مضاءين. وفي تلك اللحظة بالذات، كانت ثلاث سيارات أو أربع تتأهّب لاجتياز العتبة. وقلت خائباً:

- أخشى أن يكون اليوم استقبال أمّي، أقصد أن يكون ثمّة حفلة كوكتيل. فماذا نفعل؟

- ما تشاء.

وفكّرت بأنّ هذا الاستقبال، بعد كلّ حساب، يمكن أن يكون مفيداً للهدف الذي كنت أرمي إليه: إنّ سيسيليا ستتمكّن بذلك من أخذ فكرة عن العالم الذي سأدخلها إليه حين أتزوجها. فإذا كانت طموحة، كما كنت أؤمل، فلا يمكن لهذه الفكرة إلّا أن تكون مؤاتية. وقلت في سرور:

- لندخل، أقدّمك إلى أمّي، وتشربين شيئاً ما، وترين البيت ثمّ نخرج. موافقة؟

- موافقة.

وصعدت الجادة خلف السيّارات، وأوقفت سيارتي بصعوبة أمام ساحة البيت التي كانت قد امتلأت تقريباً. وهبطت سيسيليا فتبعتها. واتجهت إلى باب البيت وهي ترفع بيديها شعرها المنسدل على عنقها، لترتّبه على كتفيها، وهي حركة كنت أعرف أنّها تنمّ عن

الخجل، وعن إرادة التفوّق عليه. ولحقت بها فأخذت بذراعها وأنا أهمس:

- هو ذا البيت الذي سنسكنه حين نتزوّج؛ أيروق لك؟

- نعم، إنّه بيت جميل.

وولجنا المدخل، ثمّ انتقلنا إلى الصالون الأوّل من الصالونات الأربعة أو الخمسة التي كانت تشغل الطابق الأرضي. وكان عددٌ من المدعوين واقفين فيه، متقاربين، والكؤوس في أيديهم، يتحدّثون عن كثب ويتبادلون نظرات جانبية، كما يحدث عادة في حفلات الكوكتيل. وإذ كنت أدفع سيسيليا من ذراعها لتشقّ هذا الجمع المزدهي الذي كان يتبختر، وتنظر إلى جميع هؤلاء الرجال الأغنياء اللامعين، وهاتيك النساء المصبوغات اللابسات ثيابهنّ على أحدث طراز؛ ولتمتزج سيسيليا بتلك الكثرة الكريهة، حتّى لتبدو كأنّها جزء منها - وإذ فكّرت بأنّه إذا حدث هذا حقًّا، وربّما أمكن بالفعل أن يحدث بعد زواجنا، فإنّني لن أتحرّر من سيسيليا ومن حبّي لها فحسب، بل سأكرهها أيضاً كما كنت أكره مدعوي أمّي - إذ كنت أفعل وأفكّر بهذا كلّه، انتباني بعض الندم على أنّي رجوت أن أفقدها في هذا الجمع الفظيع، وانتابني ما يشبه الأمل بأنّها ربّما رفضت أن تتزوجني.

أجل، كنت أريد أن تُسئمني سيسيليا، ولكنّي لم أكن أريد أن أكرهها. وعلى أي حال كان حبّي لها أكبر من أن أتمنّى أن أتحرّر منها بثمن تحوّلها من مراهقة فقيرة تمتلئ لطافة وطلاوة إلى شريرة غنيّة.

وفيما كنت أجترّ هذه الأفكار، ظللت أدفع سيسيليا عبر الجمع، من فريق إلى فريق، ومن دائرة وجوه إلى دائرة أخرى، في دخان السكاير، وضجيج المحادثات، وأنا الأمس في تنقّلي صحون الزجاج المختلفة الألوان والأحجام التي كان الخدم يطوفون بها. لقد كان استقبالاً حافلاً، وكان واضحاً أنّ أمّي قد اعتمدت البحبوحة والبذخ،

من غير أن تهتم بالنفقات. ولكن المال الذي صرفته أمّي لتستقبل ضيوفها استقبالاً لائقاً كان شيئاً زهيداً بالمقارنة إلى الغنى الذي لا يحصى لكلٍ من هؤلاء المدعوين. ولا أدري لماذا تذكّرت استقبالاً مماثلاً تمّ منذ سنوات، وسأل فيه عجوز سمين مرح كامل الصحة، عجوزاً آخر هزيلاً ممتقعاً وحزيناً، بلهجة مسايرة وتشكّك علمي في الوقت نفسه: «ما هو في رأيك رأس المال المتمثّل، بين هذه الجدران الأربعة، قلْ رقماً...» فأجابه الآخر بلهجة مظلمة: «ماذا يدريني أنا؟ إنّني لسن موظف جباية».

وكنت قد تساءلت كثيراً لماذا كنت أحسّ بمثل هذه الكراهية لعالم أمّي؛ ولكنّي في ذلك اليوم فقط، حين تذكّرت العبارة وحين قارنتها بتلك الوجوه التي كنت أراها حولي، فهمت فهماً نهائياً. وبالفعل فإنّي إذ كنت أترصّد سحن المدعوين، أحسست إحساساً واضحاً أنّه لم يكن ثمّة تجعّدة ولا ثنية صوت ولا تدحرج ضحكة، ولا ملمحٌ واحد بالإجمال، إلّا وهو محدّدٌ مباشرة بهذا المال الذي كان المدعوون يمثّلونه هنا، على حدّ قول العجوز السمين، في مبالغ متباينة. وفكّرت: أجل إنّ المال في هذا الجمع قد تجسّد لحماً ودماً؛ وسواء أكان قد رُبح في عمل شريف وسعيد، أو قد سُرق بحيلة ووقاحة، فإنّه كان ينتج النتيجة نفسها، ابتذالاً لا إنسانياً يُرى في السُمنة المزدهرة كما يُرى في الهُزال الجافّ. ولئن كان صحيحاً (وهو صحيح) أنّ المال لا يسمح بالطلاق مع المال، لأنّ من هو غنيّ لا يستطيع أن يتظاهر بأنّه ليس كذلك، فقد كنت أدرك مرّة أخرى أنّني أنا أيضاً كنت جزءاً، بالرغم منّي، من مجتمع الأغنياء هذا، وأنّ المال الذي كنت قد تخلّيت عنه، من غير أن أنجح في التخلّص منه، هو الذي كان مصدر أزمة فني، وعلى العموم، أزمة حياتي. إنّني إذن لم أكن إلّا رجلاً غنياً كان يودّ لو لم يكن كذلك. وكان بوسعي أن أرتدي

الخرق وآكل فتات الخبز، وأعيش في كوخ: فإنّ المال الذي كان تحت تصرّفي كان يغيّر خرقي إلى ثياب أنيقة، وفتات خبزي إلى مآكل شهية، وكوخي إلى قصر. وحتّى سيارتي المتهرئة القديمة، كانت أوفر بذخاً من كثير من السيارات الفارهة لأنّها كانت تخصّ رجلاً كان يستطيع لو أراد أن يملك سيارة أخرى من أحدث طراز.

وارتعشت لصوت أمّي الذي كان يقول:

- أوه! دينو، ما أجملها من مفاجأة!

كانت أمامي، ولكنّي لم أكن قد رأيتها، أو إذا كنت قد رأيتها فإنّي لم أعرف أن أميّزها في جمع مدعويها، لفرط ما كانت تبدو في تلك اللحظة واحدة منهم، شبيهة بهم في كلّ شيء، بلا أدنى صلة معي، حتّى ولا صلة الدم. كانت أمّي، إذا أخذت وحدها، تظلّ أمّي في الجمع الذي كان يملأ صالوناتها، فإنّها لم تكن أيسر على التمييز من عصفور في رف أو سمكة في بحر. ولهذا فإنّ التحديد الاقتصادي الذي يمكن أن يظهر كملمح فردي، حين تكون أمّي وحدها، كان يتكشف وهي في جمع مدعويها كطابع جماعي ولا شخصي. وقد كان بالإمكان التأكيد، بالنسبة لجميع الأشخاص الذين كانوا يملأون غرف الاستقبال، وبالنسبة لأمّي أيضاً، أنّ ما كان يختفي وراء التماع زجاج عينيها الزرقاوين، وتباهي مجوهراتها الكثيفة، وعصبية هزالها، وتصنيع ماكياجها المفرط، ولهجة صوتها المزعجة، إنّما هو انقيادية المال التي هي خصيصة من خصائص المجتمع الذي تنتمي إليه، أكثر ممّا هو جدّة تجربة توحّدية.

وأمّي التي كانت شبيهة بمدعويها في مظهرها المادي، كانت كذلك شبيهة بهم في مسلكها خلال لقائنا القصير. إنّها شديدة الاهتمام والتنبّه حين تكون وحدها عادة؛ أمّا في حفلة الكوكتيل هذه التي كان من قوانينها عدم الاهتمام المطلق، المصنوع من اللامبالاة، ومن

العجلة والطيش، فإنّ أمّي كانت تتصرّف كالآخرين، ناظرةً من غير أن ترى، ومتحدّثة من غير أن تسمع. وبالفعل، فإنّها بعد عبارة الترحيب الفرحة، نطلقت بما لا أدريه من كلام غير منسجم حول الواجبات الكبيرة التي لم تكن تتيح لها، في ذلك اليوم، أن تهتم بي. ثمّ أضافت في انعدام للفضول كلّي، وهي تنظر فيما حولها، بسرعة، وانقياداً للشكل، قولها:

- إنّني أنبّهك إلى أنّك لم تقدّم لي الآنسة بعد.

فقلت في لهجة زهو وأنا آخذ ذراع سيسيليا:

- هذه سيسيليا خطيبتي.

وحدث إذ ذاك شيء غير متوقّع. فسواء أكانت أمّي لم تسمع عبارتي، أم أنّها سمعتها ولكنّها لم تفهمها، أقصد أنّها سمعت جرسها دون أن تدرك معناها، فإنّ ما حدث هو أنّها صرخت فجأة بعد أن وضعت نظرها اللامع على سيسيليا:

- اعذراني، فسوف نلتقي في ما بعد، أمّا الآن، فإنّي مشغولة بأمر...

ومن غير أن تنتظر جواباً، انخرطت في الجمع بعزم القِرش الذي يقذف بنفسه نحو طريدته في أعماق البحر. وخيّل إليّ أنّ أحداً قد وصل، لا بدّ أنّه شخص هام، ولم تسمعني أمّي لأنّها في اللحظة التي كنت أقدّم لها فيها سيسيليا، لمحت عيناها هناك، بالقرب من الباب، الحركة المدوخة التي يحدثها وصول ضيوف جدد في جمع حفلة استقبال.

وأخذت قدحين من على صينية خادم وقدّمت أحدهما لسيسيليا، ثمّ دفعتها إلى فتحة إحدى النوافذ وسألتها:

- إذن ماذا تقولين؟

- عن أي شيء؟

وبقيت لحظة، صامتاً. ما الذي كنت أريد أن أعرفه من سيسيليا؟ كنت أجهل ذلك، أجهل كلّ شيء ما دمت لا أعرف شيئاً. وهكذا قلت اتفاقاً:

- عن حفلة الاستقبال هذه؟

- إنّها حفلة استقبال.

- هل تحبّين حفلات الاستقبال؟

فأجابت بعد لحظة، بلهجة قلقة بعض الشيء:

- لا أحبّها كثيراً. إنّ الدخان والضجة يزعجانني.

- وما رأيك بهؤلاء الناس جميعاً؟

- لا رأي لي فيهم. فأنا لا أعرف أحداً.

- إنّ بعض الأشخاص هنا يمكن أن يُفيدوك، فهل تريدين أن أقدّمك؟

- يفيدونني بأيّة طريقة؟

- اجتماعياً.

- وماذا يعني هذا؟

- بوسعهم أن يعقدوا معك صداقة ويُسايروك، فيدعوك إلى حفلات كهذه، وإذا كانوا رجالاً يغازلوك. فجميع هذه الأمور يمكن أن يكون لها فائدتها. وهذا هو السبب الذي من أجله يذهب كثيرون إلى حفلات الاستقبال. فهل تريدين أن أقدّمك؟

- إنّ هذا لا يهمّني، ثمّ إنّني لن أراهم بعد أبداً.

- بل سترينهم حتماً ما دمنا سنتزوج.

- في هذه الحالة ستقدّمهم لي.

وكنت أريد أن أتصدّى لموضوع الغنى، ولكنّني لم أكن أعرف كيف أتأتى لذلك. وقلت أخيراً:

- الأشخاص الذين ترينهم هنا هم جميعاً أغنياء.

- هذا واضح.
- وكيف اتضح لك ذلك؟
- من زينة السيدات وجواهرهن.
- أتحبين أن تكوني مثلهن؟
- لا أدري.
- لماذا لا تدرين؟
- إنّني لست غنية، ولكي أعرف إذا كنت أحب أن أكون غنية، فيجب أن أكون قد أصبحت ذلك. فإنّما بعد أن أكون قد جرّبت أستطيع أن أقول إن كان ذلك يروقني أم لا.
- ولكن ألا تستطيعين تصوّر ذلك؟
- كيف السبيل إلى تصوّر شيء لا نعرفه؟
- ومع ذلك، فأنت تحبّين المال؟
- نعم حين أكون بحاجة إليه.
- ولن تكوني بحاجة إلى المال؟
- الآن لا، فإنّ ما تعطيني إيّاه يكفيني.
- بالاختصار: إذا تزوجتني كان لك مال كثير، أصبحتِ كالسيدات اللواتي ترين هنا، فما رأيك في ذلك؟
ورأيت عينيها الكبيرتين المعتمتين تجولان في جمع المدعوين، فتساءلت مرّة أخرى عمّا كانت ترى، وإذا كان ما تراه يشبه على نحو ما كنت أراه أنا نفسي. ثمّ قالت على مهل:
- ليس هناك فتيات وإنّما نساء في سن أمّك.
- إنّ أمّي تستقبل صديقاتها، فمن الطبيعي إذن أن تكون السيدات اللواتي ترينهن قريبات السن منها. ولكنّك لم تجيبيني بعد. ما رأيك في أن تتزوجيني وتصبحي كجميع هاتيك السيدات؟
- لا أستطيع أن أقول لك رأيي، فأنا لم أفكّر قط في الأمر.

- هذه لحظة مناسبة للتفكير فيه.

ورأيتها تنظر من جديد إلى القاعة ثمّ تحمل القدح إلى شفتيها، فتشرب جرعة وتبقى صامتة. كان الصمت ما يزال إحدى طرقها للإفلات منّي. وألححت:

- هل أستطيع أن أعرف بمَ تفكرين؟

فأجابت ببعض الفجاءة:

- كنت أفكّر بأنّ من الأفضل أن نذهب إلى مكان أهدأ لأستطيع أن أعطيك الجواب الذي طلبته منّي.

- أي جواب؟

- الجواب المتعلق بقضية زواجنا.

- وأين تريدين أن نذهب.

- الأمر لديّ سواء.

- لنذهب إلى الطابق الثاني. فهناك نستطيع أن نكون مطمئنين. ثمّ إنّك بهذه الطريقة ترين البيت.

ووضعنا قدحينا على حافة نافذة، ثمّ أخذت سيسيليا من ذراعها وقدتها عبر الجمع نحو باب في آخر الصالون. وفتحت هذا الباب ودفعت سيسيليا إلى الممر. وسرعان ما حلّ محلّ الدخان والضجة والجمع جو البيت الصافي والخالي والصموت. وقدت سيسيليا نحو الدرج وبدأت أصعد معها وإحدى يديّ على الدرابزين النحاسي والآخرى على كتفها. وسألت:

- أتحبين أن تعيشي هنا؟

- هنا أو في مكان آخر، الأمر عندي سيّان.

- ولكن هنا توجد أمّي.

- إنّ أمّك قريبة من القلب.

فصحت مذعوراً:

- ولكن يا إلهي! أي شيء فيها ترينه قريباً من القلب؟
- لا أدري. إنّها قريبة من القلب.
وفي هذه الأثناء كنّا قد بلغنا الطابق الثاني. فسألتها:
- أتريدين أن تري غرفتي؟
- نعم.
وفتحت الباب فأريتها إيّاها، وكانت قد بقيت كما كانت يوم فررت، تاركاً بنطلوني بين يدي ريتا: المصاريع مغلقة والفرشة مطوية على السرير. ولم تكن تنظر إليها، لما هي عليه من انعدام للفضول مطلق، ثمّ سألت:
- ألا يسكن فيها أحد الآن؟
- إنّ هنا عدّة غرف فارغة. وبوسعنا أن نأخذها إذا تزوجنا. ألا تظنين أنّك ستكونين في وضع أفضل في مثل هذه الغرفة ممّا أنت في الغرفة التي تسكنينها الآن؟
فأجبت مؤكدة اعتقادي بأنّها لم تكن ترى شيئاً، وأنّه لم يكن ثمّة في نظرها أي فرق بين أثاث أمّي الرائع من طراز (أمبير) وبين دكان بيتها الرخيص:
- لماذا؟ إنّهما غرفتان متشابهتان، فهنا سرير كهناك، وهنا خزانة كهناك، وهنا كراسي كهناك.
- أنت تقرّين على الأقل أنّ هنا أوسع؟
- هذا صحيح.
وأغلقت الباب وأنا أقول:
- لنذهب إلى غرفة أمّي فهي مشغولة بكوكتيلها. فبوسعنا أن نتحدّث ما حلا لنا ذلك.
وقدتها إلى الغرفة، ففتحت الباب ودفعتها في الظلام، كما لو أنّني كنت أدفعها إلى سجن أريد أن أحبسها فيه إلى الأبد، ثمّ أضأت

النور. وبدت لي الغرفة الواسعة الباذخة خانقة إذ لم تكن فيها زاوية من جدارٍ عارية، ولا أدنى حيّز من البلاط مكشوف، فكلّ شيء كان يختفي تحت السجاجيد والطنافس والستائر. وقصدت إحدى النوافذ، ففتحتها على سعتها ونظرت لحظة إلى الخارج. وكانت النافذة تطلّ على الحديقة ذات الطراز الإيطالي، ومن أعلى كانت ترى الجنينة بممرّاتها وأشجارها وأحواضها وظلّتها. وكان الليل هابطاً، وكانت السماء السوداء التي لا نجوم فيها تضيئها أحياناً بروق عاصفة بعيدة، وكان الهواء في مثل حرارة الغرفة الخانقة. وكانت المصابيح المخبأة في الأرض، بين الأدغال، تنشر ضوءاً مزيفاً راعشاً على أقدام المدعوين العديدين الذين كانوا يخرجون من صالونات الطابق الأرضي وينتشرون في الحديقة. وهكذا يظهرون وكأنّهم أشباح، في الضوء الذي ينيرهم حتّى رُكبهم. ولكن القسم الأعلى من أجسامهم كان يضيع في الظلام، حتّى لكأنّ الحديقة كانت عامرةً بالسيقان النسوية والرجالية المحرومة من الأجسام. وفيما كنت أتأمّل هذا المشهد، انبعث صوت سيسيليا يُرعشني:

- أين غرفة الحمّام؟

- هناك. ذلك الباب.

فاتجهت إليه من غير أن تقول كلمة. وابتعدت عن النافذة، وذهبت أجلس على أريكة عند أسفل السرير، وأشعلت سيكارة.

وتوقّفت عيناي عند لوحة قديمة كبيرة معلقة إلى يسار السرير، لا ريب في أنّ أمّي قد حصلت عليها حديثاً، وكنت أعرف أنّها كانت تخصّص أحياناً بعض مالها لشراء الآثار الفنية، ولكنّي لم أتذكّر أنّي قد رأيتها قبل ذلك قط. وكانت اللوحة تمثّل «دانايه» والمطر الذهبي. وكانت «دانايه» متمدّدة على سرير شديد الشبه بسرير أمّي، منخفض وعريض، ذي عوارض مزيّنة بالبرونز. وكانت مسندة ظهرها إلى عدد

من الوسائد، صدرها منكمش، وبطنها بارز إلى أمام، وإحدى ساقيها متمددة على الفراش والأخرى مثنية ومتدلية في الفراغ. وكانت «دانايه» تتأمّل في انبساط حضنها الذي كان عليه مطر القطع الذهبية، في ظل ستائر ثقيلة، وهو ذهبٌ في مثل التماع شعر الآثمة المنثور على كتفيها البيضاوين ونهدها المورد. لقد كانت لوحة عادية، ذات موضوع ميثولوجي، وفي ظروف أخرى، ما كنت لأعيره أيّة أهمية. ولكنّه في تلك اللحظة أثار اهتمامي، كما لو أنّه كان يعنيني، ولو بطريقة غير مباشرة وغامضة. وإذن فقد أخذت أتأمّل هذه اللوحة متسائلاً لماذا كانت تثير اهتمامي، وما عساه يكون معنى فضولي. وفجأة، فتح باب غرفة الحمام، وعادت سيسيليا إلى الغرفة.

كانت قد نزعت ثيابها وأحاطت جسدها بمنشفة قصيرة تكاد لا تغطي خاصرتيها وصدرها، على غرار ما تفعله النساء في القطب الاستوائي، مكتفيات برقعة قماش موجزة. واقتربت بأطراف أصابعها وقالت لي:

- أتعلم أنّ توعكي قد انتهى؟ إذا شئت، فإنّنا نستطيع أن نقوم بفعل الحب.

- هنا؟

- ولِمَ لا؟ إنّه لمكان مريح جدًّا!

وأحسست حساساً مفاجئاً بنوعٍ من الكرم الماكر المغرض، كما لو أنّ سيسيليا إذ تهب نفسها بهذه الطريقة غير المتوقعة، بينما كنت قد عدلت عن أخذها، إنّما كانت تريد أن تعوّض عليّ مقدّماً من تضحية سوف تفرضها عليّ، وكنت ما أزال أجهلها فقلت بغتةً:

- ممتاز، ولكن قبل ذلك يجب أن تعطيني الجواب.

- أي جواب؟

- إذا كنت تقبلين أن تصبحي زوجتي.

فلم تجب، فطافت قليلاً في الغرفة، ثمّ أقبلت تجلس فجأة على ركبتي، وفيما بدأت تحل عقدة عنقي وتفكّ زر ياقتي، نطقت على مهل:

- أنت يا دينو الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أتزوّجه، لأنّي أستطيع معك أن أكون طبيعية وصادقة ولا أخفي عنك شيئاً.

فدهشت لهذه المقدمة وصحت:

- حقًّا؟ أما أنا، فأشعر دائماً أنّك تخفين عنّي كلّ شيء، أو كلّ شيء تقريباً. وهكذا أتساءل عمّا يجري مع الآخرين!

وكما لو أنّها لم تسمع، استمرّت وهي خافضة الرأس في نزع ربطة عنقي، ثمّ في فك أزرار قميصي واحداً بعد الآخر:

- ثمّ إنّ هذا البيت جميل جدًّا، وأحبّ أن أعيش فيه معك.

- وإذن؟

فأضافت وهي تصرّ على إخراج ذراعي من كم سترتي:

- ثمّ إنّك وعدتني بأشياء كثيرة جملة: رحلات، أعياد، زينات...

- وإذن؟

- ولكن يجب أن أقول لك إنّني لا أستطيع أن أتزوّجك. وقد كان عليّ أن أعلمك بذلك على الفور، منذ أن كلمتني في الأمر، ولكنّي إذ رأيت أنّك كنت حريصاً على ذلك كلّ الحرص فإنّي لم أملك الجرأة...

وكانت قد توصّلت إلى نزع سترتي وحتّى قميصي، فطوتهما وألقتهما في أسفل السرير.

وكنت أشعر آنذاك بإحساس خدر هائل، كما لو أنّي اعتقدت حقًّا بأنّ سيسيليا قد سُحرت بفكرة أن تصبح زوجتي. وفكّرت بأنّني، كما أملّت في الماضي أن أمتلك سيسيليا بواسطة المال، ظننت هذه المرّة أنّي سأبلغ الهدف نفسه بأن أعرض عليها شيئاً كانت النساء يفضّلنه على المال: الزواج. وسألتها في غضب:

- لماذا لا تريدين؟
- لا أريد لأنّني لا أستطيع.
- ولكن لماذا؟
فقالت بجفاء:
- بسبب لوسياني، فأنا لا أريد أن أنفصل عنه.
- أهو الذي تريدين أن تتزوجيه؟
- أوه! لا، بل لا أفكّر بهذا قط. ثمّ إنّه متزوج.
- لوسياني متزوج؟
- نعم، وزوجته على عهدته.
فصحت مغتاظاً:
- ماذا يهمّني لوسياني؟ سأدعك ترينه ما شئت.
- لا. لقد قلت لا والجواب لا.
- ولكن لماذا؟
فأجابت باللهجة نفسها التي استعملتها حين عرضت عليها أن أدفع لها كلّ شهر مبلغاً معيناً، كأنّنما كانت شديدة التعلّق بعادة عزيزة مناسبة:
- ولكن، لا يا دينو. لماذا ينبغي لنا أن نتزوّج؟ فلنبقَ كما نحن، فإنّ الأمور هكذا على ما يرام.
وتشبّثت الآن بفكرة الزواج في عنادٍ لا يصدّق، ربّما لأنها لم تكن تريد أن تقرّها:
- ولكن إذا سمحت لك أن تري لوسياني، أو أي شخص آخر، وإذا كان لا يتغيّر شيء، إلّا إلى أحسن، وإذا جئت تسكنين هذه المقصورة معي، بدلاً من أن تسكني مع والديك في بيت بائس، فلماذا تُراك ترفضين؟ ما هو سبب رفضك؟
فأجابت بطريقة حاسمة:

- كلّ ما هنالك أنّ الزواج لا يعني بنظري شيئاً...

ثمّ هطبت على ركبتيّ وشدّتني من يدي وهي تقول:

- هيّا تعال، لنقم بفعل الحب.

فنهضت آلياً، بالرغم منّي تقريباً. وحدث إذ ذاك أمرٌ غريب: فإنّ بنطلوني الذي كانت سيسيليا قد فكّت نطاقه، سقط على قدميّ وجعلني أتعثّر، فإذا بي أهدر، وقد بلغ بي الغضب غايته:

- كلا، لا رغبة لي في ذلك. كلّ ما أريد أن أعرفه لماذا لا تريدين أن تصبحي زوجتي.

كانت واقفةً تنظر إليّ، ثمّ قالت بلهجة غامضة.

- كما تريد... ولكنّي أخبرك أنّنا إذا لم نقم به اليوم، فلن نقوم به إلّا بعد فترة من الزمن.

- لماذا؟

- كنت صمّمت على إلّا أخبرك، حتّى لا تغضب. وكنت أفضّل أن أكتب لك بطاقة لأبلغك ذلك. ولكن الأفضل، بعد كلّ حساب أن تكون على علم. إنّني مسافرةٌ صباح الغد مع لوسياني، إلى «بونزا»، وسنمكث هناك زهاء خمسة عشر يوماً.

كنت قبل ذلك غاضباً، فضاعف هذا التصريح غضبي إذ شرح لي مسلك سيسيليا خلال النهار. فإنّها كانت قد قرّرت أن تقضي أسبوعين مع لوسياني في بونزا؛ ولهذا السبب، وله وحده، أي لتعزّين على نحو ما، اقترحت عليّ أن تقضي النهار معي؛ ولهذا السبب، رفضت أن تتزوجني، مهما بدا ذلك غريباً. وكنت أعرف سيسيليا معرفة كافية، وكنت قد جرّبت انعدام خيالها وتجرّدها اللامبالي الجامد. وكنت أعلم أنّها لم تكن جديرةً بأن تفكّر بأكثر من أمرٍ واحد في وقت معاً، على أن يكون أيضاً أقرب الأمور وأكثرها مباشرة وأعودها بالمتعة. وفي هذه الحالة، كان السفر إلى بونزا مع الممثل هو أقرب الأشياء

وأكثرها مباشرة وأوفرها جذباً؛ ومن أجل هذه الرحالة، إذن، لم تتردّد في رفض الزواج، الذي كان يمكن أن تقبله في ظروف أخرى.

ولاحظت فجأة أنّني كنت أتألم، وأنّني بينما كنت منذ لحظة خلت أريد بأي ثمن أن تصبح زوجتي، كنت أحسّ الآن بأنّي سأكتفي بلألّا تذهب إلى بونزا. وقلت لها ذلك بصوت قلق:

- لا تسافري إلى بونزا.

فلم تجب بشيء، ولكنّها توجّهت نحو السرير، فصعدت عليه وتمدّدت في تمهّل هادئ منبسط، وظهرها مستندٌ إلى الوسائط، وساقٌ متمدّدة على الفراش، والأخرى مطوية وقدمها متدلية في الهواء: تماماً كما تبدو «دانايه» في اللوحة. ثمّ قالت وهي ترفع المنشفة التي كانت قد التفّت بها:

- لماذا نفكّر في الغد؟ تعال إلى هنا، بالقرب منّي.

- ولكنّي لا أريد أن تذهبي إلى هناك.

- لقد سبق أن حجزنا غرفة لنا.

- قولي للوسياني إنّك متوعّكة ولا تذهبي.

- مستحيل.

- ولكن لماذا؟

- لأنّه يلذّني أن أذهب إلى بونزا، ولست أرى لماذا لا أذهب إليها.

- إذا لم تذهبي، قدّمت لك هدية.

وكانت الآن عارية، في وضع مستسلم، ونهداها حرّان، وخاصرتاها مرتاحتان على الفراش؛ وكانت تتطلع في الهواء، بفضول طفولي، إلى مظلّة السرير. ومن غير أن تخفض عينيها، سألت بصوت شارد:

- ما هي الهدية؟

- ما تريدين.

- مثلاً؟

- مبلغ من المال مثلاً.

فحطّت عيناها الكبيرتان المعتمتان عليّ بطريقة لا معبّرة، متردّدة وشبه مندهشة:

- وكم تعطيني؟

وكنت أنظر إليها فجاءتني فكرةٌ انبثقت من تشابه وضعها مع وضع «دانايه» في اللوحة:

- أعطيك من المال ما يكفي لتغطيتك.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّك ستظلّين ممدّدة على السرير، جامدة، فأغطّيك بالأوراق المالية من القدمين إلى الرأس. فإذا عدلت عن الذهاب إلى بونزا، أعطيتك كلّ هذا المال الذي يكون قد غطّاك من الرأس حتّى القدمين.

فأخذت تضحك، وكأنّ جدّة اللعبة، لا موضوعها، هي التي زادتها سحراً وانجذاباً:

- أيّة أفكار غريبة عندك!

فقلت بنية سيئة:

- أفكار رسّام...

- ثمّ أين مالك هذا؟

- انتظري.

ونهضت فعدوت إلى غرفة الحمام، وفعلت بسرعة ما كنت قد تنبّأت منذ بضعة أيام أنّي سأقوم به في نهاية الأمر: فقد أزحتُ المربّعات، وكشفت باب الخزنة الفولاذي، وأدرت الأزرار وفقاً للسرّ الذي كنت أعرفه عن ظهر قلب. وفي هذه الأثناء كنت أصعّد الدعوات

لكي أجد مالاً. وفكّرت أنّه، في حالة عدم وجود المال، فسوف أغطّي سيسيليا بالأسهم الصناعية التي لها ثمن معادل، كما أفهمتني أمّي أكثر من مرّة.

ولكن كان ثمّة مال. قد كان الظرف الأصفر المعهود، موضوعاً فوق ملفات الأسهم العادية، وكان منتفخاً حتّى ليكاد ينفجر. فتناولته وأخرجت الأوراق التي كان يحتويها وعدت إلى الغرفة. وإذ رأتني سيسيليا أقترب رمتني بنظرة لم أستطع أن أمتنع عن وصفها بأنّها ميثولوجية لفرط ما كانت تشبه النظرة التي كان لا بدّ «لدانايه» أن تكون قد نظرتها حين سقطت عليها أوّل قطعة من ذهب. وأمرتها قائلاً:

- والآن، تمدّدي.

فتمدّدت وهي تنظر إليّ مستغربة ومرحة، ولكنّها كانت كذلك مضطربة بعض الشيء، على ما خيّل إليّ. وكانت رزمة الأوراق التي أخرجتها من الظرف ضخمة، وحسبت أنّها لا بدّ من أن تكون مؤلفة من خمسين ورقة من فئة العشرة آلاف. وقد بدأت، رمزياً، من تحت، فبسطت على العانة المعتمة المجعّدة ورقة واحدة مطوية جيّداً، ثمّ غطيت صعوداً البطن الأبيض الطفولي، والقامة الدقيقة فالصدر الأسمر، واضعاً ورقة على كلّ نهد. وأحطت عنقها بورقة أخرى، ووضعت أربعاً على كتفيها، وأربعاً على ذراعيها. ثمّ هبطت ثانيةً إلى ما تحت البطن، فغطّيت ساقيها حتّى قدميها الصغيرتين.

وكانت سيسيليا في بادئ الأمر قد تابعت هذه العملية في فضول طفولي شديد التنبّه، كما لو أنّها كانت لعبة؛ ثمّ أخذت فجأت تضحك، ضحكة عصبية لا تُقاوم، لم أستطع الامتناع عن التفكير في أمل بأنّ هذه الضحكة كانت ضحكة امرأة تستسلم لعاشق صدّته طويلاً. ولا بدّ أنّ «دانايه» قد ضحكت على هذا النحو وهي تحسّ

مطر الذهب الإلهي يغمرها تحت الشهوة الغرامية؛ وظلّت سيسيليا تشارك في اللعبة، وهي ما تني تضحك، مشيرة إلى الأمكنة التي لم تُغطّ بعد:

- هناك، ما يزال مكان خالٍ. ضع ورقة هنا وورقة هناك...

وأخيراً ظلّت مسمّرة في جمود تام، ووجهها ملتفتٌ إليّ، وعيناها مفتوحتان على سعتهما.

وقلت باختصار:

- هنا أربع وعشرن ورقة من فئة العشرة آلاف لير. فإذا لم تذهبي إلى بونزا، أعطيتك إياها.

فضحكت من جديد وصرخت:

- كنت أحسب أنّها أكثر من ذلك!

وظننت أنّها كانت تجد هذا العدد غير كافٍ، فألححت:

- إنّني سأعطيك ضعف هذا، أي ما يكفي لتغطيّك ظهراً وبطناً. وهذا عدل ما دام لك جهة بطن وجهة ظهر.

وفيما كانت باقية تحت الأوراق، جامدة كما لو أنّها كانت تخشى أن تحرّكها وأن تُفسد اللعبة، كانت تنظر إليّ في تململ مليء بالأسف وقالت أخيراً:

- آسفة يا دينو، إنّ هذا غير ممكن.

وصمتت لحظة، ثمّ أضافت في عذوبة كبيرة لم يكن ممكناً أن تكون مصطنعة:

- لنقم الآن بفعل الحب. ثمّ حين أعود من بونزا أعدك بأنّ نقوم به أكثر من الماضي وأن نلتقي أكثر.

وفهمت أنّ عذوبة صوتها كانت صادرة عن الهياج الذي أحدثته لعبة الأوراق المالية. وهو هياج كان من شأنه، وفقاً لتنبؤاتي، أن يتيح لي امتلاكها بفضل المال والذي كان يجعلها بعد رفضها إيّاه أشدّ هروباً وعدم قابلية للالتقاط. وسألتها:

- ألا تريدين حقًّا؟

- لا. فليس هذا ممكناً.

كانت متمدّدة، حريصة على ألا تتحرّك تحت ثوبها المصنوع من الأوراق المالية كما لو أنّ اللعبة قد استمرّت، وأنّها كانت تنتظر مرحلتها النهائية. وأحسستني إذ ذاك فجأة مرهقاً بتلك الشهوة المألوفة العمياء، شهوة الذكر التي كانت تدفعني إلى أخذها، لأنّ لم أكن أنجح في امتلاكها كما لو أنّي إذ آخذها، فإنّي أمتلكها. وارتميت عليها وغطّى جسمي جسمها المغطّى بالأوراق. وسرعان ما أظهرت سيسيليا أنّها كانت تنتظر أن تنتهي اللعبة على هذا النحو، فاعتنقتني بذراعيها وساقيها، بينما كانت الأوراق بين جسدينا اللاهبين والمرطبين بالعرق تطقطق وتندعك. وكان عدد منها قد تناثر حولنا على الغطاء وعدد آخر بين شعر سيسيليا وحول رأسها.

وبعد الحب، ظلّت سسيليا متمدّدة، منفرجة الساقين، ومرتوية كأفعى كبيرة التهمت حيواناً أكبر منها. وكنت نائماً عليها وأنا لا أقل جموداً؛ وإذ فكّرت في جمودنا أدركت أنّ جمودي كان هو الذي يمكن أن يعقب جهداً لامجدياً يستنفد القوى، بينما كان جمودها يحمل طابع امتلاء سرور سعيد. وفجأة تذكّرت العهد الذي كنت أرسم فيه، إذ كنت بعد نهار طويل من العمل أحسّني متعباً، لا تعب إرهاق كالذي كنت أحسّه في هذه اللحظة، بل تعب رضى وسرور كذلك الذي تحسّه سيسيليا. وقلت في نفسي إنّها في علاقتنا، إنّما كانت هي التي تمتلكني وأنا الذي كنت أمتلك بالرغم من أنّ الطبيعة قد أعطتنا كلينا، بغاياتها، وهمَ العكس. وفكّرت بأنّي هكذا قد كنت رجلاً منتهياً؛ فليست القضية فقط أنّني لن أرسم بعد أبداً، بل سأبلغ أن أهدم نفسي في ملاحقة هذا السراب الذي كان يبدو أنّه ينبع من خاصرتي سيسيليا كما لو أنّه ينبع من رمل صحراء؛ وسينتهي بي الأمر إلى أن أسقط كباليستياري في ظلمات الجنون.

وأخرجني من هذه الأفكار صوت سيسيليا الذي كان يقول:
- أظنّ أنّك تقرّ على الأقل بأنّني لست امرأة مصلحة.
فسألت مندهشاً:
- لماذا تقولين ذلك؟
- إن امرأة غيري كانت تأخذ المال ثمّ تذهب مع ذلك.
- وإذن؟
- إذن يجب أن تقرّ بأنّك على نحو ما، قد وفّرت مالاً.
فداخلني أمل بأن تكون سيسيليا قد فكّرت بأنّها توشك أن تقبل عرضي، فقلت لها:
- لست أنا الذي وفرت، بل أنت التي فقدته.
- إذا شئت. وأودّ الآن أن أطلب منك معروفاً.
- أي معروف؟
- كنتَ مستعداً لإعطائي نصف مليون إذا لم أذهب. فأعرني بالعكس جزءاً يسيراً من هذا المبلغ: أربعين ألف لير.
وسألت ببلادة:
- ماذا تريدين أن تفعلي بها؟
- أنت تعرف أنّ لوسياني في هذه الفترة هو بلا عمل، والمال الذي نملكه قليل جدًّا. فهذا يخدمنا في رحلتنا إلى بونزا.
وقبل أن يتاح لي الوقت لأنّ ألاحظ ما كان يحدث، كنت قد وثبت، وكانت يداي قد شدّتا على عنق سيسيليا بينما كنت أقذف في وجهها بجميع الشتائم التي كانت ترد على خاطري. يُقال إنّ بوسع الإنسان في بعض فترات كثيفة جدًّا أن يفكّر ويعيش عدّة أمور في وقت واحد. وفي تلك اللحظة التي كنت أضغط فيها على عنقها كنت أفكّر أنّ الطريقة الوحيدة لامتلاك سيسيليا ربّما كانت في أن أقتلها. فإنّي إذ أقتلها، أنتزعها من كلّ ما يجعلها غير قابلة للالتقاط وأحبسها

في سجن الموت النهائي. وهكذا فكّرت ذات لحظة في خنقها فوق سرير أمّي، في وسط هذه الأوراق المالية التي رفضتها، في هذا البيت نفسه الذي كنّا سنسكنه معاً لو كنّا قد تزوجنا. ولا ريب في أنّي كنت سأفعل ذلك لو لم تأتني في تلك اللحظة بالذات الفكرة الصافية السريعة كالبرق بأنّ هذه الجريمة ستكون، على الأقل بالنسبة للغاية التي كنت أهدف إليها، غير مجدية. فالواقع أنّني بدلاً من أن أمتلك سيسيليا وأتحرّر منها فلن أنجح إلّا بأن أضمن لها استقلالاً ذاتياً نهائياً. فهي إذ تكون محاطة بسر يقيّده الموت بعد الآن، فإنّها ستفلت منّي إلى الأبد في غير ما فائدة. وحللت كلابة يدي وقلت بصوت منخفض:

- سامحيني. لقد أضعتِ لي رشدي لمدّة لحظة.

قالت:

- لقد أوجعتني، فما الذي دهاك لكي تغضب هكذا؟

- لا أدري، اعذريني مرّة أخرى.

- لا أهمية لذلك. إنّ هذا غير مهم.

وتحاملت قليلاً على مرفقي فجمعت سريعاً بعض الأوراق المالية ومددتها لها وأنا أقول:

- هذه ستون ألف لير. فهل هي تكفيك؟

- إنّها أكثر ممّا ينبغي... أربعون ألفاً تكفي.

- خذيها. فربّما احتجت إليها.

- شكراً.

فقبّلتني في عرفان ساذج ومحرج، وأخذتني الشهوة من جديد، بدافع من هذا العامل نفسه بأنّها كانت في وقت واحد بين ذراعيّ وكانت غائبة، وإنّي إذا أخذتها مرّة أخرى، فربّما، ربّما ستكون حاضرة وستكون قد بقيت. ولهذا، ومن غير غضب، هذه المرّة،

وبرقّة، وعذوبة ويأس، أمررت ذراعي تحت ظهرها وأنا أحاذر أن أوجعها بساعة يدي، وحين ملكتها بقامتها الدقيقة، والتفّت يدي ثانية بذراعي، أدخلت ساقيّ بين ساقيها، ومرّرت ذراعي الأخرى حول نقها، وحين ملكتها وهي مغمورة ومحبوسة برمّتها، دخلت على مهل كما لو أنّي كنت أؤمل أن أبلغ، بهذا التمهل، الامتلاك الذي أفلت منّي في المرّات السابقة. وأخيراً سألتها:

- كان لذيذاً، أليس كذلك؟
- نعم. كان لذيذاً.
- كثيراً أو وسطاً؟
- كثيراً.
- أكثر من العادة؟
- نعم. ربّما أكثر من العادة.
- هل أنت مسرورة؟
- نعم. أنا مسرورة!
- أتحبينني؟
- نعم. تعلم جيّداً أنّي أحبّك.

وكانت تلك عبارات سبق لي مراراً أن نطقت بها، ولكنّي لم أنطق بها قط بمثل هذا الشعور اليائس إلى أبعد حدود اليأس. وكنت أقول لنفسي وأنا ألفظها، إنّ سيسيليا ستذهب إلى بونزا، وإنّ هذا الرحيل، الذي هو رمز محسوس لعدم قابليتها للالتقاط، سيعزّز بالتأكيد حبّي وبالتالي رغبتي في أن أتحرّر منها وأنا أمتلكها. هكذا، فهي حين ستعود سيعود كلّ شيء من جديد، كما كانت قبل ذهابها، بل حتّى أسوأ من ذي قبل. وفجأة أخذتني الرغبة في ألا أكون معها بعد، بأن أبتعد عنها. وقلت بأرقّ ما أستطيع أن أتكلّم:

- لقد آن الأوان لنذهب. وإلّا فإنّ أمّي يمكن أن تجدنا هنا، وسيكون هذا مزعجاً جدًّا.

- إنّني سأرتدي ثيابي على الفور.
- لا تعجلي أكثر ممّا ينبغي. لقد قلت إنّ ذلك سيكون مزعجاً، ولكنّه لن يكون أكثر من مزعج. والحق أنّه لن يكون لهذا أيّة أهمية. كلّ ما هنالك أنّ أمّي ستحتج ولكن احتجاجها سيكون أقلّ للشيء نفسه ممّا يكون للشكل.
- ماذا يعني هذا؟
- إنّي أمّي حريصة جدًّا على ما تسمّيه الشكل. فإذا قمنا بفعل الحب في غرفتها لا في مرسمي، فإنّنا سنسيء إلى الشكل.
- الشكل؟ ما هذا؟
- لست أدري. هو على الأرجح ما يبقى حين نفكّر كثيراً في المال.
وانتهينا من ارتداء ثيابنا في صمت. ثمّ لممت الأوراق المالية المتناثرة على السرير، وعدت إلى غرفة الحمّام فكتبت بقلم رصاص على الظرف: «مسحوب ستون ألف لير. شكراً. دينو» وأعدت الظرف إلى الخزنة. وكانت سيسيليا ترتّب غطاء السرير. ثمّ سألتني:
- أين نذهب الآن؟
فهاجمني شعور غضب مفاجئ وقلت:
- لن نذهب إلى أي مكان بعد. والواقع أنّ هذا سيكون بعد الآن لامجدياً. إنّني أرافقك إلى بيتك.
وكنت أرجو تجاه هذا التغيير المفاجئ لمنهاجنا أن تظهر استياء أو أسفاً. ولكنّها على العكس أجابت في عدم اكتراث:
- كما تريد.
وألححت:
- كما أريد؟ كلا. بل كما تريدين، ما دمت أنت التي ستذهبين غداً. فعليك أن تقولي إذا كنت تريدين أن نبقى معاً حتّى منتصف الليل أم لا.

- إنّ الأمر لدي سواء.
- ولماذا هو سواء؟
- لأنّي سأراك بعد خمسة عشر يوماً.
- هل أنت متأكدة من ذلك؟
- نعم.
- حسناً. إنّني أرافقك إلى بيتك.

وخلال هذه المناقشة الصغيرة، كنّا قد خرجنا من الغرفة وهبطنا إلى الطابق الأوّل. واجتزنا الممرّ، وكان ما يزال يُسمع خلف الأبواب المغلقة ضجيج كثيف، شبيه بضجيج خليّة في إبّان انقلابها: كانت حفلة الاستقبال مستمرة، وقطعنا الممر حتّى المدخل، ثمّ خرجنا من البيت.

وحملتني رطوبة الليل الصيفية على أن أرفع عيني غريزياً نحو السماء، بينما كنت أفتح باب السيارة. إنّ العاصفة التي كانت قد ثقلت طوال النهار على المدينة، ذهبت لتنفجر في مكان آخر، وكانت السماء الآن بلا غيوم، صافية متلألئة، وكانت هنا وهناك بعض السحب الخفيفة البيضاء التي كانت تمتزج مع بياض المجرة المضيء. وفكّرت بأنّ سيسيليا ستنعم بجو جميل في رحلتها إلى بونزا، ومن جديد أحسست في قلبي بعضّة الغيرة. نعم، سأنتظر عودتها وأنا أعدّ الأيام والساعات والدقائق واللحظات، عارفاً أنّها خلال هذه الأيام والساعات والدقائق واللحظات ستضحك وتمزح وتتنزه وتركب القارب في البحر، وتقوم بفعل الحب مع لوسياني، أي أنّها ستفلت منّي. وفور عودتها لن يسعني إلّا أن أعود من جديد فأعدو خلفها، كباليستياري الذي حُكم عليّ، كما يخيّل إليّ، أن أجدّد تجربته.

ولا أظنّ أنّي تكلّمت أكثر من مرّتين أو ثلاث، وبشكل موجز جدًّا، أثناء الطريق من بيت أمّي إلى بيت سيسيليا. وقد طلبت إليها مرّة، ببلادة، أن تكتب لي، فيما كنت أدرك تماماً أنّها، هي المتكتمة

في كلماتها، ستكون ولا ريب خرساء في رسائلها، وأنّها لن تكتب لي شيئاً، حتّى ولا بطاقة بريدية مصوّرة. ووصلنا إلى شارعها، فأوقفت السيارة، فهبطت سيسيليا، فقلت لها إلى اللقاء وأنا ألامس شفتيها بقبلة خفيفة. وفيما كنت أعبر الشارع، نظرت إليها وأنا أفكّر «لنأمل أن تلتفت وهي على العتبة، لتبتسم لي وتودعني.» ولكن أملي خاب في انتظاري، فقد جازت سيسيليا العتبة واختفت دون أن تلوي.

وما كادت تختفي حتّى كنت أحسّ بأنّي لم تكن لديّ أي رغبة في العودة إلى المرسم أو الذهاب إلى مكان آخر. والمكان الوحيد الذي كان يغريني هو بيت سيسيليا، وكان يخيّل إليّ أنّني لم أنته معها بعد، كنت أرغب في الصعود إلى بيتها، فتفتح لي، وأصحبها إلى غرفتها فآخذها للمرّة الثالثة في ذلك النهار. وكنت أعلم أنّ هذا جنون، وأنّني حين آخذها لن أمتلكها أكثر ممّا أمتلكتها حتّى ذلك الحين، أي لن أمتلكها على الإطلاق، لأنّ ما كان يفوتني، ليس هو جسدها المساير إلى أبعد حدّ، بل شيء لا علاقة لها البتة بجسدها... ومع ذلك، فقد كانت هذه هي الرغبة الوحيدة التي بقيت لي.

ولا أعلم الوقت الذي قضيته في مناقشة هذه المشكلة، وأنا جالس في سيارتي، في الشارع الفارغ، قبالة الباب الخارجي لمنزل سيسيليا. وانتهيت إلى أن أقول لنفسي إنّ سيسيليا كانت قد ألحّت حقًّا أن نبقى معاً حتّى منتصف الليل. فلن يكون أمراً غريباً إذن أن أتلفن لها، وأنا آسف على أنّي تركتها سريعاً، فأعرض عليها أن أصطحبها لتناول العشاء في مكان ما. وكنت أعرف أنّ سيسيليا كانت على صبر يكاد لا يُحدّ، وحين كانت ترفض، فإنّ ذلك لا يكون أبداً لأنّها لم تكن لديها الرغبة، وإنّما لأنّها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً آخر.

وعزمت فجأة، فتراجعت بالسيارة حتّى زاوية الشارع، وهبطت ثمّ دخلت الحانة.

ولكن التلفون كان مشغولاً بفتاة لا يوحي ظاهرها بأنّها ستنتهي منه بسرعة: إنّها فتاة ذات مظهر متواضع، ربّما كانت فرّاشة، وكانت تتكلم وتجيب بصوت منخفض جدًّا، وتصمت صمت من يتحدّث حديثاً عاطفياً. فلم أتردّد لحظة، وتوجّهت بتصميم نحو بيتِ سيسيليا. لماذا أتلفن لها؟ لم يكن لي إلّا أن أصعد إلى بيتها، حيث أجدها فأدفعها إلى غرفتها.

ورقيت الدرج قفزاً، فشددت على الجرس، وظللت ألهث على السطيحة، في انتظار أن يفتح الباب لأدلف إلى البيت. ولكن لم تكن سيسيليا هي التي أقبلت تفتح لي، بل أمّها، وسرعان ما لاحظت بعض الاضطراب على وجهها المتعب المزيّن. وسألتها:

- أين سيسيليا؟

فأجابت بلهجة آسفة:

- سيسيليا ليست هنا، يا برفسور.

- كيف؟ ليست هنا؟

- لقد خرجت منذ دقيقتين على الأكثر.

- ولكن إلى أين ذهبت؟

- لقد ذهبت تتناول العشاء خارجاً.

- ومتى تعود؟

- إنّها لن تعود، يا بروفسور، فقد أخذت حقيبتها، وهي مسافرةٌ إلى بونزا مع إحدى صديقاتها. وسوف تنام الليلة في بيت صديقتها، وستعود بعد خمسة عشر يوماً.

وهكذا بينما كنت أناقش موضوع إذا ما كان مناسباً أن أتلفن لها، هرعت إلى البيت، فأخذت حقيبتها التي كانت جاهزة، وخرجت من الباب المفضي إلى الشارع الآخر، وذهبت للقاء لوسياني. ورفعت عيني إلى أمّها، فرأيتها تعضّ على منديلها وعيناها تترقرقان بالدمع، فلم أتمالك أن أسألها:

- ماذا حدث؟

- لقد ذهبت سيسيليا بينما أبوها يموت. إنّها تتركني وحيدة في هذا البيت الفارغ. فلقد نُقِل زوجي أمس إلى المستشفى، وحالياً ليس من أمل بعد.

- ليس من أمل بعد؟

- إنّ الأطباء يقدّرون له يومين أو ثلاثة على الأكثر.

- ولكن ألا تحبّ سيسيليا أباها؟

- آه! إنّ سيسيليا لا تحبّ أحداً يا بروفسور.

ولا أدري لماذا تذكّرت فجأة الطريقة التي جاءت بها سيسيليا تبحث عنّي يوم موت باليستياري بالذات. وقلت بغتة:

- إنّني آسف... آسف بصدق...

وبعد أن استمعت لحظة، وأنا مغلق الوجه، نافد الصبر، إلى نحيب هذه المرأة، مضيت في سبيلي.

وفيما كنت عائداً إلى سيارتي، لاحظت أنّي لم أكن أستطيع احتمال التفكير بأنّ سيسيليا كانت في تلك اللحظة، في بيت الممثل. وكانت تلك هي الاستحالة المألوفة بفعل شيء، إلّا الذي كنت موقناً أنّ عليّ ألا أفعله، ولكنّها استحالة قد تعزّزت بزوال الوهم فأصبحتْ أشد امتناعاً. وصعدت إلى سيارتي، فلاحظت بسرعة أنّي كنت آخذ وجهة شارع أرخميدس، حيث كان يقوم بيت لوسياني. وأقول «لاحظت» لأنّي كنت أتصرف بطريقة آلية، هذه الآلية المختصة بالغضب. وحين بلغت شارع أرخميدس، هبطت بأقصى السرعة الشارع الضيق المتعرج حتّى الحانة، وتوقّفت أنظر إلى نوافذ لوسياني، فلم تكن مضاءة، وأيقنت على الفور أنّ العاشقين كانا غائبين. ومع ذلك، فقد ترجّلت وتوجّهت إلى الطابق الأوّل أدقّ باب الممثل. ولا أدري ما حدث في رأسي بينما كنت أستمع إلى الجرس

يرنّ طويلاً في الشقة الخالية، وكلّ ما أدريه، أنّي بعد دقيقتين كنت في الحانة أطلب رقم تلفون قوّادة كنت قد توجّهت إليها أحياناً في الماضي طلباً لفتيات. وقالت لي المرأة، على الطرف الآخر من الخط، إنّ لديها فتاة يمكن أن تكون تحت تصرّفي في بيتها المعتاد، شارع كاسيا.

وحين صعدت السيّارة، فكّرت بأنّ الفتاة التي كنت ذاهباً للقائها كانت عكس سيسيليا تماماً: فسوف تكون تحت تصرّفي الكامل لقاء مبلغ من المال، وبوسعي أن أمتلكها كلياً، من غير أدنى هامش من الاستقلال والسرّ، وذلك إنّما يتم بفضل المال بالذات. وهكذا، فإن ما رُفض لي في مقصورة جادة آبيا، بالرغم من عرض للزواج يرافقه نصف مليون لير، كان بوسعي أن أحصل عليه الآن، بنفقات قليلة، في بيت مواعيد يقع بشارع كاسيا. ولكن تلك الفتاة لم تكن سيسيليا، فلماذا إذن أقصدها؟

وأمام هذا السؤال لاحظت في ذهول أنّ مصدر مخابرتي التلفونية للقوّادة إنّما كان أملاً لا يصدّق. كنت في غضبي أؤمّل، كنت أؤمّل حقًّا أن أجد في بيت شارع كاسيا سيسيليا نفسها، وهي تنتظرني، مستعدة لأن تستسلم وأن تدعني أخيراً أمتلكها. ولم أكن أدري حقًّا من أين كان يأتيني هذا الأمل، ربّما كان يأتي جزئياً، من كلمات القوّادات الخادعة اللواتي يَعِدْنك دائماً، وعداً رائعاً عجيباً، بما لا يستطعن قطّ أن يحصلن عليه، أي الحب، ويأتيني جزئياً أيضاً من أنّ الوسائل العقلانية لامتلاك سيسيليا قد تبدّت لامجدية، ولذلك فلم يكن لي من أملٍ بعدُ إلّا في معجزة.

وكنت غارقاً في هذه الأفكار، أو في هذه الحالة النفسية الغاضبة، شبه الصوفية، حين خرجت من المدينة وأخذت أسير على الطريق المؤدّي إلى شارع كاسيا. كان البيت من صميم الضاحية،

وبعد عشرين دقيقة وجدتني أمام الحاجز الريفي، وكان مفتوحاً على سعته. وفي الجهة الأخرى من الحاجز كان درب رملي رديء يصعد حتّى قمة تلّة يقوم عليها بناء أبيض. واجتزت الحاجز وصعدت الدرب بين أشجار صغيرة هزيلة تبدو وكأنّها مزروعة حديثاً. وأتيح لي أن أرى، وأنا منحنٍ على مقودي، أنّ نوافذ البيت كانت كلّها مظلمة، ثمّ أضيئت إحداها. وانتهت السيارة إلى الساحة التي يغطّيها الحصى فتوقّفت وترجّلت.

وكان البيت ذا بناء بسيط جدًّا: طابقان لكلّ منهما ثلاث نوافذ، وسلّم خارجي ذو طراز جبلي، كان يفضي إلى الطابق الثاني الذي كانت نوافذه تطل على نوع من الرواق، فبدا طيفٌ صغيرٌ أسود تحت ضوء الفانوس الشاحب، طيف فتاة ذات شعر كثيف، وصدرٍ بارز، وقامة دقيقة، فأيقنت أنّها كانت سيسيليا.

وفكّرت: «إنّها هي!» وقذفت بنفسي إلى السلّم بينما كان الطيف الصغير المرتفق الدربزين ينظر إليّ قادماً بهدوء. وحين بلغت أعلى السلّم، انتصبتْ وأقبلت للقائي وهي تقول:

- مساء الخير.

وإذ كانت في عكس النور، لم أستطع أن أميّز وجهها، ولكنّ صوتها بدا لي وكأنّه صوت سيسيليا، فأخذتها بين ذراعي. ورأيت إذ ذاك وجهاً لطيفاً ممتلئاً لفتاةٍ صبيّة جدًّا يغطّيه مسحوق الرز الأبيض، الذي كان شائعاً آنذاك، ورأيت شفتين مصبوغتين باللون البنفسجي، وعينين يحيط بهما السواد وشعراً في لون شقرة القش. وكان لها نهدان مشرئبّان كنهدي سيسيليا، وكانت قامتها التي تشدّها ذراعاي دقيقةً كقامة سيسيليا. ولكنّها لم تكن سيسيليا.

ومع ذلك، فقد قلت، مأخوذاً بالذهول: - سيسيليا!

فابتسمت الفتاة وأجابت:

- ليس اسمي سيسيليا، بل جيانا.

- ولكنّي أنا، كنت أريد سيسيليا...

- لا أدري من هي سيسيليا، وليس هنا مَنْ اسمها سيسيليا... أتريد أن تدخل؟

فقلت:

- سيسيليا... لقد جئت من أجل سيسيليا.

وتخلّصت من الفتاة بانتفاضة، وهبطت الدرج وأنا أعدو، فعبرت الساحة وعدت أصعد إلى سيارتي. وبعد دقيقة، كنت أسير على طريق كاسيا، ولكن مولياً ظهري إلى روما، باتجاه الريف.

وكنت قد لاحظت، منذ حين من الزمن، أنّي كنت أشعر غالباً وأنا أقود سيارتي بما يغريني بأن أترك الطريق وأرتمي بكلّ سرعة على أوّل عقبة تنتصب أمامي. وكان هذا إغراءً لا سبيل إلى مقاومته، إغراءً جذاباً، وفي الوقت نفسه مطمئناً، شبيهاً بما يحسّ به الطفل حين يلعب بمسدس أبيه، فيوجّهه بين الفينة والفينة إلى صدغه. ومع ذلك، فلم أكن أفكّر بأن أنتحر، بل إنّ فكرة الانتحار لم تكن قد خطرت قط على بالي. ورغبة الموت هذه كانت على العكس في جسدي المرهق بالضيق والقلق، وكنت قد شعرت مرّات كثيرة بأنّ ذراعي ستعطي المقود بسهولة نصف الدورة تلك التي تكفي لأن تمضي سيارتي فتنسحق بجدار سياج أو شجرة دلب مطلية بالأبيض. وكما قلت، كان الإغراء لا يُقاوم، وكان رقيقاً ومطمئناً؛ وكان يذكّرني بإغراء النوم الذي يغلبنا أحياناً بالرغم منّا، فيما هو يجعلنا نحلم بأنّنا نقاومه ونبقى مستيقظين، بينما نكون في الواقع قد استسلمنا فعلاً للنوم: وهكذا كنت أعرف مقدماً أنّني إذا قُتلت بحادث سيارة، فإنّني أكون قد فعلت ذلك من غير أن أشعر، ومن غير أن أريد كما لو أنّني كنت أسلك حقًّا طريقاً خيالية، غير أنّي كنت أسير عليها، طريقاً لم تكن تحسب حساباً

للجدران ولا للأشجار ولا للبيوت، وكان الموت ينتظرني فيها.

وحدث في ذلك المساء، بينما كنت أقود سيارتي على طريق «كاسيا» متجهاً بلا هدف إلى الريف، أنْ عاودت ذهني عبارة كنت قد سمعتها لا أدري متى ولا أين: «إنّ البشرية تنقسم إلى فئتين: أولئك الذي يشعرون، تجاه صعوبة لا تقهر، بالرغبة في القتل، وأولئك الذين يشعرون على العكس، بالرغبة في قتل أنفسهم». وقلت في نفسي إنّي قمت بتجربة إحدى النظريتين، وإنّ الامتحان قد أخفق: فإنّني لم أكن قادراً على قتل سيسيليا، قبل ذلك بساعات، فوق سرير. فلم يكن باقياً لي إذن الآن إلّا أن أقتل نفسي. وفكّرت بأنّني إذا أقتل نفسي، فإنّما أتصرّف تماماً كما يتصرّف أي عاشق، منذ أن كان العالم عالماً: لقد ذهبت سيسيليا إلى بونزا مع لوسياني، وكنت أنا أقتل نفسي. ولكن هذا التفكير بتفاهة وضعي الذي هو طبيعي تماماً، أوحى لي غضباً مدمراً أقوى من أي وقت آخر.

وفي تلك اللحظة كان ينبسط أمامي صف مستقيم تكتنف جانبيه الأشجار، وكانت شاحنة تتقدّمني، وهي تسير ببطء. وغيّرت السرعة لأتجاوزها، وربّما كان تغيير السرعة هذا، مع البطء التالي، هما اللذان أنقذا حياتي. لأنّي بعد أن غيّرت السرعة مباشرة، خيّل إليّ أنّ طريقاً أخرى إلى يساري تنفتح أمامي، وأردت أن أسلكها، فوجّهت سيارتي نحو شجرة دُلب.

خاتمة

في المستشفى الذي نُقلت إليه بعد الحادث، كانت تنتصب قبالة نافذة غرفتي المطلّة على الحديقة، شجرة كبيرة، أرزة من أرز لبنان، ذات غصون طويلة باكية، وخضرة تكاد تكون زرقاء. وقد أخذت أنظر إليها ساعات طويلة، وأنا متمدّد على ظهري في سريري، ورأسي مائل إلى الوسادة. كنت أنظر إليها طوال الساعات التي لم أكن أكرّسها للنوم أو للطعام، لأنّي كنت وحدي دائماً تقريباً، بعد أن أعلمتُ أمّي وأصدقائي النادرين أنّي لم أكن راغباً في تقبّل الزيارات. كنت أنظر إلى الشجرة فأحسّ شعوراً من يأس كلّي، ولكنّه هادئ وقد ترسّخ واستقرّ، كذلك الشعور الذي يمكن أن نُحسّ به بعد أن نكون قد اجتزنا أزمة إذا لم تكن قد حملت أيّ حلّ، فهي تجعلنا نفترض أنّها قدّمت أقصى ما يمكن أن تتحمّله.

إنّ ما أسمّيه انتحاري، وأنا أسمّيه كذلك لأنّي لا أجد وصفاً أكثر انطباقاً، لم يحلّ شيئاً قطّ، ولكنّ كوني قد حاولته على الأقل يجعلني أفكّر بأنّي كنت قد قمت بكلّ ما كان في استطاعتي: وما كنت لأستطيع أن أفعل أكثر من ذلك. وبعبارات أخرى، فإنّ كوني قد حاولت أن أنتحر كان يؤكد خطورة التزامي أنّني لم أمت، ولكنّي دلّلت لنفسي على الأقل أنّني، بدل أن أستمرّ في العيش كما عشت حتّى ذلك الحين، إنّما فضّلت الموت، وفضّلته حقًّا. وهذا كلّه لم يكن يخفّف شعور اليأس الذي كان يملأ روحي، ولكنّه كان يضفي عليها نوعاً من الصفاء الحزين المتطامن. كنت قد مضيت حتّى تخوم الموت المظلمة، وقد عُدت منها، وبعد الآن، لم يكن باقياً لي إلّا أن

أعيش، بالرغم من انعدام الأمل.

وكما سبق أن ذكرت، كنت أقضي ساعات وأنا أنظر إلى الشجرة، ممّا كان يثير دهشة الراهبات والممرضات اللواتي كنّ يقلن إنّهنّ لم يرين مريضاً في مثل هدوئي، وسكوني. والواقع أنّي لم أكن هادئاً، وإنّما كنت منشغلاً جدًّا بالأمر الوحيد الذي كان له في نظري أهمية، آنذاك: تأمّل الشجرة. لم أكن أفكّر في شيء، وإنّما كنت أتساءل متّى وكيف تعرّفت من جديد إلى واقع هذه الشجرة، أي اعترفت بوجودها على أنّها حاجة مختلفة عنّي، لا علاقة لها بي، وهي مع ذلك موجودة، ولا يمكن أن تُجهل. وبالطبع، كان شيءٌ ما قد حدث حين انقذفتُ بالسيارة خارج الطريق، شيء إذا لم نستطيع أن نشرحه، فيمكن أن نعرّفه بأنّه يشبه انهيار مطمع غير معقول. أمّا الآن، فقد كنت أتأمّل الشجرة في انبساط لا ينفد، كما لو أنّ الإحساس بأنّها مختلفة ومستقلة عن شخصي كان يعود عليّ بأكبر لذّة ممكنة. ولكنّي كنت أدرك أن المصادفة وحدها أرادت بعد أن نُقلتُ إلى المستشفى أن يجبرني الجص الذي كان يقسرني على التمدّد بلا حراك، أن أنظر إلى الشجرة عبر زجاج النافذة. وقد كنت أعلم أنّ أيّة حاجة أخرى كانت ستصيب من تأمّلي الشعور نفسه من الانبساط الذي لا ينفد.

وفي الواقع، ما إن بدأت أفكّر من جديد بسيسيليا، حتّى لاحظت أنّ ذلك في نظري كان شبيهاً بأن أنظر إلى الشجرة من النافذة. وكانت عشرة أيام قد انقضت على الحادثة، وكانت سيسيليا ما تزال بالتأكيد في بونزا مع لوسياني، وإذن، فقد عدت إلى التفكير بها، أوّلاً بصورة نادرة وحذرة، وبعد ذلك كثيراً وبثقة أوفر. وأدركت إذ ذاك أنّي كنت أتمثّل بسهولة، كما لو أنّي كنت حاضراً، كلّ ما كانت تفعله بينما كنت أنا متمدداً في سرير بالمستشفى. وكلمة «أتصوّر» لا تفي بالمرام، إنّما كنت أراها. كنت أرى، كما من خلال منظار، طيفي

سيسليا والممثل الصغيرين البعيدين يتحرّكان ويركضان ويتعانقان ويتنزهان ويتمدّد أحدهما بجانب الآخر، ويختفيان ثمّ يظهران في مئة وضع، على قماشة خلفية البحر الأزرق والسماء المشرقة الصافية. وكنت أعرف بالتجربة أيّة سعادة يمكن أن تكون بأن تجد نفسك مع الشخص الذي تحبّه ويحبّك، في مكان جميل هادئ، وكنت متأكداً أنّ سيسيليا على صعيدها بالذات، ذلك الصعيد الضيّق اللامعبّر، كانت سعيدة، وكنت أدهش إذ أشعر بأنّ ذلك كان يعود عليّ بالسرور. أجل كنت مسروراً أن تكون سعيدة، ولكنّي كنت مسروراً خاصّة أن توجد هناك، في جزيرة بونزا، بطريقة كانت طريقتها، المختلفة عن طريقتي والمناقضة لها، بعيداً عنّي، ومع رجل لم يكن أنا.

أمّا أنا، فقد كنت في المستشفى، وهذا ما كنت أردّده بين الفينة والفينة، وكانت هي في بونزا مع الممثل، كنّا اثنين، ولم يكن لي شأن معها، كما لم يكن لها شأن معي، وقد كانت خارجاً عنّي، كما كنت خارجاً عنها. وبالإجمال، لم أكن أشتهي بعدُ أن أمتلكها، وإنّما أن أنظر إليها تعيش، كما كانت، وأن أتأمّلها، على النحو الذي كنت أتأمّل به الشجرة عبر زجاج النافذة. وما كان لهذا التأمّل أن تكون له نهاية، لأنّي لم أكن أرغب أن تنتهي، أقصد إلى القول إنّي كنت أرغب أن تسئمني الشجرة أو سيسيليا أو أي شيء آخر، خارجاً عنّي، وبالتالي أن تكفّ عن أن توجد بالنسبة لي. والواقع أنّي تحقّقت فجأة، في شعور من عدم التصديق، أنّني كنت نهائياً قد تخلّيت عن سيسيليا، والغريب أنّ سيسيليا إنّما بدأت توجد بالنسبة لي ابتداءً من هذا التخلي.

وتساءلت عمّا إذا كنت، بعد أن تخلّيت عن سيسيليا، قد كففت في الوقت نفسه عن حبّها، وعن أن أحسّ لها هذا الشعور الوهمي دائماً والخائب دائماً الذي كنت أحسّه لها حتّى ذلك الحين والذي كان لا بدّ من أن أدعوه الحب، لانعدام صفاتٍ أدقّ منه. فلاحظت أنّ

هذا النوع من الحب، كان قد مات؛ ومع ذلك فقد كنت أحبّها بالمقدار نفسه، وإنّما بنوع من الحب جديد ومختلف. وقد كان يمكن لهذا الحب أن يرافقه العمل الجنسي أو لا يرافقه، ولكنّه لم يكن متوقفاً عليه، ولم يكن على نحوٍ ما بحاجة إليه. وحين تعود سيسيليا سنستأنف علاقاتنا السابقة، أو لا نستأنفها، ولكنّني في مطلق الأحوال لن أكفّ عن حبّها.

ويجب أن أعترف، وقد بلغت هذه النقطة، بأنّ أفكاري كان تختلط وتعتكر. وقد كنت أذكر أنّني منذ البدء، خيّل إليّ أنّ علاقاتي مع سيسيليا لم تكن تختلف في شيء عن علاقتي بالحقيقة الواقعة. أقصد إلى القول إنّي كنت قد كففت عن الرسم للأسباب نفسها التي دفعتني إلى الانتحار. ولكن ما عساي أفعل الآن؟ إنّني أقول لنفسي في آخر المطاف إنّ عليّ الآن أن أبقى في سريري أكثر من شهر وإنّه لم يئن الأوان لأقرّر أيّ شيء بعد. فحين أشفى، سأرجع إلى المرسم، وسأحاول أن أعود إلى الرسم. أقول «سأحاول»، لأنّني لم أكن قد أيقنت بأنّ هذه الصلة التي رأيتها طويلاً بين سيسيليا ورسمي موجودة في الواقع، وبأنّ حبّ سيسيليا بطريقة مختلفة يعني قدرتي على أن أستأنف الرسم. وعلى هذه النقطة أيضاً، سيكون بوسع التجربة وحدها أن تعطيني جواباً.

وهكذا فإنّ النتيجة الوحيدة الأكيدة حقًّا هي أنّي كنت قد تعلّمت على أن أحبّ سيسيليا، أو بالأصح أنّي أحببتها، دون ما زيادة. والواقع أنّي كنت أؤمّل أن أكون قد تعلّمت. لأنّ الشكّ، حتّى بما كان يخصّ هذا المظهر من حياتي، لم يكون أمراً مستبعداً. وكان عليّ أن أنتظر، لأكون متيقناً كلّ اليقين، أن تعود سيسيليا من رحلتها إلى شاطئ البحر.

انتهت

هذا الكتاب

أذكر جيّداً كيف انقطعتُ عن الرسم. فذات مساء، بعد أن ظللت ثماني ساعات متتالية في مرسمي، أعمل بين وقت وآخر مدّة خمس دقائق أو عشر، ثمّ أرتمي على أريكتي وأبقى متمدّداً عليها وعيناي محدّدتان في السقف، طوال ساعة أو ساعتين، رأيتني فجأة، كما لو أنّ ذلك يحدث بوحي أصبح أخيراً حقيقياً بعد تلك الجهود الكثيرة اللامجدية - رأيتني أسحق سيكارتي الأخيرة في المنفضة الممتلئة بالأعقاب المطفأة، وفأقوم بقفزة شبيهة بقفزة الهر خارج أريكتي التي كنت أظلّ غارقاً فيها، وأتناول مديةً كنت أستعملها أحياناً لأحكّ بها لوح ألواني، فأمزّق بضربات مكرّرة اللوحة التي كنت أرسمها، ولم تهدأ نفسي وتسرّ إلّا حين أحلتها إلى مِزَق.

ISBN 978-9933353605
9 789933 353605